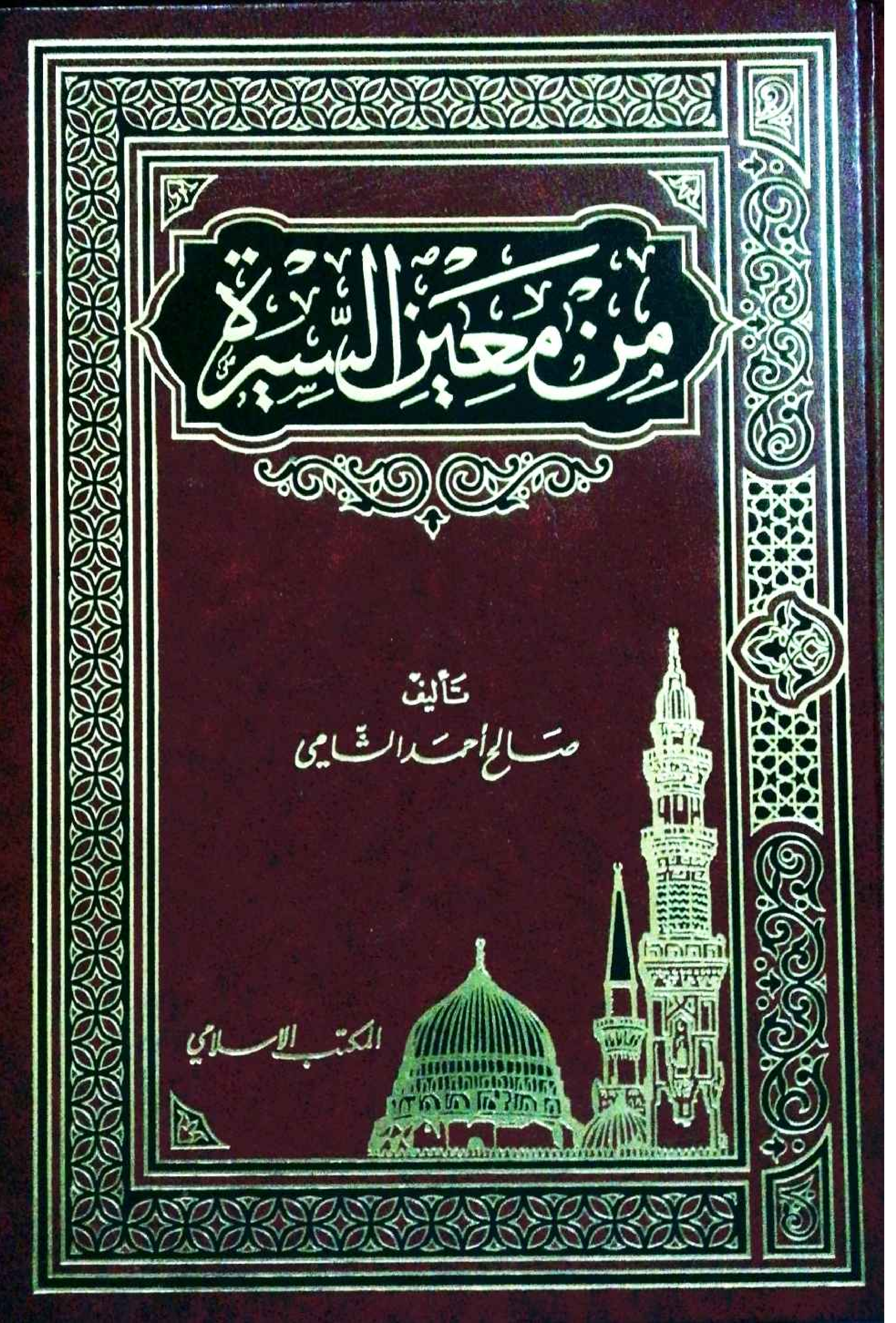

من معين السيرة
تأليف
صالح أحمد الشامي
المكتب الإسلامي


من معين السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مجموعة السيرة النبوية للمؤلف

تضم الكتب التالية:

١- من معين السيرة

٢- من معين الشمائل

٣- من معين الخصائص النبوية

٤- السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة

٥- سيرة النبي ﷺ في بيته

المكتب الإسلامي



تأليف

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة

١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ٣٧٧١/١١ ـ هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، خاتم النبيين وإمام المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالمعين، هو الماء الجاري الذي لا ينضب.

ومعين السيرة العطرة كذلك..

فمن هذا المعين، كان الكتاب الأول من هذه الدراسة «من معين السيرة» والذي تناول جهاد النبي ﷺ والأحداث والوقائع التي جرت إبان حياته ﷺ حسب تسلسلها الزمني.

ومن هذا المعين كان الكتاب الثاني «من معين الشمائل» والذي تحدث عن شمائله ﷺ وأخلاقه وآدابه.

ومن هذا المعين كان الكتاب الثالث «من معين الخصائص النبوية» وفيه بيان لجانب من مكانته ﷺ عند الله تعالى، بدلالة ما اختصه به تعالى من أمور.

وإني إذ أقدم للطبعة الثالثة للكتاب الأول «من معين السيرة» بعد مراجعته وإضافة بعض الشروح والتعليقات، فإني أحمد الله تعالى أنْ وفق ويَسَّر لإنجاز هذا العمل، فله الحمد والشكر على ما أنعم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١ محرم ١٤٢٢هـ

٢٦ آذار ٢٠٠١م

صالح أحمد الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد**:

في تاريخ كل أمة عظماء، تدرس حياتهم أو جوانب العظمة فيها، على اعتبارها تراثاً للأمة، وفخراً لها، و حافزاً يدفع أجيالها للتقدم والرقي، ومن هؤلاء تتكون المراكز المشعة في حياة الأمم.

وفي تاريخ الإنسانية عظماء، كانت عظمتهم مستمدة من وحي الله تعالى لهم، فكان تاريخهم ملكاً للإنسانية كلها، لأنهم مصادر الإشعاع فيها على امتداد أيامها، لا في تاريخ أمة معينة أو تاريخ قومية ما. فكان من تعاليمهم تحرير «الإنسان» من كل العبوديات سوى عبوديته لله تعالى، وكان منها تنمية خصال الخير فيه كلها، ومكافحة ميول الشر والهوى.

وعلى رأس هؤلاء وأولئك، صاحب هذه السيرة، سيدنا محمد ﷺ الذي اختاره الله تعالى ليكون إمام الأنبياء وخاتمهم، وليكون نموذجاً للإنسان، عبداً لله، وقد تمت فيه معاني الإنسانية وصفات الكمال فكان بحق، سيد ولد آدم، إليه ترجع المكارم فهو ميزانها القسط، وإليه تنتهي الأخلاق فهو تمامها.

وقد بقيت سِيَرُ الفريق الأول محدودة، كل عظيم ضمن أمته، كما لم ينقل منها إلا جانبها المشرق الذي ظهر فيه نبوغه، وبقيت الجوانب الأخرى في ظلام دامس، إما لأنها لا تستحق أن ترى النور لشذوذها أو انحرافها، فليست مما يشرّف، وإما لضحالتها.. فلا تستحق الذكر.

وأما الفريق الثاني ـ فريق الأنبياء والمرسلين ـ فقد ضاع القسم الأكبر من معالم سيرهم، وإذا استثنينا ما سجله القرآن لهم، فخلدهم به، فإنه لم يبق بين الأيدي، مما تصح نسبته إليهم، إلا النزر اليسير، الذي لا يعطي الصورة الواضحة ـ فضلاً عن الكاملة ـ لحياتهم، هذا مع غض النظر عما نسب إلى بعضهم، مما لا ينبغي ذكره، إذ نزههم الله عنه.

وإذا كان هذا وضع سير الأفذاذ كلهم، فإن سيرة واحدة، نقلت لنا كاملة، معلومة كلها، في جزئياتها وكلياتها، في جانبها العام ـ مما له صلة بالناس ـ وفي جانبها الخاص ـ مما ليس له صلة بعالم الناس ـ مما يخص المرء في سلوكه في بيته وخاصة نفسه ومع أفراد أسرته... تلك هي سيرة رسولنا الكريم.

ولا تمتلك الإنسانية اليوم سيرة كاملة شاملة ـ بهذا المعنى ـ سلطت الأضواء عليها من كل مكان فكانت مثالية ـ مثالية الواقع لا مثالية الخيال ـ لغيره ﷺ، ولذا فهي تراث للإنسانية كلها، يرجع إليها المسلم تديناً وتأسياً وحباً، ويقرؤها غير المسلم، ممن حكموا عقولهم... ليرى نفسه أمام العظمة وقد جمعت من أطرافها، والذين أنصفوا من هؤلاء، فبرهنوا بذلك على رجاحة عقولهم، عرفوا لهذا الرسول الكريم حقه، فكانت أقوالهم فيه بياناً لبعض الحقيقة التي أتيح لهم إدراكها، ولا غرابة أن يبدأ صاحب «المئة الأوائل» كتابه بالرسول الكريم محمد ﷺ على أنه الرجل الأول في تاريخ الإنسانية كلها[1].

---

(١) هو الدكتور الأمريكي «مايكل هارت» الذي حصل على اختصاصات عدة، في الفلك والعلوم والقانون والرياضيات. وكانت هوايته دراسة التاريخ، فألف كتابه هذا وجمع فيه ـ حسب رأيه ـ مائة من أشهر الرجال الذين كان لهم الأثر الكبير في تاريخ الإنسانية... وبغض النظر عن «موضوعية الكتاب وجدواه..!!» فإن اختياره الرجل الأول هو ما يلفت النظر ـ من رجل لا يدين بالإسلام ـ وقد قال في هذا الصدد: إن اختياري «محمداً» ليكون الأول في=

والمسلم الذي آمن بمحمد ﷺ رسولاً، ليس بحاجة إلى شهادة أحد بعد شهادة الله تعالى له بالرسالة وعظمة الأخلاق.. ولكنه ـ مع إيمانه ذاك ـ مطالب بأن يكون على صلة مستمرة بالسيرة العطرة لأسباب عدة:

١ ـ إن التعرف على الجهد الذي بذله الرسول ﷺ في سبيل إيصال الرسالة إلى الناس يجعلنا أكثر تقديراً لحقه علينا، فيكون حبنا له عن علم ووعي لا مجرد عاطفة نشأت في جو من التقليد، كما يجعلنا أكثر استمساكاً بهذه الرسالة وأكثر حرصاً على تنفيذ تعاليمها.

٢ ـ إن الله تعالى جعل رسوله ﷺ أسوة حسنة وألزم كل مسلم أن يسير على هديه، وأن يحذو حذوه، والسيرة تؤمن لنا التعرف على ذلك من حياته ﷺ، فهي السجل الحي الذي ينقل لنا الكلمة، والحركة، والموقف من القضايا، والسلوك المتخذ إزاء الحوادث... فنكون على صلة بتصرفاته في تطبيقاتها العملية، لا أمام مجرد أوامر وتعليمات لم تلامس واقع الناس، ولم تتعرض لحرارة الاحتكاك به. الأمر الذي يساعدنا على انتهاج مسلك الرشد وسلوك السبيل السوي الذي به النجاة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[1].

٣ ـ سجل القرآن الكريم الكثير من حوادث السيرة، كما أشار إلى بعضها الآخر، فكانت السيرة تفسيراً لجزء غير قليل من هذا الكتاب الكريم، وكانت بياناً لمناسبة الآية أو إيضاحاً لها من خلال معرفة سبب نزولها، وبهذا تبدو أهمية السيرة وارتباطها الوثيق بكتاب الله تعالى.

٤ ـ والسيرة هي تاريخ عهد النبوة والرسالة، الذي كان إزاحة

= قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القراء [في مجتمعه] ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي...

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

للجاهلية وإزالة لمعالمها، وفيه البيان لكيفية مقاومتها في العصور كلها، إذ هي هي في الماضي والحاضر، قد يتغيَّر المظهر والشكل ولكن المضمون واحد، ولهذا كان في السيرة العلاج لأدواء المجتمعات، إذ هي الاستقامة مقابل كل التواء، والصحة مقابل كل الأمراض، وقد كان فيها دائماً ما يتناسب مع كل عصر علاجاً وتقويماً وهداية.

وفي عصرنا هذا، حيث فشت المذاهب المادية، وراجت سوقها، فسيطر «منطق المادة» على عقول الناس وحواسّهم، فأضحى لغة الكبير والصغير، والجاهل والمثقف.. ولم تعد السعادة تفهم إلا من خلالها، وباتت اللغة السائدة هي لغة الأرقام...

وتباينت هذه المذاهب وتباعدت، فهي تعمل على غير هدى، وتخبط خبط عشواء، ومع ذلك فقد احتلت الساحة الاجتماعية من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، من الشيوعية التي لا تقيم للفرد وزناً، إذ الجماعة هي كل شيء، إلى الوجودية التي غالت في قيمة الفرد وأهميته، فكان نشوؤها ـ في الأصل ـ رداً على ما أصاب الفرد من ضياعٍ وهدرٍ لكرامته... وتاه الناس في هذه الضلالات، وإزاء هذا الضياعَ الذي أصاب الكثير من المسلمين ـ الذين هم بمكان التبعية اليوم ـ كما أصاب غيرهم، كان لا بد من الرجوع إلى السيرة التي خرجت بالناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية لتأخذ دورها مرة أخرى.

٥ ـ ومن خلال السيرة نتعرف على جيل الصحابة، ذلك الجيل الفريد، الذي تربى على يدي الرسول ﷺ، وصنع على عين الله تعالى، فكان صدى للقرآن، كما كان الوسيلة التي بها وضّحت آياته، فكان التطبيق العملي لحكم الله أمراً ونهياً.

وإذا كان هذا يعني رفعة تلك النفوس، التي يصفها ﷺ بالخيريّة فيقول: (خير الناس قرني...)[1] فإنه كذلك البرهان القاطع على عظمة

---

(١) متفق عليه (خ٢٦٥٢، م٢٥٣٣).

هذا الرسول الكريم في إيجاد تلك القمم السامقة من النفوس البشرية، والانتقال بها تلك النقلة البعيدة، التي لا يستطيع تقديرها حق قدرها إلا كل من درس الجاهلية بإمعان ثم درس الإسلام كذلك. . . .

لم تكن نقلة في جانب واحد من جوانب الحياة، ولكنها كانت في كل الجوانب شاملة الجزئيات والكليات، بدءاً من العقيدة وانتهاء بإماطة الأذى عن الطريق، ومروراً بالجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية. . . فكان ﷺ المجلي في تلك المجالات كلها، تقريراً للقواعد وتربية للنفوس، ووقف المختصون تلامذة صغاراً ـ كل في مجال اختصاصه ـ يتلقى ما نقلته السيرة تعليماً واقتباساً.

تلك بعض ثمرات دراسة السيرة[١]، مما يدل على أهميتها في بناء الفرد المسلم والأمة المسلمة، وقد تنبه العلماء المسلمون لذلك، في وقت مبكر من تاريخ هذه الأمة، فكتب بها الكثير الكثير، ممن لا يكاد يحصى، إيماناً منهم بضرورة صلة الأجيال المسلمة بها. وقد قال زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن. وقال الزهري رحمه الله: في علم المغازي علم الدنيا والآخرة[٢].

ولا شك أن ما صح من نصوص السيرة، هو واحد أو متقارب، ولكن كل كاتب يتناول النص من الجانب الذي يرى أن الحاجة ملحَّة في بيانه، كما أن كثرة هذه النصوص تتيح له أن يتناول من الوقائع ما هو أولى بالبحث من غيره، حسب الغرض الذي يريد التذكير به أو التنبيه عليه، ومن هذا المعين الثّر الصافي دُوِّنت كتب السيرة في الماضي، وما تزال يكتب فيها أو حولها.

---

(١) وانظر ـ إن شئت ـ بحث «لماذا ندرس السيرة» في كتاب «أضواء على دراسة السيرة» للمؤلف، طبعه المكتب الإسلامي.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٢٤٢.

وقد بذلت جهدي في كتابة أحداث السيرة، متتبعاً في ذلك تاريخها الزمني، وما ليس له زمن محدد، وضعته في المكان المناسب له، محاولاً إعطاء صورة قريبة لتتابع الحوادث في حياته ﷺ، مبيّناً خلال ذلك الجوَّ العام الذي يحيط به، متوقفاً بعض الأحيان لإلقاء الضوء على نقطة ما، أو لفت النظر إليها.

وإني إذ أعترف بالعجز والتقصير، فإن هذا لا يمنع أن يقدم المقلّ جهده، فما كان من صواب فهو بتوفيق الله وفضله، وما كان من خطأ فالمرجو ممن يطلع عليه أن يرشدني إليه، شاكراً له نصحه، والله المسؤول أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رمضان المبارك ١٤٠٣

حزيران ١٩٨٣

وكتبه

صالح أحمد الشامي

زمن البعثة

ولد رسول الله ﷺ في مكة، في الثلث الأخير من القرن السادس الميلادي، ومكة يومئذ هي القلب من جزيرة العرب، كما أنها المركز الديني للعرب قاطبة، ففيها الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إليها يحجون، وبها يطوفون.

والكعبة إنما بنيت لتكون مركزاً لعبادة الله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾[١] ولكن الأصنام ـ بعد ذلك ـ أحاطت بها من كل جانب. حيث عُبدت من دون الله، أو جُعلت آلهة مع الله.

ولم يكن وجود الأصنام مقصوراً على مكة، بل اتخذت كل قبيلة لنفسها صنماً أقامته في أرضها ثم عكفت على عبادته. فاتخذت هذيل صنماً اسمه «سواع» وأقامته بـ «رهاط»[٢]، واتخذت كليب «وداً» وأقامته بـ «دومة الجندل»[٣]. واتخذت أنعم من طيء وأهل جرش من مذحج «يغوث» وأقاموه بـ «جرش»[٤]، كما اتخذت خيوان ـ بطن من همدان ـ

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٦.

(٢) رهاط: واد يمر شمال عسفان على ٨٥ كيلاً من مكة شمالاً. (معجم المعالم الجغرافية، للبلادي).

(٣) دومة الجندل. قرية في الجوف: شمال تيماء على قرابة ٤٥٠ كيلاً تصلها طرق معبدة بكل من تيماء فالمدينة، وطريف فعمان. (معجم المعالم الجغرافية، للبلادي).

(٤) جُرَش: وهي مدينة عظيمة كانت قائمة إلى القرن الرابع (الهجري) وفي عهد النبي كانت تعتبر من المدن المتطورة عسكرياً، إذ جاء أن بعض الصحابة كانوا=

«يعوق» بأرض همدان من أرض اليمن، وذو الكلاع من حمير اتخذوا «نسراً» بأرض حمير،...[1].

وقد اتخذت العرب مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده.

فكانت لقريش وبني كنانة: العُزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان.

وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتَها وحجابها بنو معتب من ثقيف.

وكانت مناة للأوس والخزرج بقديد على ساحل البحر من ناحية المشلل وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة.. بتبالة...[2].

وإمعاناً منهم في تقديس الوثنية، كانوا يحملون معهم الأحجار لعبادتها. عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به...»[3].

ومع قيام الأوثان لم ينكر الناس وجود الله تعالى خالقاً مبدعاً، بل جعلوا عبادة تلك الأصنام وسيلة تقربهم إلى الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[4] وهكذا أضحت العبادة والنذور، والقرابين والذبائح.. تقدم لغير الله تعالى.. وذهبت معالم ديانة إبراهيم عليه السلام، فلم يبق منها إلا الحج، الذي

= بجرش أثناء حصار الطائف يتدربون على الدبابات والمنجانيق. ثم اندثرت، وتوجد آثارها اليوم قرب «خميس مشيط» (معجم المعالم الجغرافية).

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٧٨ ـ ٨٠.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٨٣ ـ ٨٦.

(٣) صحيح البخاري. برقم (٤٣٧٦).

(٤) سورة الزمر: الآية ٣.

شوهت معالمه، فطاف الناس بالبيت عراة، نساء ورجالاً، وأصبحت الصلاة صفيراً وتصفيقاً ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[1] كما غيرت مواعيده تبعاً للتلاعب بالأشهر الحرم تقديماً وتأخيراً.

وأنكروا البعث بعد الموت كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ . .﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[3].

تلك هي الخطوط العريضة لعقيدتهم.

وأما حياتهم الاجتماعية فكانت قائمة على القبلية، حيث تعد القبيلة هي الوحدة الاجتماعية، وشيخ القبيلة هو سيدها المطاع، وأفرادها ينصر بعضهم بعضاً، ظالمين ومظلومين، ونفوذ الرجل في قبيلته يعود إما لكثرة أولاده، وإما لغناه وكثرة أرقائه أو لكرمه.

ومما يؤيد أهمية كثرة الأولاد ما روي عن عبد المطلب، حينما ذهب ليحفر زمزم فاعترضته قريش، ولم يكن له ـ يومئذ ـ إلا ولد واحد هو الحارث، الذي عجز عن منع أبيه، وشعر عبد المطلب بضعفه لقلة ولده فنذر: لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة[4] . . .

كما كان لكثرة الأرقاء أهميتهم في حماية ومنع سيدهم أو معتقهم، ولهذا لام أبو قحافة ابنه أبا بكر حينما بدأ يعتق الأرقاء من النساء فقال له: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك[5] . .

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٥.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٣) سورة يس: الآية ٧٨.

(٤) سيرة ابن هشام ١/١٥١.

(٥) سيرة ابن هشام ١/٣١٩.

ولم يكن للمرأة كبير قيمة في المجتمع العربي، فلم يكن لها حق في الميراث[1]، وكان للرجل أن يتزوج ما شاء من النساء، وانتشرت عادة وأد البنات لدى بعض القبائل ـ وهو دفنهن وهن على قيد الحياة ـ وكان ذلك خوف العار حيناً، وبسبب الفقر حيناً آخر.

وكان للنكاح أنواع، عن عائشة رضي الله عنها:

«أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها، أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر، يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليالي، بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح الرابع، يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهُنَّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا لهم القافة[2]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به[3] ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير في تفسير الآية ٧ من سورة النساء.

(٢) القافة: جمع قائف، وهو الذي يعرف شبه الابن بأبيه بعلامات دقيقة.

(٣) التاط به: أي ألحق به ونسب إليه.

فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلّا نكاح الناس اليوم»[١].

وكانت المرأة نفسها ـ في بعض أحوالها ـ متاعاً يورث، كما كان يحدث لزوجة الأب بعد موته.

ولم يكن للرفاهية نصيب في حياتهم إلا في القليل النادر، ويعطينا المغيرة بن شعبة صورة واضحة لما كانوا عليه، وذلك من خلال مقابلته يزدجرد قبيل وقعة القادسية. قال: «... فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجُعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه...»[٢].

وكانت كل قبيلة سيدة في مضاربها وأرضها، وقد تغير على غيرها، أو يغير غيرها عليها، وقد تنشب الحرب بين القبائل لأتفه الأسباب كما حصل في حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان...

ولم يكن لهم دولة تجمعهم، وإن كان لمكة سلطانها الديني على القبائل جميعها، كما كان لها مركزها التجاري حيث تنطلق منها رحلتا الشتاء والصيف: إلى اليمن وإلى الشام، وقريباً منها كانت تقام أسواق العرب الشهيرة عقب موسم الحج.

وعلى الرغم من كون الكرم صفة أصيلة في العرب، فإنه لم يمنعهم من التعامل بالربا مستغلاً القوي فيهم الضعيف: وكان الخمر والميسر شيئاً أساسياً في ندوات القوم وسهراتهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح برقم (٥١٢٧).

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٤٢.

تلك إلمامة سريعة عن العرب. في جزيرتهم، أما الوضع السياسي العام إبان تلك المرحلة من الزمن، فتحكمت به دولتان رئيستان: دولة الفرس التي قامت على الوثنية والإلحاد، ودولة الروم التي دانت بالنصرانية، التي لا تختلف عن الوثنية بسبب ما أصابها من تحريف، والناس فيهما طبقات، وعمومهم في مقام العبيد بالنسبة للسادة من الطبقة الحاكمة.

والأديان السماوية؛ اليهودية والنصرانية، كلاهما دخله التحريف والتبديل، حتى ذهبت الحقيقة الأصيلة من كليهما، وهي الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وباتت تعاليمهما وطقوسهما أقرب إلى الوثنية، وتدهور الفكر فيهما، فعمت الخرافات والأباطيل، وساد الدجل، واستغل رجالُ الدين العامةَ من الناس..

ومع كل ما كان العرب عليه من الباطل، فقد كان وضعهم الخلقي لا يقارن بوضع غيرهم، فظل الكرم، وحرمة الجوار، وصيانة الأعراض، والاهتمام بالأنساب، والمُروءة والشهامة، والنجدة.. أمراً قائماً في حياتهم. لا يشرف المرء إلا بهذه الأوصاف، ولا يسود في قومه إلا إذا برهن على أصالتها في نفسه.

كما كانوا على الفطرة، لم تفسدهم المدنيات المجاورة، نفوسهم نزّاعة إلى الحرية، لا يقبلون الهوان والذل، للأنفة جذور عميقة في نفوسهم وربما كان ذلك بعضاً من حكمة الله تعالى أن جعل الرسالة الخاتمة فيهم، وهو ما يشير إليه الحديث الشريف من قوله ﷺ، وقد سئل عن أكرم الناس: (... فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[1].

---

(١) متفق عليه (خ٣٣٥٣، م٢٣٧٨).

مِنَ المولد إلى البِعثَة

خرج عبد المطلب ـ وهو سيد مكة والرجل المرموق فيها ـ متجهاً إلى دار وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ـ وهو يومئذٍ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ـ ليخطب ابنته آمنة، لابنه عبد الله، وآمنة يومئذٍ هي أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً.

وتم العقد... وحملت آمنة... ثم لم يلبث عبد الله أن توفي، ومرت أشهر الحمل، ووضعت آمنة حملها، وكان الوليد محمداً ﷺ.

النسب الطاهر:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب... ابن معد بن عدنان.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، وهكذا ينتهي نسبه ﷺ من جهة أبيه؛ ومن جهة أمه إلى كلاب بن مرة، فهو خيار من خيار، ولعل في هذا حكمة بالغة تنفي كل مطعن في دعوته، من حيث نسبه وأصالته، ولذا لما سئل أبو سفيان من قبل هرقل: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب[1]. وأبو سفيان يومئذٍ يمثل قيادة العداء في مكة لرسول الله ﷺ.

ولعل من حكمة الله تعالى أن يكون كذلك حتى تكون دعوته إلى المساواة والعدل منبعثة من المنهج الذي جاء به، قائمة على أسسٍ ثابتةٍ،

---

(١) هذه رواية البخاري برقم (٧)، وفي رواية ابن إسحاق: محضاً من أوسطنا نسباً.

وليست ردَّ فعلٍ لحالةٍ نفسية، أو واقع اجتماعي سيِّئ. فلو لم يكن محمد بن عبد الله في هذا الموضع الرفيع نسباً، لقيل إنه يطالب بما افتقده ليرد اعتباره الاجتماعي.

ولقد رأينا كثيراً من أصحاب الدعوات المادية. . . كانت مذاهبهم صدى وردّ فعل لواقع عاشوه، ويكفي أن نعرف ـ مثلاً على ذلك ـ كيف كانت حياة ماركس لنعرف المذهب الذي دعا إليه[1]، وما سميت هذه المذاهب ثورات إلا لأنها ردود فعل.

الولادة:

ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل سنة سبعين وخمسمائة للميلاد. ولما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب: أنه قد ولد لك غلام، فأتاه ونظر إليه، فرحاً به، وسماه محمداً.

كفالة جده:

وإذ ولد ﷺ يتيماً، فقد كان في كفالة جده، الذي كان حفياً به، عطوفاً عليه، وقد حلَّ من نفس جده المنزلة التي لم تكن لأولاده، فكان لا يفارقه، وما كان أحد يجلس على فراش عبد المطلب من أبنائه إلا رسول الله ﷺ.

---

(١) ولد ماركس سنة ١٢٣٣هـ من أسرة يهودية، وانتقل أبوه إلى النصرانية لأسباب مادية، ولم يكن ماركس حميد السيرة في دراسته الجامعية، وفشل في حياته العاطفية، إذ أحب فتاة من طبقة رفيعة، فعارض أهلها من زواجها منه لاعتبارات طبقية. وفي مبارزةٍ له بالسيف مع أحد أعضاء نادي الشعراء في بون ـ وكان من الأغنياء ـ تفوق عليه خصمه وجرحه في حاجبه، وكانت نقمته عارمة على الأغنياء، بسبب فقر أسرته، مما جعله يردد دائماً مقطوعة شيكسبير ـ الشاعر الإنكليزي ـ: أيها الذهب الثمين البراق، إنك تُصيّر الأبيض أسوداً والقبيح جميلاً. . . والجبان باسلاً. ومن هذا الواقع الاجتماعي كان مذهبه ـ الشيوعية ـ حقداً على الإنسان.

الرضاعة:

ظل الوليد في رعاية أمه، إلى أن جاء نسوة من بني سعد يلتمسن الرضعاء. تقول حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية: فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه... فذهبت فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره[١].

ولقد سعدت حليمة باصطحابه، وعمَّها الخير، ورأت من بركته ما جعلها حريصة ـ بعد ذلك ـ على بقائه عندها.

ورواية حليمة هذه، تدل دلالة واضحة على أن ولادته ﷺ ونظرة الناس إليه ـ بعد ذلك ـ كانت أمراً عادياً، فليس فيه ما يميزه على غيره. إذ ما كان أحد يدري يومئذ أن المولود هو رسول الله[٢].

وفاة أمه ثم جده:

واستقر الطفل، بعد انتهاء مدة الرضاع، عند أمه ترعاه، ويحوطه جده بعنايته، وفي السادسة من عمره، خرجت أمه لزيارة أخواله[٣] من بني عدي بن النجار في يثرب، ولكنها ماتت في طريق العودة،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٣.

(٢) هذا لا يعني عدم وجود بشائر وإرهاصات تعلن إظلال زمانه، ولكن المقصود: أنه لم يكن أحد يعرف أنه هو النبي المنتظر.

(٣) كان هاشم بن عبد مناف قدم يثرب وتزوج سلمى بنت عمرو، أحد بني النجار، فولدت له شيبة الذي عرف فيما بعد، بعبد المطلب، فبنو النجار هم أخوال عبد المطلب جد النبي ﷺ. (ابن هشام ١/ ١٣٧).

بالأبواء[1] بين مكة والمدينة.

ولم تطل حياة عبد المطلب بعد ذلك، إذ توفي بعد سنتين حيث كان عمره ﷺ ثماني سنوات.

كفالة أبي طالب:

ويبدو أن عبد المطلب لما أحس بدنو أجله، أوصى ابنه أبا طالب[2] برعاية ابن أخيه. وذلك لأن عبد الله وأبا طالب أخوان لأم وأب[3]، وأمهما فاطمة بنت عمرو المخزومية. فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله بعد جده.

رعي الغنم:

ولما اشتد عوده ﷺ رعى الغنم، حتى لا يكون عالةً على عمه، وتلك مهنة الأنبياء عليهم السلام في بعض أيام حياتهم، وقد قال ﷺ: (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم) فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم. كنت أرعاها على قراريط[4] لأهل مكة)[5].

سمات مميزة:

وشبَّ محمد بن عبد الله، في رعاية الله، محفوظاً من أقذار

---

(١) الأبواء: وادٍ من أودية الحجاز التهامية يلتقي فيه واديا الفُرُع والقاحة، فيتكون منهما وينحدر إلى البحر ماراً ببلدة مستورة ثم يبحر. اهـ. (معجم المعالم الجغرافية).

(٢) واسمه عبد مناف.

(٣) يشاركهم في ذلك الزبير بن عبد المطلب وجميع بنات عبد المطلب ما عدا صفية.

(٤) أورد صاحب الفتح قولين للعلماء في معنى قراريط. الأول: القيراط جزء من الدينار أو الدرهم. والثاني: أن قراريط اسم موضع بمكة. ويرى أبو زهرة رحمه الله في كتابه خاتم النبيين. أنها: حصة من اللبن، فهو يرعاها على أن يكون له حصته من لبنها.

(٥) صحيح البخاري. كتاب الإجارة برقم (٢٢٦٢).

الجاهلية متحلياً بكل صفات الفضيلة، حتى كان أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً... كما كان أكرمهم حسباً، كل هذا جُمع بكلمة واحدة أطلقت عليه هي: «الأمين» فكان يقال: جاء الأمين وذهب الأمين.

ولقد حضر ميادين الرجولة، وهو لم يبلغ بعد سن الرجال، فها هو يحضر حرب الفِجار[1] ولما يبلغ الخامسة عشر من العمر، وقال: (كنت أنبل[2] على أعمامي)[3].

كما ساهم في إقامة الفضيلة مع الكهول، وهو لم يتجاوز العشرين من العمر. فكان أحد الذين شهدوا إبرام حلف الفضول[4]. حيث تعاقد المجتمعون على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ممن

---

(١) الفِجار ـ بالكسر ـ بمعنى المفاجرة.
وسميت كذلك لأنها قامت في الشهر الحرام. وكانت بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان. وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامها، أخرجه أعمامه معهم (سيرة ابن هشام ١/ ١٨٤ ـ ١٨٦).

(٢) أنبل: قال ابن هشام: أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ١٨٦.

(٤) وسببه: أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ثم حبس عنه ثمنها، فاستعدى عليه الأحلاف فأبوا أن يعينوه، فلما رأى الشر، أوفىٰ على أبي قبيس ـ وقريش في أنديتهم ـ وأنشد:

يا آل فِهرٍ لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال، وبين الحِجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب ـ عم النبي ﷺ ـ وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جُدعان في شهر ذي القعدة ـ وهو من الأشهر الحرم ـ فتعاقدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه. ثم أخذوا للرجل حقه من العاص بن وائل. عن «البداية والنهاية» ٢/ ٢٩١.

دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على مَنْ ظلمه حتى تُردّ عليه مظلمته. وقال فيما بعد: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)[1].

كما كان بعيداً عن الأصنام، شديد الكره لها منذ صغره، وقد ردّ على الراهب بحيرى حينما سأله باللات والعزى بقوله: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما.

كل هذا، وغيره من صفات الفضيلة، جعله فتى قريش، الذي اتجهت إليه الأنظار، وتناقل الناس حديث سلوكه وأخلاقه.

زواجه ﷺ بالسيدة خديجة:

كانت خديجة بنت خويلد[2] امرأةً تاجرةً ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. فلما بلغها عن محمد ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل منها وخرج في مالها وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

وقد أتم المهمة وعاد إلى مكة يحمل البضاعة وفيها الربح الوفير.

وقصَّ ميسرة على خديجة ما شاهده، من حسن المعاملة والأمانة مما جعلها ترغب فيه زوجاً لها ـ وهي التي عزت على الرجال ـ فعرضت عليه نفسها. وسواء أكان هذا العرض بواسطةٍ أم بدون واسطة فقد تمّ الأمر، حيث خرج ومعه عمه حمزة بن عبد المطلب ـ وفي رواية أبو طالب ـ حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها إليه فزوجه إياها.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٣٤.

(٢) خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، من بني أسد من الذؤابة في قريش نسباً، وانظر ترجمتها في: «من معين الشمائل» ص٤١.

وأصدقها ﷺ عشرين بكرة[1]. وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وكان عمره يومئذ خمساً وعشرين سنةً بينما كانت خديجة في الأربعين من العمر[2].

أكرم من والد:

كان زيد بن حارثة غلاماً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها فأعتقه ﷺ. وبقي زيد عند رسول الله ﷺ إلىٰ أَنْ جاء أبوه حارثة وعمه يطلبان فداءه، فقالا للنبي ﷺ: يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عبدك، فأحسن لنا في فدائه. فقال: (فهل غير ذلك؟) فقالا: وما هو؟ قال: (أدعوه فأخيره فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني) قالا: قد زدتنا على النِّصف وأحسنت، فدعاه فقال: (هل تعرف هؤلاء؟) قال: نعم أبي وعمي قال: (فأنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك. فاخترني أو اخترهما). فقال: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان أبي وعمي. فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم. قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك خرج إلى الحِجر فقال: (أشهدكم أن زيداً ابني أرثه ويرثني). فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما فانصرفا. ودُعي بعدها زيد بن محمد حتى جاء الإسلام فنزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[3] فدُعي زيد بن حارثة[4].

---

(١) البكر: الفتي من الإبل، والأنثى: بكرة.

(٢) وكانت قد تزوجت قبله، ﷺ، أبا هالة بن زرارة التميمي، ومات عنها، وقد ولدت له هنداً وهالة. وكلاهما له صحبة.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥.

(٤) هو عربي أصيل يرجع نسبه إلى كلب بن وبره وأمه سعدى بنت ثعلبة من طيء=

لم يكن يتوقع حارثة من ابنه ذلك الاختيار بل كان يتوقع أن يكون يوماً من أيام الأعياد في حياته حيث يعود إلى ذويه وأهله الذين تركهم مكرهاً. . ولكن تلك المعاملة وذلك السلوك الذي رآه من رسول الله كان فوق كل تقدير. نتكلم هذا ومحمد ﷺ لم يصبح رسولاً بعد، إن اختيار زيد رسول الله وإيثاره البقاء عنده على العودة إلى أهله وديار قومه في وقت يعد انفصال الفرد عن قبيلته ضياعاً له. وفي سن يحرص المرء فيها أن يكون في رعاية ذويه لدليل على تلك الأخلاق العالية والصفات الحميدة التي تجلت في سلوكه ﷺ مع كل الناس ولعل قرب زيد منه جعله أكثر تقديراً ومعرفةً لهذه الصفات. الأمر الذي جعله يستمسك بالبقاء عنده، واجداً في ظلّه كل ما يتطلبه من عطف الأب وكرمه وحنانه بل وما هو أكثر من هذا.

وإزاء هذا التقدير أعلن رسول الله ﷺ على طريقة العرب قبل الإسلام في التبنّي، تبنّيه لزيد من باب التكريم والتقدير لتلك المشاعر. . إلى أن جاء الإسلام. . فدُعي لأبيه. .

بناء الكعبة:

في الخامسة والثلاثين من عمره ﷺ اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة - بسبب ما أصابها من وهن وخوفاً عليها من السيول. وقد أعدوا لذلك عدته، وجزأت قريش الكعبة، فكان كل جانب منها لفريق منهم، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة. . .

ثم بنوها حتى بلغ البنيان الحجر الأسود فاختصموا فيه: كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه. . . حتى تحالفوا وأعدّوا للقتال. . وقرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً وتعاهدوا - هم وبنو عدي بن كعب - على

= وكانت خرجت بزيد لتزور أهلها. فأصابته خيلٌ من بني القيس بن جسر فباعوه بسوق مسياشه - وهو من أسواق العرب - وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام (الروض الأنف ١/ ٢٨٦).

الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم فسموا «لعقة الدم» ومكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً.

ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا، واقترح أَسَنُّ القوم يومئذ، أبو أمية بن المغيرة[1]، أن يجعلوا أول داخل إلى المسجد حكماً يقضي بينهم. واتفقوا على ذلك. فكان أول من دخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به، هذا محمد، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر. قال ﷺ: هلمَّ إلي ثوباً؛ فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه ﷺ بيده ثم بنى عليه[2].

بهذه البساطة انتهت معضلة غمست الأيدي بالدم من أجلها.. انتهت والجميع راضون كل الرضى. وعاد الناس إلى متابعة العمل وإكمال البناء.

ولقد يُظن أن هذا الحل في غاية السهولة: يمكن أن يهتدي إليه كل إنسان.

ولكنا إذا تذكرنا أن قريشاً بعقلائها وأصحاب الرأي فيها كانت تشارك في البناء وأنهم جميعاً اشتركوا في إنشاء المشكلة. وأنه لم يدر بخلد أحد هذا الحل رغم أن السيوف كانت قد سلت من أغمادها.. علمنا رجاحة العقل والفطانة والذكاء تلك الصفات التي كانت بعض صفاته ﷺ.

التحنث في غار حراء:

قالت عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسولاً ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وكان يأتي حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبّد ـ الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك

---

(١) هو والد أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها. (٢) سيرة ابن هشام ١/١٩٦ ـ ١٩٧.

ثم يرجع إلى خديجة فتزوّده لمثلها حتى فجأه الملك...»[1].

وواضح من النص أن المدة التي سبقت نزول الملك اتسمت بظاهرتين إحداهما: تصديق الواقع لما يراه في نومه. والثانية: التحنّث في غار حراء بعيداً عن الناس. بل إن ذلك حُبِّب إليه، كما ورد ذلك في رواية ابن هشام: وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[2].

ونتساءل عن طبيعة ذلك التحنّث في تلك المدة؟ ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إنه تفكرٌ فيما حوله، في واقع الناس وما آل إليه حالهم من عبادة للأصنام.. وظلم.. وعصبية وقطع للرحم، نستشفُّ ذلك من قول السيدة خديجة وهي تصف سلوكه ﷺ الذي كان محاولةً منه لتعديل الواقع المرّ الذي مُلئت به دنيا الناس يومئذ، حيث قالت: «فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ[3] وتُقري الضيف وتُعين على نوائب الحق[4]»[5].

فهو التفكير في الكيفية التي يمكن أن تسود فيها هذه المعاني حياةَ الناس.

وربما فكر في ما تبقى من شريعة إبراهيم، الذي كان يتمثل في مناسك الحج، وحتى هذه المناسك اعتراها التبديل والتحريف ودخلتها الأوهام حتى أضحت وسيلةً يتعالى فيها بعض الناس على بعضهم الآخر، وما بدعة (الحمس)[6] إلا التعبير الصادق عن ذلك. حيث رأت

---

(١) متفق عليه (خ٣، م١٦٠).

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٣٤ وفي رواية البخاري «ثم حبب إليه الخلاء».

(٣) الكلّ: الضعيف، والمراد هنا: المسكين واليتيم..

(٤) نوائب الحق، جمع نائبة، وهي الحادثة تكون في الخير، وقد تكون في الشر.

(٥) متفق عليه (خ٣، م١٦٠).

(٦) الحمس: جمع أحمس وهو المتشدد الصلب في الدين. وقد أطلقت قريش=

قريش ـ وهم ولاة البيت ـ أن تكون لهم مزايا على غيرهم من الناس ممن يأتي مكة لأداء المشاعر. . . . .

وأصبح لقريش مناسك خاصة. . ومنع أهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل إلى الحرم. ومنعوا من الطواف بالبيت إلا في ثياب الحمس فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، ومن طاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها.

قال جبير بن مطعم[1]: لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس ـ من بين قومه ـ حتى يدفع معهم منها.

أما قومه فقد تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها ـ رغم اعترافهم بأنها من المشاعر ـ بحجة أنهم أهل الحرم فليس ينبغي لهم أن يخرجوا منه.

وهكذا كان يفكر فيما حوله. كل شيء يحتاج إلى تغيير أو يحتاج إلى تصحيح. إنه بحاجة إلى الخلوة بعيداً عن الأصنام التي تملأ ساحة الحرم وتنتشر في جنباته، وبعيداً عن الفكر الوثني الذي سيطر على الغالبية العظمى من الناس.

إنه يجد البون شاسعاً بين ما هو موجود، وبين ما ينبغي أن يكون. . ميزانه في ذلك فطرته السليمة ومشاعره الرقيقة.

إن الصورة واضحة تماماً أمام بصره وبصيرته ولكن كيف السبيل؟ ويأتيه الجواب: إقرأ. . .

= ذلك على أنفسهم، ورتبوا عليه أموراً: منها تركهم الوقوف بعرفة والافاضة منها.

(١) جبير بن مطعم بن عدي: صحابي كان من علماء قريش وسادتهم توفي بالمدينة. (الأعلام).

البعثة

قال ابن إسحاق: فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين وللناس كافة بشيراً. وابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان. يقول الله ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

بدء الوحي:

روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك، فقال: (اقرأ قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾[2]) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسي).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٢) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٣.

فقالت خديجة: كلا، والله ما يخُزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرأً تنصّر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني. فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عَمي. فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي: ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً[1]. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: (أو مخرجي هم؟).

قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[2].

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال ـ وهو يحدث عن فترة الوحي ـ فقال في حديثه: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت، فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[3] فحمي الوحي وتتابع)[4].

---

(١) يعني شاباً قوياً حتى أنصرك. والأصل في «الجذع» للدواب.

(٢) متفق عليه (خ٣، م١٦٠).

(٣) سورة المدثر: الآيات ١ ـ ٥.

(٤) متفق عليه (خ٤، م١٦١).

لئن كانت الرواية الأولى تحدد بدء الوحي ـ أو النبوة ـ فإن الرواية الثانية تبين انتهاء مدة النبوة وابتداء الرسالة. قال ابن القيم رحمه الله: «أول ما أوحى إليه ربه أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك نبوته ﷺ فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره بالتبليغ. ثم أنزل الله عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ فنبأه بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾».

فترة انقطاع الوحي:

إن فترة انقطاع الوحي المشار إليها في نهاية الرواية الأولى كانت فترةً عصيبةً في حياته ﷺ أخذ الحزن فيها من نفسه مأخذه حتى غدا مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال. فكلما أوفى بذروة جبلٍ لكي يلقي بنفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً. فيسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه[1].

وكانت هذه الفترة هي مدة نبوته ﷺ لتبدأ مهمة الرسالة بعدها وقد اختُلِف في مدة فترة الوحي. فقال بعضهم: إنها ثلاث سنوات، وقال آخرون: هي ثلاثة أيام ولم يستند القائلون إلى دليل. ولئن كان الرأي الأول غير مقبول ـ لأن هذه المدة كانت مدة الدعوة السرية ولا يعقل أن يكون الرسول ﷺ قد باشر الدعوة إلى الله دون أمر، كما يلاحظ أن تشريع الصلاة كان في وقت مبكر وهو أمر مرتبط بالرسالة ـ فإن الرأي الثاني كذلك، لأن الأيام الثلاثة مدة غير كافيةٍ لتجعله ﷺ يحاول التردي من شواهق الجبال.

ولعل الأقرب إلى الصواب هو ما روي عن ابن عباس أن فترة الوحي كانت أربعين يوماً[2].

---

(١) جاء هذا في صحيح البخاري معلقاً (كتاب التعبير باب ١ رقم ٦٩٨٢) ونفى بعضهم ذلك لأنه محاولة انتحار وهي حرام.
ويرد على هذا، بأنه لم يكن وقتها قد نزل تشريع تحريم الانتحار ولا يكون الإنسان مسؤولاً عن شيء لم تنزل حرمته.

(٢) في شرح الزرقاني (١/٢٣٦) بحث مفصل حول الأقوال الواردة بهذا الصدد.

من حكمة الفترة:

إن المهمة التي أعدّ لها رسول الله ﷺ هي أكبر مهمة عرفها تاريخ الإنسانية فهي عبء ثقيل، بل وقول ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1] ولذا فهي بحاجةٍ إلى تهيئةٍ وإعدادٍ في نفسية الرسول الكريم. فكان التمهيد لها بالرؤيا الصالحة. قال القاضي عياض وغيره: «إنما ابتدئ عليه السلام بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتةً فلا تحتملها قوى البشر فبدئ بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة»[2].

ثم نزل عليه الوحي بـ «اقرأ» وقد بيّت رواية البخاري ما عاناه عليه السلام وما أصابه من الجهد، فكان بحاجة إلى الراحة التي تذهب عنه ما خشيه على نفسه، وما ألمّ به من غطّ الملك له، كما تجعله في تشوق إلى لقاءٍ آخر فكانت الحكمة الإلهية في فترة الوحي.

إنه الإعداد الإلهي، لتكون الصلة بالسماء هي المهيمن على رسول الله ﷺ... وتتابع الوحي.

ما أنا بقارئ:

يستوقفنا في الحديث الشريف قوله ﷺ: (ما أنا بقارئ) جواباً على قول الملك: «اقرأ» وهو تعبير واضح عن عدم معرفته ﷺ القراءة لأنه لم يسبق له تعلم ذلك. وأكثر العرب يومئذ ما كانوا يقرؤون أو يكتبون، والنبي ﷺ واحد منهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى عدم معرفته تلك، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[3].

وواضح من الآية الكريمة أنه موصوف في التوراة والإنجيل بأنه أمي وهذا الوصف سابق على ميلاده عليه السلام. وإذن فهي حكمة الله تعالى

---

(١) سورة المزمل: الآية ٥. (٢) شرح الزرقاني ١/٢١٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

وإرادته. وقد أشار القرآن إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

وقد أجاد المرحوم محمد رضا بقوله: «قال أهل التحقيق: وكونه أمياً من جملة معجزاته:

١ - أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته. والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبه ثم أعادها فإنه لا بد أن يزيد فيها بالقليل والكثير. ثم إنه عليه الصلاة والسلام - مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ - يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾[2].

٢ - أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع [كتب] الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة. فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات. وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾»[3].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.
(٢) سورة الأعلى: الآية ٦.
(٣) كتاب (محمد رسول الله) ص٦٣.

الدعوة السرية والمسلمون الأوائل

الدعوة السرية:

ويقصد بها المدة الزمنية التي أعقبت نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[1] والتي استمرت إلى نزول قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[2] ويكاد يتفق رواة السيرة على أن مدتها كانت ثلاث سنين.

ولم يتوقف كتّاب السيرة طويلاً عند هذه المدة، بل لم يفردوا لها عنواناً مستقلاً وفصلاً خاصاً: وإنما ورد الحديث عنها مجملاً ضمن الحديث عن الدعوة.

فابن هشام ـ على سبيل المثال ـ يقول نقلاً عن ابن إسحاق: ثم إن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي الناس بأمره وأن يدعو إليه. وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أنه أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغني ـ من مبعثه...[3].

ويبدو أنه ﷺ في هذه المدة اقتصر في الدعوة على الذين يحيطون به من قريب والذين توسّم فيهم الخير وتوقع منهم الاستجابة، وكان على ثقةٍ من أخلاقهم ـ في حال عدم استجابتهم ـ أنهم لن يفشوا سرّه.

وبهذا الأسلوب الرصين انطلقت الدعوة هادئةً ثابتة الخطى يدعى إليها ذوو العقل الواعي والذين لم تكن الوثنية لتسيطر على أفكارهم قناعة

---

(١) سورة المدثر: الآية ١، ٢. (٢) سورة الحجر: الآية ٩٤.

(٣) السيرة لابن هشام ١/ ٢٦٢.

منهم بها، وإنما سكوتاً جرياً على عادة قومهم، خاصة وأنه لم يكن هناك من يوضح لهم السبيل. ولهذا نستطيع القول بأن المؤمنين في هذه المرحلة هم القاعدة الصلبة التي قامت عليها ـ فيما بعد ـ دعوة الإسلام يقودها الرسول الكريم ﷺ.

وقد كان ﷺ حريصاً على هذه السرية. يؤكد هذا الحرص ما ورد في رواية إسلام علي رضي الله عنه:

دخل عليّ على النبي ﷺ ومعه خديجة رضي الله عنها، وهما يصليان، فقال: يا محمد ما هذا؟ قال: (دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى). فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدّث به أبا طالب، فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره، فقال له: (يا علي إذ لم تسلم فاكتم). فمكث علي تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام[١].

ونعتقد أن هذا الأسلوب هو ما درج عليه رسول الله وأصحابه في هذه المرحلة من الزمن، حيث الحاجة إلى تثبيت دعائم العقيدة بعيداً عن الجدل والمراء والصخب وإثارة الأعداء... إن الدعوة في هذه المرحلة بحاجة إلى القلب الواعي، والفكر الثاقب والقوة على تحمّل الأمانة.. فكانت السرية أمراً ضرورياً.

وكان لقاء الرسول ﷺ بأصحابه يتم خفية في أماكن معينةٍ منها دار الأرقم بن أبي الأرقم... حيث يتعلمون آيات الكتاب ويلتقون بصاحب الرسالة[٢].

---

(١) البداية لابن كثير (٣/ ٢٤).

(٢) انظر البداية ٣/ ٣٤ في قصة إسلام أبي ذر كمثال على ذلك: حيث قام علي بإرشاده إلى مكان وجوده ﷺ بحذر شديد حيث قال له: اتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء وإن مضيت فاتبعني... وهي في البخاري برقم (٣٨٦١).

وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إلى بعض الشعاب ليستخفي بصلاته من المشركين.

السابقون الأولون:

واستجاب إلى دعوة الله ورسوله أولئك النفر الذين يحيطون به ﷺ.

فآمنت خديجة بنت خويلد زوجه.

وآمن عبد الله بن أبي قحافة أبو بكر صديقه.

وآمن علي بن أبي طالب، ابن عمه، وهو ابن عشر سنين يومئذ، وكان في كفالته.

وآمن مولاه زيد بن حارثة.

وكان أبو بكر رجلاً محبوباً في قومه. وكان أنسب قريش لقريش وكان رجلاً تاجراً، ذا خلقٍ ومعروف، مما جعله مرجعاً لقومه يأتون إليه ويألفونه، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. فجعل يدعو إلى الله من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعائه:

- عثمان بن عفان الأموي.
- الزبير بن العوام الأسدي.
- عبد الرحمن بن عوف الزهري.
- سعد بن أبي وقاص الزهري.
- طلحة بن عبيد الله التيمي.

فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا فأسلموا وصلّوا.

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وأخواه: قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته - بنت عمه - فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر.

وأسلمت أسماء بنت أبي بكر، وخباب بن الأرت من بني تميم، وعمير بن أبي وقاص ـ أخو سعد بن أبي وقاص ـ وعبد الله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو الفهري، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، وامرأته أسماء بنت سلامة التميمية، وخنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد.

وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس.

وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل الفهرية. وأخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فُكيهة بنت يسار.

ومعمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون.

والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف.

والنحام، واسمه نعيم بن عبد الله بن أسيد.

وعامر بن فُهيرة، مولى أبي بكر.

وخالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أُمينة بنت خلف الخزاعية.

وحاطب بن عمرو الفهري، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وواقد بن عبد الله.

وخالد، وعامر، وعاقل، وإياس، بنو البكير.

وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان.

هذا ما ذكره ابن هشام في سيرته[١].

وأضاف إليهم ابن كثير بعد أن ذكرهم، فيما نقله من حديث مسلم: عمرو بن عبسة[٢]. وبلال[٣].

كما ذكر المقداد، وسمية أم عمار في عداد أول من أظهر الإسلام[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٩ ـ ٢٦١.

(٢) جاء هذا في صحيح مسلم برقم (٨٣٢).

(٣) البداية والنهاية ٣/ ٣١.

(٤) البداية والنهاية ٣/ ٢٨.

ومن المعروف أن سيدنا أبا بكر، أعتق - إضافة إلى عامر بن فهيرة - بلالاً. وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية وابنتها[1].

ويعدّ أبو ذر الغفاري أحد السابقين الأولين إلى الإسلام[2].

وأسلم قبل هؤلاء جميعاً خالد بن سعيد بن العاص الأموي. وكان من السابقين الأولين. إذ كان رابعاً أو خامساً، كما قال صاحب الإصابة.

ثم دخل الناس في دين الله واحداً بعد واحد، من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحُدث به.

وواضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا - كما يحب أعداء الإسلام أن يصوروا للناس - من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم.. أو ما أشبه ذلك.

إن هذا الدين هو منهج الله تعالى لعباده، وليست تعاليمه وأوامره ردود فعل.

الخطأ الفادح:

زلّت أقلام بعض كتاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام فكان من كتابة بعضهم.

[وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة من ذلك؟][3].

[كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها أربعين رجلاً وامرأة عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء وفي مقدمتهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٨/١.

(٢) جاء هذا في الحديث المتفق عليه (خ٣٨٦١، م٢٤٧٤).

(٣) فقه السيرة للدكتور سعيد رمضان البوطي ص٧٧.

أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي][1].

[فآمن به ناس من ضعفاء الرجال والنساء والموالي][2].

ولا نشك في أن الدافع لذلك ما كان سوء النية. بل حسن النية في إعطاء الصورة العظيمة للإسلام وهو يقوم على أكتاف هؤلاء. أو للدفاع عن الإسلام.. بأنه لم يقم على العصبية أو القومية[3].

على أن البحث العلمي يفترض في الباحث ألا تكون الفكرة قائمة في ذهنه ثم يفتش لها عن الأدلة. بل عليه أن يصل إلى الفكرة من خلال ما تكوّنه الأدلة وتُثبته.. وهذه بدهية من بدهيات البحث العلمي..

ولدى الرجوع إلى كتب السيرة لم نجد مثل هذه التعابير. فابن هشام يبوّب لهذا الموضوع بقوله: [ذكر عُدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة][4] وواضح معنى قوله: [ممن أسلم] فالوصف للبعض وليس للأكثر.. وليس في بحثه أبداً ما يفهم منه الفكرة السابقة التي نحن بصدد الحديث عنها.

وننتقل إلى ابن كثير فنجده يتحدث بالأسلوب نفسه الذي تحدث به ابن هشام فيقول [فصل: في مبالغتهم في الأذية لآحاد المسلمين المستضعفين] فحديثه على المسلمين المستضعفين الذين ليس لهم من يدفع عنهم..[5].

على أننا نجد هذا التعبير قد جرى على لسان عروة بن مسعود وهو

---

(١) المصدر السابق ص٧٩.

(٢) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الديبع ١/ ٣٠١.

(٣) لا شك أنها فرية ولكن الرد عليها لا يكون بتغيير الحقائق الثابتة. ومن الواضح أنها فرية داحضة لأنها لو كا نت كذلك لما هاجر ﷺ من مكة ولما لاقت الدعوة ما لاقته في مكة.

(٤) ابن هشام ١/ ٣١٧.

(٥) البداية والنهاية ٣/ ٤٩، ٥٧، ٦٦.

يفاوض رسول الله ﷺ في صلح الحديبية حيث قال: يا محمد: أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها؟ وكان هذا من باب التحقير.. ولذا كان ردّ أبي بكر رضي الله عنه متناسباً حيث قال له: امصص بظر اللات...[1] وكلام عروة في هذا المقام غير مقبول وهو شبيه بكلام المشركين في اتهام الرسول ﷺ مما وصفوه به.

ونستطيع أن نرجع الوقوع في هذا الخطأ إلى سببين:

الأول: حديث أبي سفيان عن هرقل حينما سأله عن أمر رسول الله ﷺ فكان من جملة الأسئلة التي وجهها هرقل إلى أبي سفيان قوله: «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم» ثم جاء تعليق هرقل على ذلك بقوله: «وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل»[2].

إن هذا النص جعل بعضهم يعدّ هذا الأمر مسلَّمة، ويبني عليه رأيه كما فعل ابن الديبع الشيباني في كتابه حدائق الأنوار حيث قال: ولما بعث ﷺ أخفى أمره وجعل يدعو أهل مكة ومن أتى إليها سراً فآمن به ناس من ضعفاء الرجال والنساء والموالي وهم أتباع الرسل كما في حديث أبي سفيان عن هرقل[3]....

وهكذا نلاحظ استقرار الفكرة لديه بناءً على حديث أبي سفيان.

الثاني: إن الذين تحملوا القسط الكبير من التعذيب هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنتهم على ملأ من الناس. بينما امتنع الآخرون بأقوامهم ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته وفي شِعبه.. ولذا لم ينتشر أمرهم ولم يذكروا كثيراً.. ولهذا انتشرت أخبار تعذيب وفتنة الضعفاء.. ولم يذكر ذلك عن الآخرين إلا قليلاً.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣١٣.

(٢) الحديث متفق عليه (خ٧، م١٧٧٣).

(٣) حدائق الأنوار ج١/ ٣٠١.

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه. وأما أبو بكر منعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس..»[1].

وهكذا امتنع من لهم قوم، جاء في حدائق الأنوار: وامتنع جماعة ممن أسلم بعشائرهم من أذى المشركين وبقي قوم مستضعفون في أيدي المشركين يعذبونهم بأنواع العذاب كعمار بن ياسر[2]..

على أن من أسلم ممن له قوم وعشيرة. إنما عذب ضمن عشيرته، قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه. فوثبت كل قبيلةٍ على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم[3].

وقال ابن إسحاق: إن رجالاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، منهم سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة فقالوا له وخشوا شرّهم: إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنا نأمن بذلك في غيرهم. قال: هذا فعليكم به فعاتبوه وإياكم نفسه... فأقسم لئن قتلتموه لأقتلنّ أشرفكم رجلاً... فقالوا: لو أصيب بأيدينا لقتل أشرفنا... فتركوه[4].

وواضح من هذا أن التعذيب كان ضمن القبيلة.. وأن الذي له من يمنعه لم يصله الشرّ... وأما الذين لا قبائل لهم ـ كبلال فكان تعذيبهم في الأماكن العامة ويشارك به الجميع، وفي هذه الساحات العامة استشهدت سمية وزوجها ياسر.. «وهانت على بلال نفسه في الله فأخذوه

---

(١) البداية ٣/٢٨.
(٢) حدائق الأنوار ١/٣١٥.
(٣) ابن هشام ١/٢٦٨.
(٤) ابن هشام ١/٣٢١.

فأعطوه الوِلدان يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد»[1].

ومن هذا نتبين أن المسلمين الأوائل كانوا بين ممتنع بقومه وبين مفتون في أهله ـ إكراماً له أو لأهله ـ، وبين معذب مفتون من قبل الجميع، وهؤلاء هم الأرقاء.. ولهذا انتشر ذكرهم، ولا يعني هذا أنهم هم الغالبية العظمى من المسلمين الأول.

إن ما ورد في حديث أبي سفيان فيما يتعلق بالضعفاء، ليس المقصود بهم الأرقاء، كما يتبادر للذهن، ولذا وجدنا ابن حجر رحمه الله، في شرحه للبخاري يرفض أن يأخذ كلمة الأشراف على عمومها بل يقول: والمراد بالأشراف هنا ـ في الحديث ـ أهل النخوة والتكبر منهم، لا كلَّ شريف، حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل السؤال. ثم قال في شرح: «فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه» معناه: أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً كأبي جهل وأتباعه[2].

وهكذا أوضح رحمه الله أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر.

كما ينبغي أن نعلم أن أبا سفيان كان ـ يومئذٍ ـ عدوّاً لله ولرسوله، ولم يألُ جهداً في التقليل من أمر رسول الله ﷺ. وقد صرح بذلك، فقد سأله هرقل: هل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. وجاء في رواية أبي الأسود عن عروة مرسلاً «خرج أبو سفيان إلى الشام ـ فذكر الحديث ـ إلى أن قال: فقال أبو سفيان: هو ساحر كذاب فقال هرقل: إني لا أريد شتمه ولكن كيف نسبه؟»[3].

وهكذا نلاحظ أن حديث أبي سفيان لا يصلح حجة للفكرة، لأنه

---

(١) البداية ٣/٢٨.

(٢) فتح الباري ١/٣٥ ـ ٣٦ الحديث ٦.

(٣) فتح الباري ١/٣٥ ـ ٣٦.

من عدو، همه التقليل من شأن عدوه، ثم إن الحديث جرى بينه وبين هرقل بعد صلح الحديبية أي يوم كان قد مضى على الهجرة أكثر من ست سنوات ويوم كان من أتباع الرسول ﷺ الكثير الكثير من الأشراف بما تحمله الكلمة من المعاني المتعددة. ولهذا يمكن القول بأنه كان صريحاً في كذبه.

وما ورد في قول هرقل: «فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل» فالضعف معناه اللين والاستكانة وقابلية الخير والتقرب منه وبغض الشر والابتعاد عنه. وليست هي في مقابل الشرف الذي يعني الرفعة والأصالة في النسب والاحترام والتقدير في العشيرة والأهل. كما فهم ذلك من كلام ابن حجر.

على أن قريشاً أعطت للضعف مفهوماً جديداً حيث أصبح وصفاً لكل من اتبع رسول الله ﷺ مهما كان شأنه يؤيد هذا قول أبي جهل للمطعم بن عدي حينما أجار رسول الله ﷺ - بعد عودته من الطائف - وكان هو وبنوه بكامل سلاحهم - أمجير أم متابع؟ فقال: بل مجير قال: إذن لن تخفر. ولو كان متابعاً لما استطاع أن يفعل ما فعل ولم يكن قوياً بل سوف يكون ضعيفاً بمفهوم المشركين. فما كان المطعم أقوى من عمر؟.

ونعود بعد الوقوف على السببين اللذين اعتبرناهما أساس الخطأ لنقف على ما ذكرته السيرة من أسماء السابقين إلى الإسلام وقد أحصيناهم في بداية البحث فكان عددهم إضافة إلى رسول الله ﷺ ثلاثة وستين، وذلك بالرجوع إلى عدد من مصادر السيرة، فإذا تتبعنا هذه الأسماء وجدنا أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر. ونسبة هذا العدد إلى العدد السابق هي في حدود الخمس وما كان كذلك لا يقال عنه «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

ونتساءل بعد هذا لماذا لم تكن الدعوة سريعة الخطا في مكة طالما أنها تستقطب الضعفاء... ولماذا لم ينضم إليها كل أولئك الذين كانوا تحت سلطة قريش وهم أضعاف أضعاف الذين أسلموا؟[1].

إن الانضمام إلى صف المسلمين يومئذ لم يكن مغنماً.. وقد مات من مات تحت التعذيب ـ وقد كان بلال غير معذب قبل إسلامه، ألم تكن أسرة آل ياسر في راحة قبل إسلامها.؟..

إن الذين أسلموا يومئذ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له ونصرة نبيه ﷺ يشترك في ذلك الشريف والرقيق والغني والفقير ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب.

نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء. ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية ـ لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة ـ ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ.. ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون..

إن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إسلامه. إنهم يدخلون هذا الدين على اعتبارهم أخوة في ظل هذه العقيدة.. عباداً لله.

وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم. وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحمّلوا أصنافاً من الهوان ما سبق لهم أن عانوها أو فكروا بها.

إن قناعتنا قائمة على أن الإسلام كان ينساب إلى النفوس الطيبة التي هيأها الله لهذا الأمر. وسبق بعضهم ممن أطلق عليهم المشركون

---

(١) وانظر في إيضاح هذه الفكرة فقرة «العبيد في جيش المشركين» ضمن الحديث عن غزوة أحد.

اسم الضعفاء هو التعبير الحق عن عالمية هذا الدين منذ خطواته الأولى. ونعتقد أنه لو كانت لدينا إحصاءات لسكان مكة يومئذ لوجدنا أن نسبة هؤلاء الضعفاء الذين أسلموا إلى الضعفاء الذين لم يسلموا ليست بأكثر من نسبة الأشراف الذين أسلموا إلى غيرهم من أقوامهم ممن لم يسلم.

إنا لا نستطيع أن نطرح من حسابنا ونحن نذكر الأوائل خديجة وأبا بكر وعلي وعثمان والزبير وعبد الرحمن وطلحة وأبا عبيدة وأبا سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون وسعيد بن زيد وعبد الله بن جحش وجعفر وسعد بن أبي وقاص وفاطمة بنت الخطاب. وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة...

الصلاة في هذه المدة:

من المسلّم به أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء والمعراج ولكن مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل كانوا يؤدون الصلاة في هذه المرحلة السرية، وقد ورد ذلك في رواية إسلام علي رضي الله عنه، كما ورد في رواية إسلام عثمان وصحبه الذين أسلموا بدعوة أبي بكر رضي الله عنه.

وهذا يعني أن الصلاة شرعت في وقت مبكر، مما جعل بعضهم يرى أنها شرعت قبل «فترة» الوحي.

وقد اختلف في أوقاتها. قال صاحب الفتح: ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة، إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي[1].

وسواء أكانت الصلاة قبل الإسراء فرضاً أم تطوعاً، فإنها العمل الأول الذي أداه المسلمون بعد التوحيد، وفي ذلك ما فيه من الدلالة

---

(١) فتح الباري ١/٤٦٥ شرح حديث رقم ٣٥٠ من كتاب الصلاة باب: كيف فرضت الصلاة.

على أهمية هذا الركن الذي يأتي به العمل مواكباً لإعلان الإيمان، ولئن كان الإيمان عمل القلب فإن الصلاة هي التعبير عنه فهي الصلة بين العبد وبين خالقه.

ولقد بقي للصلاة صدارتها بين الأركان الأخرى، بعد أن كمل الدين، فهي الركن الذي لا يسقط بحال من الأحوال فلا بدّ من أدائه في السفر والإقامة، وفي المرض والخوف.. ولكن هذا الأداء يكون حسب قدرة المصلي. كما يؤكد هذه الأهمية للصلاة، أنه لا ينوب فيها أحد عن أحد كما يحصل في بعض الأركان الأخرى كالزكاة والحج.

وهذا ما يجعلها الشعار الذي لا تختفي معه هوية المسلم.

الجَهرُ بالدّعوَة وبدء الاضطهاد

إعلانه ﷺ بالدعوة:

كان نزول قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[1] إيذاناً ببدء المرحلة الجديدة، مرحلة إعلان الدعوة ومواجهة الناس بكلمة الحق رضي من رضي وسخط من سخط.

إن الجهر بالدعوة ـ في هذه المرحلة ـ مسؤولية خاصة به ﷺ فالأمر موجه إليه. ولذا خرج بنفسه ليؤدي هذا الواجب، علناً وعلى رؤوس الأشهاد، ولم يوعز إلى المؤمنين بضرورة الإعلان عن أنفسهم. ولهذا نلاحظ استمرار العمل بالسرية:

ـ فقد استمرت دار الأرقم تؤدي دورها حيث يلتقي المؤمنون بالرسول ﷺ لينقل إليهم وحي الله ويزوِّدهم زاد التقوى ويصقل نفوسهم.

ـ الجهر بالدعوة أمر مرتبط بصاحب الدعوة ﷺ لا بالأفراد. ولذا بقي كثير من المؤمنين مخفين إيمانهم حتى مرحلة متأخرة. يدلنا على ذلك قصة إسلام عمر. وكانت في السنة السادسة من البعثة، وكيف أنه لم يكن يعلم بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وهما من السابقين الأولين. أي ممن أسلموا في المرحلة السرية. وفي القصة نفسها أنه ذهب إلى دار الأرقم بعد أن علم ذلك من زوج أخته الذي هو ابن عمه حيث كان ﷺ مع صحابته.

كان ذلك ضرورياً ريثما يشتدّ عود الدعوة ويكثر أتباعها وتكون قادرةً على مواجهة الباطل بكل أساليبه.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٤.

بدأ الرسول ﷺ بقومه تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] صادعاً بما أمر الله تعالى فلم يبعد قومه منه ولم يردّوا عليه.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال: (يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفكسم من النار. يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلائها)[2].

وقد تكرر مثل هذا الموقف. فقد صعد الصفا مرةً ثم نادى: يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله. فقال ﷺ: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟) قالوا نعم قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد) فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[3].

ولعل عدم ردّهم عليه، في بدء الأمر، كان ظناً منهم أنه واحد من أولئك الحنفاء الذين بحثوا عن دين إبراهيم. إن مواقف زيد بن عمرو بن نفيل ما تزال ماثلة في أذهانهم. قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به. ولكني لا أعلمه. ثم يسجد على راحته[4].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٠٤).
(٣) متفق عليه (خ٤٧٧٠، م٢٠٨).
(٤) ابن هشام ١/ ٢٢٥.

على أنه لم يطل سكوتهم، فما أن عاب آلهتهم حتى ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته وكان ذلك سنة أربع من البعثة.

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته لا يني ولا يفتر يقرر الحق ويبين زيف الباطل، يدعو إلى توحيد الله ونبذ هذه الأصنام المتناثرة هنا وهناك دليلاً على وهن الفكر الجاهلي وجموده وانحطاطه.

عند أبي طالب:

كان أبو طالب على دين قريش، وينبغي أن يكون رأيه في محمد مثل رأيهم فرجعوا إليه وكلّمه أشرافهم فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه.

وما كان رسول الله سبّاباً ولا طعاناً ولا فاحشاً، فما عرف لسانه بذاءة القول، ولكن قريشاً وجدت في عيبه آلهتها انتقاصاً لعقولها وطعناً بآبائهم الذين عكفوا من قبل على هذه الأصنام، وكان للعصبية والتعظم بالآباء يومئذ أثره الكبير على سلوك الناس وتفكيرهم.

وتكرر رجوع قريش إلى أبي طالب.. وهم هذه المرة يتكلمون لغة التهديد والوعيد. قالوا: يا أبا طالب إنَّ لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه.

وعظم الأمر على أبي طالب فهو بين أمرين: إما أن يفارق قومه وتقوم العداوة بينه وبينهم، وإما أن يخذل ابن أخيه ويُسلمه، وكلاهما كان أمراً صعباً على نفس أبي طالب.

وبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني في كذا وكذا.. فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق.

وظنّ رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ومسلّمه وأنه قد ضعف عن نصرته فقال: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته) ثم استعبر فبكى ثم قام. فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

إن إصراراً من هذا النوع لا يمكن أن يقف في وجهه خذلان خاذل أو ضعف ناصر. وقد أدرك أبو طالب هذا المعنى وأيقن أن استمرار محمد في دعوته ليس مستمداً من اعتماده على نصرته. وكان عليه أن يختار قومه أو ابن أخيه؟ ولكنه ما له لا يحُكّم عصبيته في نصرة الحق في دعوة ابن أخيه إذا كان الناس يحكمون عصبياتهم في نصرة الباطل!!.

إن كلمة محمد ﷺ لعمه هي كلمة الفصل. فربما كان في خلد بعضهم أنها مجال للمساومة والأخذ والعطاء.. وكأنها صفقة تجارية. ولكن الرسول الكريم أوضح بها أنه ماضٍ في سبيله تنفيذاً، لأمر الله مهما كانت العقبات وأنه لن يوقفه عن السير فيها إلا أن يهلك دونها، وبهذا يضع ﷺ الموقف القدوة بين أيدي الدعاة إلى الله في الأزمان والعصور كلها.

الشغل الشاغل:

أضحت دعوة محمد ﷺ الشغل الشاغل للناس جميعاً في مكة، مسلمهم وكافرهم، فهي حديث البيوت والأندية، حديث الأفراد والجماعات.

المؤمنون مشغولون بتلقي ما يُبلّغهم رسول الله ﷺ متتبعين خطاه ومترسمين أثره، والإيمان يعمر قلوبهم برسولهم وبدعوته.

والكافرون مشغولون بترتيب الخطط للقيام في وجه الدعوة الجديدة والدفاع عن آلهتهم التي باتت مهددةً، وعن جاهليتهم التي أضحت في خطر. وقد هداهم تفكيرهم إلى سلوك طريقين:

ـ طريق يتعلق بالرسول ﷺ.. يقوم على السخرية منه وتسفيه رأيه ورميه بالجنون والسحر...

ـ وآخر يتعلق بالمؤمنين.. ويقوم على التعذيب والإيذاء والفتنة...

تكذيب وسخرية:

إن محمداً ﷺ في الذروة من قريش نسباً وشرفاً، ولو لم يبعث بهذه الدعوة لكانت مكانته الأولى في مكة، فهو من هو خُلقاً وعقلاً وأمانةً وصدقاً. وقريش كلها تقرّ بذلك. أما وقد خرج على معتقداتهم الجاهلية فقد وجدوا له في قواميس لغتهم من الأوصاف، ما يعرفون كذبه في قرارة نفوسهم وهم يرددونه.

إن الرجل الشريف ليس من السهل عليه أن يقوم مقام السخرية، وأن يهُزأ به ويوصف بالجنون والسحر، وما أشبه ذلك. ولكن رسول الله ﷺ هان عليه ذلك في سبيل الله رغم ما فيه من القسوة والشدة على نفسه.

وسلاح الاستهزاء والسخرية سلاح خطير فعَّال ولا يستطيع تجاوزه والتغلب عليه إلا النفوس العظيمة، وأغرت قريش برسول الله سفهاءها فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون.. ورسول الله ماضٍ لأمره مظهر دعوته.

قال ربيعة بن عباد الديلي: رأيت رسول الله ﷺ في سوق ذي المجاز وهو يقول: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب[1].

وسلك النضر بن الحارث سبيلاً آخر في الإيذاء. وكان قد قدم

---

(١) البداية ٣/ ٤١.

الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكّر فيه بالله وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلَفَه في مجلسه - إذا قام - ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس.. ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟[1].

ولم تكن أمُّ جميل امرأة أبي لهب أقل إيذاء من زوجها، فقد اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت وقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[2].

وعلّق أبو جهل على ذكر الله تعالى شجرة الزقوم تخويفاً لهم بها بقوله: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنا منها لنتزقّمنّها تزقُّماً، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦﴾[3].

وقال الوليد بن المغيرة: أينزل على محمد وأترك، وأنا كبير قريش وسيّدها؟ ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي - سيد ثقيف - ونحن عظيما القريتين؟. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ إلى قوله ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[4].

هذا قليل من كثير مما واجهه ﷺ وهو ماضٍ في دعوته يغشاهم في المسجد وفي أنديتهم يُذكّرهم ويُبلّغهم المرة تلو المرة.

وقد سلكت قريش أحياناً سبيل المناقشة والمفاوضة، فقد كان ﷺ يطوف بالكعبة يوماً فاعترضه الأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٠٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم (خ٤٩٥٠، م١٧٩٧).

(٣) سورة الدخان: الآيات ٤٣ - ٤٦ (٤) سورة الزخرف: الآية ٣١.

المخزومي وأمية بن خلف الجمحي والعاص بن وائل السهمي ـ وكانوا ذوي أسنان في قومهم ـ فقالوا: هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ـ إلى آخر السورة[1].

وغريب أن يسفّ عقل هؤلاء ـ وهم ذوو الأسنان في قومهم ـ هذا الإسفاف. وهل العبادة لعب؟ أم هي تجارة تجري عليها صفقات المشاركة والمضاربة. إنهم أغلقوا آذانهم عن سماع الحق وأغمضوا أعينهم عن رؤية الطريق. وسورة «الكافرون» التي نزلت في شأنهم على صغرها تعني المفاصلة الكاملة في الحال والاستقبال. فكيف يجتمع التوحيد مع الوثنية؟ إن الذي يعبد الله تعالى لا يمكن أن يرتكس ويعبد الأصنام. وإن الذي يعبد الأصنام لن يستطيع معرفة عبادة الله تعالى إلا إذا آمن به وكفر بأصنامه... إنهما طريقان مختلفان.

الاضطهاد والفتنة:

قلت: إن الجهر بالدعوة كان مهمة رسول الله ﷺ وبقي المؤمنون بعيدين عن مسرح الأحداث يرقبون فعل الرسول ﷺ وردّ قريش، على أن بعض الصحابة آثروا أن يعلنوا إيمانهم منذ اللحظات الأولى للجهر بالدعوة.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: كان أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سميّة، وصهيب، وبلال والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون يعذبونهم فألبسوهم

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٦٢.

أدراع الحديد وصهروهم في الشمس. وإن بلالاً هانت نفسه عليه في الله ﷻ وهان على قومه. فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد[1].

وقول أبي ذر: أول من أظهر الإسلام المقصود به: إعلانه وعدم الاستخفاء به.

وعلى الرغم من التعذيب الذي لاقاه الصحابة الذين أظهروا إسلامهم فقد كثر عددهم. وكانوا بين رجلين:

إما رجل له عشيرة تحميه أحياناً امتنع بها، وأحياناً كان يلقى فيها العذاب.

وإما رجل لم يكن له ذلك فأصابه الأذى والبلاء.

على أن الصحابة جميعاً كان ينالهم أذى قريش من الاستهزاء والسخرية وكان عليهم أن يتحمّلوا ذلك في أنفسهم. كما كان عليهم أن يسمعوا الاستهزاء والسخرية بالرسول ﷺ وهم يمسكون بأعصابهم وفي نفوسهم ما فيها... ولكن كان عليهم أن يتجمّلوا بالصبر.

ولقد بالغت قريش بالتعذيب الجسدي للمسلمين وتفننت به ونوّعته علّها تردّ هؤلاء عن دينهم. ولكن هيهات هيهات. إن الإيمان قد ملأ عليهم كل أحاسيسهم ومشاعرهم حتى هانت عليهم الدنيا وآثروا الآخرة. وقد عذر الله أولئك المعذبين فيما يقولون حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه وتُسْتَنفذ إمكانات الصبر.

قال سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله. إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطّشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرُّ الذي به حتى يعطيهم ما

---

(١) شرح الزرقاني ١/ ٢٦٧.

سألوه من الفتنة حتى يقولون له: اللات والعزى إلهان من دون الله، فيقول: نعم، افتداءً منهم بما يبلغون من جهدهم[1].

ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله[2]: وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[3].

ويحسن بنا أن نستعرض بعض نماذج التعذيب وما لاقاه الرعيل الأول في سبيل هذا الدين.

آل ياسر:

كان ياسر حليفاً لبني مخزوم. أسلم هو وزوجته سمية وابنه عمار ـ فكانوا أهل بيت إسلام ـ وقد أصابهم من العذاب والفتنة ما أصاب بقية المسلمين من أمثالهم.

وكان بنو مخزوم يخرجون عماراً وأمه وأباه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذّبونهم. ويمرّ بهم رسول الله ﷺ فيراهم على ما هم عليه وهو غير قادر على دفع العذاب عنهم فيقول لهم: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة).

وقد كان كل منهم يعذب مرتين. مرة في نفسه ومرة في أهله فيكون الألم جسدياً ونفسياً في آنٍ واحدٍ. فهو يرى تعذيب أهله وهو غير قادر على شيء. كان ياسر يتحمل العذاب في جسده ويتحمل الألم والحسرة وهو يرى زوجته أم عمار تحت سياط الجلادين ويرى ابنه كذلك.. كذلك كان شعور الزوجة والابن.

وكان أبو جهل هو المشرف على عمليات التعذيب وبمقدار ما هانوا عليه فقد هان عليهم وأسمعته سمية كلمات أغلظت القول فيها له،

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٢٠.

(٢) البداية ٣/ ٥٩.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٦.

فطعنها بحربةٍ كانت في يده فقتلها... وغدت سمية أول شهيدٍ في الإسلام.

وشدّد المشركون على ياسر وعمار، وقد أغاظهم أنهم لم يستطيعوا ردّ امرأة عن إيمانها، فمات ياسر في العذاب أيضاً، وأما عمار فقد تحمّل ما شاء الله أن يتحمل حتى وصل إلى مرحلة الإعياء.. ولم يتركوه حتى نال من الرسول ﷺ ثم جاءه يبكي، ويسأله ﷺ فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان. فقال: يا عمار إن عادوا فعُد وأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1].

بلال:

بلال بن رباح الحبشي. كان رقيقاً عند أمية بن خلف الجمحي. وكان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره. ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو في أشد البلاء: أحد، أحد. كما كان يُعطى للولدان يلعبون به ويطوفون به في شعاب مكة، والحبل في عنقه، وصبر وصبر، فقد هان على قومه وهانت نفسه عليه في الله عزَّ وجلَّ.

خبّاب:

خَبَّاب بن الأرت من السابقين، عُذِّب عذاباً شديداً. فكانوا يعرّونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف ـ وهي الحجارة المحماة بالنار ـ ويلوون رأسه، فلم يجبهم إلى شيء.

قال خباب: أتيت النبي ﷺ ـ وهو متوسد ببردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة ـ فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: (قد كان من كان قبلكم ليمشّط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقّ باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[1].

آخرون:

وممن عذب في الله صهيب بن سنان الرومي، وعامر بن فهيرة مولى الطفيل بن عبد الله، وأبو فكيهة مولى أمية بن خلف، وأم عبيس، وزُنيرة، ولبينة جارية بني مؤمل التي كان يعذبها عمر بن الخطاب ثم يدعها ويقول: إني لم أدعك إلا سآمة فتقول: كذلك يفعل الله بك.

أبو بكر والأرقاء من المسلمين:

كان أبو بكر رضي الله عنه تاجراً من أثرياء مكة، ولم يكن يستطيع رؤية مسلم يعذب في الله، وله القدرة على إنقاذه إلا سعى إلى ذلك. ومرّ يوماً وأمية بن خلف الجمحي يعذب بلالاً، فقال أبو بكر لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل. ثم اشتراه وأعتقه.

وهكذا وجد أبو بكر في ماله وسيلةً هامةً لاستنقاذ ضعفاء المسلمين مما يعانون، فاشترى بعد ذلك: عامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنيرة والنهدية وبنتها، ولبينة جارية بني مؤمل، وأبا فكيهة مولى أمية بن خلف.

وكان يعتق من يشتريه حتى أضرّ ذلك بماله وعاتبه في ذلك أبوه أبو قحافة فقال: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً. فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك. فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عزَّ وجلَّ.

وهكذا تبرز أهمية المال وضرورته في جهاد الدعوة. ولقد كان أبو

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٢) وسيأتي قريباً بيان معناه.

بكر رضي الله عنه السبّاق في هذا الميدان ـ وفي كل ميدان ـ يدفعه إلى ذلك إحساسه بالمسؤولية تجاه هؤلاء الضعفاء طالما أنه يملك ما يستطيع به فكاكهم مما هم فيه من البلاء والشدة.

وهكذا، ومنذ اللحظات الأولى لانطلاق الدعوة يبذل مال الأغنياء طلباً لراحة الضعفاء والمساكين. ولقد تعودت البشرية قبل ذلك في جاهلياتها المتعاقبة أن يستغل الأغنياء ضعف الفقراء لزيادة أموالهم وتوسعة سلطانهم فتكون سعادتهم على حساب شقاوة أولئك.

إن أبا بكر بعمله هذا هو التطبيق العملي الأول لمفهوم المال وكونه وسيلة سعادةٍ، ولكن السعادة في ظل الإسلام ليست ترفاً ولا بطراً، ولكنها عمل خير تسجّله في سجلك. وما نشك أن سعادة أبي بكر وهو يرفع الظلم عن هؤلاء لم تكن تعدلها سعادة.

الهجرة الأولى إلى الحبشة[1]

اشتد البلاء على المسلمين، وآلم رسول الله ﷺ أنه لا يجد وسيلةً لحمايتهم، وأنه لا يقدر على دفع ما ألمّ بهم من البلاء والشدة.

ما كان يملك غير كلمات الإيمان تشحذ الهمم وتشد الأزر وتمنح القوة على الصبر. إن الصبر هو العلاج المهم في مثل تلك الظروف العصبية.

على أن الصحابة بشر يصيبهم ضعف البشر ولقد رأينا كيف جاء خبّاب يشكو إلى رسول الله طالباً منه الدعاء، ويحمر وجه رسول الله ﷺ ألماً من شدة البلاء على أصحابه، وما كان خباب ليأتي وعنده قدرة على الاستمرار في التحمل. فقد كان التعذيب يصل ببعضهم إلى الموت كما حدث لسمية وزوجها ياسر.

وكان على رسول الله أن يطيب خاطره ويعطيه دفعة جديدة في الصبر على البلاء فضرب له أمثلةً من فعل أتباع الأنبياء السابقين (قد كان من كان قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه...) إنه درس عظيم في تحمل البلاء والصبر عليه. إنه من واقع الحياة في درب الإيمان، ثم يبين له ما يطمئنه وهو مجيء ذلك اليوم الذي يسير فيه الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله... إنه الأمن الذي ينشده الصحابة ليستطيعوا تأدية عبادتهم وشعائرهم باطمئنان.

---

(١) وكانت في شهر رجب سنة خمس للبعثة.

إن صورة المستقبل واضحة كل الوضوح في ذهن الرسول الكريم مثله في ذلك مثل مهندس البناء، بين يديه المخطط، إنه في تصور دقيق لكل الجزئيات، ولكن كل شيء يأتي في حينه أثناء التنفيذ. وإن إرساء القواعد هو العمل الأهم. وكثيراً ما تحدث الرسول الكريم عن المستقبل فجاءت الوقائع مصداق ما قال، كان لا بد من الصبر. ولكنكم تستعجلون.

ومع هذا كان لا بد من حل، فالرسالة التي يحملها الرسول الكريم هي للناس وهي العلاج لقضية الإنسان. الإنسان في واقعه وضمن حدود إمكاناته ومن المعالم الكبرى لهذه الرسالة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وكان الحل في قوله ﷺ: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه).

وخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، والمهاجرون هم[1]:

- عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.
- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو.
- الزبير بن العوام.
- مصعب بن عمير.
- عبد الرحمن بن عوف.
- أبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة.

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٢١.

- عثمان بن مظعون.

- عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

- أبو سبرة بن أبي رهم.

- سهيل بن بيضاء.

واستقر هؤلاء في الحبشة في ظل الأمن والاطمئنان. ويبدو - كما تقول بعض الروايات[١] - أن قريشاً حاولت استرجاعهم ولكنهم فاتوها، ولم تعدم قريش الحيلة. فقد أرسلت للمهاجرين خبراً كاذباً مفاده أن هدنةً قامت بين الرسول ﷺ وبين قريش. وأقبل المهاجرون سراعاً من الحبشة. ولكنهم سرعان ما تبين لهم كذب الخبر وكانوا دون مكة بساعة من نهار. فدخلوها ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار[٢]. وكان ذلك في شوال سنة خمس للبعثة[٣].

ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى إيذاء المشركين للمسلمين - وهو آمن - ردّ عليه جواره، وبينما هو في مجلس لقريش وفد عليهم لبيد بن ربيعة قبل إسلامه فقعد ينشدهم من شعره فقال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

---

(١) شرح الزرقاني ١/ ٢٧١.

(٢) شرح الزرقاني ١/ ٢٨٠. ذهبت بعض كتب السيرة إلى أن قصة الغرانيق هي السبب في عودتهم، وهي قصة باطلة، وقد أثبتُّ بطلانها بأدلة قاطعة لم أسبق إليها فيما أعلم، وصدر ذلك في رسالة بعنوان: «الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية» وطبعها المكتب الإسلامي.

(٣) شرح الزرقاني ١/ ٢٧٠.

فقال عثمان: كذبت نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد: متى كان يؤذى جليسكم يا معشر قريش. فقام رجل منهم فلطم عثمان فاخضرت عينه، فلامه الوليد على ردّ جواره فقال: قد كنت في ذمة منيعة فقال عثمان: إن عيني الأخرى إلى ما أصاب أختها في الله لفقيرة. فقال الوليد: فعد إلى جوارك فقال: بل أرضى بجوار الله تعالى.

كان من الصعب على عثمان بن مظعون أن يتميز على إخوانه ممن هم تحت التعذيب ووجد أن السياط التي تدمي الجلد وتمزقه هي أقل على نفسه مما يعانيه حينما يكون في العافية وإخوانه في الشدة. إنها أولية من أوليات هذا الدين أن تكون جماعته كتلة واحدة مثلها مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ـ كما مثل ﷺ ـ. «إن عينه الأخرى إلى ما أصاب أختها في الله لفقيرة» تلك مفاهيم جديدةٌ لم تسمع بها قريش قبل الآن. إنها مقاييس جديدة في الفقر والغنى.. في الراحة والتعب.. إن الغنى رصيد من الثواب يدخر عند الله.. إن عينه الأخرى بحاجة إلى رصيد عند الله يعدل رصيد أختها.

إن دعوةً هذا بعض رصيدها من المفاهيم لن تقهر ولن تغلب. ولن يقف في وجهها ـ بإذن الله ـ شيء طالما استطاع معتنقوها أن يحولوا هذه المفاهيم إلى تطبيق في الواقع يحسّه الناس ويشاهدونه كما فعل الصحابة الكرام.

وقد يتساءل بعضهم: لماذا لم يفعل رسول الله ﷺ ما فعل عثمان، والرسول هو القدوة، وهو الأحق بكل مكرمة؟.

وإنَّ أدنى تأمل لهذا الموضوع يضع يدنا على الجواب: إن الرسول الكريم هو حامل الرسالة والمأمور بتبليغها، وقد هيأ الله أبا طالب لحمايته ولو خضع الرسول الكريم لما أصاب بعض الصحابة من العذاب

لكان ذلك عائقاً عن أداء المهمة وتبليغ الرسالة. وحينئذ تتوقف حركة الدعوة كاملة، أما حين يصاب واحد من المؤمنين فإن الدعوة لن تتوقف. وقد أدرك الصحابة هذا المفهوم. وانبثت كلماتهم التي تعبر عن ذلك في ثنايا الوقائع والأحداث.. «كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله»، «ماذا فعل رسول الله؟». «إياكم أن يخُلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف..».

تلك بعض كلمات الصحابة في الأزمات. على أن الرسول الكريم لم يكن بمعزلٍ عن البلاء والتعذيب. وسوف نذكر ذلك في حينه في بحث قريب إن شاء الله.

جهر بعض الصحابة بالدعوة

أول من جهر بالقرآن:

حدث ما حدث من الفتنة والتعذيب والرسول ﷺ ما يزال يغشى الناس في مجالسهم يدعو ويذكّر، وكان يصلي عند الكعبة رافعاً صوته بالقرآن، ولكن قريشاً وضعت حوله سوراً منيعاً، فلم يكن يجرؤ أحد أن يستمع إليه خشيةً مما يصيبه من أذى قريش. حيث يعدّ ذلك خروجاً على اللات والعزى وكفراً بآلهة قريش والويل لمن يفعل ذلك.

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن - وهو يصلي - تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله بعض ما يتلو، وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقاً منهم. فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع[1].

وقد أدرك الصحابة هذا، ورأوا من واجبهم أن يسمعوا قريشاً هذا القرآن، إسهاماً منهم في نشر الدعوة وأخذاً لدورهم في تحمل أعبائها.

عن عروة بن الزبير عن أبيه قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله وقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعُهُموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في

---

(١) البداية ٣/ ٦٥.

أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾[1] قال ثم استقبلها يقرؤها.

قال: فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن. ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

فكان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة[2] بعد رسول الله ﷺ.

وهكذا بدأ طور جديد من الدعوة فقد بدأ الصحابة يرون مساس الضرورة في أن يأخذ كل مكانه في عملية التبليغ مهما كلف ذلك من مشقة وعذاب.

ونستطيع أن نقول: إن ما قام به عبد الله بن مسعود هو أولى العمليات الإيجابية التي تُعدّ تحدياً لقريش، فقد انتهى دور الخفاء ـ أو أوشك ـ وانهى دور الفتنة فقد تعلم الصحابة الصبر عليها، ولا بد من اقتحام معاقل القوم وإسماعهم كلمات الحق من تلاميذ الدعوة وحملتها.

ولا بد هنا من الوقوف على كلمات عبد الله: «ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً..».

إنه درس من دروس التجربة، فكثيراً ما يكون الوهم من الخوف أكبر من الخوف نفسه وكثيراً ما يكون الخوف ـ وهو الهالة الكبيرة التي تسبق ما يحذره الإنسان ـ مضخماً مرات ومرات بفعل الإرهاب والدعاية. فإذا كسر هذا الوهم مرة هان ما بعدها وهذا ما أكده عبد الله

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان ١، ٢. (٢) ابن هشام ١/٣١٤.

بقوله بعد التجربة، وهو ذو الجسم النحيل والقدّ القصير وهو يقابل الطغاة من أهل مكة في أنديتهم[1].

قريش والقرآن:

كان للكلمة أثرها في حياة العرب. وما الأسواق التي كانت تقام فتلقى فيها القصائد والخطب إلا تعبير عن هذا الأثر. ونبوغ شاعر في قبيلة يعدُّ مناسبةً طيبة تقام الأفراح من أجلها وتهنأ القبيلة عليها من القبائل الأخرى ولقد كان البيت من الشعر قادراً على أن يرفع قبيلة ويخفض أخرى. وقد رأينا بعض الشعراء يسجد للبيت من الشعر يأخذ عليه لبه.

وقد كان الوسيلة الأولى في أداء الدعوة من قبله ﷺ هي إيصال القرآن إلى أسماع القوم. ولا شك أنهم سمعوا بعض آياته فعرفوا خطرها وأثرها ـ وهم أرباب اللغة ـ. وعرفوا أنهم ليسوا أمام فلسفة القول وصياغة الكلام. ولكنهم أمام كلام معجز ليس من صنع البشر، فيه إعجاز اللغة وإعجاز الفكر وبيان الحقائق الكبرى في هذا الكون. وأحسوا أن سماع هذا القرآن خطر على جاهليتهم وأوثانها وعلى زعاماتهم. . .

وكان لا بد من اتخاذ موقف مبكر من هذا القرآن. وقد قصَّ علينا القرآن قراراتهم بهذا الصدد.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ۝٥﴾[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾[3].

كانت هذه قراراتهم. وقد روقب تنفيذها بيقظة تامة. وقد رأينا في

---

(١) ذكرت هذا الموضوع هنا، بعد الهجرة الأولى، وذلك لأن عبد الله بن مسعود لم يكن أحد المهاجرين فيها إلى الحبشة حسب الروايات المعتمدة.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥. (٣) سورة فصلت: الآية ٢٦.

رواية ابن عباس السابقة كيف كان بعضهم يحاول استراق السمع أثناء صلاة النبي ﷺ فإذا رأى أنه عُلم مكانه توارى عن الأنظار.

إن أفراد قريش جميعاً كانوا على رغبة في السماع، الكبير منهم والصغير ولكن الذي يمنعهم هو الخوف. الأفراد يخافون السادة.. والسادة يخافون أن يراهم الأفراد. ويخشى بعضهم من بعض.

خرج أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته. فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه - وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه - فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[١].

هؤلاء هم السادة الذين يقودون الحملة ضد رسول الله ﷺ، والذين يمنعون الناس من سماعه أو الجلوس إليه، إن القرآن يلوي أعناقهم المرة تلو المرة ليقفوا حول بيت رسول الله ليلاً ليسمعوا كلام الله. ما يمنعهم من ذلك فيما بعد إلا تعاقدهم.

إنهم يعلمون أنه الحق، ويعلمون أن محمداً لم يعرف الكذب، ونتساءل في تعجب، ما الذي يحملهم على هذه العداوة؟ وللجواب لا بد لنا من متابعة تتمة الحادثة السابقة.

---

(١) ابن هشام ١/ ٣١٥.

وخرج الأخنس حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة. والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال: ماذا سمعت. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا. وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب. وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

إن أبا جهل يدرك إذاً عظمة القرآن وصدق محمد ولكنه بدافع العصبية والحقد لا يريد للحق أن يعلو إذا كان ارتفاعه على غير يديه. ولذا قام هو ومن كان على شاكلته بإبعاد الناس بأسلوب أو بآخر عن سماع القرآن لما له من أثر على النفوس. وكان الإبعاد يتم تارةً بإثارة الحمية للأصنام وتارة بالدفاع عن عقول الآباء والأجداد. . .

كما أن حادثة إسلام عمر ـ بروايتيها ـ تدل دلالة واضحة أن الجو الذي صنعته قريش استطاع أن يمنع وصول القرآن إلى أذنيه، فلما وصلهما كان إسلامه.

إنه كلام الله تعالى. ومهمة الدعاة إيصاله إلى الأذهان.

أول خطيب دعا إلى الله تعالى:

رأينا كيف أن الصحابة أدركوا ضرورة مساهمتهم في الجهر بالدعوة وكانت الخطوة الأولى خطوة عبد الله بن مسعود.

وألح أبو بكر على رسول الله في الظهور. فقال: (يا أبا بكر إنا قليل). فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته.

وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً مبرحاً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته. ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه ـ أم الخير ـ: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ. . فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب[1] فاسأليها عنه.

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمداً، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكرٍ صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله، قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح قال: أين هو. قالت: في دار الأرقم. قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ.

---

(١) هي أخت عمر.

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ. قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله رقةً شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار فدعا لها فأسلمت[1].

إن هذه الحادثة تحمل في طياتها المفاهيم الكثيرة:

ـ يبدو أن الظهور الذي ألح عليه أبو بكر هو الخروج إلى المسجد ومباشرة الدعوة مع رسول الله ـ كما قدمنا ـ وما الإيذاء الذي نال أبا بكر إلا ردّ الفعل لدى قريش التي شعرت أنها انتقلت من موضع الهجوم إلى موضع الدفاع فلم يعد رسول الله وحده هو الذي يسمع صوته بل بدأت تسمع أصوات أتباعه.

ـ حب أبي بكر للرسول ﷺ ذلك الحب الذي لا تتحدث عنه لغة الحروف. إنه في شدة البلاء يسأل ماذا فعل رسول الله. إنه يفعل ذلك قبل أن يسأل عن نفسه وقبل أن يتفحص جسده وما ألم به. وبعد ذلك لا يهدأ حتى يراه ويطمئن عليه.

ـ ونعجب لذلك الفهم الحركي الدقيق لدى أم جميل. إنها تتجاهل معرفة محمد ﷺ وأبي بكر ثم تقوم بلفتة رائعة، على أساسٍ من فعل الخير، فتذهب مع أم الخير..

ويسألها أبو بكر فتقول له: هذه أمك تسمع؟ إنها تستغرب سؤاله أمامها، ولكنه يطمئنها.

ـ وسؤال أبي بكر عن مكان وجود الرسول ﷺ ـ وهو الرجل الذي قلّما يفارقه ـ يعني أن هناك أكثر من مركز يلتقي به المؤمنون سراً،

---

(١) البداية ٣/ ٣٠ وقد ذكر ابن كثير أن هذه الحادثة قبل إسلام حمزة مباشرة.

ويكون تحديد اللقاء في أحدها آنياً، وإلا فكيف تعرف أم جميل المكان ويجهله أبو بكر وهو لم يغب عن رسول الله ﷺ إلا يوماً واحداً.

قريش في مفاوضة عجيبة:

وسارت خطا الإيمان ثابتةً ـ وإن كانت وئيدةً ـ لم تفلح في إعاقتها وسائل التعذيب والتنكيل. ولم تفلح كذلك الوسائل النفسية من سخريةٍ واستهزاء، وشعرت قريش أنها فشلت، فهذا محمد يروح ويغدو ويجلس إلى الناس ويسمعهم دعوته، وها هم أتباعه يأخذون دورهم في تبليغ دعوتهم.

وكانت إمكانات أبي جهل كبيرةً في الصدّ عن سبيل الله.. فما أن يسمع برجل قد أسلم حتى يأتيه:

- فإن كان الرجل ذا شرفٍ ومنعة أنّبه وخزّاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك. لنسفّهن حلمك ولنقلين رأيك ولنضعن شرفك.
- وإن كان تاجراً قال: والله لنكسّدن تجارتك ولنهلكنّ مالك.
- وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[1].

إنها خبرة كبيرة في إتيان كل إنسانٍ من جهة ضعفه. تماماً كما يصنع علم النفس حينما وضع في خدمة الإجرام ومحاربة الناس. ولكن الخرق بدأ يتسع فها هو الوليد بن المغيرة يأتي رسول الله ﷺ فيقرأ عليه القرآن.. فكأنه رقّ له، وبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لمَ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له...[2].

وكان على قريش ـ وأبو جهل يقودها ـ أن تتخذ موقفاً قبل استفحال الأمور. فإنها تسير في غير صالحها.

---

(١) البداية ٣/ ٥٩.

(٢) البداية ٣/ ٦٠.

وبعد تفكيرٍ وتدبيرٍ، مشت قريش إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة. فقالوا: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً؟.

فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التّخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبَل منهم شيئاً.

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك[١].

ويستغرب المرء هذه المفاوضة العجيبة، ويستغرب كيف أضحى تفكير تلك العقول، وإسفافها إسفافاً لا مثيل له.

وأحسّ أبو طالب أن لا بد من عمل يقوم به ـ حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون ـ فدعا بني هاشم وبني المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه. إلا ما كان من أبي لهب[٢] عدو الله.

---

(١) ابن هشام ١/٣٦٦.

(٢) واسمه عبد العزى وهو أخو أبي طالب وعم رسول الله ﷺ.

قريش بعد إسلام حمزة وعمر

إسلام حمزة:

بعد ذلك اليوم المشهود في المسجد حيث أصاب المسلمين ما أصابهم وفي مقدمتهم أبو بكر رضي الله عنه، أراد أبُو جهل أن يستمر في تصعيد تلك الحملة ضد المسلمين.

ويلتقي الخبيث بالرسول ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. وتسمع مولاة لعبد الله بن جدعان ما جرى وهي في مسكن لها.

ثم انصرف أبو جهل إلى نادٍ من أندية قريش عند الكعبة فجلس معهم.

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ﷺ ـ أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنصٍ له ـ وكان صاحب قنص ـ وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة. وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدهم شكيمةً.

فلما مرّ بالمولاة ـ وقد رجع ﷺ إلى بيته ـ قالت: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم. وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكرهه. ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

وخرج حمزة مغضباً فلم يقف على أحد. ودخل المسجد ونظر إلى

أبي جهل جالساً في القوم. فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة. ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فردّ علي ذلك إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً[1].

وما نظن أن إسلام حمزة كان مرتجلاً نتيجة غضب مفاجئ أو عصبية جاهلية.

إن حمزة هو عم الرسول ﷺ وهو من ألصق الناس به. وإذا كان حديث محمد على كل لسان في مكة فليس من المعقول أن يكون على غير علم بما يحدث له يوماً بعد يوم ولا شك أن الإيمان قد استقر في قلبه قبل ذلك ولكن تأخره في إعلان ذلك ربما كان للتريث والتأني وقد قال ﷺ: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر...).

إن الإسلام كان قد أخذ مأخذه من نفس حمزة. وقد استقر الإيمان في عقله وقلبه، ولم تكن الحاجة ملحة قبل ذلك إلى إعلان إيمانه فلما كانت هذه الحادثة وجدت كلمات الإيمان المستقرة في الباطن سبيلها إلى الظاهر، وكان غضبه هو فرصة التعبير عما تكنه نفسه.

وربما تساءل بعضهم ألم يكن رسول الله قادراً على الرّد على أبي جهل؟ لا شك أن شجاعة النبي ﷺ أكبر من ذلك. ولكنه هل يتحول بعد الدعوة إلى مصارع... إنه أمر بالإعراض عن الجاهلين.

وحمزة حينما يتحول إلى صف المسلمين فذلك كسب كبير لا تعدله إلا خسارة قريش بفقدانه من صفها. إنه كما رأينا فتى قريش يحبه الجميع ويقدرونه ويجلونه. وإن إسلامه سيجعل الكثيرين يعيدون النظر في موقفهم من الإسلام.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٩١.

والتحق حمزة بالمدرسة الأولى - دار الأرقم - ليعرف عن كثب تعاليم الدين الحنيف.

وكان إسلامه رضي الله عنه سنة ست من النبوة[1].

إسلام عمر بن الخطاب[2]:

لم يمض كبير وقت على إسلام حمزة حتى أسلم عمر. وكان صنو أبي جهل في شدته على رسول الله وعلى المسلمين. فخرج يوماً متوشحاً سيفه، يريد رسول الله وبعض أصحابه وقد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا، ولقيه في طريقه نعيم بن عبد الله النحام - رجل من بني عدي قد أسلم واستخفى بإسلامه - فقال: أين تريد يا عمر؟.

فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟.

قال: وأي أهل بيتي؟.

قال: ختنك[3] وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عائداً إلى أخته وختنه - وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها ﴿طه ۝١﴾ يقرئهما إياها - فلما سمعوا حسّ عمر، تغيب خباب في مخدع[4] لهم، وأخذت فاطمة الصحيفة فأخفتها، وقد سمع

---

(١) شرح الزرقاني ١/ ٢٥٦ نقلاً عن العتقي وابن الجوزي في تحديد الوقت.

(٢) كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة. البداية ٣/ ٧٩.

(٣) الختن: الصهر، أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ.

(٤) المخدع: البيت الصغير يكون داخل البيت الكبير.

عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[1] التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً؛ قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالا له: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد وكان عمر كاتباً ـ قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه ۝١﴾ فقرأها، فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

وسمع خباب ذلك فخرج إليه فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمسِ وهو يقول: (اللهم أعزَّ الإسلام بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب)[2]، فالله الله يا عمر، فقال عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته. قام رجل من الصحابة فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله وهو فزع فقال: يا

---

(١) الهينمة: صوت كلام لا يفهم.

(٢) قال في شرح الزرقاني: رواه الترمذي عن ابن عباس. ورواه أحمد والترمذي ـ وقال: حسن صحيح ـ وابن سعد والبيهقي عن ابن عمر، رفعه بلفظ: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب) ١/ ٢٧٢.

رسول الله هذا عمر متوشحاً السيف. فقال حمزة: فائذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال ﷺ: (ائذن له) فأذن له الرجل. ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة وقال: (ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة). فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم.

هذه إحدى روايتي إسلام عمر. على أن الرواية الثانية ـ فيما يظهر ـ كانت حادثة ممهدة لإسلام عمر. ولئن كانت هذه الرواية تبين لنا السبب المباشر لإعلان إسلامه، فإن الرواية الثانية توضح أن الإيمان بدأ يدب إلى قلبه، ويأخذ أبعاده في نفسه من قبل هذا، ولنستمع بهذا الصدد إلى أم عبد الله بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة قالت:

والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه ـ قالت: وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا. فقال: صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك فقلت له: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

إن قول عامر في عمر كان نتيجة ما يعلمه من قسوته وشدته على المسلمين ولكن مطالعة أم عبد الله كانت صادقة فالعطف والحزن الذي أبداه عمر ما كان مسحة ظاهرة على وجهه ولكن آثاره كانت آخذة في أعماق نفسه، لقد تسلل الإيمان إلى نفسه من خلال ما رآه من ثبات

المؤمنين وإصرارهم من خلال تعاليهم على كل الروابط في سبيل عقيدتهم.

ولننتقل إلى بعض ما ورد في الرواية الثانية. قال عمر... جئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله قائم يصلي... فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول. فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنَّه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثياب الكعبة، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام...

إن الرغبة في السماع أولاً ثم البكاء ثانياً يعني أن آثار الإيمان قد استقرت طلائعها في نفسه فهو يتابع الطريق.

ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند حادثة إسلام عمر:

- إن عمر - بعد إسلام حمزة - كان أحد الرجلين اللذين لهما خطرهما في قريش وإسلام واحد منهما سيكون له أثره في إضعاف قريش من جانب وزيادة قوة المسلمين من الجانب الآخر، وكانت دعوته ﷺ اللهم أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب.

- وقال ابن مسعود يصف أثر ذلك: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه»[1].

وقال صهيب: لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٢، ورواه ابن أبي شيبة والطبراني [شرح الزرقاني على المواهب ١/ ٢٧٧].

(٢) رواه ابن سعد [شرح الزرقاني ١/ ٢٧٧].

ـ إن الحادثة تلقي الضوء على فقه الصحابة الحركي للدعوة. فقد رأى نعيم بن عبد الله النحام ـ عمر في حالة من الغضب ـ وعمر لا يعلم بإسلامه وهذا ما أعطى نعيماً حرية الحركة ـ فكان عليه أن يستوقفه فربما كانت غضبته تلك تتعلق بالمسلمين، وأجرى معه الحوار وعرف أن هدفه هو الرسول ﷺ. وكان عليه أن يغير اتجاه هذا السيل بعيداً عن رسول الله، إن مصاب الدعوة بأي فردٍ من أفرادها لن يعطل حركتها ولكن إصابة رسول الله ﷺ يعني إصابة القيادة. كان عليه أن يفشي سراً جانبياً من أسرار الدعوة في سبل الحرص على حياة قائدها هذا السر الذي بقي ثلاث سنين وعمر لا يدري به ـ إنه إسلام أخته..

ـ وفي بيت فاطمة انتهت حدة الغضب فقد أوقع عمر بختنه سعيد وضرب فاطمة فإذا بالدم يسيل على وجهها. هذا الموقف. هو الذي كان يخشاه سعيد وتخشاه فاطمة أما وقد حدث فلا عليهما أن يعلنا إسلامهما في وجه عمر صريحاً.. نعم أسلمنا وآمنا.. فاصنع ما بدا لك. وسكت الغضب وحل مكانه الندم.. ولكن ألا يحسن أن يعرف ماذا كان يسمع.. واغتسل تنفيذاً لطلب أخته.. إنه الآن يتناول الصحيفة في وضع طبيعي يسيطر فيه العقل.. وتكون الهداية.

ـ وبلغ الخبر قريشاً فأصابتها كآبة لم تصبها من قبل. وما إن دخل عمر المسجد حتى ثار القوم إليه فما برح يقاتلهم ويقتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، حتى أعيا فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم أو تركتموها لنا. ولم ينهِ الموقف إلا دخول العاص بن وائل الذي أمرهم بتركه..

ـ وبعد: إن الذي تلقى عمر وهو يطرق الباب على المسلمين، هو رسول الله من دون أصحابه. آخذاً بمجمع ثيابه معنفاً إياه ـ وهو لا يدري أن الإيمان قد دخل قلبه ـ حتى شهد شهادة الحق.. وكبّر رسول الله.

أليس في هذا ما يحني الرؤوس إجلالاً لهذا الرسول الكريم فهو في كل ميدان فارسه وفي كل حلبة سيدها.

ـ جاء في إحدى روايات إسلام عمر قوله: قلت: وما ذاك قال: أختك قد صبأت، فرجعت مغضباً، وقد كان ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه. وقد ضم إلى زوج أختي رجلين فجئت حتى قرعت الباب[1]...

وتستوقفنا هذه المعترضة في هذه الرواية، وهي ضم الرجل والرجلين إلى الرجل.. يصيبان من طعامه.

إن الظروف الحرجة لها تشريعها. وعلى الغني أن يحمل الفقير، وهذه أولية من أوليات هذا الدين. وهكذا تتغلب الدعوة منذ خطواتها الأولى على معضلة هامة طالما أثرت في سير الدعوات ـ تلك هي الجانب الاقتصادي ـ إن خباب بن الأرت ـ وهو أحد الرجلين الذين ضما إلى سعيد بن زيد ـ لم يكن قبل إسلامه بحاجة إلى أحد فقد كان يعمل السيوف، والذي يبدو أنه بعد إسلامه أصابه بلاء الجاهلية التي وضعت المخططات لتكسيد تجارة التجار المسلمين والتضيق على كل فرد في مورد رزقه[2] فكان بحاجة إلى المساعدة ريثما تمر الأزمة.. إنه منهج الإسلام.

لجوء قريش إلى المغريات:

بعد إسلام حمزة وعمر رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون وأن أمر رسول الله إلى منعة وقوة. وبدأ بعض الذين كانوا يخفون إسلامهم بإظهاره.

كانت قريش في ناديها، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده

---

(١) شرح الزرقاني ١/ ٢٧٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك في بحث سابق تحت عنوان: قريش في مفاوضة عجيبة. ص: ٧٢.

فقال عتبة: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها. فنعطيه أيها شاء ويكف عنا. قالوا: بلى يا أبا الوليد.

وقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي: إنك منا حيث قد علمت من السطة[1] في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم. فرّقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: (قل يا أبا الوليد أسمع).

قال: يا ابن أخي:

- إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.

- وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك.

- وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا.

- وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[2] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم. قال: (فاسمع مني)، قال: أفعل. فقال:

(بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ...﴾[3]).

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى

---

(١) السطة: الشرف.
(٢) الرئي: ما يتراءى للإنسان من الجن.
(٣) سورة فصلت: الآيات ١ ـ ٥.

رسول الله إلى السجدة منها فسجد ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك).

فقام عتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

إن عتبة وهو يعرض ما يعرض على رسول الله ﷺ يستعمل أقوى الأسلحة مضاء فكثيراً ما خار الصناديد أمام المغريات... إنها الثروة والملك.. والشرف.. ولكن مضاءها في غير حملة العقيدة. إنها تصلح مع الذين يدعون الوطنية والقومية...

وكان جواب رسول الله ﷺ حاسماً، إن اختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسة كان منها:

- إن هذا القرآن تنزيل من الله.
- بيان موقف الكافرين وإعراضهم.
- بيان مهمة الرسول وأنه بشر.
- بيان أن الخالق واحد هو الله وأنه خالق السماوات والأرض.
- بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها. وإنذار قريشٍ صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود.

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٣.

استمع عتبة إلى هذه المعاني بكلمات الله الخالدة فكان لها أثرها الكبير في نفسه وعاد ينصح قومه ويشير عليهم بما فيه الخير لو استمعوا إليه. ولكن الذي قدم النصح إلى غيره لم يستفد منه لنفسه. إنه كان يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرى. سلك الإيمان طريقه إلى نفسه ولكن إصاخته إلى قومه وخوفه من قولهم فيه جعله لا يتعظ بما سمع.

لجوء قريش إلى اليهود:

كانت قريش تريد أي ممسك على الرسول ﷺ تحرجه فيه، وقد باءت كل جهودها السابقة بالفشل، فرأت أن تستعين على ذلك باليهود باعتبارهم أهل كتاب، وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عند قريش.

وذهب النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى يثرب، وفي لقائهما مع اليهود كانت تعليمات أحبارهم، أن يسألوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب فهو نبي وإلا فهو متقول[1].

ورجع الوفد إلى مكة، حاملاً في جعبته الأسئلة التي جاءت قريش لتطرحها على رسول الله ﷺ.

قالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول كانت لهم قصة عجيبة، وعن رجل كان طوافاً، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (أخبركم بما سألتم عنه غداً - ولم يستثن[2] -) فانصرفوا عنه.

ومكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى وجد أهل مكة فرصتهم للنيل من الرسول الكريم وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها وهو لا يخبرنا عما سألناه.

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٠٠.

(٢) أي لم يقل إن شاء الله.

وحزن رسول الله ﷺ لمكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاء جبريل بسورة الكهف[1] فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية، والرجل الطواف. وقول الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[2].

إن الرسول ﷺ كان حريصاً على إسلام القوم، باذلاً جهده ما استطاع في سبيل ذلك، وهم مدبرون، فلما سألوه أسئلتهم توقع أن إسلامهم سيعقب الإجابة عليها، فأجابهم مسرعاً بأنه سيعطيهم جواب ما سألوا غداً...

إن قريشاً لم تكن تريد الإيمان بحال من الأحوال، ولكنها فعلت ذلك؛ لعلها تجد الرسول وقد أقيمت عليه الحجة، بسبب عدم إجابته على أسئلتها، ولذا لم ينتج عن هذه الحادثة أن آمن أحد منهم، أو أنهم كفوا أذاهم عنه وعن المؤمنين.

وتضمنت السورة عتاباً رقيقاً للرسول ﷺ على اهتمامه الكبير بهم في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾[3].

كما تضمنت درساً عملياً هاماً، كابد منه الرسول ﷺ ما كابد مدة أربعة عشر يوماً... ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟يْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ..﴾[4].

على أن هذا التأخر، كان حجة كبرى على قريش، إذ يعني: أن الرسول ﷺ لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو وحي الله تعالى وأن مهمته التبليغ للرسالة.

---

(١) في رواية ابن هشام ما يوهم أن ذكر الروح ورد في سورة الكهف حيث قال: ثم جاءه جبريل من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبة على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الله: الفتية والرجل الطواف اهـ. ولم يوضح أن ذكر الروح ورد في سورة الإسراء.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦.

(٤) سورة الكهف : الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

الإذن بالهجرة الثانية:

لم يتحسن وضع المسلمين بعد عودة مهاجري الحبشة من الهجرة الأولى فما زالت كل الأسباب التي دعت للهجرة الأولى قائمة بل إن قريشاً زادت من شدتها وغلظتها عليهم، فأذن لهم ﷺ في الخروج إلى الحبشة مرة ثانية[1].

وخرج المسلمون أرسالاً ـ كما تقول أم سلمة ـ حتى اجتمعوا في الحبشة فكانوا بخير دار إلى خير جار آمنين....

وكانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة.

قريش تبعث رسلها إلى النجاشي:

ولم يطب للمشركين أن يروا المسلمين في راحة وأمن. فاجتمعوا على أن يرسلوا إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص طالبين إرجاعهم وأرسلوا معهم الهدايا الكثيرة له ولمن حوله..

واستطاع عبد الله وعمرو أن يمهدا للأمر بدفع الهدايا إلى البطارقة، وطلبا مساعدتهم عندما يستشيرهم النجاشي. ثم دخلا عليه فقدما له الهدايا. فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف

---

(١) ورد ذكر المرة الثانية في زاد المعاد ٣/ ٢٥ والبداية ٣/ ٦٧.

قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وصدَّق البطارقة قولهما، وطلبوا من النجاشي تلبية طلبهما، وكان عمرو وعبد الله يتخوفان أن يسمع الملك كلام المسلمين...

وغضب النجاشي ثم قال: لا لعمر الله. لا أردهم عليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم جاؤوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري...

وأرسل إليهم فدعاهم وسألهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

وتكلم جعفر بن أبي طالب فبين ما كانوا عليه في الجاهلية وما جاء به رسول الله ﷺ.

فقال النجاشي: هل معك شيء مما جاء به عن الله. قال: نعم ثم قرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾[1]. فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته، ثم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ ثم قال لهما: انطلقا والله لا أسلمهم إليكما.

وقال عمرو لصاحبه: والله لآتينه غداً عنهم بما يستأصل به خضراءهم. ثم غدا عليه فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم ـ وقد علموا ما يريد ـ قالت أم سلمة: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم يتشاورون ثم قالوا: نقول ما قال الله وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

ودخلوا عليه فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم. قال جعفر: نقول الذي جاء به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها

---

(١) سورة مريم: الآية ١.

عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود... اذهبوا فأنتم بأرضي آمنون.

الدروس المستفادة:

ماذا كان يتوقع عمرو من المسلمين في الجواب على ذلك السؤال؟ إن الذين تركوا أهلهم وديارهم وبلدهم في سبيل الحق الذي آمنوا به، هل يتنازلون عن هذا الحق من أجل إقامة مؤقتة. وإذا كانت قد هانت عليهم أرضهم في سبيل ما آمنوا به فكل أرض أخرى هي أهون. أما ما تخوفه المسلمون فهو أنهم وجدوا الراحة والاطمئنان في بلده، وعدم رضاه يعني التفتيش عن أرض أخرى.

ونتساءل ما الذي تريده قريش من المسلمين؟ ألم يتركوا لها مكة. فما الذي تريده من إعادتهم؟ إنها تريد التضييق عليهم حتى يتركوا عبادة الله ويعودوا إلى عبادة اللات والعزى. إن الكفر لا يطمئن لوجود الإيمان أياً كان[1].

ونتساءل أيضاً ـ وقد استعرضنا أسماء المهاجرين، فلم نجد بينهم بلالاً ولا صهيباً ولا خباباً، وهناك شك في هجرة عمار ـ نتساءل لم لم يهاجر هؤلاء وهم الذين نالوا ما نالوا من التعذيب والابتلاء؟.

إن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم عذبوا حتى مل المعذبون ورأوا أن لا فائدة من ذلك. وكأن التعذيب كان لقاحاً مضاداً لجرثوم المرض ـ الذي هو الخوف ـ فما عادوا يهتمون، إن كل ما لدى قريش من وسائل في التنكيل قد خبروه وعرفته أجسادهم.

---

(١) ألسنا نشاهد في أيامنا مقاومة الحركات الإسلامية في كثير من البقاع، وتتبع أفرادها حتى خارج حدود وطنهم اغتيالاً واختطافاً. إن الكفر هو الكفر في الماضي والحاضر، وما كان للجاهلية أن تهادن الإسلام، وإذا بدا هذا في يوم من الأيام فإنما لتستكمل الجاهلية قوتها،.. ومع ذلك يظن كثير من المسلمين أن من الممكن التعايش مع الجاهلية. ليتنا نستفيد من دراسة التاريخ.

ثم إن قريشاً شغلت عنهم بالمسلمين الآخرين الذين بدؤوا يظهرون في كل قبيلة وفخذ. . .

وبعد فما الذي تعنيه الهجرة إلى الحبشة في قاموس العقيدة.

إن الإسلام جاء بالتوحيد فيما ينبغي أن يكون في حياة المؤمن شيء ما، أو قيمة ما، تزاحم هذا المفهوم أو تنقص من حقه.

إن الذين بعث إليهم - وفيهم - رسول الله ﷺ. كان يؤثر في سلوكهم ونفسياتهم أمران:

١ - الارتباط بالقوم ممثلاً بالعشيرة والقبيلة.

٢ - الارتباط بالأرض. . .

وهما أمران يزاحمان في النفس معاني التوحيد. وكان لا بد من التّخلص عملياً وليس قولاً من ذلك.

وكان إعلان الإيمان تخلصاً من العصبية القبلية ليصبح الولاء للمؤمنين وما تحمّل المشاق والبلاء في سبيل المحافظة على الارتباط برسول الله إلا التعبير الواقعي الحق على أن الارتباط الجاهلي قد انتهى. وقد عبر المشركون عن ذلك بأن الرسول ﷺ فرق جماعتهم. فقد وهت وتهاوت تلك الروابط لتقوم مقامها روابط من نوعية العقيدة التي استقرت في نفوس المؤمنين إنها روابط الإيمان فكانت الأخوة في الله. . .

أما الارتباط بالأرض فقد كانت مكة أم القرى وكانت العاصمة الدينية للعرب قاطبة، وكان موسم الحج كل عام يؤكد هذه المكانة، فسكانها هم حماة الحرم. . وإذن فقد تحول الارتباط بهذه الأرض إلى مزايا نفسية واجتماعية جعلت سكانها أكثر وأكثر ارتباطاً بها.

ولئن كان الإسلام لم يزد مكة إلا رفعة فإن الهجرة كانت تعني فيما تعنيه أنه في حال تعارض أمر العقيدة مع أيِّ أمر فإن القضية تحل لحساب العقيدة. فإذا كان المسلمون في مكة، وطنهم الأصيل، لم يعودوا قادرين فيه على ممارسة شعائر دينهم وإعلان عقيدتهم فلا مناص من أن تثبت العقيدة أنها هي الأولى.

وكانت الهجرة هي التطبيق العملي لأولوية العقيدة. وترك الأرض - بكل ما تعنيه من وشائج ومصالح وارتباطات - في سبيلها، وكان لا بد أن يكون الدرس عملياً. ذلك أن الدروس النظرية في العقيدة غير مجدية.

ولعل هذا يفسر لنا عدم ضرورة اشتراك بلال وأمثاله في تطبيق هذا الدرس، بينما كان غيرهم بحاجة إليه[1]، مثلهم في ذلك مثل الأغنياء والفقراء فإن الأغنياء هم الذين يعنيهم فقه الزكاة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للفقراء.

عودة بعض المهاجرين إلى مكة:

عاد بعض الذين هاجروا - إلى الحبشة - إلى مكة ثانية.

والسبب الحقيقي لرجوعهم، هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بقوله: قال ابن سعد وغيره: إنهم لما سمعوا مُهاجرَ رسول الله ﷺ إلى المدينة. رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بمكة سبعة، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً[2].

وأما الذين لم يعودوا فقد أقاموا في الحبشة حتى طلب الرسول ﷺ عودتهم، وذلك عام خيبر، حيث رجعوا مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة.

---

(١) يحسن بنا أن نذكر أن أبا بكر استأذن رسول الله في الهجرة، فأذن له فخرج مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه ابن الدغنة فقال: أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي... فقال: ارجع فأنت في جواري، ودخل مكة في جواره ثم رده عليه مؤثراً جوار الله سبحانه، وذلك حينما طلبت قريش إلى ابن الدغنة أن يطلب من أبي بكر الاستخفاء بقراءته في بيته، فقال له أبو بكر: أو أرد عليك جوارك...

(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٦.

ويؤيد قول ابن القيم، ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها، وهي تروي حديث هجرة أبيها، قالت: «قال رسول الله ﷺ: (قد رأيت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما حرتان)، فخرج من كان مهاجراً قِبلَ المدينة، حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين. . .»[1].

وهكذا تبين السيدة عائشة رضي الله عنها سبب عودتهم، مما لا يبقى معه مجال للآراء الأخرى، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٩٠٥ وفي مسند أحمد ٦/١٩٨.

الإعلام في مواجهة الدعوة

حضر موسم الحج، ومن البداهة أن الرسول ﷺ سيسعى جاهداً في تبليغ دعوته وعرضها على من تسمح له الفرصة بلقائه خلال أيام الموسم، وفطنت قريش لذلك في الوقت المناسب، فاجتمع نفر منهم إلى الوليد بن المغيرة ـ وكان ذا سن فيهم ـ فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذبَ بعضكم بعضاً. ويردّ بعضكم قول بعض.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول: كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وأقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر. جاء بقولٍ هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبُل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره.

وأنزل الله في الوليد قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾[1].

واندفع رسول الله ﷺ يبلغ رسالته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله لمن لقوا من الناس. ومهما يكن من أمر فإن العرب في ذلك الموسم صدروا بأمر رسول الله فانتشر ذكره في البلاد كلها.

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١١ ـ ٢٦.

الحصار في الشعب

الصحيفة الظالمة وآثارها:

لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أمناً، وأن حمزة وعمر قد أسلما وأن الإسلام فشا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ومنعوه ممن أراد قتله، وشارك في ذلك كفارهم حمية على عادة الجاهلية.

فلما رأت قريش ذلك، أجمعوا أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم والمطلب كتاباً، أن لا يعاملوهم، ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. وفعلوا ذلك وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة(١).

قال ابن إسحاق: فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فكانوا معه كلهم، إلا أبا لهب فكان مع قريش(٢).

كان ذلك في شهر محرم سنة سبع من المبعث(٣).

وقد اتخذ أبو طالب من الإجراءات ما هو كفيل بحمايته ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم، أمر رسول الله فاضطجع في فراشه، حتى يرى ذلك من أراد به مكراً أو اغتيالاً، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٩٢ الحديث ٣٨٨٢ نقلاً عن ابن إسحاق وموسى بن عقبة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المواهب اللدنية. انظر الزرقاني ١/ ٢٧٨.

أو إخوته أو بني عمه فاضطجعوا على فراش رسول الله وأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه[1].

ومرت الأيام بطيئة، وشددت قريش من قبضتها، فعدت على من أسلم - ممن لم يهاجر إلى الحبشة - فأوثقوهم وآذوهم، وعظمت الفتنة واشتد الكرب، وبدأ الجهد يأخذ مأخذه من المحصورين، حتى باتت تسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من الجوع من وراء الشعب.

لقد أكلوا ما لا يؤكل وتقووا بما لا يتقوى بمثله ولكن الصبر على البلاء هو العدة في التغلب على الأزمات في أوقات المحن.

وتحمل رسول الله ﷺ ما لم يتحمله غيره، فهو في الطعام والشراب واحد من القوم حاله كحالهم ولكنه كان يحمل همَّ الجميع يحزن لبكاء الصبي، وهو لا يجد ما يسكته، ويتألم وهو يرى وجوه النساء وقد فارقتها حيوية الحياة، ويتأثر وهو يرى وجوه أصحابه وأقربائه وقد فارقتها نضرتها وأثر فيها الإعياء.

وقيادة الناس في مثل هذه الظروف العصيبة ليست أمراً سهلاً ولكن رسول الله ﷺ كان قادراً - بعون الله - أن يتغلب على ذلك كله، فهو يقوي من عزيمتهم ويحدثهم عن جزاء الصابرين.

كانت فرصة المحاصرين الوحيدة للاتصال بالناس هي موسم الحج. وما كانت المحنة لتنسيهم واجب دعوتهم بل كانوا يبذلون جهدهم في نشر عقيدتهم وما جاء به دينهم. ثم تعود الحياة بعد انتهاء الموسم إلى ما كانت عليه..

وقام أبو لهب بأداء دوره الكامل خدمةً للشيطان، وتعبيراً عن تعاونه مع الشرك، وليقف مزهواً أمام هند بنت عتبة يحدثها عن بلائه ويسائلها هل نصرت اللات والعزى؟ فتقول: نعم فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة..

---

(١) الزرقاني ١/ ٢٧٩.

وكان من جملة بلائه أن الصحابة كانوا إذا سمعوا بالعير قادمة إلى مكة نزلوا إلى السوق ليشتري الواحد منهم قوتاً لعياله فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً. وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن لا خسار عليكم. فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يطعمهم منه. ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا...

ومرت سنتان أو ثلاث، كابد فيها النبي ﷺ ومن كان معه ما كابدوا،. وتعلموا دروساً في الصبر جديدة ومنوعة وبذل أصحاب الأموال أموالهم وفي مقدمتهم: أبو طالب وخديجة زوج الرسول ﷺ.

قلنا ـ في بحث الهجرة إلى الحبشة ـ: إن القاعدة التي يقوم عليها البناء الشامخ لا بد أن تتوافر فيها الصفات الكفيلة باستقرار هذا البناء وثباته، وبيَّنا كيف استطاعت العقيدة أن ترتفع على روابط العصبية وعلى الصلة بالأرض. ونلاحظ اليوم في محنة الحصار اختباراً آخر هو التحرر من حاجات الجسد في الطعام والجنس، وقد أثبت المسلمون عملياً قدرتهم على ذلك وهي حاجات ضرورتها أكبر وأمس من الحاجات النفسية السابقة. وهكذا ينتقل المسلمون من دورة إلى أخرى مبرهنين أن عقيدة الإيمان قدرتها عجيبة في صياغة النفس الإنسانية، إن حصاراً من هذا النوع يدوم سنتين أو ثلاثاً قادر على أن يطأطئ الرؤوس ويخضعها ولكنه لم يستطع فعل شيء سوى أنه زاد حماس المؤمنين لإرادة التغيير التي ترفع الظلم لتقيم مكانه العدل والنصف.

موقف قريش:

لا شك أن قريشاً كانت على علم بما نزل بالمسلمين والمحاصرين ذلك أنها تتبع أخبارهم لتعرف مدى نجاح مخططها. وهي تمني نفسها أن ينزل القوم تحت وطأة الجوع ويسلموا محمداً.

ولكن طول المدة وصبر المسلمين - رغم بكاء الصغار - جعل بعضهم يراجعون حسابهم وخاصة ممن لهم رحم تربطهم بالمحاصرين. فكان الواحد منهم يأتي بالجمل ليلاً وقد حمل عليه الطعام حتى يصل به إلى فم الشعب فيخلع خطامه من رأسه ثم يضرب على جنبه فيدخل الشعب.

من هؤلاء حكيم بن حزام وهشام بن عمرو بن ربيعة.

وهكذا أضحت بعض النفوس تواقةً إلى نقض الصحيفة وإنهاء العمل بها.

ما بين كتابة الصحيفة ونقضها:

إن شظف العيش ومرارة ضيقه لم يؤثر في سير الدعوة، فهذا رسول الله ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهراً منادياً بأمر الله تعالى لا يتقي فيه أحداً من الناس.

ولئن منعت قريش عنه وعن قومه الطعام واللباس فهو لم يمنعهم نصحه ودعوته إلى الخير. ونعرض هنا بعض الأحداث التي يغلب على الظن أنها وقعت في هذه الفترة[1]:

• جلس رسول الله ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد. فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس رجال من قريش فتكلم ﷺ. فعرض له النضر فكلمه ﷺ حتى أفحمه. ثم تلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾[2] ثم قام ﷺ.

وأقبل عبد الله بن الزبعرى حتى جلس فقال له الوليد: والله ما قام

---

(١) قال ابن كثير: ذكرها ابن إسحاق (هنا) وهي أمور مناسبة لهذا الوقت. ولهذا قال الشافعي رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على ابن إسحاق، البداية ٣/ ٩٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٨، ٩٩.

النضر لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد. وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته. فسلوه أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة - واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى.

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس ورأوا أن عبد الله قد احتج وخاصم، وذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده. وأنزل تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ . . .﴾[1].

• ولقي أبو جهل رسول الله ﷺ فقال: والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾[2] وكف ﷺ عن سب آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله.

• بلغ أبيَّ بن خلف أن عقبة بن أبي معيط جلس إلى رسول الله يستمع منه فقال له: وجهي من وجهك حرام أن أكلمك إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، وفعل ذلك عقبة عدو الله فأنزل تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾[3].

• وأخذ أبي بن خلف عظماً بالياً ففتَّه بين أصابعه وقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم - ونفخه في وجه رسول الله ﷺ - فقال ﷺ: (نعم أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ثم يدخلك الله النار)، فأنزل الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠١.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٧.
(٤) سورة يس: الآيتان ٧٨، ٧٩.

• ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾.

وفي مجلس من المجالس كان رسول الله ﷺ يتحدث إلى الوليد بن المغيرة طامعاً في إسلامه فبينما هو على ذلك إذ مر به ابن أم مكتوم ـ وكان أعمى ـ فكلم رسول الله ﷺ وجعل يستقريه القرآن فشقَّ ذلك على الرسول حتى أضجره وذلك أن شغله عن الوليد وما طمع فيه من إسلامه. فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾[1].

إن رسول الله ﷺ كان منهمكاً شديد السعي لإيمان أمثال الوليد فهم القدوة وهم المؤثرون في المجتمع المشرك وإيمانهم يعني انتهاء أزمة الحصار والانطلاق بالدعوة في ميادين جديدة. وتنزل الآيات لتطلب إلى رسول ﷺ ألا ينسَ مهمته الأولى فهي التبشير والإنذار وأن التصدي للذين استغنوا بنفوذهم وجاههم وأموالهم لن يفيد.. والإقبال على المدبر غير مجدٍ، وبينت الآيات أن المقاييس عند الله هي تزكية النفس والانتفاع بالذكرى ولطالما ذكر الوليد فلم ينتفع... إنها تربية للدعاة، والطريق لا يزال طويلاً، أن لا يغتروا بظاهر الأمر وبهرج الحياة فالمقاييس عند الله ليست هذه... ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾.

نقض الصحيفة:

كان هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي من أوصل الناس لبني هاشم ـ كما ذكرنا ـ وكان غير راضٍ بالصحيفة وفكر في نقضها، فمشى إلى زهير بن أبي أمية ـ وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح منهم؟

---

(١) سورة عبس: الآيات ١ ـ ١١.

أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. قال: ويحك يا هشام. فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد. والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: أبْغِنا رجلاً ثالثاً..

وذهب هشام إلى المطعم بن عدي ثم إلى أبي البختري بن هشام، ثم إلى زمعة بن الأسود ـ يحدثهم بالأسلوب نفسه.

واتعدوا خطم الحجون ليلاً، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة. وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم. وغدا زهير ـ عليه حلة ـ فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هشام هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة..

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تشق.

قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها.

قال هشام بن عمرو: نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان.

وقام المطعم ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم».

الخروج من الشعب:

وخرج المسلمون، وعاد ركب الإيمان يتابع طريقه وهو أكثر صلابة وأشد عوداً متحمساً لأمر الله تعالى.

وتابع الكفر طريقه فالمسلمون الذين سجنهم أهلهم بالبيوت ما زالوا مكبلين بقيودهم ووسائل الكيد ما زالت تعد وتهيأ واستمرت الخطوط العريضة التي انتهجها المشركون تفعل فعلها: ولنأخذ أمثلة على ذلك:

أ ـ في مجال الإعلام:

استمر القوم يبذلون جهودهم في إبعاد الناس عن رسول الله ﷺ حتى لا يسمعوا كلامه وقد أفلحوا إلى حدٍ بعيد ولكن الله غالب على أمره.

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة ـ وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ـ فالتقى به دعاة السوء يكلمونه في أمر رسول الله وينفرونه منه حتى قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه. حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً. فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقوله فإن كان حقاً قبلته وإن كان قبيحاً تركته.

وتبع الطفيل بعد ذلك رسول الله حتى دخل عليه بيته وسمع منه وشهد شهادة الحق[1].

والذي تشير إليه الحادثة بوضوح ذلك الهياج الإعلامي الذي كانت تثيره قريش تنفيراً من الرسول ﷺ فهم:

ـ قد تلقوا الرجل قبل أن يغدو إلى الحرم. وكان الذهاب إلى

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٢.

الحرم هو أول ما يفعله القادم إلى مكة. وذلك حتى لا يتيحوا له فرصة أي لقاء بمحمد ﷺ أو الحديث إليه.

- إنهم استطاعوا التأثير على الرجل حتى جعلوه يحشو أذنيه بالقطن حتى لا يسمع شيئاً.

وهذا يلقي الضوء على سيطرة قريش على الإعلام في مكة. ولكن إصرار الرسول ﷺ على دعوته كان أكبر من الإعلام المشرك.

ب - الاستهزاء:

كما استمر المشركون باستعمال سلاح الاستهزاء والسخرية باعتباره سلاحاً نفسياً خطير الأثر.

قدم رجل من إراش بإبل له مكة، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها. فأقبل الإراشي حتى وقف على نادٍ من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش من رجل يعديني على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي. فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله ﷺ وهم يهزؤون به - اذهب إليه فإنه يعديك عليه.

وأقبل الإراشي على رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقام معه، فلما رأوه قام معه، قالوا لِرجل منهم: اتبعه فانظر ما يصنع. وضرب الرسول ﷺ باب أبي جهل، فقال: من هذا؟ قال: (محمد فاخرج). فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم، انتقع لونه، فقال: (أعط هذا الرجل حقه) قال: لا تبرح حتى أعطيه الذي له. فخرج فدفع إليه بحقه.. وعجب القوم.. وقال أبو جهل: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته حتى ملئت رعباً. ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته. فوالله لو أبيت لأكلني[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٩.

والذي نتوقف عليه من الحادثة هنا أن القوم حينما أشاروا إلى رسول الله لينصر الرجل أرادوا أن يكون المشهد فصلاً من مسرحية مضحكة يتندَّرون بها فترة من الزمن. ولكن هيبة الرسول ﷺ كانت أعظم مما يظنون. وإرادة الله أكبر.

وبهذا الصدد نزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠.

عام الحزن

مرض أبي طالب:

اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله. فمشى إليه أشرافهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأمية بن خلف وأبو سفيان وغيرهم. فقالوا: يا أبا طالب. إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك. وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخُذْ له منا، وخُذْ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه. وليدعنا وديننا وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات: قال: (تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه).

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ثم قالوا لبعضهم: إن هذا الرجل ليس بمعطيكم شيئاً مما تريدون. فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم...

وأنزل الله تعالى في حقهم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.. الآيات[1]..

والذي يسترعي الانتباه في هذه الواقعة:

١ ـ أن الملأ من قريش لم يذهبوا إلى أبي طالب يريدون الأخذ

---

(١) ابن هشام ١/٤١٧.

والعطاء، أريحية وكرماً، وطلباً للنصفة والحق، وإنما صيانة لوضعهم القائم، وحفاظاً على هيبتهم، وقد بات أمر رسول الله ﷺ يهددهم على الرغم من إمساكهم لدفة الأمور في مكة وشدة قبضتهم على السلطة. يؤيد هذا ما رواه ابن إسحاق[١]: قالت قريش: إن حمزة وعمر قد أسلما. وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب.. والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا[٢].

ويتضح من هذا أن الظلم والطغيان لم يكن ليقبل بالتنازل عن بعض غيّه إلا إذا كان له من وراء ذلك مصلحة أو منفعة أو دفع مضرة. ولن يفعل ذلك رغبة في الخير، إذ لا رصيد لمادة الخير في نفوس هؤلاء، وفاقد الشيء لا يعطيه.

٢ ـ إن أبا جهل كان متحمساً لإعطاء الرسول الكريم عشر كلمات لا كلمة ولكنه لما سمع الكلمة المطلوبة تغير موقفه هو وصحبه.

ذلك أن أبا جهل كان يفهم مدلول الكلمة فهماً صحيحاً. كما كان يفهمها كل مسلم يومئذ انضم إلى صف الإيمان. ولو أن أبا جهل لم يفهم ذلك لسهل عليه أن يقولها.

إن الكثير الكثير من المسلمين اليوم يقولونها ولا يدركون من مستلزماتها ومن مفهومها إلا ما لا يتعارض مع سبيل حياتهم الذي اختطوه لأنفسهم بعيداً عن شرع الله ومنهاجه.

إن (لا إله إلا الله) تعني التزاماً بمنهج الله الذي جاء به محمد ﷺ سواء في حياة الفرد الخاصة أو حياته العامة.. إنها تحكيم شرع الله في كل أمر من أمور الحياة.. الفرد.. والمجتمع.. والدولة.. والإنسانية.

إننا اليوم نحسب على المسلمين، كل الشيوعيين، الذين يقولون: لا إله إلا الله، ليصلوا من ورائها إلى قلوب الناس وكسب ثقتهم، ثم

---

(١) ابن هشام ١/٤١٧.

(٢) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

الإيقاع بهم بعد ذلك فيما نصبوا من شراك.

كما نحسب عليهم كل الملحدين الذي يقولون: لا إله إلا الله عادة اعتادوها لنشوئهم في مجتمع إسلامي، وهم لا يهتمون بمعناها فضلاً عن محاولة تعرفهم على ذلك...

ويُحسب على المسلمين.. ويُحسب...

ليت المسلمين اليوم ينتبهون لمعنى الكلمة في حياتهم وواقعهم. وحينما يصدرون عنها في تصرفاتهم كلها سيتضح للناس أن هذه الكلمة لها مفهومها في واقع الحياة، وليست كلمة تقال باللسان وحسب، وليست شعاراً بلا مضمون.

وفاة أبي طالب وخديجة:

في العام العاشر من نبوته ﷺ وبعد الخروج من الشعب بأشهر توفي عمه أبو طالب وبعده بأيام توفيت خديجة فتتابعت المصائب على رسول الله ﷺ حتى سمي هذا العام عام الحزن.

مكانة أبي طالب:

لم تكن رعاية أبي طالب لرسول لله ﷺ أمراً عابراً في حياته، إنها بدأت منذ الثامنة من عمره واستمرت حتى انتهت حياة أبي طالب ولقد كان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه.

وقد حرص رسول الله ﷺ على إسلامه كل الحرص فكان يقول له عند موته: (يا عم قل لا إله إلا الله أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة). فلما رأى حرص رسول الله ﷺ عليه قال: يا ابن أخي: لولا مخافة قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها لا أقولها إلا لأسرك بها[1]، ومات أبو طالب على ملة عبد المطلب. وأنزل الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب ١/ ٢٩١.

مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

ويعجب المرء لموقف أبي طالب هذا.. كل ذلك الحب الذي كان يكنه لرسول الله ﷺ وكل ذلك العطف وتلك النصرة.. كل تلك المواقف التي رأى فيها رسول الله ﷺ وهو يقف على أرض من الحق ثابتة.. لم تكن تجعله ينطق بكلمة الإيمان.. إنه أثر الجاهلية في تعظيم الآباء والاستمساك بما كانوا عليه.

على أن الحكمة واضحة. فلو كان أبو طالب قد التزم بالإسلام لكان وضعه شبيهاً بوضع أي مسلم آخر ولما كان قادراً على حماية نفسه فضلاً عن حماية غيره، إن بقاءه على دين آبائه أتاح له أن يبقى في مركزه الاجتماعي والذي من خلاله أدى الخدمات للرسول ﷺ.

مكانة خديجة رضي الله عنها:

كانت خديجة أول من آمن به وصدقت بما جاءه من الله. فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس.

ويفقد رسول الله ﷺ بموتها السند الداخلي الذي كان يخفف عنه إذا عاد إلى بيته. كما فقد بموت أبي طالب السند الذي كان يدفع عنه القوم.

ولم تتغير مكانة خديجة في نفس رسول الله ﷺ بعد موتها. فقد كان كثير الثناء عليها. حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها، قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين»[2].

وقالت له عائشة مرةً، وقد ذكرها، وأثنى عليها بأحسن الثناء: قد أبدلك الله خيراً منها. قال: (ما أبدلني الله خيراً منها. وقد آمنت بي إذ

---

(1) سورة القصص: الآية ٥٦.

(2) أخرجه البخاري برقم (٣٨١٧).

كفر بي الناس. وصدقتني إذ كذبني الناس وآستني بمالها إذ حرمني الناس. ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء).

وفي الحديث: (أتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[1] والقصب، اللؤلؤ المجوف.

ولم يتزوج عليها رسول الله حتى ماتت. وهكذا يقضي ﷺ ريعان شبابه مع زوجته التي تكبره خمسة عشر عاماً فيمضي ما يقرب من خمس وعشرين سنة معها لم يفكر بزوجة ثانية، وكان يكنّ لها من التقدير والحب والاحترام ما جعل عائشة تصاب بالغيرة.

ألا يعني هذا أن كل زواج له ﷺ بعد ذلك إنما كان وراءه حكمة؟ تدرك تارة وتخفى أخرى، ويعيها بعضهم ولا يدركها بعضهم الآخر، وتُدحض بذلك افتراءات المفترين.

جرأة المشركين على رسول الله ﷺ:

كان أبو طالب ناصراً للرسول ﷺ ومدافعاً عنه بكل ما يقدر عليه من نفس ومال ومقال. فلما مات اجترأ سفهاء قريش عليه ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه.

- ألقى سفيه منهم عليه تراباً فرجع إلى بيته فأتت واحدة من بناته ﷺ تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول: (أي بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك)[2].

- وكان ﷺ يصلي عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم. إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جزور آل

---

(١) متفق عليه (خ٣٨٢٠، م٢٤٣٢).

(٢) ابن هشام ١/٤١٦.

فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه. فانبعث أشقاهم فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه وثبت النبي ﷺ ساجداً - وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك - فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية صغيرة فأقبلت تسعى وثبت ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم تسبهم. فلما قضى ﷺ الصلاة قال: (اللهم عليك بقريش) ثم سمى فقال: (اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد)[1].

هذه نماذج مما أصاب رسول الله ﷺ من البلاء بعد وفاة عمه أبي طالب.. ولئن كان فيما سبق يعود فيجد السيدة خديجة تشد من أزره وتخفف آلامه، فإنه يعود اليوم ولا خديجة.. وكان عليه أن يفكر فيما ينبغي سلوكه.

(١) متفق عليه (خ٢٤٠، م١٧٩٤).

الذهاب إلى الطائف

رأينا كيف أن قريشاً نالت من رسول الله ﷺ ما لم تستطعه في حياة أبي طالب. وكان على الرسول ﷺ أن يفكر في مكان آخر ـ غير مكة ـ يعرض فيه دعوته ويفتش عن قوم يقومون بنصرته حتى يبلغ أوامر الله تعالى بعد أن أصمَّت قريش آذانها.

وكانت الطائف أقرب بلد مجاور لمكة. وخرج[1] رسول الله ﷺ متجهاً نحوها ماشياً على قدميه. يحدوه الأمل في أن ييسر الله له مخرجاً مما هو فيه.. لم يكن الطريق مسهلاً ولم تكن المسافة قريبة. ولكن طبيعة الدعوة إلى الله هي الاستهانة بالمصاعب والتغلب عليها.

وصل الطائف وأشراف ثقيف ـ يومئذ ـ ثلاثة إخوة هم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير بن عوف، وضمه المجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم في نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه:

ـ فقال أحدهم: هو يمرط[2] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

ـ وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

ـ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً. لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

---

(١) في رواية أخرى: خرج ومعه زيد بن حارثة.

(٢) يمرط: ينزعه ويرمي به.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف. وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ خبره ذلك إلى قومه.

ولكن القوم لم يكونوا أهلاً للخير في الثانية ـ كتمان الخبر ـ كما لم يكونوا أهلاً له في الأولى ـ تلبية الدعوة ـ. فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة(١) ـ وهما فيه ـ ورجع عنه سفهاء ثقيف. بعد أن رموه بالحجارة التي أدمت عقبيه حتى اختضبت نعلاه بالدماء.

وجلس ﷺ في ظل شجرة وقد أخذ التعب منه مأخذه ليتجه إلى خالق السموات والأرض رافعاً إليه شكواه طالباً منه رضاه: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل عليك سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

وأرسل عتبة وشيبة مع غلام لهما اسمه عداس بقطف من عنب إلى رسول الله ﷺ. فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: (بسم الله) ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال ﷺ: (ومن أي البلاد أنت وما دينك؟) قال: نصراني من أهل نينوى فقال ﷺ: (من قرية الرجل الصالح يونس بن متى) فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال ﷺ: (ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي) فأكب عداس: عليه يقبل رأسه ويديه ورجليه.

---

(١) هما من أهل مكة ولكنهما يملكان ذلك الحائط بالطائف.

وقال أحد ابني ربيعة للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. وجاء عداس فسألاه عن سبب ما فعل فقال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي... وحاولا تثبيته على نصرانيته![1].

لم يكد عداس بحاجة إلى براهين كثيرة... تأمل في وجه الرسول ﷺ بعد سماعه التسمية.. حيث تأكد من صدق اللهجة ثم تأكد له الأمر عندما ذكر له يونس بن متى.

وجاء جبريل عليه السلام فنادى الرسول ﷺ فقال: (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك. وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. وناداه ملك الجبال فسلم عليه ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟) قال ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً)[2].

إن العقوبة ـ لو أرادها ﷺ ـ كانت موجهة لأهل مكة. فالأخشبان جبلان بمكة. ذلك لأن أهلها هم السبب بإخراجه وحصول ما أصابه ولكنه ﷺ ـ وهو الرحمة للعالمين ـ لم يكن لينتقم لنفسه، على الرغم من ذلك العناء الذي هو فيه. إن الدماء ما زالت تسيل من قدميه وصوت السفهاء ما زال صداه في أذنيه وشماتة شيبة وعتبة لا يحتاج الحديث عنها إلى برهان ومن وراء ذلك كله الماضي الذي قضاه بمكة... الحصار والملاحقة بالأذى له ولأتباعه ـ والمستقبل.. وما هو المستقبل إنه غير واضح حتى الآن، إلا فيما يرتبط بوعد الله من نصر رسوله ﷺ. كل ما ذكرنا وهو بعض ما تداعى إلى ذهن رسول الله وملك الجبال يعرض خدماته.. كان كفيلاً بأن يقول نعم وحينئذ كان سوف يقال كانت مكة..

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤١٩ ـ ٤٢١.

(٢) الحديث في الصحيحين (خ٣٢٣١، م١٧٩٥) والأخشبان جبلان بمكة.

ولكن الرسول ﷺ الذي كان على ثقة من نصر الله كان أمله كبيراً في أن تكون مكة نفسها مصدراً لإمداد البناء الإيماني بأناس قادرين على حمل الأمانة. وقد تحققت أمنيته عليه السلام فيما بعد.

وتابع ﷺ طريقه إلى مكة ماشياً كما ذهب.. ودخولها ليس أمراً ميسوراً - خاصة وأن أخبار زيارته للطائف ربما كانت قد وصلت مكة - فكان لا بد من جوار يدخل به مكة.

وَقَبِلَ المطعم بن عدي - برحابة صدر - أن يدخل رسول الله ﷺ مكة في جواره وخرج مع بنيه متقلدي السيوف وكانوا في حماية الرسول ﷺ محيطين به يطوف ويصلي، وقد أعلن المطعم جواره على الملأ. وكان ذلك مغيظاً للقوم فقال أبو سفيان للمطعم: أمجير أم متابع، قال: لا بل مجير، قال: إذن لا تخفر، قد أجرنا من أجرت[1].

---

(١) البداية ٣/ ١٣٧، وفي الكامل ٢/ ٦٤ أن القائل للمطعم: أمجير أم متابع؟ وهو أبو جهل.

استعلاء الإيمان

إن الأجواء المكفهرة التي كانت تسطير على سماء مكة لم تكن لتمنع المسلمين من إعلان إيمانهم والاختلاط بالناس وفرض أنفسهم على المجتمع رضي المشركون أم سخطوا. .

وقد دخل أبو بكر في جوار ابن الدغنة[1]. بعد أن كان خرج مهاجراً إلى الحبشة، ولكن قريشاً طلبت من ابن الدغنة أن يضبط سلوك أبي بكر، الذي كان يصلي في مسجد له ابتناه عند باب داره. فكان إذا صلى وقرأ القرآن اجتمع عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته، وكان أبو بكر رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن. الأمر الذي أفزع أشراف قريش تخوفاً من فتنة من يستمع إليه فطلبت إلى ابن الدغنة أن يكفّه عن ذلك.

وطلب ابن الدغنة من أبي بكر أن يدخل بيته ـ بعيداً عن أعين القوم ـ فيصنع فيه ما أحب.

فماذا كان جواب أبي بكر؟ إنها كلمة، قال: أو أردّ عليك جوارك. وأرضى بجوار الله، قال: أردد عليَّ جواري. . . وردّ عليه جواره.

إن أبا بكر رضي بالجوار ما دام غير مشروط، فإذا كان هذا الجوار سيكلفه التزاماً في سلوكه، وتحديداً لتصرفاته، فذلك الذي لا يمكن قبوله. لم يقل أبو بكر في نفسه إنه لا فرق بين أن أصلي خارج بيتي أو

---

(١) البداية ٣/ ٩٤.

داخله، ولم يبرر للضعف أسبابه، وإنما رفض ذلك الجوار ورده. لأن أمر الإيمان أكبر من أن تملى عليه الشروط.. واستمر أبو بكر على صلاته في مصلاه، كان هذا الحديث بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة.

على أن هذا الإصرار على إعلان الإيمان وتحدي الكفر لم يكن قاصراً على أبي بكر وأمثاله ممن لهم شأنهم في المجتمع. وإنما كان الشأن العام للمسلمين الذين لم يهاجروا إلى الحبشة أو الذين هاجروا وعادوا بعد سماعهم بمهاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

نقل ابن كثير في تفسيره ما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص. قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وينقل أيضاً عن ابن إسحاق قوله: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد يجلس إليه المستضعفون من أصحابه خباب وعمار وأبو فكيهة ويسار مولى صفوان بن أمية وصهيب وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه[2].

والذي نريد أن نقف عليه من الروايتين هو أن نسجل ذلك التحدي العريض الذي كان يقوم به المسلمون. فها هو الرسول ﷺ يجلس في المسجد الحرام ويجلس حوله أصحابه وقد أعيت كل الأسلحة في استضعافهم وإخماد حركتهم، فبقي لقريش سلاح السخرية والاستهزاء.

إنها ظاهرة الإيمان التي من طبيعتها الاستعلاء. مهما كانت نوعية

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٢. (٢) البداية ٣/ ١٠٤.

النفس التي تستقر فيها. فهي التي تصبغ النفس بصبغتها وتعطيها لونها ومن هنا كان الإنتاج الإيماني واحداً سواء أكان في شخصية أبي بكر أم في شخصية بلال.

إن هذا الشموخ الإيماني هو الذي جعل أشراف القوم يحنون رؤوسهم طالبين من الرسول ﷺ أن يجعل لهم مجلساً خاصاً بهم يستمعون منه ـ وقد ظهر لهم أن هذه القوة لا يقف في وجهها شيء فأحبوا أن يكون لهم فيها رصيد ولكن على طريقتهم ـ ويبدو أن الرسول ﷺ كاد يلبي طلبهم، لا خروجاً عن المنهج الإيماني وإنما طمعاً في إيمانهم حيث يصبغهم الإيمان بصبغته ـ كما قلنا ـ.

جاء في تفسير القرطبي قوله: قال المشركون: لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء ـ يعنون: سلمان وصهيباً وبلالاً وخباباً ـ فاطردهم عنك، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك[1]، فهمَّ النبي ﷺ بذلك ودعا علياً ليكتب، فقام الفقراء وجلسوا ناحية.. فأنزل الله الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ..﴾ ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح: فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع. مال طمعاً في إسلامهم وإسلام قومهم. اهـ[2].

وتنزل الآيات لتؤكد استعلاء الإيمان مرة أخرى بأمر الله تعالى ولتعطي للشكل حكم المضمون. إن ما أراد الرسول ﷺ الإغضاء عنه في سبيل مصلحة يتوقعها وهي إسلام هؤلاء وإسلام قومهم من بعدهم لم يقبله الله تعالى ذلك أن طبيعة الإسلام لا تقبل الشروط والقيود. إنه الاستسلام الكامل لأمر الله تعالى. إن من أوليات مفاهيم الإيمان أن يشعر المؤمن أنه عبد من عباد الله يُقيَّم من خلال عمله وإخلاص نفسه لله لا من خلال وضعه الاجتماعي طبقاً للقيم الجاهلية. إن هؤلاء أرادوا

---

(١) أي أن يكون لهم مجلس خاص بهم. وذكر سلمان هنا سهو، أو هو من باب التمثيل لأنه جاء إلى المدينة ولم يكن في مكة.

(٢) تفسير القرطبي في تفسير الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

الإسلام على أن يحتفظوا بمكانتهم الاجتماعية التي حصلوا عليها بموازين الجاهلية. . وهيهات؟.

ويتضح من خلال الحادثة أن المسلمين لم يكونوا خلال هذه المدة من الزمن متوارين عن الأنظار، بعيدين عن الجتمع. بل كانوا فيه يبيّنون حقيقة هذا الدين بسلوكهم وتعاملهم وأخلاقهم، وإذا بالمشركين الذين أصموا آذانهم عن سماع كلمة الحق يرون الإنسانية وقد تمثلت فكانت واقعاً يُرى في هؤلاء المؤمنين[1].

---

(١) وضعت هذه الحادثة في هذا المكان ضمن سياق السيرة لأن قريشاً لم تحاول الاستماع إليه ﷺ إلا في المرحلة الأخيرة من وجوده في مكة حيث أثبت المؤمنون قدرتهم على الحركة والاستمرار بعد أكثر من عشر سنين من الاضطهاد. . ويبدو أن الترتيب الزمني لها. بعد عودة مهاجري الهجرة الثانية إلى الحبشة وذلك لذكر عبد الله بن مسعود - في رواية مسلم - وهو أحد العائدين.

الإسراء والمعراج

لا بد لنا بين يدي الموضوع من الحديث عن المعجزات باعتبارها العنوان الذي تنضوي تحته حادثة الإسراء والمعراج.

المعجزات:

عرّف علماؤنا المعجزة بأنها: الأمر الخارق للعادة، الذي يجريه الله تعالى على يدي نبي مرسل، على سبيل التحدي، ليقيم به الدليل القاطع على صدق نبوته.

وقد جرت حكمة الله أن تكون معجزات كل نبي متناسبة مع عصره، الذي بعث فيه متحديةً قومه بما يتقنون. ولذا كانت معجزات موسى تحدياً للسحر الذي انتشر آنذاك، وعرف السحرة قبل غيرهم - وهم خبراء المهنة - أن ما يأتي به موسى شيء آخر غير السحر فكانوا أول المؤمنين. ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1]. وكانت معجزات عيسى تحدياً للطب الذي انتشر في عصره، فكان - بإذن الله - يبرئ الأكمه والأبرص، وكان يحيي الموتى بإذن الله.

وجاءت الرسالة الخاتمة فلم نجد فيها تعويلاً على المعجزات. وها نحن قد سرنا شوطاً لا بأس به من السيرة المباركة - حيث نتكلم في زمن حادثة الإسراء والمعراج - فلم نجد رسول الله ﷺ يقول للناس آمنوا بي لأني أفعل كذا وكذا.. ولكن الذي سجلته السيرة أن دعوته كانت تقوم

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٤٥ - ٤٧.

على التذكير والوعظ والدعوة إلى نبذ الآلهة المتعددة والإيمان بالإله الواحد وكل ذلك مهمة ملقاة على العقل، يصاحب ذلك سلوك عملي للرسول الكريم لا مطعن فيه لطاعن حتى ولو كان عدواً.

كانت المادة المطروحة للنظر هي آيات القرآن الكريم، فهي المعجزة، وليس من قبيل المصادفة أن تسمى فواصل القرآن وجمله آيات، فالآية هي المعجزة، ولقد رأينا كيف استهوى القرآن القلوب حتى بات الأعداء - بل زعماؤهم - يقضون ليلهم عند بيت رسول الله ﷺ يستمعون القرآن.

والقرآن هو المادة التي تحدى الله الناس أن يأتوا بمثلها. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ . .﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[(٢)] ومن هنا جنح بعضهم إلى اعتبار القرآن هو المعجزة التي جاء بها رسول الله ﷺ.

وإذا كانت المرحلة الأولى للدعوة لم تعتمد المعجزات أساساً لها، فما نعتقد أن دورها سيكون كبيراً فيما بعد، وتلك حكمة الله في الرسالة الخاتمة التي جُعلت حياة الرسول ﷺ التطبيق العملي لها. وإذا كان هو القدوة فينبغي ألا تكون حياته قائمة على المعجزات. لأن هذه المعجزات لن تكون متوفرة في حياة الناس... فالإسلام تشريع الحياة الإنسانية في واقعها بكل ما فيه ولكل من فيه. فهو للفقير وللغني، للرجل وللمرأة، للصغير وللكبير، للرئيس وللمرؤوس. وهو تشريع للناس في حال أمنهم وخوفهم وفي سعادتهم وأزماتهم... في أفراحهم وفي أتراحهم..

ومن هذا المنطلق لاحظنا تسجيل القرآن رفض الرسول لمطلب

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٣، ٢٤. (٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

قريش في الإتيان ببعض المعجزات وكان جوابه: سبحانه ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً.. ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

إن ما قدمنا، لا يعني خلو حياته ﷺ من المعجزات. بل إن حياته زاخرة بها ولكن الملاحظ فيها أن الله تعالى لم يجرها على يديه لتكون سبباً لإيمان كافر وإنما ـ في غالب الأحيان ـ كانت تأتي وهو بين المؤمنين به، وهي في هذه الحال من باب التكريم للرسول ﷺ لا للدلالة على صدقه.

وبعد: فقد آن لنا أن نعود للحديث عن الإسراء والمعراج باعتبارهما معجزة أي أمراً خارقاً للعادة، ليس جارياً على نظام الأسباب والمسببات المعروف في دنيا الناس... وما لم يكن كذلك فلا يسمى معجزة.

الإسراء والمعراج:

وتأتي هذه المعجزة تكريماً للرسول ﷺ بعد وفاة عمه وزوجته وبعدما أصابه في الطائف فهي بعد العام العاشر من البعثة وقد اختلف في تحديد وقتها.

ويقصد بالإسراء الانتقال من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس. وإليه أشارت الآية الكريمة ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[2]. كما يقصد بالمعراج الصعود

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣. (٢) سورة الإسراء: الآية ١.

إلى السماوات العلا وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[١].

وليس هناك حديث واحد يجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة المباركة وإنما هناك أحاديث كل منها أشار إلى جزء أو جانب، على أنه ربما تساءل بعضهم هل هي حادثة واحدة أم هما حادثتان وبتعبير آخر هل كانا في ليلة واحدة أم في ليلتين مختلفتين؟

ويستطيع المرء إذا رجع إلى تفسير ابن كثير رحمه الله وقد جمع الأحاديث المتعلقة بالموضوع أن يلاحظ أن الحدثين ـ الإسراء والمعراج ـ وقعا في ليلة واحدة متتابعين وذلك واضح في رواية الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه حيث قال بعد أن ذكر الوصول إلى بيت المقدس (ثم عرج بي إلى السماء. . .) ويؤيدها أيضاً رواية أبي هريرة قال: قال ﷺ: (رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت إلى السماء السابعة. . .)[٢] وهكذا ورد التصريح بأن المعراج كان ليلة الإسراء.

وسنحاول تلخيص معالم الحادثة اعتماداً على مجموع الروايات:

شق الصدر:

وكان ذلك بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة قال ﷺ: (فرج عن سقف بيتي ـ وأنا بمكة ـ فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي. . .)[٣].

الإسراء:

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (أتيت بالبراق وهو دابة أبيض،

---

(١) سورة النجم: الآيات ١٣ ـ ١٨. (٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٣) متفق عليه (خ٣٤٩، م١٦٣).

فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي..)[1]. وبينت رواية أخرى أن الصلاة كانت بالأنبياء (ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة)[2].

المعراج:

ثم عرج به ﷺ إلى السماء يستفتح جبريل ثم يُسأل ومن معك؟ فيقول: محمد ـ فيرحب به... فرأى في السماء الدنيا آدم وفي الثانية عيسى ويحيى وفي الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، ثم ذهب به ﷺ إلى سدرة المنتهى وفرض الله عليه خمسين صلاة. فلما نزل انتهى إلى موسى حيث سأله: ما فرض ربك على أمَّتك؟ فأخبره. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف... وخفف الله عنه خمساً ـ ثم ما زال بين موسى راجعاً إلى ربه حتى كانت خمس صلوات وطلب موسى منه الرجوع فقال: (قد سألت ربي حتى استحييت ـ فنادى مناد: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي).

وفي رواية أنس عن أبي ذر: بعد ذكر السماوات (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام) ثم ذكر فرض الصلاة (ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك)[3].

---

(١) رواه أحمد ومسلم برقم (١٦٢/ ٢٥٩).

(٢) ابن جرير، ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة.

(٣) متفق عليه (خ٣٤٩، م١٦٣).

العودة:

الذي يظهر من الروايات أن طريق العودة كان إلى بيت المقدس ثم إلى مكة فقد ورد في رواية الترمذي عن شداد بن أوس (.. ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة).

كانت وسيلة الإسراء البراق. بينما في المعراج استعملت الروايات الفعل المبني للمجهول (عُرج) فلم تبين الوسيلة وفي بعضها: نصب لي المعراج قال ابن كثير: وهو السلم فصعد فيه إلى السماء[1]، ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه بعضهم.

موقف قريش:

إن موقف قريش كان واضحاً، فقد كذبوه وهو يتحدث عن البدهيات التي لا ينكرها ذو عقل فماذا نتوقع أن يكون موقفهم تجاه هذه المعجزة؟

عرف ﷺ أن الناس سوف يكذبونه فجلس حزيناً معتزلاً، فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له ـ مستهزئاً ـ: هل كان من شيء؟ فقال ﷺ: (نعم) قال: وما هو؟ قال: (إني أُسري بي الليلة). قال: إلى أين؟ قال: (إلى بيت المقدس). قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: (نعم).

فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: (نعم). فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي.. فانفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني.

---

(١) البداية والنهاية. وقال ابن إسحاق في روايته، قال ﷺ: (لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه).

فقال رسول الله ﷺ: (إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس) قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: (نعم) فمن مصفق، ومن واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد - وفيهم من قد سافر إليه - فجعل ينعته لهم - وقد رُفع له وهو ينظر إليه - فقال القوم: أما النعت فقد أصاب[1]!

وفي رواية أخرى: فقال القوم، بعد أن سمعوا مقالته، هذا والله الأمر البيّن، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرةً، وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة، وارتد ناس كثير ممن كان أسلم[2].

وأخبر أبو بكر فقال: والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئاً قال: صدقت. أشهد أنك رسول الله.. فقال ﷺ: (وأنت يا أبا بكر الصديق) فيومئذٍ سماه الصديق[3].

الآراء في الإسراء والمعراج:

هل كان الإسراء والمعراج في اليقظة أم في المنام؟ وهل كان بجسمه ﷺ وروحه، أم بروحه فقط؟

• ذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أن الإسراء والمعراج كانا ببدنه وروحه يقظةً لا مناماً في ليلة واحدة[4].

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي والنسائي. (٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٨.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٩٩. والحاكم في المستدرك ٣/ ٦٢ من حديث عائشة في كتاب معرفة الصحابة.

(٤) نقل هذا صاحب فتح الباري وقال: وتواترت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة. ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل. (الفتح: كتاب مناقب الأنصار باب حديث الإسراء).

• وقالت عائشة رضي الله عنها: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه[(1)].

• ورأى بعض المتأخرين أنها نوع من الإشراق الروحي.

• وحاول بعضهم أن يقرب الحادثة ويقيسها على بعض منتجات التقدم العلمي، ولذا فهو يرى إمكانيتها.

مناقشة:

• إن رأي عائشة مخالف لقول الجمهور، كما نقل ذلك كثير من المفسرين منهم الطبري والنسفي ونكتفي هنا بنقل ما جاء في كتاب الشفا للقاضي عياض رحمه الله «وأما قول عائشة (ما فقدت جسده) فعائشة لم تحدث عن مشاهدة لأنها لم تكن حينئذٍ زوجه ولا في سن مَنْ يضبط.. فليس حديث عائشة رضي الله عنها بالثابت والأحاديث الأخر أثبت»[(2)].

وقد ناقش علماؤنا رحمهم الله هذه الآراء وردوها:

• فلو كانت الحادثة مناماً لم يكن حاجة لاستنكار قريش وردة بعض المسلمين. بل لم يكن فيها من الإعجاز شيء.

ثم كونها مناماً يخالف صريح الآيات الكريمة قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

فابتداء الآية بالتسبيح لفتُ نظرٍ لأمر هام. ولفظ (بعبده) معناه الروح والجسد معاً.

• أما الذين قالوا بروحه فقط فمتى كانت الروح تقوم بذاتها دون الجسد ثم هل كانت الروح بحاجة إلى البراق وإلى المعراج..[(3)].

ثم ألا يحسن بنا أن نعود إلى آيات النجم نقرؤها ثانية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ

---

(1) ابن هشام ١/٣٩٩.

(2) الشفا ١/٣٧٢.

(3) تفسير الطبري، وابن كثير.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ تقول الآيات: إنه ﷺ رأى جبريل على صورته الأصيلة مرة أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ .. مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ...﴾ هل يكون تعبير مثل هذا للنوم أو للحالة الروحية؟ ومتى كان البصر من حواس الروح؟ وكيف يمكن ضبطه حتى لا يزيغ ولا يطغى وهو في حالة النوم؟

• أما الذين اعتبروا الحادثة نوعاً من الإشراق الروحي ـ فهؤلاء كأنهم وجدوا قدرة الله تعالى وكأنها لا تستطيع إنتاج مثل هذه الحادثة في عالم المادة، أي عالم الجسم والروح معاً.

• بقي فريق أخير قانع بأن الحادثة وقعت يقظة: روحاً وجسداً ويحاول أن يبرهن على إمكانية ذلك مستشهداً بما أنتجه العلم الحديث من الصعود إلى القمر ومحاولة الوصول إلى الكواكب الأخرى حتى وصل في حديثه إلى درجة يشعر القارئ معها أنه لن يطول الوقت حتى تصبح إمكانية الإسراء والمعراج ممهدة لمن يريدها.

وهنا لا بد من وقفة يسيرة: إن العلم استطاع تقريب مفهوم الحادثة ولكنه في الوقت نفسه أعطاها بُعدها في العظمة والرفعة إذ جعل استحالتها على غير قدرة الله ليست قائمة على التصور فحسب وإنما على الأرقام والحسابات.

أذكر أني استمعت إلى ندوة إذاعية لبعض علماء الفضاء إثر النجاح العلمي الباهر الذي صعد فيه الإنسان إلى القمر.. وطرح عليهم السؤال الآتي: هل يتوقع أن يصل الإنسان إلى المجرات الأخرى؟ وكان الجواب: إن هذا الأمر مستحيل بناءً على المعطيات العلمية. ذلك: لو أنا افترضنا وجود إنسان ـ مصنع ومهيأ ـ ليستطيع جسمه تحمل السرعات الهائلة ـ وهذا غير ممكن ـ وانطلق هذا الإنسان في صاروخ سرعته سرعة

الضوء ـ وهذه غير ممكنة ـ لاحتاج إلى عمر يساوي ٢٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية وهي المدة الكافية للذهاب إلى أقرب مجرة والعودة منها . . .

أرأيت إلى هذه الاستحالات المتتابعة :

ـ استحالة وجود إنسان يستطيع جسمه تحمل سرعة الضوء .

ـ استحالة ـ مبدئياً ـ وجود صاروخ ينطلق بهذه السرعة فالسرعات المستعملة حتى الآن مقياسها سرعة الصوت[1] .

ـ استحالة وجود إنسان يعيش مائتي ألف سنة .

ـ ونضيف إلى هذا أن عالم الكواكب والمجرات هو دون السماء الدنيا ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ فأين منها السماء السابعة وما فوقها ، وإذاً فالعلم كما قلنا يقرر استحالة الحادثة . ويبقى الحديث عنها حديثاً عن قدرة الله تعالى .

كلمة أخيرة في المناقشة :

وكلمة أخيرة : إن الذين أنكروا وجود الحادثة يقظة روحاً وجسداً إن إنكارهم ناشئ عن استغراب الحادثة ـ كما فعلت قريش ـ يشبههم في هذا أولئك الذين حاولوا تقريب الحادثة فلولا استغرابهم لها لم يفعلوا ذلك .

ونتساءل ما غرابة أمر من صفاته الأولية أنه خارق للعادة؟ ولو لم يكن كذلك لم يكن معجزة ولم يكن مستغرباً . فلو كان مناماً أو ارتقاء روحياً أو ذهنياً لم تكن له أية قيمة .

إن الحادثة لم تقم على أساس من القوانين الخاضعة لمعرفة البشر ، ولئن كانت الحادثة طياً للبعد الأول ـ بعد المكان ـ فهي طي أيضاً للبعد الثاني ـ بعد الزمن ـ حيث أمكن القيام بأعمال كثيرة في وقت يسير أي

---

(١) سرعة الصوت هي ٣٣٠م في الثانية بينما سرعة الضوء هي ٣٠٠,٠٠٠ كلم في الثانية .

طويت مدة الزمن اللازم لإنجاز عمل ما: وهذا إنما كان بقدرة الله تعالى. وحينما نرجع الأمر إليها تنتهي جميع الإشكالات.

لنريه من آياتنا:

وإذا أردنا أن نتعرف على جانب من حكمة الإسراء والمعراج كان علينا أن نرجع إلى النصين الكريمين اللذين تحدثا عن الموضوع. ففي آية الإسراء قال تعالى: ﴿.. لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وفي سورة النجم قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾. إن التعليل واضح، وهو إطلاع الرسول ﷺ على بعض آيات الله، وقد وصفها الله بأنها كبرى. وهذا فيما يبدو تكريم من الله ﷻ لخاتم الرسل وارتفاع بمنزلته على غيره، ولا غرو فهو كمال البناء وقد أكد موسى عليه السلام، هذا المعنى حينما بكى ـ بعد أن تجاوزه رسول الله ﷺ ـ فقيل له: ما يبكيك قال: أبكي أن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي[1]. كما يؤيده: إمامته ﷺ في الصلاة وقد ائتم به المرسلون[2].

نقول: إنه غاية التكريم حيث لم يكن تلبية لطلب منه مسبق كما حصل ذلك من قبل لسيدنا إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ...﴾[3] وكما حصل لموسى عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ...﴾[4].

ونقول: إنها تكريم لأن هذه المعجزة ليس فيها مواصفات المعجزات الأخرى كما أنها لا تهدف إلى ما تهدف إليه.

---

(١) من حديث الإمام أحمد عن أنس عن مالك بن صعصعة. وفي حديث البخاري فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع علي أحداً.
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة بقوله: (فحانت الصلاة فأممتهم).
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

- فليس المراد منها التصديق. فقد رأينا حزنه ﷺ لما كان يتوقعه من تكذيب قريش وهذا ما حصل بالفعل.

- وليس المراد التحدي، فهم أقل من ذلك شأناً، وقد جرت سنة الله في تحدي الأنبياء لأقوامهم أن يكون في إطار ما يتقن أقوامهم حتى تكون الحجة دامغة.

- وليس المراد تلبية طلبهم حينما قالوا ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فالرسول ﷺ لم يدع ذلك وقد رأينا كيف كان جوابه حينئذ ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

قطعت الدعوة من عمرها أكثر من عشر سنوات في جهاد دائم وعمل غير منقطع وكفاح لا يعرف الملل.. والطريق ما زال في بدايته وما زال شاقاً وصعباً.. فكانت رحلة استجمام في رحاب الله تعالى تُلتقط فيه الأنفاس وتستجمع القوى لمتابعة الطريق.

على قدر عقولهم:

في جميع روايات حديث الإسراء والمعراج اتفاق على أن الرسول ﷺ. لم يحدث قريشاً حينما خرج إليها إلا حديث الإسراء، ولم يذكر لهم شيئاً عن المعراج. فما هي الحكمة؟

إن الإسراء حدث أرضي، انتقال من مكان إلى آخر، والمكان الآخر يعرفه كثير منهم ممن زاروا بيت المقدس. فهناك إمكانية البرهنة لهؤلاء عن طريق الوصف لذلك البيت، وهم الذين يعرفون حياته ﷺ تفصيلاً ويعرفون أنه لم يسبق له زيارة ذلك البيت.

لقد انتهى الضحك والتصفير والتمايل ووضع الأيدي على الرؤوس حينما قال له أحدهم: صف لنا بيت المقدس.. وأخذ ﷺ يصف ويصف حتى قال قائلهم: أما الوصف فصدق.

ولم يكتف ﷺ بذلك بل ذكر لهم مشاهداته في الطريق حينما سألوه فقالوا: ما آية ذلك: فقال: (آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي

كذا وكذا. فأنفرهم حس الدابة فند لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام. ثم أقبلت حتى إذا كنت بصحنان مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان. وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء يقدمها جمل أورق عليه غرارتان، إحداهما سوداء والأخرى برقاء)[1].

فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل الذي وصف لهم. وسألوهم عن الإناء فأخبروهم بما أخبرهم به ﷺ، وسألوا الآخرين عن البعير الذي ند فقالوا: نعم وسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه.

وهكذا تحول الهرج والضحك والصفير إلى تعجب. ولكن ذلك لم يدفعهم إلى الإيمان.

وهكذا كانت براهين عقلية حسية. كما كان لأبي بكر رضي الله عنه برهانه الآخر: «إن كان قاله فقد صدق» ويقيس ذلك على نزول الوحي.

أما المعراج فإن الأدلة العقلية والحسية غير متوفرة له. ذلك أنه يحتاج إلى دليل من نوع آخر: يحتاج إلى التسليم الذي يسبقه الإيمان. ولذا لم يحدث به ﷺ قريشاً. فهو جزئية لا بد أن يسبقها الإيمان. فكما أنه ﷺ ما كان ليحدث قريشاً عن الصلاة - وهي لم تؤمن بعد - كذلك لا حاجة لها في حديث المعراج والإيمان غير متوفر لديها. وقد ألمحت آيات سورة النجم إلى ذلك. قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ إنه التسليم والتصديق. إنه الدرس الذي وعاه أبو بكر رضي الله عنه، «إن كان قاله فقد صدق».

الصلاة:

فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج أمراً مباشراً من الله تعالى إلى

---

(١) البداية ٣/ ١١٠ من رواية ابن إسحاق.

عبده ورسوله محمد ﷺ دون واسطة وحي. وفي هذا ما فيه من الدلالة على أهميتها بين أركان الإسلام بعد كلمة الإخلاص. فجميع الأوامر نزل بها جبريل إلى رسول الله ﷺ. إلا الصلاة فقد عُرج بالرسول الكريم ليتلقى الأمر بها دون واسطة.

إنها فواصل في رحلة العمر يقف بها العبد بين يدي الله تعالى معلناً عن عبوديته بلسانه وقلبه وعمله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هذه العبودية التي تعني رفع الرأس عالياً فلا أرباب غير الله ولا متصرف في الكون ولا فاعل فيه غير الله... فإذا سها العبد عن هذه المعاني في وقت ما، كانت الصلاة وسيلة النظافة من هذه الأدران التي علقت به (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر جار على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات)[1] ويعود إلى النظافة ويتابع رحلة الحياة.

على أن الصلاة ليست عملاً آلياً وحركات متتابعة دون وعي أو إدراك لما يقرأ أو يذكر فيها.. إنها حتى تؤدي دورها في النظافة لا بد أن تكون وفق مواصفات محددة (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله)[2].

إنها الشعار الذي يعلنه المسلم كل يوم خمس مرات. كاشفاً فيه هويته رافعاً بذلك رأسه. مبيّناً بسلوكه أثر هذه العبادة في حياته مُبرهناً للناس ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

وقد تحولت الصلاة لدى بعض المسلمين إلى شكلية من الشكليات وعادة من العادات فلم يعد لها أثرها في حياة الإنسان وسلوكه ولم يعد لها رصيدها في نفسه وجوارحه.

---

(١) رواه مسلم برقم (٦٦٨) ومعنى غمر: كثير.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٢٨).

كما نسي بعضهم الآخر الصلاة أصلاً، كما نسي غيرها من تعاليم الإسلام ولم يعد له ما يربطه بالإسلام إلا الاسم إن كان اسمه يحمل الهوية الإسلامية... ولذا كان عدد المسلمين اليوم كبيراً ولكنهم غثاء...

وما أحرانا أن نعود إلى الإسلام فنؤدي الصلاة مستشعرين مكانتها وأهميتها.. وحينئذٍ نبدأ الطريق من جديد..

الشجاعة الفذة.. والإيمان الثابت:

رأينا كيف أخبر الرسول ﷺ بإسرائه أبا جهل. الذي جمع الناس ليسمعوا الخبر... ثم وصل الخبر أبا بكر رضي الله عنه.

وهكذا يطرق الخبر مسامع أبي جهل وغيره من المشركين قبل أن يطرق مسمع أبي بكر وبعض المؤمنين.

ويستوقفنا في هذا الجانب من الحادثة أمران:

١ ـ سلوك أبي بكر:

إن في قول أبي بكر حين بلغه الخبر: «لئن قال ذلك لقد صدق» التعبير الحق عن الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع. حتى ولو كان الأمر غير خاضع لإدراك العقل.. لأول وهلة. ولكنه في مفهوم أبي بكر ضمن المعقول. قالوا له: فتصدقه؟؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. وهكذا يتحول اللامعقول إلى المعقول.

إن أبا بكر في موقفه هذا يوضح حقيقة إيمانية هامة: هي الثقة المطلقة بهذا الرسول الكريم وهي أولية إيمانية ضرورية، أثبتت الأكثرية المطلقة من المؤمنين استيعابها لها ويقينها بها.

٢ ـ عظمة الرسالة في فعل الرسول هذا.

إن إعلان الرسول ﷺ لأمر من أمور الرسالة لا يتوقف على

استشارة أحد أو أخذ رأي من أحد، لأنه إعلان عن حقيقة. ومن هذا المنطلق كان علم أبي جهل بالخبر قبل علم أبي بكر.

ونستطيع هنا أن ندرك بعضاً من شجاعته ﷺ التي دونها بكثير شجاعة الأبطال في ميادين القتال ـ وله ﷺ الريادة فيها ـ إنه كان على ثقة من تكذيب القوم له.. ومع هذا لم يتخذ الوسائل، ولم يهيء الأسباب لطرح الحادثة، لم يُعلم أبا بكر والمؤمنين أولاً ليكونوا مساعدين له ومصدقين إذا ما كذبه القوم. وهو أمر لا غضاضة فيه لو فعل.. إنه منطق العظمة ينبعث من الرسالة العظيمة.

ثم لم لا نقول: إنه الأسلوب الرصين في اختبار إيمان المؤمنين.

بلاء وتمحيص:

لئن كانت المعجزات ـ في أصل وضعها ـ وسيلة للدعوة إلى الإيمان؛ فإن معجزة الإسراء كانت وسيلة لتنقية الصف من الضعفاء وإسقاط الذين هم على حرف في التزامهم الإسلام ـ على الرغم من عدم وجود المغريات يومئذٍ ـ ففي حديث البيهقي «... ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه»[1].

قلنا ـ فيما سبق ـ: إن المؤمنين الأوائل كان عليهم أن يجتازوا بعض الاختبارات بين الفينة والأخرى، ولقد استطاعت العقيدة حتى الآن أن تبرهن أنها أقوى من كل روابط النسب... وأقوى من العصبية، كما برهنت بعد ذلك أنها أقوى من الارتباط بالأرض.. وكانت الهجرة هي البرهان على ذلك.

واليوم والرسول ﷺ يبحث جاداً عن مكان يقيم فيه قاعدة للدعوة، ليقوم البناء الشامخ، كانت تنقية هذه القاعدة ضرورة ماسة، فالأحجار

---

(١) عن تفسير ابن كثير في مقدمة سورة الإسراء. وانظر أيضاً: ترتيب مسند أحمد للبناء ٢٠ ص٢٦٣. المسمى بـ (الفتح الرباني).

القابلة للتفتت تحت عمليات الضغط العالي ينبغي إخراجها من الآن، وكان لا بد من دخولها المختبر، وكان المختبر حادثة الإسراء.

إن عمليات الإرجاف والتكذيب التي وضعتها قريش في وجه الرسول ﷺ كانت مؤثرة بعض الأحيان، ومعيقة في أحيان أخرى، وإذا لم يكن المؤمنون يتمتعون بالثقة المطلقة برسولهم، والإيمان الكامل بصدقه في كل ما يقول فلن يستطيعوا أداء دورهم في ما ينتظرهم من أعمال ومهام.

وكان الإسراء تمحيصاً للصف واستخراجاً للشوائب. وتابع المؤمنون الصادقون مسيرتهم برعاية الله موقنين بقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ . . .﴾.

القرآن المكي

القرآن المكي هو الآيات والسور التي نزلت بمكة قبل الهجرة، فالهجرة هي الفاصل بين ما عرف بالقرآن المكي والقرآن المدني أو الآيات المكية والآيات المدنية. وقد استمرت المدة التي نزلت فيها الآيات في مكة ثلاثة عشر عاماً.

كان الموضوع الرئيس الذي عالجته هذه الآيات[1] هو أمر العقيدة. وبخاصة: تقرير وحدانية الله تعالى. والدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر وكان السبيل الذي سلكه القرآن لتقرير ذلك هو دعوة العقل إلى التفكر والتأمل بعيداً عن هوى النفس، وبعيداً عن ضغط المجتمع وسلوك طريق الآباء والأجداد. إن هذه القضية لا يصلح فيها التقليد ولا بدّ أن تأخذ أبعادها في النفس عن طريق العقل والفكر حتى لا يكون ثمة مجال لزعزعتها أو التأثير فيها.

وفي سبيل ذلك كان لا بد من تحديد قيمة الآلهة الأخرى ـ غير الله تعالى ـ حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾[2]. كما كان من الضروري بيان زيف وضلال كل عقل أعرض عن التسليم بوحدانية الله تعالى ولو كان عقل الآباء والأجداد الذين لهم في العادة التقدير والاحترام. وإن الكثير من الناس ضلوا بذلك. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

(١) تعدلُ الآيات المكية ضعفي الآيات المدنية تقريباً.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٤.

﴿مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا . .﴾[1] ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾[2] ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾[3].

وإذا كان للعقيدة تاريخ، فهو تاريخ الإنسان نفسه منذ وجد. . . وقد تناول القرآن المكي هذا الجانب بالتفصيل فكان الحديث عن الأنبياء والرسل السابقين وبيان موقف أقوامهم منهم وأنها مواقف متشابهة. كما كانت دعوة هؤلاء المرسلين واحدة. . إنها الدعوة إلى عبادة الإله الواحد.

ومن خلال قصص الأنبياء بيّن القرآن منهج العقيدة بكل تفصيلاتها وهي تعيش في دنيا الناس وواقعهم لا في عالم النظريات والأحلام والخيال. وبيّن مستلزمات الإيمان من السلوك والخلق القويم والإرادة الصلبة. . كما بيّن خلال ذلك خط الانحراف عن منهج الله. . وأوضح سماته وزيفه.

على أننا نلمح إضافة إلى ما سبق اهتمام القرآن الكريم بالرسول ﷺ وتسجيل قسط كبير من مناقشة قومه له وإعراضهم عنه وما وضعوا في سبيله من عراقيل وقد أخذ ذلك مساحة لا بأس بها من الآيات التي نقلت أقوال المشركين ووصفهم الرسول ﷺ بالسحر والكهانة والجنون والكذب. . والاستهزاء به ثم الرد عليهم. . وتسلية الرسول ﷺ بقصص الأنبياء السابقين وما لاقوه من أقوامهم. وهي المهمة الثانية لقصص الأنبياء في القرآن[4].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٠. (٢) سورة هود: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ٧١ ـ ٧٣.

(٤) لاحظت أن القاعدة العامة في القرآن المكي ـ باستثناء المفصل منه ـ أن أكثر السور تبدأ بالحديث إلى الرسول أو الحديث عنه. . كما تنتهي بخطابه بأمر ما =

وقد يسأل سائل: إذا كان القرآن هو دستور الدعوة العالمية، فما فائدة أن يأخذ هذا الجانب ـ وهو جانب تاريخي ـ ذلك الجزء الكبير من مساحة القرآن؟

والجواب: إن الناس بالنسبة لدعوة الله بين مصدق ومكذب. والمكذب مهما تغير الزمن وتغير المكان فعقليته واحدة وافتراءاته واحدة وافتراضاته واحدة. قد يتغير الشكل الخارجي لها ولكن الحقيقة تبقى هي هي. والقرآن إذ يسجل كل مواقف العناد والإلحاد والتكذيب بالتفصيل إنما يسجل مواقف تتكرر.

إن القرآن المكي ـ خاصة ـ يرمي إلى تأكيد حقيقة مهمة، وهي بيان شخصية الرسول ﷺ وإزالة كل إشكال حولها. ومهما تطاول الزمن وتقدم الفكر المسير شيطانياً.. فلن يخرج معه أكثر مما أنتجه كفار مكة من تلك الافتراءات ـ على هذه الشخصية الكريمة ـ ثم ردها القرآن جميعاً.. ليقرر حقيقة الرسول ومهمته.

وإذا تقرر وضع الرسول واتضحت مهمته أمكن حينئذٍ من خلاله وبواسطته إيصال كل الأوامر والمعاني لتُتقبل بالعقل والقلب معاً، بغية تنفيذها والالتزام بها.

إن القرآن في مكة سجَّل إفلاس الفكر الجاهلي، واستوعب كل مفترياته، ورد عليها حتى اضطر المشركون إلى الاستعانة بالفكر المستورد

= أو الحديث عنه.. ولا تتخلف هذه الملاحظة إلا في سور معدودة هي: المؤمنون والروم في بدايتهما والجاثية في نهايتها ولقمان بداية ونهاية. وسورة العنكبوت كان بدؤها آيات مدنية.
وهكذا نلاحظ أن الاهتمام كبير بالحديث عنه ﷺ ولا ننفِ أن يكون كذلك في الآيات المدنية.. إنها ظاهرة تستحق الدراسة.
أما قولي: إن تسلية الرسول ﷺ بقصص الأنبياء هي المهمة الثانية للقصص. بناء على أن المهمة الأولى هي بيان تاريخ العقيدة.

من أهل الكتاب علّهم يجدون حجة للتكذيب.. ثم أفلست طريقتهم تلك.. حيث أجابهم القرآن على أسئلتهم.. ولم يكتف بهذا بل تحدث القرآن مسبقاً عما يمكن أن يستعين به المشركون من الفكر الفلسفي.. وطرح اعتراضاتهم قبل أن يقولوها وأجاب عليها. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ..﴾[1].

ومضى القرآن في تقرير الحقائق يطرحها للناس جميعاً. فأما المؤمنون فإن هذه الحقائق تأخذ مكانها من قلوبهم وأفئدتهم لتستقر فيها إلى الأبد. وأما غيرهم فإنها تطرق مسامعهم بحيث لا يستطيعون رد نفوسهم عن الاقتناع بها، وإن كانوا في الظاهر يجحدونها ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[2] فلما زال سلطان الباطل وطواغيته عن النفوس الضعيفة لم تكن على جهل بما جاء به القرآن.

إن القرآن وهو يسجل هذا الأخذ والرد.. والإنكار والتقرير.. إنما يسجل موقف الجاهلية دائماً. ويسجل الحقيقة في مقابل الزيف وهكذا تظل الحقيقة في متناول الجميع.

ولهذا تظل معرفة الجاهلية أمراً ضرورياً. فهي الخصم اللدود للإيمان وما لم يعرف الإنسان خصمه لا يستطيع اتقاء شره..

وهكذا كانت مهمة القرآن المكي بناء الفرد المؤمن - الذي به ينهض المجتمع الإيماني - بناء عملياً من خلال التعامل مع الجو الجاهلي والفكر الجاهلي.. محاولاً بيان زيفه انطلاقاً من معطيات الإيمان التي كانت تنزل وحياً من السماء آيات بعد آيات وسورة بعد سورة.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

(٢) سورة النمل: الآية ١٤.

مقدمات الهجرة إلى المدينة

عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل:

لم يعد لدى رسول الله ﷺ أي أمل في أن تكون مكة مركز الدعوة، وكان عليه أن يفتش عن مكان آخر، وعن قوم آخرين - غير قريش - يقومون بحمايته حتى يبلغ دعوته.

وكان عليه في سبيل ذلك أن يستفيد من مواسم الحج. ومن مواسم الأسواق[1]، بل كان عليه أن يغشى القبائل في أماكنها.. وهو ما فعله ﷺ، كما كان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.

وكان أعداء الله يلاحقونه في خطواته تلك.. فكان أبو لهب يقف بعده في كل مكان وقف فيه يكذبه ويدعوهم ألا يتركوا اللات والعزى.

كان يقول ﷺ: (يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أُبين عن الله ما بعثني به).

ولم يقبل ذلك منه أحد، وكانوا يقولون: قومك أعلم بك، ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً من بني حنيفة.

---

(١) أسواق الموسم هي: عكاظ ومجنة وذو المجاز. وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً ثم تجيء إلى ذي المجاز فتقيم به أيام الحج.

ومن جملة من عرض عليهم نفسه بنو عامر بن صعصعة، فقال بَيْحَرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء) فقال له: أفَتُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. لا حاجة لنا بأمرك.

ويحسن بنا أن نتأمل هذا النص، مكة معرضة، والقبائل التي التقى بها لم تقبل منه، ويقف هنا على قوم استطاعوا بفراستهم أن يعرفوا بعض قدره ﷺ، ولكنهم يشترطون أن يكون الأمر لهم من بعده، إنه إيمان مشروط. وإن أي رجل ـ غير رسول الله ﷺ ـ كان من الممكن أن يسارع إلى قبول شرطهم وقد سدت السبل في وجهه حتى كاد الأمل يصبح سراباً، كان من الممكن أن يقبل وبعد أن يسيروا في طريق الإيمان يملي عليهم ما يريد؟ ولكن الغاية الرفيعة ينبغي أن تكون وسيلتها رفيعة أيضاً. والإسلام لا يقبل أبداً المبدأ المكيافلي القائل: الغاية تبرر الواسطة.

إن الأمر لله يضعه حيث يشاء: تلك الكلمات تعني الإصرار على الحق وحتى في أحلك الظروف. وإن دلت على شيء فهو تلك الإرادة التي كان يتمتع بها الرسول الكريم، والمثابرة على الدرب والمصابرة عليه مهما صعب. وتلك صفات قلما تتوفر في الرجال إلا إذا كانوا قد تربوا تلك التربية الإيمانية في ميدان الواقع على يدي رسول الله ﷺ... أو تربوا في ظلال ذلك المنهج[1].

إن قضية الإيمان والعمل لله ليست صفقة تجارية قابلة للمساومات وإملاء الشروط. والرسول ﷺ مبلغ عن الله وليس له من الأمر شيء.. ولم يُتح له حتى الآن الوقوف على من يفهم مهمته ودعوته فيقدرها حق

---

(١) كان موقف أبي بكر ﷺ يوم الردة تطبيقاً لهذا المنهج الذي وعاه من رسول الله ﷺ.

قدرها... ولكن الثقة بالله كبيرة.. وما عليه إلا أن يتابع المسير.. فبعد شدة الظلام يطلع الفجر.

طلائع يثرب:

وفي الموسم الذي أراد الله فيه للدعوة أن تتبين الطريق إلى قاعدة الانطلاق، إلى المكان الذي يأرز الإيمان إليه، كان الرسول ﷺ جاهداً ينتقل من جماعة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين يعرض أمره ويدعو إلى الله، ويطلب النصرة لتبليغ أوامره..

ووقف على جماعة من هذه الجماعات عند العقبة:

قال: (من أنتم؟)

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: (أمن موالي يهود).

قالوا: نعم.

قال: (أفلا تجلسون أكلمكم؟)

قالوا: بلى.

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[1]...

كانوا معه بكليتهم سمعاً ووعياً وفهماً.. ولما قطع شوطاً من حديثه شردت بهم الذاكرة إلى يثرب.. إن اليهود كانوا يحدثونهم عن نبي منتظر قد أظل أوانه، وكانوا يتوعدونهم به، وأنهم سوف يتبعونه ويقتلونهم قتل عاد وإرم..

كان الرسول الكريم يتكلم، وكان القوم يقابلون بين أوصافه التي كانوا يسمعونها من يهود وبين الحديث الذي يسمعون..

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٢٨/١. وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رئاب.

فقال بعضهم لبعض: والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. ولبَّوْا دعوة الإيمان بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك.

ثم انصرفوا إلى بلادهم، وكانوا ستة نفر، منهم أسعد بن زرارة، فلما قدموا إلى المدينة حدثوا قومهم حديثهم، ودعوهم إلى الإسلام، حتى أصبح في كل بيت ذكر لرسول الله ﷺ.

وتابع ﷺ جهاده في سبيل دعوته، فإسلام هؤلاء النفر، لئن كان فيه شعاع من أمل، فإنه لا يمكن أن يتوقف العمل انتظاراً لهذا الأمل. فاستمر يقف على الناس في موسمهم ذاك، ويدعو إلى الله، وقريش ما تزال على عنادها وصدِّها عن سبيل الله.

بيعة العقبة الأولى:

وجاء الموسم من العام المقبل، فلقي الرسول ﷺ من أهل يثرب اثنا عشر رجلاً، منهم خمسة كانوا ممن أسلم والتقى به في الموسم السابق، فأسلموا وبايعوه على مثل بيعة النساء، وكانوا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس.

«عن عبادة بن الصامت قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء[1]، وذلك قبل

---

(١) ذكر الحافظ بن حجر رحمه الله - في صدد الحديث عن الحدود وهل هي كفارات - أن بيعة النساء وقعت بعد فتح مكة بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ وأن عبادة حضر بيعتين: بيعة العقبة وبيعة متأخرة على مثل بيعة النساء بعد نزول الآية، وأن بيعة العقبة إنما كانت على ما ذكره ابن إسحاق وغيره: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم=

أن تفترض الحرب: على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله ﷻ إن شاء عذب وإن شاء غفر»[1].

وأتم القوم حجهم، ولما أرادوا الانصراف، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير - بناء على طلبهم[2] - وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين. وكان يسمى بعد ذلك في المدينة «المقرئ».

ومصعب بن عمير الذي أوكلت إليه هذه المهمة، قرشي من بني عبد الدار، وكان فتى مكة يومئذٍ شباباً وجمالاً وتيهاً، أسلم مع الرعيل الأول ولما كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة كان أحد أفرادها.. ثم عاد إلى مكة... واختيار رسول الله ﷺ له يبين لنا مكانته وفقهه للدعوة وصلته بالقرآن. إذ المهمة الموكلة إليه هي تبليغ هذه الدعوة سلوكاً وفكراً وفطانة وحكمة.

ونزل مصعب على أسعد بن زرارة، حيث كانت إقامته عنده. وكان

= وأبناءكم). ويؤيد قوله بحديث عبادة عند البخاري في كتاب الحدود، أن النبي ﷺ لما بايعهم قرأ الآية كلها. اهـ. ملخصاً من فتح الباري ١/ ٦٥ - ٦٧ و٧/ ٢٢٢.

وَيَرِدُ على قوله: أن ما ذكره عن ابن إسحاق كان في بيعة العقبة الثانية وحديث بيعة النساء كان في بيعة العقبة الأولى. ولا خلاف في وجود بيعتين. ولا مانع أن يكون عبادة بايع مرة أخرى بعد نزول الآية، فتعدد البيعة مذكور عن كثير من الصحابة. بل حدث أن بعض الصحابة بايع أكثر من مرة يوم بيعة الرضوان. وعبادة إنما حدث بذلك بعد وفاته ﷺ أي بعد نزول الآية، فلما كانت البيعة موافقة لما ورد فيها أطلق عليها اسم بيعة النساء.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٣٣ ومعناه في البخاري.

(٢) في رواية ابن إسحاق أنهم كانوا كتبوا إليه ﷺ أن ابعث لنا من يقرئنا القرآن.

يصلي بهم ويؤدي دوره في المهمة التي كلفه بها رسول الله ﷺ. . وقد عاصر مصعب كل مراحل الاضطهاد التي مر بها المسلمون في مكة وهو يتركها اليوم وهو على علم بسعي الرسول ﷺ الجاد لإيجاد القاعدة التي يقام عليها بناء الإسلام، إن المسلمين بين مهاجر إلى الحبشة وبين مضطهد في مكة. . كل هذا يجعله أكثر وأكثر شعوراً بالمسؤولية. . واندفاعاً ليكسب للدعوة الأنصار الذين يمكنها بهم أن تأخذ موقعها على الساحة.

مصعب في يثرب:

كان المسجد الحرام في مكة هو النادي الذي يجتمع فيه القوم، أما هنا في يثرب فلم يكن الأمر كذلك. وكان على أسعد بن زرارة أن يذهب بمصعب إلى مجالس القوم. .

ودخل أسعد ومعه مصعب حائطاً[1] لبني ظفر حيث كان يجلس بنو عبد الأشهل وبنو ظفر، وجلسا وجلس إليهما رجال ممن أسلم.

ووصل الخبر إلى سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وهما يومئذٍ سيدا قومهما، من بني عبد الأشهل ـ وكلاهما مشرك على دين قومه ـ فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أسعد مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً.

وأخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما شاتماً فقال:

ـ ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

---

(١) الحائط: البستان.

ـ قال مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره.

ـ قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما...

وتكلم مصعب فقرأ عليه القرآن وعرض عليه الإسلام.. فقالا: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقة وجهه... ثم قال: ما أحسن هذا... وشهد شهادة الحق. ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن.

وانصرف أسيد إلى سعد وقومه، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به... فلما وقف أسيد على القوم قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت. ثم قال له وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك.

وكانت تلك كلمة من أسيد ليبعث بسعد إليهما.

وقام سعد بن معاذ مغضباً، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما... وتكررت الحادثة مع سعد بن معاذ. وكان أسعد قد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان... وعرفا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم.. ثم شهد شهادة الحق.

ورجع إلى قومه ـ وقد عرفوا في وجهه، ما رأى هو في وجه أسيد حينما جاءه ـ فقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو

مسلمة.. ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الإسلام...[1].

وهكذا ذهب سعد بن معاذ ليصد عن الدعوة، فعاد داعياً إليها.. إنه حينما يعمل العقل صافياً بعيداً عن الترهات والتقاليد، لن يجد في الإسلام إلا السبيل الأمثل لصلاح الناس. لقد كان أسيد بن حضير ومن بعده سعد بن معاذ مثالاً للرجل الواعي الذي لم يلتزم حكمه المسبق على دعوة الرجلين.. إنهما أنصتا إليها فوجدا فيها بغية كل عاقل منصف. إن الإسلام ليس شعوذة ولا ترهات، لا يعمل أثرها في النفس إلا حينما يغيب العقل. إن الإسلام هو كلمة الحق التي لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلّا إذا حكم العقل.

ثم إنه مما يستوقفنا ذلك الأثر الذي أحدثه الإيمان في النفوس، إن سعد بن زرارة ومصعباً عرفا الإيمان في وجه أسيد ووجه سعد قبل أن يتكلما. وعرف سعد أثر الإيمان في وجه أسيد.. وعرف القوم التغير في وجه سعد.. إن الإيمان ليس حلة ترتدى فتغيّر المظهر الخارجي. إن الإيمان تغيير داخلي يشمل كيان الإنسان كله. ثم يصل في جملة ما يصل إلى المظهر الخارجي حيث تبدو بشاشته على الوجوه بعد أن خالطت القلوب.

إن الإيمان قناعة كلية تمتلك على الإنسان كل حواسه وقدراته فتسيرها في الطريق السوي، ومن أول معالمه حب الخير للآخرين كما أحبوه لأنفسهم، ومن هنا كان حرص أسيد بن حضير على أن يسمع سعد لغة الإيمان من مصعب، ثم كان وبالأسلوب نفسه حرص سعد على إسلام قومه.

ونعود إلى أسعد بن زرارة وهو يوصي مصعباً بالصدق مع الله في

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٣٥.

دعوة الرجلين، هل كان مصعب بحاجة إلى وصية؟ ما نظن ذلك، ولكنه الحرص على الإيمان أن يدخل قلب الرجلين، ومعرفته بخطرهما على قومهما دفعه إلى التذكير وبيان خطورة الموقف. ولقد كان أسعد يدري من هو سعد ويعلم أن إسلامه له ما بعده وعدم إسلامه له ما بعده.. فكانت الكلمات في موقعها.. تنبع من معين الإيمان قاصدة وجه الله ﷻ. وحينما تنبع الكلمات من القلوب لا بد - بإذن الله - أن تجد طريقها إلى القلوب.

وتابع مصعب مهمته.. فقد اتسعت دائرة العمل.. ودخل الإسلام البيوت وكان عليه أن يفقه الناس بتعاليم الإسلام وأخلاقه، كما كان عليه أن يدعو إليه أولئك الذين ما زالوا على شركهم.. ومضى عام من العمل الدؤوب... وبدأت الثمار قريبة القطاف. وحان موسم الحج...

بيعة العقبة الثانية:

ومع حلول الموسم كان عدد المسلمين وافراً في يثرب، فلم يبق بيت إلا وفيه مسلمون أو فيه حديث عن الإسلام. وتذكر هؤلاء حال الرسول ﷺ في مكة فقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ فعزم عدد منهم على الحج مع قومهم وكان عددهم يربو على السبعين. وكان مصعب بن عمير قد سبقهم راجعاً إلى مكة يحمل معه بشرى الخير.

وكان الموعد مع رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق فلما كانت تلك الليلة، نام القوم في رحالهم، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم فرادى يتسللون تسلل القطا مستخفين، لم يوقظوا نائماً ولم ينتظروا غائباً - تنفيذاً لأمر الرسول ﷺ - واجتمع القوم في الشعب عند العقبة وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتان هما: نسيبة بنت كعب المازنية، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة.

وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس - وهو يومئذٍ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يتوثق لرسول الله ﷺ.

وكان العباس أول متكلم فقال: يا معشر الخزرج: - وهي تطلق على الأوس والخزرج - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

وتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، وشرط لربه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم قال: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)[1].

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

فاعترض أبو الهيثم بن التيهان - والبراء يتكلم - فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً - يعني اليهود - وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم والهدم الهدم[2]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم).

ثم قال ﷺ: (أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم - ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم - وأنا كفيل على قومي).

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٤٢.

(٢) كلمة كانت العرب تقولها عند عقد الحلف.

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فلما قاموا يبايعونه أخذ بيده أسعد بن زرارة وقال: رويداً يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله فقالوا: أمط عنا يدك، فوالله ما نذر هذه البيعة ولا نستقيلها.

أما النقباء، فمن الخزرج:

أسعد بن زرارة	رافع بن مالك	عبادة بن الصامت
سعد بن الربيع	البراء بن معرور	سعد بن عبادة
عبد الله بن رواحة	عبد الله بن عمرو بن حرام	المنذر بن عمرو

ومن الأوس:

أسيد بن حضير	سعد بن خيثمة	رفاعة بن عبد المنذر

وتمت البيعة في هذا الجو الإيماني الخالص قابلين كل ما يقوله الرسول ﷺ عارفين تبعاته، مقدرين ما يحتاج إليه من بذل للنفوس قبل الأموال وما كلمة البراء إلا التأكيد لهذا المعنى... ويسيطر الحب للرسول ﷺ على النفوس فيتكلم أبو الهيثم بن التيهان، فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ إنه وهو الذي لم يذهب إليهم بعد وبعضهم لم يجتمع به ولم يره إلا في ذلك الموطن ـ لم يعودوا يتصورون فراقه.. ليس هناك شيء غير الإيمان يفعل ذلك.. وتبسم ﷺ وطمأنه..

وكانت كلمة أسعد بن زرارة ـ والرجال على وشك أن يضعوا أيديهم في يد رسول الله مبايعين ـ توثيقاً للبيعة وتأكيداً لحق رسول الله. ولم يكن أسعد وحده هو الذي تكلم بهذا المعنى بل تكلم به العباس بن عبادة فقال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس... كان الجميع يريد توثيق البيعة وتأكيدها في أعناق القوم.

في هذا الجو كان الإيمان يملأ النفوس حتى شعرت أنها في سبيل حماية رسول الله ﷺ لها القدرة، من الآن وقبل أن ترجع إلى يثرب، على أن تقاتل دونه من يقف في سبيلها كائناً من كان. قال العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا فقال ﷺ: (لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم).

وفي الصباح غدت جلة قريش إلى منازل الأوس والخزرج فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا. وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فانبعث مشركو القوم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء... ـ وقد صدقوا فلم يعلموه ـ والمسلمون ينظر بعضهم إلى بعض، وجعل عبد الله بن أبي بن سلول يقول: هذا باطل، ما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا.

وانتهى الموسم وغادر القوم مكة، ثم إن الخبر صح عند قريش فخرجوا في طلبهم. فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. ثم إن المنذر أعجزهم ومضى وقبضوا على سعد. فقالوا: أنت على دين محمد؟ قال: نعم. فأتوا به مكة يضربونه ويسحبونه بشعره، ثم إنه بإشارة من أبي البحتري بن هشام صرخ بجوار المطعم بن عدي والحارث بن حرب ـ وكان يجير لهما ـ فأتيا وأطلقاه من يد القوم.

من نتائج البيعة:

كان لهذه البيعة آثارها البعيدة في تاريخ الدعوة، وسنلاحظ ذلك خلال الأحداث التي تلت ذلك، ولكننا هنا نريد الحديث عن الآثار القريبة:

١ ـ لم يكن في نصوص البيعة ذكر للقتال وإنما منع رسول الله ﷺ مما يمنعون منه أهلهم. وفهم الجميع أن ذلك يقتضي بداهة القتال فهم

إنما يمنعون أهلهم باستعمال السلاح وبدا هذا واضحاً في كلام من تكلم.

- ففي كلام البراء: فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة..

- وفي كلام أبي الهيثم: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنّا قاطعوها..

- وفي كلام أسعد: إن إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف.

- وفي كلام العباس بن عبادة: إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا.

إنها بيعة تقدم فيها الأرواح والأموال، والجزاء الجنة.

٢ - إن ملاحقة المشركين من أهل مكة لأهل يثرب بعد انتهاء الموسم يؤكد أن عداء المشركين لم يكن محصوراً ضد أبناء بلدهم وإنما هو عداء الشرك للإيمان والكفر للتوحيد. هذا العداء الذي لا بد له من القوة التي يركن إليها الإيمان. وعاد المسلمون من أهل يثرب وهم مقدرون عظم المسؤولية التي كان لهم شرف حملها. وكانوا أهلاً لها.

٣ - وعلى صعيد المدينة: رجع من كان بالموسم من أهل يثرب إليها وأظهر المسلمون إسلامهم بها. بعد أن كان فريق كبير منهم يكتم إسلامه. وسعوا جاهدين في الدعوة إلى الله.

٤ - أما في مكة فقد شدد المشركون القبضة على المسلمين، بعد أن عرفوا ما كان من أمر البيعة، وضيقوا على الصحابة وأتعبوهم ونالوا منهم. مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى.. فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم بالهجرة إلى يثرب وقال لهم: (إن الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها).

وخرج المسلمون أرسالاً.. عن البراء بن عازب قال: أول من قدم

علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين نفراً من أصحاب النبي ﷺ.

وهكذا تتابع المسلمون في الوصول إلى يثرب حتى لم يبق في مكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي ـ وقد أقاما بأمره ﷺ ـ يضاف إليهم من احتبسه المشركون كرهاً.

وخلت دور المسلمين من أهلها... ومر عتبة بن ربيعة والعباس وأبو جهل على واحدة منها وهي دار بني جحش فنظر إليها عتبة، تخفق أبوابها يباباً ليس بها ساكن، فتنفس الصعداء وقال:

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يوماً ستدركها النكباء والحوب

ثم قال: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها، فقال أبو جهل ـ مخاطباً العباس ـ: هذا عمل ابن أخيك فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا.

وتنازل صهيب عن أمواله لقريش مقابل السماح له بمغادرة مكة.. فقال له ﷺ: (ربح البيع أبا يحيى)[1].

حدث هذا كله في فترة يسيرة ابتدأت بعد انتهاء موسم الحج في النصف الثاني من شهر ذي الحجة واستمرت خلال شهري المحرم وصفر وكانت هجرته ﷺ في ربيع الأول.

على هامش البيعة:

قبل أن ننهي الحديث عن البيعة يحسن بنا الوقوف على هذين الخبرين:

١ ـ حدث كعب بن مالك ـ وكان ممن شهد العقبة وبايع

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية ٢٠٧ من سورة البقرة وانظر جامع الأصول ٢/ ٣٧ الحديث ٥٠٢.

رسول الله ﷺ قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور، سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا: يا هؤلاء: إني قد رأيت رأياً. فوالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر - يعني الكعبة - وأن أصلي إليها، قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه. فقال: إني لمصلٍ إليها، فقلنا: لكن لا نفعل. فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة[١].

وكان البراء ممن أسلم في المدينة، ولم ير بعد رسول الله ﷺ. ويستوقفنا في هذا الخبر:

- الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح - مهما كان مصدره - يتعارض مع ذلك يعتبر مرفوضاً. وهذه من أوليات الفقه في دين الله. تأخذ حيزها من حياتهم وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

- إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله ﷺ وإن توقير أي إنسان واحترامه إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول ﷺ. وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفاً وترتيباً.

ويذهب البراء ليعرض أمره - ذاك - على الرسول ﷺ ويسمع منه الكلمات التالية: (لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها). إنه جواب الحكمة - إنه بيان للخطأ وأمل كبير في تحقق ما يصبو إليه - إنه إيضاح للخطأ دون جرح للمشاعر...

٢ - رأينا أن العباس حضر مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ليتوثق له.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٣٩.

وقبل أن يتحدث حديثه ـ الذي سَبَقَ ـ نظر في وجوه القوم: وقال: هؤلاء قوم لا نعرفهم[1]، هؤلاء أحداث.

كان العباس يومئذ يناهز الخمسين من العمر، فهو يعرف كبار القوم سناً ممن كان في مثل سنه وأكثر الذين حضروا البيعة هم الشباب. وتلك حكمة الله، فالأعمال الجسيمة تحتاج إلى همة الشباب وعزمهم.

إن قوة الشباب وعزمهم حينما يضبطها الالتزام بخط الإيمان فلا تنحرف عنه، ويتضح في أذهانهم سمو الهدف ورفعة المقصد ومن وراء ذلك القيادة الصادقة الملتزمة التي تأخذ نفسها بتعاليم الإيمان التي هي منهج الجميع.. حينئذٍ لن يكون في الطريق عثرات.

إن هؤلاء الشباب كانوا قوة الحق التي أزاح الله بها الباطل، ولقد سجلت المعركة الأولى ـ بدر ـ حضور واحد وخمسين منهم من أصل ثلاثة وسبعين، وهي معركة لم تكن متوقعة.

كان العباس يتكلم من منطق البيئة التي نشأ بها ـ حين كان شيخ القبيلة هو القبيلة ـ ولكن الإسلام... كانت له مقاييس أخرى.. تقوم على التقوى والعلم في دين الله. وبهذا المنطق كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح في الصلاة بعد هجرتهم إلى المدينة.. لأنه أكثرهم قرآناً.

ما أحوج دعوة الإسلام دائماً إلى الشباب يمدها بالحيوية والاستمرار في الطريق.. وما أحوج الشباب إلى القرآن يمدهم بالإيمان.

(١) إن العباس يتكلم بشكل عام وإلا فقد كان يعرف البراء بن معرور وكعب بن مالك. وقد عرفه الرسول ﷺ عليهما حينما جاءه البراء يسأله عن توجهه في الصلاة إلى الكعبة وقال له: (قد كنت على قبلة لو صبرت عليها).

هجرة الرسول ﷺ

أقفرت مكة من أهلها المسلمين، ولم يبق إلا الرسول ﷺ وأبو بكر وعلي، ومن حُبس ومنع من الخروج، واستأذن أبو بكر يريد الهجرة فقال له ﷺ: (لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً). وطمع أبو بكر أن يكون هذا الصاحب هو رسول الله ﷺ فاشترى راحلتين استعداداً للسفر المتوقع. كما كان تأخر علي بأمر منه ﷺ.

مؤامرة قريش الفاشلة:

وفتحت قريش أعينها للواقع الجديد فإذا المسلمون قد نزلوا داراً وأصبح لهم إخوان أصابوا بهم منعة، وإذا رسول الله ﷺ قد أصبح له شيعة وأنصار، وبلد يأوي إليه. فخافوا خروجه إليهم وأن يقوى أمره بهم فربما جمع لحربهم... ومرت بأذهانهم أيام وأيام نالوا فيها من المسلمين كما نالوا من رسول الله، إنها ثلاثة عشر عاماً، صبر فيها هو وأصحابه على البلاء والتكذيب... وكانت لهم جولات وجولات... ولئن قاتلهم فلن يلومه أحد..

كان عليهم أن يتدبروا الموقف قبل أن تفوتهم الفرصة، وهرعوا إلى دار الندوة حيث يجتمع القوم لتداول الأمور الخطيرة في حياتهم، وكان الاجتماع يضم علية القوم - أكابر مجرميها - عتبة وشيبة وأبو جهل.. وقدّمت اقتراحات: منها السجن، ومنها أن يترك وشأنه طالما أنه سيغادر مكة.. وبعد المناقشة استقر الرأي على الاقتراح الذي قدمه أبو جهل: قال إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: ما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً، ثم

نعطي كل فتى سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

ورأي أبي جهل في مثل هذه المواقف لا يناقش.. ووافق المجتمعون على ذلك تفرقوا للإعداد لتنفيذ الأمر.

وجاء جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما عزم عليه القوم وأمره أن لا ينام في فراشه تلك الليلة، كما بلغه الإذن بالهجرة.

وفي وسط النهار وفي شدة الحر أتى رسول الله ﷺ بيت أبي بكر، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: قال أبو بكر: والله ما جاء به هذه الساعة إلا أمر، فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: (أخرج من عندك). فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله. قال: (فإن الله أذن لي في الخروج). فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله قال: (نعم)، فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال: (بالثمن..).

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ.

واستأجرا عبد الله بن أريقط ـ وكان مشركاً ـ يدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غارثور بعد ثلاث ليال.

وعاد ﷺ إلى منزله، وحل المساء، وأحاط القوم بالبيت يرصدونه، ولما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي: (نم على فراشي وتسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم).

كان أبو جهل ـ قائد الأشقياء ـ يحدث جماعته وهم على بابه ﷺ قائلاً: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا

كان له فيكم ذبح ثم بعثتم بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها... كان أبو جهل هذا يتحدث ساخراً مستهزئاً.. فهو قاب قوسين أو أدنى مما منَّى نفسه به من الشر.. والرسول ﷺ داخل المنزل وهم محيطون به راصدون لكل ما يجري فيه.. فأنى لمحمد أن يفلت من أيديهم وشرك مكة كله من ورائهم.. ويسجل القرآن الكريم هذا الحدث بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[١]. إنهم لم يحسبوا الحساب لفعل الله بعد أن أعمى أبصارهم وبصائرهم.

وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم نثرها على رؤوسهم وهو يتلو الآيات الأولى من سورة يس حتى وصل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾[٢] وأخذ الله على أعينهم فلم يروه وأتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته. فوضع كل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب. ولكن نظرهم إلى الفراش وفيه علي نائم جعلهم على شك من قول الرجل. فلم يبرحوا حتى أصبحوا فإذا علي ينهض من الفراش[٣].

في الغار:

كان ﷺ قد مضى إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في ظهر بيته ثم اتجها إلى غار بجبل ثور فدخلاه. وطلع الصباح...

واتجهت قريش تبحث عن رسول الله ﷺ، قالت أسماء بنت أبي بكر: أتانا نفر من قريش ـ فيهم أبو جهل ـ فوقفوا على الباب. فخرجت

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٠. (٢) سورة يس: الآية ٩.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠ ـ ٤٨٤.

إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر. قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي.

وجدَّت قريش في طلبها، وأخذوا معهم القافة. حتى انتهوا إلى باب الغار[1] فوقفوا عليه. فقال أبو بكر: يا رسول الله. لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا. فقال ﷺ: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا) وانصرف القوم إذ لم يجدوا في الغار بغيتهم.

كان أبو بكر في هذه اللحظات الحاسمة شديد الخوف على رسول الله ﷺ وأقدام القوم تذهب وتجيء ولكنها إرادة الله وقدرته. ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

ومضى نهار اليوم الأول وقد أنهك التعب قريشاً فقد بحثت في كل مكان تريد تدارك الأمر، ولكن دون جدوى.

وأقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في الغار، وفق خطة محكمة أتقن آل أبي بكر تنفيذها. كان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر. ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - يرعى في رعاية أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، وكان عبد الله يرجع إلى مكة سحراً فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ فيها. وكان عامر يتبع أثره بالغنم حتى يعفي عليه. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له. وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما. ونسيت أن

---

(١) كان الغار - فيما يبدو - فجوة إلى أسفل والباب في أعلاها وتحت الباب زاوية ميته أي لا يراها الواقف على الباب إلا إذا خفض رأسه إلى مكان قدميه.

تجعل لها عصاماً. فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام فتحل نطاقها فتجعله عصاماً. فسميت ذات النطاقين[1]. حيث شقت النطاق باثنتين علقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر.

في الطريق إلى يثرب:

ركب رسول الله ﷺ راحلته بعد أن أصر على أخذها بثمنها وركب أبو بكر راحلته وأردف خلفه غلامه عامر بن فهيرة ليخدمهما وركب الدليل راحلته وانطلق الركب في رعاية الله وحماه، بعد أن التفت رسول الله ﷺ إلى مكة وقال: (والله إنك لأحب أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك)[2].

ولما أيس المشركون من العثور على رسول الله ﷺ وصاحبه. جعلوا لمن يأتي بهما أو بأحدهما مائة ناقة لكل منهما. ومائة ناقة يومئذ ثروة لا يستهان بها ـ كما أنها اليوم كذلك ـ وجدّ طلاب المال في البحث، وما يهمهم من أمر الرجلين شيء، خاصة وأن الذين يلاحقونهما ويدفعون الثمن هم حماة الدين في مكة.

كان الأمر واضحاً في ذهن رسول الله ﷺ متوقعاً ما حدث ولذا كان التعاقد مع الدليل ليسلك بهما طريقاً غير معروفة، وإلا فالطريق بين مكة ويثرب معروفة لكل الناس وخاصة التجار منهم من أمثال أبي بكر رضي الله عنه.

فلما مروا بحي من مدلج مصعدين من قديد، بَصرَ بهم رجل فَوقف على الحي فقال: لقد رأيت آنفاً بالساحل أسودة وما أراها إلا محمداً وأصحابه. وفطن للأمر سراقة بن مالك ـ فأراد أن يكون الظفر له ـ فقال: بل هما فلان وفلان خرجا في طلب حاجة لهما. ثم مكث قليلاً

---

(١) ابن هشام ١/٤٨٦.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي كما في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/٣٢٨.

ثم قام فدخل خباءه. وأمر جاريته أن تخرج بفرسه من وراء الخباء ثم ركب.. وأدرك الركب واقترب منهم. وأبو بكر يكثر الالتفات ورسول الله ﷺ لا يلتفت. قال أبو بكر: يا رسول الله هذا الطلب قد رهقنا فدعا عليه ﷺ، فساخت يدا فرسه في الأرض. قال سراقة فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني فناديت القوم فقلت: أنا سراقة بن مالك أنظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، ودنا منهما قال: فأخبرتهما خبر ما يريد بهما الناس، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يرزآني[1]. وسألته أن يكتب لي كتاباً يكون بيني وبينه آية فأمر أبا بكر فكتب لي في عظم أو خرقة. وطلب إليه أن يعمي عنهما فكان أول النهار جاهداً عليهما وكان آخر النهار حارساً لهما... وفي رواية أنه ﷺ قال لسراقة: (كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟) فعجب من ذلك.

وهكذا رجع سراقة فوجد الناس في الطلب فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر وقد كفيتم ما هاهنا.

ثم مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ـ وكانت امرأة برزة جلدة ـ تطعم وتسقي من مر بها. فسألاها: هل عندها شيء يشترونه فقالت: والله لو عندنا شيء ما أعوزكم القرى، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فقال: (ما هذه الشاة). قالت: خلفها الجهد عن الغنم فقال: (أتأذنين لي أن أحلبها) قالت: إن رأيت بها حليباً فاحلبها. فمسح ﷺ ضرعها بيده وسمى الله ودعا.. فحلب وسقاها وشرب وشرب أصحابه.

الوصول إلى المدينة:

بلغ الأنصار خروج رسول الله ﷺ من مكة. فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه فإذا اشتد حر الشمس رجعوا إلى منازلهم. فلما

---

(١) من رواية البخاري باختصار برقم (٣٩٠٦). ومعنى يرزآني: أي لم ينقصاني مما معي شيئاً.

كان يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول - على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته - خرجوا على عادتهم فلما حميت الشمس رجعوا. وكان رجل من يهود على أطم[1] من آطام المدينة فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه فصرخ: يا بني قيلة[2] هذا صاحبكم قد جاء، فثار الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ.

وأحدق الناس بالرسول ﷺ يسلمون عليه بتحية النبوة، وكبر المسلمون، وكان يوماً مشهوداً في حياة المدينة شهده الكبار والصغار والرجال والنساء. قال البراء: فما رأيت الناس فرحوا بشيءٍ فرحهم به حتى جعل النساء والصبيان والإماء يقلن: قدم رسول الله، جاء رسول الله.

ولما دخل المدينة نزل بقباء في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم وأقام فيهم أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء. وهو أول مسجد أسس بعد النبوة، وهو المسجد الذي أسس على التقوى.

وأقام علي رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن الهدم.

ثم ركب ﷺ يوم الجمعة وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فجمع بهم ثم ركب فأخذوا بخطام راحلته، يقولون: هلمّ إلى القوة والمنعة والسلاح فيقول: (خلوا سبيلها إنها مأمورة..) وهكذا لا يمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم.. فيقول: (دعوها فإنها مأمورة).

فسارت حتى وصلت لموضع المسجد فبركت ولم ينزل عنها، حتى نهضت وسارت قليلاً ثم رجعت وبركت في موضعها الأول، فنزل عنها

---

(١) أطم: هو الحصن.

(٢) قيلة: هي أم الأوس والخزرج.

وقال: هاهنا المقام إن شاء الله. وكان ذلك في بني النجار أخواله ﷺ، وبادر أبو أيوب الأنصاري فحمل رحل رسول الله ﷺ فأدخله بيته والناس يدعونه فقال: (المرء مع رحله).

فأقام في بيت أبي أيوب حتى بنى حجره ومسجده ﷺ.

تأملات:

ما أحرانا بعد سرد وقائع الهجرة المباركة أن نقف لنعي بعض الدروس المستفادة وما أكثرها.

١ ـ آخر من يخرج:

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق إلا الرسول ﷺ، وأبو بكر وعلي[١]، بأمر منه ﷺ وهكذا تتأخر القيادة حتى تطمئن إلى سلامة الأفراد جميعهم، فكلهم مهم وله مكانته من نفس القيادة، وإن أي خطأ في هذا المفهوم يعدّ خطأ كبيراً يستحق التنبيه واللوم، ولمثل هذا نزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾. إن المؤمنين جميعاً ينبغي أن تتوفر لهم الرعاية الكاملة، ولذا قدمهم رسول الله ﷺ على نفسه ولا غرابة فقد وصفه القرآن بهذا الخلق الرفيع ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. إن أي قيادة في مجتمع صالح إنما مهمتها الحرص على مصالح الأفراد. ويتنازل القادة عن شيء من راحتهم ورفاهيتهم في سبيل أداء الواجب. فالقيادة تكليف وأمانة ومسؤولية، وليست مغنماً على حساب المساكين والضعفاء.

٢ ـ أداء الودائع:

وتأخر علي رضي الله عنه لأداء الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ لأصحابها، وغريب ما حدث، إنسان يطارد ويلاحق ويبتلى، والذين يفعلون ذلك هم أنفسهم لا يجدون مكاناً لثقتهم غيره فتكون أماناتهم عنده.

---

(١) وكذلك من حبس بمكة من المسلمين ومنع من الهجرة.

إن محمداً في مثل ظروفه الصعبة التي غادر فيها مكة لو لم يؤد هذه الأمانات إلى أصحابها لكان معذوراً، فهو في وضع لا مجال فيه للتفكير بغيره، ولكن الأمانة صفة أصيلة في نفوس المؤمنين فإن عذرهم الناس في عدم رعايتها، فإنهم لا يعذرون أنفسهم. وبقي علي ثلاثة أيام يؤدي هذه الودائع لأصحابها.

وهكذا تعلم المسلمون أن الأمانة لا تتجزأ ولا ينظر إليها من خلال أصحابها أو أوصافهم.. ولا يختلف مفهومها من حين لآخر ومن مكان لآخر.

٣ ـ الأسباب... والتوكل:

إن التخطيط والإعداد المسبق لأي أمر يعدّ من سمات العصر الحاضر الذي تسيطر فيه الحياة المادية على كل شيء، ويغيب فيه الجانب الروحي المشرق تحت سيطرة الأنظمة المادية وقوانينها.

هكذا يظن بعضهم، وإذا كنت متوكلاً على الله فدع الأمور تجري كما هي ولا تتدخل بشيء... ولا تخطط ولا تحذر..؟!

وفي الهجرة درس رائع في أخذ الحيطة والحذر، درس في التخطيط، التخطيط للأمر الكبير وللجزئية الصغيرة. وإن أي إنسان مادي ـ لا يؤمن إلا بالمادة ـ لو وضع في موضع رسول الله ﷺ بالنسبة للهجرة وطلب إليه الإعداد لها لن يستطيع أن يفعل ما فعله عليه السلام فضلاً عن أن يزيد عليه. ودعونا نستعرض بعض ذلك:

ـ جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحر ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد ـ بل لم يكن من عادته أن يأتي به. لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ـ ويأمر أبا بكر أن يخرج مَنْ عنده، ولما تكلم لم يبين إلا أمر الإذن بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

ـ وكان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر.

ـ واختير الغار في جهة الجنوب الغربي من مكة لتضليل القوم علماً بأنه في الجانب المقابل للطريق المؤدية إلى المدينة.

ـ إجراءات المكوث في الغار كانت في غاية الدقة. ثلاثة أيام موعد مسبق يعلمه الدليل، تأمين عملية المعرفة لما يدبره القوم حتى يمكن تلافي ما قد يجدُّ على الموقف، وتأمين عملية إعفاء أثر عبد الله بغنم عامر.. إنها جزئيات ولكن الخطأ بأي واحد منها قد يكون فيه تعريض الموضوع كله للخطر..

ثم مجيء عبد الله بعد العشاء ورجوعه قبل الفجر إلى مكة ليشعر القوم أنه يبيت معهم في مكة..

ـ كانت مهمة الدليل سلوك طريق غير معروف تعمية للقوم.

ـ كان العارفون بسفر رسول الله ﷺ نفر يسير لهم ارتباط وثيق وضروري لتأمين العملية.. علي.. ليلتقي به.. أبو بكر.. يصاحبه.. آل أبي بكر ليؤدوا دورهم في تأمين لوازم السفر الذي نشأ فجأة إثر إخبار جبريل عليه السلام.

وبعد هل هناك حيطة وحذر وتخطيط ودقة في التنفيذ ـ يمكن أن يقوم به إنسان مادي ـ أكثر مما فعله رسول الله؟ ما نعتقد ذلك، إن رسول الله ﷺ لم يأت ليغير قانون الأسباب والمسببات فتلك سنة من سنن الله في الخلق. وإنما جاء ليعلم الناس كيف يكون التعامل مع هذه السنن.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب، إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب واتخذ كل الوسائل ولكنه في الوقت نفسه مع الله يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ أرجل

فرس سراقة في الأرض.. وهكذا يكلل الله العمل بالنجاح إنه الدرس البليغ الذي يلخصه ﷺ بكلمات وقد جاء أحدهم يسأله هل يترك ناقته بباب المسجد ويتوكل فقال: (إعقلها وتوكل) إن عقلها اتخاذ للأسباب والتوكل عمل القلب مع الله أن تصل الأسباب إلى نتائجها.

٤ ـ أحب البلاد:

تلك كلمات عبر رسول الله ﷺ فيها عما تكنّه نفسه لمكة من حب، وما يربطه بها من وشائج، فهي البلد الحرام، وهي الموطن الذي نشأ فيه وترعرع، وتشده إليه ذكريات وذكريات (ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت) وليس هناك حب وتقدير للأرض وللوطن أكثر من هذا. والإسلام يكبر هذه العاطفة ويقدرها ولكن ضمن الإطار الذي لا تطغى فيه على العقيدة. إن الأرض كل الأرض هي لله وهي موطن لعباد الله فاسكن حيث أحببت إذا تيسر لك أن تؤدي واجب العقيدة فإذا تعارض الأمران فالعقيدة أولاً، وهذا ما نفذه المسلمون الأوائل في هجرتهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة بتوجيه من رسول الله ﷺ، ثم نفذه عليه السلام بهجرته، وبهذا يقوم البرهان الواضح على ولاء المسلم لعقيدته فهي جنسيته التي يرتبط بها وينتمي إليها.

٥ ـ الراحلة بالثمن[1]:

لم يقبل رسول الله ﷺ أن يركب الراحلة حتى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله عنه واستقر الثمن ديناً بذمته.

قد يستغرب هذا التصرف من رسول الله ﷺ ـ والموقف من الحراجة بشكل لا يسمح فيه للمناقشة ـ ولكن أليس هو القدوة، وفي كل المواقف.

إنه تقرير واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على

---

(١) ورد ذكر الثمن من رواية البخاري وغيره.

أحد في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء. إن يدهم إن لم تكن العليا فلن تكون السفلى. وهكذا يصر عليه السلام أن يأخذها بالثمن.

إن سلوكه هو الترجمة الحقة للقرآن ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[1] إنه لم يكن ليرزأ أحداً بماله حتى ولو كان أبا بكر وحتى في الظروف الحرجة.

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان ويبشرون بهما، ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد ـ إلا الله ـ لأن هذا يتناقض مع ما يدعون إليه وقد تعود الناس أن يعوا لغة الحال لأنها أبلغ من لغة المقال.

وما تأخر المسلمون وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة. فالكل موظف ينتظر أجره. وتحول العمل إلى عمل مادي فقد الروح والحيوية والوضاءة.. وأصبح للأمر بالمعروف موظفون، وأصبح الخطباء موظفين وأصبح الأئمة موظفين.. وأصبح هؤلاء جميعاً دليلاً على تخلف الأمة وركودها.

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله والأمل في رضاه، غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة، فإذا توقفت توقف الصوت، وقديماً قالوا: ليست النائحة كالثكلى.

ولهذا قل التأثير وبعد الناس عن جادة الصواب وأصبح الإسلام اسماً في سجل، والصلاة حركات لا خشوع فيها ولا اطمئنان. وأصبح الحج مظاهرة بعيدة عن المعاني والقيم التي أرادها الإسلام[2].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٠٩.

(٢) هذا ما يسره الله في فهم هذا الموقف، ولأمانة العلم ينبغي أن ننقل ما قيل في هذا الصدد.

قال صاحب المواهب: فإن قلت لِمَ لم يقبلها إلا بالثمن وقد أنفق عليه أبو بكر=

٦ ـ سوار كسرى:

رجل مطارد، جائزة العثور عليه هي ديته، يقول لسراقة ـ الرجل الذي تبعه طمعاً في المغنم ـ: (كيف بك إذا لبست سواري كسرى)[١]؟ إن سراقة طلب منه كتاب أمن لأنه توقع أن يكون له شأن ولكن ذهنه لم يذهب إلى ذلك البعد. إن كسرى يومئذٍ هو حاكم أكبر إمبراطورية في

= من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل، أجيب: بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى وأن تكون على أتم الأحوال اهـ. ويأتي الزرقاني بالروايات التي بهذا الصدد فيقول:

- روى ابن حبان عن عائشة قال: أنفق أبو بكر على النبي ﷺ أربعين ألف درهم.

- وفي الصحيح: قوله ﷺ: (ليس أحد من الناس أمنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر).

- وروى الترمذي مرفوعاً: (ما لأحد عندنا يد إلا كافأناه عليها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة). اهـ. الزرقاني ١/ ٣٢٧.

والمتأمل في هذه النصوص يعرف بها الفضل الكبير الذي كان لأبي بكر رضي الله عنه في بذل ماله في سبيل الدعوة وأنه لم يسبقه أحد في هذا المضمار كما لم يُسبق في غيره.

ولكنه يمكن القول:

- بأن رواية ابن حبان المقصود منها الإنفاق في سبيل الدعوة.. وماذا يصنع رسول الله بأربعين ألف درهم ـ إنما كانت هذه نفقة في سبيل الله ومنها شراء الأرقاء.

- وكذلك رواية الصحيح بيان لفضل أبي بكر. وكلامه ﷺ على اعتباره حامل الدعوة وهو الذي يذكر للناس فضلهم باسمِها.

- ورواية الترمذي: لئن كانت تسجل لأبي بكر موقفاً خاصاً فإنها في الوقت نفسه، تسجل الموقف الآخر وهو أن الرسول ﷺ كافأ كل من كانت له عنده يد إلا أبا بكر وذلك لعامل الصحبة القديمة وعامل المصاهرة.. والله أعلم.

(١) شرح الزرقاني ١/٣٤٨ والروض الأنف، للسهيلي ٤/٢١٨ تحقيق عبد الرحمن الوكيل.

العالم.. كيف للعقل أن يتصور زوال ذلك الملك.. وعجب سراقة!!

كانت معجزة للنبي ﷺ في مقاييس الناس باعتبارها إخباراً عن أمر مغيب سيحدث في المستقبل، ولكنها بالنسبة للنبي ﷺ لم تكن كذلك. إنها تقدير دقيق لعالم الأسباب... إنها معطيات لمقدمات، إن قوة الإيمان التي تصورها رسول الله ﷺ ـ وهو في الطريق إلى المدينة ـ وهي تصنع المجتمع الجديد وتجعل الذين كانوا أعداء أخوة متحابين في الله تحكمهم كلمة الله وتسود حياتهم لغة الإيثار.. إن هذا المجتمع الذي كان صورةً حققته الدعوة إلى الله إلى واقع.. ولما وُجد هذا الواقع.. فمن هو كسرى.. ومن هو قيصر؟

ونودي في جموع الناس ـ في عهد عمر رضي الله عنه ـ أين أنت يا سراقة.. وتقدم سراقة.. وألبسه عمر تاج كسرى وسواريه وقال: ارفع يديك وقل: الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابياً من بني مدلج.. ثم قسم عمر ذلك بين المسلمين.

٧ ـ التأريخ بالهجرة:

كتب أبو موسى إلى عمر: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس فقال بعضهم: أرخ بالمبعث، وبعضهم بالهجرة. فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها.. وبالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم، فاتفقوا عليه وذلك سنة سبع عشرة[١].

الخطبة الأولى في المدينة:

سبق الحديث أن رسول الله ﷺ لما ارتحل من قباء، وذلك يوم الجمعة، أدركه وقت الزوال وهو في دار بني سالم بن عوف، فصلى بالمسلمين الجمعة هنالك، فكانت أول جمعة صلاها[٢].

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٣٥٢. (٢) البداية ٣/ ٢١٣.

ثم كانت بعدها أول جمعة صلاها بالمدينة، حيث خطبهم ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد، أيها الناس، فقدموا لأنفسكم، تعلمنَّ والله ليصعقنَّ أحدكم، ثم ليدعنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنَّ له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فلينظرنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل؛ ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[1].

ومشروعية الجمعة والخطبة أمر عظيم في الإسلام، إذ بها يحصل توجيه المجتمع، وبها تعالج مشكلاته، ولذا كان أمرها موكلاً إلى القيادة، حيث يقوم القائد ـ كل أسبوع ـ ليوجه فيأمر وينهى، ويعظ ويحض على فعل الخير، وبهذا تكون الخطبة معالجة لأوضاع الناس خلال الأسبوع نفسه.

ولقد استطاعت هذه الفريضة أن تؤدي دورها في توعية الناس وتعليمهم وتوجيههم لما فيه خيرهم في دينهم ودنياهم.

كان ذلك يوم كان لا يرتقي المنبر إلا من هو أهل له، مستشعراً مسؤوليته أمام الله تعالى، مدركاً أن الله وضع بين يديه وقت الناس تلك المدة الزمنية من كل أسبوع، وهو مسؤول هل أحسن الاستفادة منها أم لا؟

ولهذا المعنى كان لا بد للخطبة أن تكون فاعلة في الخطيب نفسه لتكون فعالة في نفوس المصلين، وهذا ما يفسر لنا أسلوبه ﷺ في خطبه. فعن جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٠.

وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر حرب يقول: (صبحكم مسَّاكم)، ويقول: (بعثت أنا والساعة كهاتين) ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى...»[1].

وبهذا يستطيع التأثير والفعالية، وإذا أعوزته الفكرة إيضاحاً وبياناً لم يتهاون في استعمال يده ﷺ لزيادة الإيضاح وللتقريب بالتمثيل والتشبيه كما هو واضح من نص الحديث.

تلك هي السنة في هذا الجانب الموجه من تعاليم الإسلام، ولكن الأمر آل إلى كثير من الخطباء الذين يحتفظون بخطب مكتوبة، فإذا جاء وقت الجمعة تناولوا خطبة ذلك الأسبوع حسب الترتيب، ثم صعدوا المنبر لقراءتها باردة ميتة قد جلل العفن وجهها من تقادم الأيام. وكثيراً ما تكون بعيدة عن واقع الناس، أو في غير وقتها المناسب.

ما فائدة أن تعظ المصلين، الذين أتوا إلى المسجد، فتحضهم على الصلاة، وتحض الصائمين في رمضان على الصيام، وفي مجتمع هؤلاء وأولئك من الانحراف، وفي بيوتهم من الفساد، وفي تعاملهم من مخالفة شرع الله تعالى، وفي سلوكهم الشخصي أو الاجتماعي من مخالفة للإسلام ما الله به عليم.

ومما زاد الطين بلة، أن خطبة الجمعة غايتها ـ في كثير من بلاد المسلمين ـ أصبحت عملاً وظيفياً مأجوراً، فأضحت غايتها في أذهان القائمين بها، سد فراغ وملء وقت، وهذا ما جعل المنابر يرتقيها من ليس أهلاً لها ديناً ووعياً وفكراً، وباتت الموضوعات معلومة للمصلين حينما يبدأ الخطيب صدر خطبته.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٦٧). وقد حكى عبد الله بن عمر كيف كان المنبر يتحرك بحركة رسول الله ﷺ: (.. حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول لساقط هو برسول الله ﷺ) رواه مسلم (٢٧٨٨).

كما أن الخطبة المكتوبة، تفقد فيها الكلمة حرارتها المستمدة من انفعال الخطيب، ويفقد فيها السامع وسيلة الارتباط بخطيبه الذي ألهته ورقته عن السيطرة على جو المصلين، فما استطاع إخضاع مشاعرهم وعواطفهم وأفكارهم لما يقول، وأنى للكلمة الميتة أن تحدث أثراً؟

ألا فليتق الله الذين يصعدون منابر المسلمين، عن غير أهلية، وليتق الله الذين يصعدونهم وليتنا نعرف للجمعة دورها في تربية المجتمع، فلا توكل إلا لمن هي بحاجة إليه.

الاستقرار في المدينة

بين يثرب... والمدينة:

كان ذاك اسمها قبل أن يأتي إليها رسول الله ﷺ، وبعد أن استقر فيها ﷺ أصبح اسمها مدينة الرسول أو المدينة.

ونحب أن نقف على وصف سريع للوضع السكاني الذي كان قائماً في يثرب قبل وصوله ﷺ إليها.

كان يسكنها الأوس والخزرج، وقبائل من يهود:

١ـ الأوس والخزرج.

هما قبيلتان مشهورتان من العرب قطنتا يثرب، وخزرج وأوس أخوان أبوهما حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مُزَيْقِياء ... بن كهلان.. ابن قحطان. وأمهما: قيلة بنت كاهل من قضاعة. وغلب اسم خزرج على الفريقين.

وكانت بين القبيلتين حروب استمرت زمناً طويلاً ـ وكان اليهود يشاركون في إيقادها ـ وكان آخرها: يوم بعاث[1]. حيث جرى قتال شديد بين الفريقين وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ورئيس الأوس حضير، والد أسيد الصحابي ـ وانتصر فيها الخزرج أولاً ثم ثبَّت حضير الأوس فكان النصر لهم آخر اليوم..

كان يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

وأدرك الأوس والخزرج بعد هذه الوقعة سوء الحرب بعد أن سئموا القتال وكانت هناك مداولات في محاولة رأب الصدع بين الفريقين والاتفاق على عبد الله بن أبي بن سلول ـ وهو من الخزرج ـ ليكون ملكاً على الفريقين، وإن كانت النفوس ما زالت متأثرة بجراحها من يوم بعاث.

٢ ـ اليهود وكانوا ثلاث قبائل:

ـ بنو قينقاع.

ـ بنو النضير.

ـ بنو قريظة.

وكانوا على حلف مع الأوس والخزرج كل فريق منهم يدفع حليفه للقتال واستطاعوا نتيجة لذلك أن يسيطروا على الوضع الاقتصادي ليثرب فكانت السوق بأيديهم.

على أنهم لم يكونوا مختلطين مع سكان يثرب إذ كانت لهم حصونهم المستقلة في أطراف المدينة حيث تغلق الأبواب ليلاً ووراء هذه الأبواب تحاك الدسائس ويُخطط للفتن.

وجاء رسول الله ﷺ ـ كما رأينا ـ بعد بيعة العقبة الثانية لتتغير الصورة الأولى، وقد كانت قائمة على أساس من العصبية القبلية من جانب ـ بين الأوس والخزرج ـ وأساس آخر من الدين الذي يربط اليهود مع بعضهم ضد العرب ـ الأوس والخزرج ـ وكان هؤلاء اليهود يتعالون على العرب ـ أوسهم وخزرجهم ـ ويتوعدونهم بنبي قد أظل زمانه وأنهم سوف يؤمنون به ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم. الأمر الذي دفع الفريق الأول من الخزرج للإيمان بالرسول ﷺ وقولهم: إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه.

وقام تصنيف جديد يقوم على أساس من رابطة العقيدة التي أزالت كل الفوارق والحواجز وإذا سكان المدينة:

ـ المسلمون: من المهاجرين والأنصار ـ الأوس والخزرج.

ـ المشركون: وهم الذين لم يسلموا من الأوس والخزرج.

ـ اليهود: وهو الطوائف الثلاث التي ذكرناها واستمروا على وضعهم السكني في حصونهم، بينما بقية الناس من مسلمين ومشركين يشتركون في السكن في المدينة.

وأضحت الكلمة الأولى في المدينة لرسول الله ﷺ. يقول فيسمع قوله ويأمر فيطاع، وذهبت الأحلام التي راودت عبد الله بن أُبي بن سلول أدراج الرياح، وكان على وشك أن يوضع التاج على رأسه فيصبح ملك يثرب، وإذا به اليوم رجل من الرجال له من الاحترام والتقدير بالمقدار الذي يقدمه للرسول ﷺ من الولاء والاحترام، وهذا ما دفع عبد الله أن يحسد رسول الله.. فيظل على شركه.

كان رسول الله ﷺ يمر بالمدينة يوم قدومه فكان كل آل بيت يستوقفونه ويطلبون منه أن ينزل فيهم، إلا ما كان من عبد الله بن أُبي بن أبي سلول ـ وهو سيد الخزرج يومئذٍ ـ فقال للرسول ﷺ وهو يمر ببيته: أنظر الذين دعوك فانزل عليهم. فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد منَّ الله علينا بك يا رسول الله وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا[1].

وغريب أن يوجه ابن أبي هذا الخطاب للنبي الكريم، وهو الذي لم يطلب النزول عنده، بل ولم يطلب ذلك من غيره، ولكن أبت تلك النفس الخبيثة إلا أن تظهر بعض ما فيها.

بين مكة والمدينة:

وهكذا يختلف وضع المسلمين بين ما كانوا عليه بمكة وبين ما هم فيه اليوم في المدينة.

---

(١) البداية ٣/١٩٩.

كانوا قلة - في مكة - بين مظهر إسلامه، وبين مستخفٍ به، بين قادرٍ على الحركة التي مكنته من الهجرة، وبين سجينٍ منعه القيد من المساهمة فيها ينتظر الفرج من الله تعالى.

أما اليوم فالإسلام في كل بيت في المدينة. حتى البيوت التي أصر أصحابها على الشرك دخلها الإسلام... فهناك الابن المسلم... والبنت المسلمة... والزوجة المسلمة، وإن لم يكن إسلام، فحديث الإسلام هو حديث الناس في كل وقت... وعلى كل لسان، ويوماً بعد يوم يزداد المسلمون ويتناقص المشركون. إن كلمة الإسلام في المدينة هي العليا، ولا كلمة للشرك إلا في الخفاء وتحت جنح الظلام ووراء الأسوار عند اليهود.

إرساء القواعد

وفي المدينة بدأت حياة الاستقرار، ووجد الرسول ﷺ الراحة والاطمئنان، بعد عناء شاق مرير، كما وجد الصحابة المهاجرون الأمن والحرية في إعلان شعائر دينهم، وبدأت مرحلة البناء بإشرافه ﷺ، بناء المجتمع الجديد الذي تعلو فيه كلمة الله تعالى، ويسري فيه الهدي النبوي، تربية وسلوكاً، وطاعة وحباً. ونحب أن نذكر من هذه القواعد:

١ - بناء المسجد:

كان رسول الله ﷺ في مكة يأوي إلى المسجد الحرام، الذي كان يومئذٍ منتدى القوم، حيث توزعت في جوانبه الأصنام وارتفعت شعائر الشرك، وبدلت فيه شعائر الحج... فطاف الناس عراة، وتحول الطواف إلى صفير وتصفيق... وذهبت من المسجد معانيه، وبقي معلماً للتذكير بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

كان ذلك في مكة.. وبركت ناقته ﷺ بعد أن ترك لها الزمام - وقد أمرهم أن يتركوها لأنها مأمورة - في مربد لابني عمرو مقابل دار أبي أيوب الأنصاري.

كان هذا المكان مدخراً من الله تعالى ليكون ثاني أفضل مكان على وجه الأرض، وليكون المركز الأول لانطلاق دعوة الإسلام في كل أرجاء المعمورة.

وسأل ﷺ عن المربد لمن هو؟ فقال معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما عنه[1]، وفي رواية البخاري: قال ﷺ: (يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا) قالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله[2]، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما[3].

وكان في المربد شجر نخل وغرقد، وقبور للمشركين، فأمر ﷺ بالقبور فنبشت، وبالشجر فقطع... وبدأت عملية البناء يشارك فيها رسول الله ﷺ بنفسه، وكان بناؤه من اللبن، وعُمده جذوع النخل، وسقفه الجريد، وبنيت بيوت نسائه ﷺ إلى جانبه بالأسلوب نفسه، فكان لسودة بنت زمعة بيت وآخر أعدَّ لعائشة رضي الله عنها.

كان البناء متواضعاً، وكانت التكاليف زهيدة، فالبناؤون هم المسلمون الذين عمر الإيمان قلوبهم، فارتفع البناء بأيديهم رامزاً إلى ما في نفوسهم من معاني الحق والخير، وكانت تظاهرة من العمل الجاد، إذ كيف يجلس الصحابة وهم يرون رسول الله ﷺ يعمل بنفسه، ينقل الحجارة واللبن؟ وصاحَبَ الرجز العمل، فمن قائل:

هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبر ربنا وأطهر

ومن قائل:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٩٦/١.

(٢) متفق عليه (خ٤٢٨، م٥٢٤).

(٣) البخاري. برقم ٣٩٠٦.

ومن قائل:

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وكان ﷺ يردد معهم البيت الأخير.

وتم البناء - كعريش موسى كما قال ﷺ - سقفه الجريد وفرش أرضه الرمل...

وأضحى المسجد بعدها هو مكان الصلاة، وهو مكان التعليم، وفيه تعقد الرايات، وتناقش الأزمات، وإليه يأوي المسلمون إذا حزبهم أمر...

إن المسجد تجسيد لروح الحياة في ظل الإيمان، فالمسلم إذ يدخله خمس مرات في اليوم، إنما يؤكد الارتباط بالصلة بالسماء، والالتزام بأوامر الله تعالى، والانضباط مع هدي النبوة، فدخوله ذاك يعني قياس مستوى ذلك الالتزام والانضباط، إنه قياس لحرارة الإيمان، وتعبير عن الارتباط العضوي بجماعة المسلمين.

إن المسجد هو مكان النظافة والتخلص من أدران البعد عن الله، إنها النظافة مادية ومعنوية، نظافة الحس ونظافة الروح. (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[1].

ذلكم هو المسجد، المتواضع بناؤه، الرفيع معناه. البالغ أثره.

٢ - المؤاخاة:

كان المهاجرون قد تركوا بلدهم مكة، وفيها أموالهم، وأولادهم وإخوانهم، ولا شك أن هذا قد ترك في أنفسهم وحشة. يضاف إلى ذلك وحشة الغربة. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين أصحابه ليذهب

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، والدرن: الوسخ (خ٥٢٨، م٦٦٧).

عنهم تلك الوحشة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، وليشد بعضهم أزر بعض.

إن الدافع إلى هذه المؤاخاة هو الوضع الاجتماعي الذي آل إليه أمر المهاجرين وقد تركوا دورهم وأموالهم وعشيرتهم، بعد أن خرجوا خفية مهاجرين إلى الله ورسوله، وهذا ما ألمح إليه ﷺ بقوله مخاطباً الأنصار: (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم..)[1].

ولئن كان الخط العريض للمؤاخاة: أنها بين المهاجرين من جانب، وبين الأنصار من جانب آخر، فإن هذا لم يمنع أن تكون بعض هذه الأخوة بين المهاجرين بعضهم مع بعضهم الآخر، ذلك أن الغاية من تعيين هذه الأخوة تحديد المسؤولية في المواساة والنصرة والرفادة، وواضح أن بعض المهاجرين كان أحسن حالاً ـ من الناحية المادية ـ من بعضهم الآخر.

وقد كان لهذه الأخوة أثرها البعيد حتى كان التوارث يقوم على أساسها دون القرابة. قال ابن عباس: «كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري، دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم..»[2] واستمر العمل كذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ﴾[3] حيث ردَّ الميراث إلى ذوي الأرحام وبقيت النصرة والرفادة.

وقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في ميدان الكرم والمواساة، حتى جاء المهاجرون إلى رسول الله ﷺ خائفين أن يكون ذلك مذهباً لأجرهم، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا

---

(١) أورده ابن كثير في تفسير الآية التاسعة من سورة الحشر.

(٢) البخاري في كتاب الفرائض (٦٧٤٧). (٣) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

في المهنأ، حتى لقد خشيِّنا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: (لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم)[1].

ومن الأمثلة ما روى أنس رضي الله عنه قال: «قدم علينا عبد الرحمٰن بن عوف، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ـ وكان كثير المال ـ فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها. فقال عبد الرحمٰن: بارك الله لك في أهلك.. وفي الرواية الأخرى بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو..»[2].

قام الأنصار بأداء ما تتطلبه تلك الأخوة من التزامات، واستمر أداؤهم كذلك حتى وسع الله على المسلمين، حينما غنموا من بني النضير ما غنموا..

وقد ظل الصحابة ملتزمين بهذه الأخوة على الرغم من إنهائها بآية المواريث. فقد أرسل عمر بن الخطاب إلى بلال رضي الله عنهما ـ وقد خرج إلى الشام، فأقام بها مجاهداً ـ يسأله: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة، لا أفارقه أبداً، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بيني وبينه[3].

وإذا عرفنا أنه لم ينزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة. وذلك لتسابق الأنصار ورغبتهم في الحصول على شرف المساهمة في تحمل المسؤوليات استطعنا أن نقدر عمل الأنصار الذي أشار إليه المهاجرون وهم يسألون رسول الله خوف أن يذهب أجرهم.

---

(١) نقله ابن كثير في تفسيره، سورة الحشر الآية ٩ من رواية الإمام أحمد في المسند.

(٢) الروايتان في البخاري. (٣٧٨٠، ٣٧٨١).

(٣) سيرة ابن هشام ١/٥٠٧.

وبهذا استحقوا ثناء الله عليهم حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[١].

٣ ـ وثيقة التنظيم الاجتماعي والسياسي:

كان لا بد ـ وفي المدينة غير المسلمين ـ من اتفاق يضبط علاقات الناس ببعضهم، وفق مبادئ عامة متفق عليها. وهذا ما فعله رسول الله ﷺ بهذا الصدد حيث كتب كتاباً[٢] بين فيه المسؤوليات المترتبة على كل فريق من سكان المدينة، وهو كتاب مطول يمتاز بالوضوح والتفصيل وسوف نقف على القواعد العامة الواردة فيه محاولين تقسيمها إلى:

- ما يتعلق بالمؤمنين.
- ما يتعلق بالمشركين.
- ما يتعلق باليهود.
- القواعد العامة.

أ ـ ما يتعلق بالمؤمنين:

● المؤمنون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.

● كل فريق من المؤمنين (المهاجرين، بني ساعدة، بني الأوس..) على ربعتهم[٣] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[٥] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

(٢) انظر النص الكامل لهذا الكتاب في سيرة ابن هشام ١/٥٠١ ـ ٥٠٤.

(٣) الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٤) الأسير.

(٥) المثقل بالدين والكثير العيال.

• المؤمنون المتقون على من بغى منهم، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

• ذمة الله واحدة، يجير على المسلمين أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.

• ومن تبع المؤمنين، من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم.

ب ـ ما يتعلق بالمشركين:

لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على المؤمنين.

ج ـ ما يتعلق باليهود:

• ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

• يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، . . ولبقية يهود (يهود بني النجار، يهود بني الحارث. . .) ما ليهود بني عوف، وإن بطانة يهود كأنفسهم.

• لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

• على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح. . . والنصر للمظلوم.

د ـ القواعد العامة:

• يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

• ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

• لا تجار قريش ولا من نصرها.

• وإن بينهم ـ أهل الصحيفة ـ النصر على من دهم يثرب، . .

• من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

تلك كانت الخطوط العريضة لما ورد في تلك الصحيفة التي تعتبر دستوراً كاملاً لتنظيم مجتمع، وبموجب هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرماً آمناً، ثم حددت مسؤولية كل فرد في الحفاظ على هذه الحرمة. كما نظمت الأمن الداخلي بعقاب المجرمين وعدم إيواء المحدثين، كما بينت الحفاظ على الأمن الخارجي.

ومما يلفت النظر، ما ورد بشأن قريش وعدم إجارة أحد منها أو إجارة من نصرها، فهي التي تمثل ذلك الحين العدو اللدود للمسلمين. كما نصت الوثيقة على الحرية الدينية لليهود، وأنهم جزء من المجتمع المدني ما داموا ملتزمين بالوثيقة محافظين على العهود.

كما بينت وجوب مشاركة جميع سكان يثرب في الدفاع عنها.

❁ ❁ ❁

ومن الملاحظ أنه لم يرد في هذه الوثيقة ذكر للقبائل اليهودية الكبرى الثلاث: بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، علماً بأن كل النصوص تؤكد وجود اتفاق بينهم وبين الرسول ﷺ وأن ما حدث لهذه القبائل ـ فيما بعد ـ إنما كان بسبب نقضها للعهد. قال صاحب الفتح: وكان الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام: قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يمالئوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة: قريظة والنضير وقينقاع.. فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع.. ثم نقض العهد بنو النضير.. ثم نقضت قريظة[١].

---

(١) فتح الباري. كتاب المغازي، باب ١٤.

ولكن كتب السيرة لم تدون نصوص هذه الاتفاقيات، على الرغم من ذكر جميع المؤرخين مخالفة اليهود لها. والذي يبدو أنها كانت شبيهة بالوثيقة السابقة، أو لعلهم وقعوا على الوثيقة نفسها فيما بعد.

❁ ❁ ❁

وبهذا أرسيت قواعد الاستقرار، فالمسجد فيه تربية المسلمين وتنظيم سلوكهم، والأخوة: ترفد الحياة الاجتماعية بالحب والوفاء والإيثار، والوثيقة تضبط سلوك أولئك الذين ما زالوا مشركين وكذلك اليهود...

وبهذا تبدأ الدولة الناشئة مسيرتها بخطاً ثابتة، تبذل الخير لكل الناس، وهي في الوقت نفسه حاسبة للشر حسابه..

٤ ـ اللهم حبب إلينا المدينة:

إن ارتباط الإنسان بالموطن الذي نشأ فيه أمر يكاد يكون فطرياً فللبيئة الأولى التي نشأ بها أثرها الكبير في نفسه. ولقد رأينا كيف ودع رسول الله ﷺ مكة. على أن قضية الإيمان أكبر من أية عاطفة مهما كان شأنها. وهذا لا يمنع أن يتذكر المرء موطنه الأول وأن يحنَّ إليه. وهذا ما حدث حينما أصابت الحمى أصحاب رسول الله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم. فصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ، قالت: فكان أبو بكر. وعامر بن فهيرة وبلال ـ موليا أبي بكر ـ مع أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم ـ وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ـ وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك. فدنوت من أبي بكر فقلت له: كيف تجدك يا أبتِ؟ فقال:

كل امرئ مصبَّح في أهله ... والموت أدنى من شراكِ نعله

قالت: فقلت والله ما يدري أبي ما يقول. قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

قالت: فقلت والله ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنَّةٍ وهل يبدون لي شامة وطفيل[1]

اللهم العن عتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وشيبة بن ربيعة، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ فقال: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم صححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها إلى الجحفة)[2]

وهكذا ذكرهم المرض مكة فحنوا إليها. إن إرساء قواعد الاستقرار السابقة ـ المؤاخاة، والمعاهدة ـ كان لها أثرها الكبير في تأمين الاستقرار النفسي وذلك بحبِّ المقامِ في المدينة... وتوجه الرسول الكريم ﷺ إلى الله تعالى بدعائه يطلبُ أن يحبب المدينة إليهم وينفي عنها الوباء، وذلك أمر لا يملكه رسول الله ﷺ ولكنه يملك التوجه بالدعاء إلى مالكه سبحانه وتعالى، واستجاب الله الدعاء.. وتمت عوامل الاستقرار نفسية ومادية.

٥ ـ تجاوز المنغصات:

ذلك لا يعني أن الحياة في المدينة في هذه المرحلة قد خلت من المنغصات، ولكنها كانت أموراً محتملة، ينبغي الصبر عليها، ونعرض مثالاً على ذلك حادثة مما وقع قبل بدر.

---

(١) شامة وطفيل: جبلان بمكة.

(٢) متفق عليه (خ١٨٨٩، م١٣٧٦).

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أُبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أُبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبي بن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذينا[1] به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون[2]، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: (يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو الحباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا)، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه... فعفا عنه رسول الله ﷺ. وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب..»[3].

وهكذا فالمشركون من الأوس والخزرج واليهود من ورائهم، كانوا حريصين على الإساءة له ﷺ ولأصحابه. ولكن هذا لم يكن ليعيق المسيرة عن تقدمها.

---

(١) (فلا تؤذينا) بإثبات الياء، هكذا وردت في نسخ البخاري وكذلك في فتح الباري ولم يعلق عليها. والأصل حذف الياء بعد «لا» الناهية.

(٢) أي يتواثبون، أي قارب أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا.

(٣) متفق عليه (خ٤٥٦٦، م١٧٩٨).

زواجه ﷺ بعائشة

عقد رسول الله ﷺ على عائشة في مكة قبل الهجرة وهي ابنة ست سنين وبعد وفاة خديجة ـ وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين. وذلك في شهر شوال من السنة الأولى.

وللناس هنا هرج ومرج في زواج بنت في التاسعة من عمرها من رسول الله ﷺ وهو في الرابعة والخمسين من عمره.

ونقول في البدء: إن زواج الرسول ﷺ في بعض جوانبه هو من خصوصياته ﷺ كالزيادة على أربع.

ومع ذلك فبالنسبة لسن السيدة عائشة هناك ملاحظات يحسن أن نقف عليها.

١ ـ في مسند عائشة عند الإمام أحمد عن محمد بن عمرو أبي سلمة ويحيى قالا: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: (من؟) قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: (فمن البكر؟) قالت: أحب خلق الله إليك عائشة ابنة أبي بكر. قال: (ومن الثيب؟) قالت: سودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك، قال: (فاذهبي فاذكريهما علي...)[1].

فهل كانت خولة بنت حكيم وهي تعرض على رسول الله ﷺ الزواج وتخيره بين عائشة وسودة، تعرض عليه زواجاً غير ممكن عقلاً؟ وهو بحاجة إلى زوجة في ظرف فقدَ فيه السند.. وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الزواج من عائشة كان ممكناً في مكة وإنما أخره للظروف التي كان يمر بها وخاصة بعد زواجه من سودة.

٢ ـ وفي تتمة الحديث المتقدم ـ عند أحمد «فدخلت ـ خولة ـ بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة،

---

(١) البداية ٣/ ١٣١.

قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: أنظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقلت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة، قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، قال: (ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام. وابنتك تصلح لي)، فرجعت فذكرت ذلك له. قال: انتظري، وخرج. قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه، فدخل على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الصبي، فقال: يا ابن أبي قحافة لعلك مصبي صاحبنا في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي: أَقَوْل هذه؟ يقول: إنها تقول ذلك، فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده. فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ...».

والملاحظ في هذا الجزء من الحديث:

- أن أبا بكر لم يسأل فيقول: وهل تصلح له.. فإنها صغيرة فلم يذكر ما يتعلق بذلك إنما سأل عن الأخوة وأثرها.

- ثم إن عائشة كانت في السن التي يخطب به أمثالها وإلا كيف تقدم لها ابن المطعم بن عدي[1].

- وهذا يدلنا أيضاً على صحة بنيتها ومناسبة جسمها وإن لم يناسب سنها. على أنه مما يؤكد خصوصية هذا برسول الله ﷺ ما رواه البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: (أريتك في المنام مرتين. أرى أنك في

---

(١) أليس هذا مما يدعو إلى التأمل والنظر في رواية ابن إسحاق التي يعد فيها السيدة عائشة مع الرعيل الأول من المؤمنين بالرسول ﷺ وهي صغيرة؟ ومعنى هذا أنها ولدت قبل البعثة، انظر ابن هشام ١/ ٢٥٤.

سرقة[1] من حرير، ويقول: هذه امرأتك، فأكشف عنها فإذا هي أنت، فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه). ومن المعروف أن رؤيا الأنبياء حق، وهي نوع من الوحي. وهذا ما يرجح الخصوصية في هذا الزواج كما أشرنا في بدء الموضوع.

وإذا كنا توقفنا عند أمر السن عند عائشة، فإنه من الأهم بمكان أن نقف على بعض الملاحظات بشأن سن رسول الله ﷺ.

إنه مما لا شك فيه أن الرسول بنى بعائشة وهو في الرابعة والخمسين من عمره. وحينما يذكر هذا الرقم يتبادر للذهن الشيب والضعف ونفسية أصابتها الشيخوخة...

ولا شك أن مرور الأعوام هو مقياس أعمار الناس كقاعدة عامة، ولكن المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ونشاطه وقدرته على المبادرة والعمل. فقد نجد إنساناً في الثلاثين يحمل في جسمه ونفسيته مرور الخمسين. وقد نجد بعض الأحيان إنسان الخمسين فلا نحكم عليه بأكثر من الثلاثين.

وشخصية رسول الله ﷺ فذة في هذا الميدان. فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه همةً وعزماً ومضاء ورجولة إنه في هذا لا يساويه أي إنسان آخر. ولا نقول هذا اعتباطاً، بل يحسن بنا أن نعود إلى النصوص نتأملها.

١ ـ لما عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل مر على بني عامر بن صعصعة وعرض عليهم أمره فقال بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب[2]..

ونلاحظ في قول بيحرة:

ـ عبر عنه بـ«الفتى» والفتى هو الشاب في مقتبل العمر. الممتلئ حيوية ونشاطاً.

---

(١) سَرَقَة: قطعة.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤٢٤.

ـ وفي قوله: «لأكلت به العرب» يعبر عما لاحظه في شخصية الرسول الكريم من حيوية وهمة لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبة. كانت هذه نظرة بيحرة، والرسول ﷺ في الخمسين من العمر يومئذٍ، إنه الشباب شكلاً ومضموناً، مظهراً ونفسيةً، همةً وروحاً.

٢ ـ وفي خبر الهجرة، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه: «إنه ﷺ أقبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، والنبي ﷺ شاب لا يعرف؛ قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير»(١) وكان ﷺ لم يشب، وكان أسن من أبي بكر(٢).

ويلاحظ من النص بوضوح، أن أبا بكر كان يبدو في سنه الحقيقية شيخاً(٣). بينما كان ﷺ يبدو شاباً، لعدم ظهور الشيب فيه، كما أوضح ذلك القسطلاني بقوله: وكان ﷺ لم يشب، وكان أسن من أبي بكر.

٣ ـ سأل العلاء بن زياد العدوي أنس بن مالك عن سن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا حمزة بسن أي الرجال كان رسول الله ﷺ إذ بعث؟ فقال: ابن أربعين سنة؛ . . . ثم قبضه الله إليه، قال: بسن أي الرجال هو يومئذٍ؟ قال: كأشب الرجال وأحسنه وأجمله وألحمه»(٤) وقال: «توفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء»(٥) إنه مظهر الشباب لا مرية فيه، وأما الهمة فما عرفت البشرية مثل همته، يكفي أن نذكر أنه بدأ عمليات الكفاح المسلح وقيادة كتائب الحق في ساحات الوغى، وكانت سنه يومئذ بعد الثالثة والخمسين من العمر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩١١).
(٢) شرح الزرقاني على المواهب ١/ ٣٥٥.
(٣) الشيخ: من جاوز الأربعين.
(٤) البداية ٤/ ٣٢٧ من رواية الإمام أحمد.
(٥) متفق عليه (خ٥٩٠٠، م٢٣٤٧).

نستطيع أن نقول بعد هذا، بكل الاطمئنان، إن الفارق في العمر بينه ﷺ وبين عائشة لم يكن ذلك الفارق الكبير من وجهة النظر العملية.

ولقد رأيناه في نفسيته وأسلوبه - فيما بعد - كذلك، فها هو ﷺ يسابق السيدة عائشة، فتسبقه مرة، ويسبقها أخرى، فيقول: (هذه بتلك)[1] والأمثلة في حياته ﷺ كثيرة.

وبعد: يحق لنا أن نقول لأولئك الذين حزنوا من أجل عائشة، حزنوا على شبابها الضائع ونضارتها التي آلت إلى الشحوب. ألا تستمعون لرأيها فيما يخصها؟ فهي أدرى بمصلحتها.

لما نزلت آية التخيير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا..﴾[2] بدأ ﷺ بعائشة رضي الله عنها فقال لها: (إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك)، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: (إن الله لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً وميسراً، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها)[3].

ماذا يعني قولها رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي.. وماذا يعني حرصها ألا يخبر بقية نسائه.. أليس الرغبة في الاستئثار به ﷺ وماذا بعد ذلك من الحب. وماذا بعد ذلك من السعادة؟!

على أن زواج الرسول ﷺ بعائشة يستطيع كل ذي نظر أن يدرك الحكمة الجليلة التي كانت وراءه. فقد تم في مطلع الحياة في المدينة أو لنقل مع بداية المرحلة التشريعية من حياته ﷺ - إذ كانت المرحلة المكية مرحلة بناء العقيدة وتربية السلوك -، والرسول ﷺ هو القدوة في كل

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود، وقال المحدث الألباني في صحيح الجامع الصغير: صحيح.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٨.

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٤٧٨).

جوانب الحياة. ومما لا شك فيه أن الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته ومع أسرته، وكان لا بد من نقل سلوك الرسول الكريم في هذا الجانب من حياته إلى الناس، حتى يستطيعوا التأسي به.. وكانت تلك مهمة السيدة عائشة رضي الله عنها بما وهبها الله من ذكاء وفهم.. واستطاعت أن تؤدي دورها على خير ما يرام. وإن نظرةً عابرةً لأي كتاب من كتب السنة تبين وتؤكد ما نقول. وقد ساعدها على ذلك أن الله كتب لها العيش ما يقرب من نصف قرن بعد وفاته ﷺ تلك المدة التي استطاعت بها أن تبلغ ما وعته عن رسول الله ﷺ.

تشريع الجهاد

الإذن القتال:

استقر الرسول ﷺ والمؤمنون من حوله بالمدينة التي أصبحت دار الإسلام ومعقل الدعوة، وبدأت حياة البناء المادي بعد أن سبق الإعداد المعنوي. ولكن الشرك الذي طارد الرسول الكريم مئات الأميال لم يكن ليدع المؤمنين في حياة هادئة مطمئنة، وكان لا بد من وجود القوة التي تحمي الدعوة وتكف الأذى عنها.

وفي أواخر السنة الأولى للهجرة نزل الإذن بالقتال حيث قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[1]. لم يكن أمراً مفاجئاً بل كان متوقعاً ومنتظراً، كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بقتالهم[2]... وكانت الآيات تنزل آمرة المؤمنين بالصبر.. حتى كانت الهجرة... فكان الإذن.

من حكمة الأمر بالصبر:

ولا شك أن الصحابة تعلموا الصبر دروساً عملية. تعلموا كيف

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠. (٢) شرح الزرقاني ١/ ٣٨٧.

يضبطون أعصابهم ويحكمون عقلهم بتصرفاتهم طوال مدة عشر سنوات ولا شك أن حكماً جليلة كانت وراء ذلك:

• الانضباط: إنهم اليوم يحملون عقيدة لها منهجها ونظامها، لها أوامرها ونواهيها، والطريق ما تزال في البداية، فما ينبغي أن تكون حياتهم اليوم استمراراً للماضي التي كانت تحكمه في تصرفاتهم ردود الفعل الآنية، وما تاريخ العرب الجاهلي إلا الدليل الواضح على ذلك[1].

إن الإسلام جاء ليغير المجتمع تغييراً جذرياً يبدأ من خلال النفس حيث يتغير الإنسان الجاهلي ليصبح الإنسان المؤمن الذي تنبع تصرفاته من خلال إيمانه؛ فإذا العقل المستنير الواعي وإذا العاطفة الجياشة بكل معاني الخير والحب.

• تعلم تحمل البلاء، وهذه أيضاً لا يكون تعلمها بدروس تلقى ومواعظ تنثر، وإنما من خلال التعامل مع المجتمع، ولقد كان لهذا الجانب الآثار الجمة في الحياة الإسلامية.

- برزت بطولات من نوع جديد لم يعرفه الناس. فهذه سمية أم عمار تحطم كبرياء أبي جهل وهي تحت عمليات التعذيب فإذا هي - وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة - أكبر من أبي جهل وأكبر من كل الضغط الاجتماعي المتخلف الذي كان يمثله أبو جهل.

- وكان لهذه البطولات في تحمل البلاء الأثر النفسي الكبير على الناس، وحتى أولئك الذين كانوا يقومون بها. إنه أمر يلفت النظر ويدعو إلى التأمل.. هذا الحب من أتباع الدعوة الجديدة لدعوتهم.. مما يثير حب الاستطلاع والتعرف عليها فيكون ذلك كسباً جديداً للدعوة.

---

(١) إن حرب داحس والغبراء مثال من أمثلة كثيرة تبين أن الحروب الجاهلية كانت ردود فعل آنية انظر في بيانها، ابن هشام ١/٢٨٦.

• في سبيل الله: ثم لم يعد تحمل البلاء والصبر عليه بغية شهرة يطلبها الإنسان أو مادة يسعى إليها أو متاع يرنو إليه، وإنما يتحمل في سبيل الله، وهكذا: تنتهي الأنانية، وحب الذات، ليقوم مقامها الإخلاص، والإيثار.. وخصال الخير.

منع القتال في مكة:

على أن أسباب عدم الإذن بالقتال في مكة تكاد تكون واضحة:

• فالمجتمع في مكة يختلط فيه المسلم بالمشرك، وما تزال وشائج العصبية والقبيلة قائمة في نفوس المشركين تجاه أقربائهم من المسلمين، وفي مثل هذا الجو لو سمح بالقتال لنشأت الحروب بين القبائل، ولم يعد هناك مجال لإسماع صوت الدعوة، الأمر الذي يودي بها، بين ضوضاء الثأر، وبين نزيف الدماء.

إن أبا بكر لما جهر بالدعوة في المسجد.. قام إليه عتبة بن ربيعة فضربه ضرباً شديداً فلما أخبر بنو تميم - قوم أبي بكر - جاؤوا سراعاً. فحملوا أبا بكر إلى منزله - وهم لا يشكون في موته - ثم رجعوا إلى المسجد ليعلنوا مقسمين، لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة بن ربيعة[١]. أرأيت لو قتل عتبة بعدها فهل يسكت قومه. أليست الحروب الجاهلية من مثل هذا كانت تنطلق.. وأين يبقى مجال لإسماع كلمة الدعوة؟

• وسبب آخر: هو قلة عدد المسلمين. وقد استشعر هذا الجانب عمر رضي الله عنه في اليوم الذي أعلن فيه إسلامه في المسجد الحرام، فقاموا يضربونه ويضربهم، وقال لهم يومئذ: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن

---

(١) إن هذا لم يحدث تكريماً لأبي بكر وإنما انطلاقاً من القيم الجاهلية. إن عدم اهتمام القبيلة بأفرادها ودفاعها عنهم يعتبر وصمة عار وسبة على مدى الأيام ولذلك كان المدح للقبيلة التي تلبي أفرادها:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

لو قد كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم أو تركتموها لنا[1] ـ يعني مكة ـ.

وهكذا يأتي الإذن بالقتال في الوقت المناسب، وقد أصبح للمسلمين دار، فاصلوا من خلالها الجاهلية كلها، وقد زالت الأسباب والمبررات التي كانت تحول دون نشوب القتال في مكة... ذلك تقدير العزيز العليم.

الجهاد بين الإذن... والفرض:

مر تشريع القتال بمراحل. فقد أُذن به بعد طول صبر في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ...﴾ ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم في قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾[2] ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة بقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[3] وهكذا كان القتال محرماً ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين[4].

بين الدفاع والهجوم:

إن بعض أبناء المسلمين ممن تربى على غير الثقافة الإسلامية يرى في أمر القتال ومشروعيته رجعية لا تتناسب وأفكار القرن الحالي الذي كثر فيه المنادون بالسلام؟! ومن أجل مصلحة الإسلام ـ كما يرون ـ بدؤوا يفلسفون أمر الجهاد محاولين إيجاد المخرج حتى لا يوصف الإسلام بأنه دين العنف..

ومن جملة هذه التخريجات أنهم صنفوا القتال بين هجوم ودفاع: فالدفاع أمر مشروع والهجوم أمر فيه نظر. ولذا جعلوا ينطلقون في مفهوم الجهاد على أنه حرب دفاعية يرد فيها المدافع المهاجم عن أرضه وماله وعرضه... وذلك أمر تقبله كل الشرائع أرضية كانت أم سماوية..

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٤٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٠.
(٣) سورة براءة: الآية ٣٧.
(٤) زاد المعاد ٣/ ٧١.

صحيح أن أنظمة الناس اليوم تقسم القتال إلى نوعين دفاعي وهجومي وهكذا يدرس علم القتال في كلياته المتخصصة. فللدفاعي وسائله ومعداته وأسلوب الحركة فيه، وللهجومي كذلك أسلوب حركته... وهذا لا مرية فيه. ولكن هذه النظرة إلى القتال تنطلق من الارتباط بالأرض، أو كما يسمونها - الوطنية - والإسلام منذ جاء، ومع المرحلة الأولى من دعوته، جاء ليحرر الناس من كل العبوديات، ومن جملتها الارتباط بالأرض وما هجرة الحبشة الأولى إلا التعبير الصادق عن ذلك. وما ذاك إلا لأن العقيدة التي جاء الإسلام بها لا حدود لها أولاً، فهي لكل الناس وهم فيها سواء، وثانياً لأن جنسية الإنسان المسلم هي العقيدة وهي غير مرتبطة بالأرض. ومن هذا المنطلق لا نستطيع أن نسمي القتال في الإسلام إنه دفاعي أو هجومي لأن هذا مرتبط بالحدود.. بينما القرآن الكريم يضع غاية لاستمرار القتال واضحة صريحة حيث يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ..﴾[1] فالقتال مستمر حتى لا يفتن إنسان من أجل دينه - بغض النظر عن الأرض التي يعيش عليها - وحتى يكون الخضوع لله حيث تكون شريعة الله هي الآمرة الناهية.

وبهذا الفهم انطلقت جحافل الإسلام في كل الاتجاهات تزيل الطواغيت الذين وقفوا عثرة في سبيل وصول دعوة الحق إلى الناس. ولذا حينما سئل أحد هؤلاء المجاهدين فقيل له: ما جاء بكم؟ قال: جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله[2].. لم يكن للمسلمين يومئذ أرض هناك يدافعون عنها وإنما كانت هناك رسالة لا بد من إيصالها والقتال آخر وسيلة تستعمل لمن يحاول منع وصولها.

لا يعني هذا أن الإسلام لا يقيم للأرض شأناً أو وزناً. ولقد رأينا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

(٢) هي من قول المغيرة بن شعبة لرستم في وقعة القادسية. البداية ٧/ ٣٩.

كيف ودع رسول الله ﷺ مكة وكيف كان حنين أصحابه إليها حتى دعا فقال: (اللهم حبب إلينا المدينة). وفي تحديد قيمة الأرض نلاحظ قوله ﷺ: (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[1] ماذا تحرس إن لم تكن حراستها للأرض؟ إن أرض الإسلام لها القيمة الكبرى في النفوس، ولكن هذه القيمة تستمدها من العقيدة. فالحفاظ عليها أمر من أوامر العقيدة. وليس ناشئاً عن الارتباط بها.

إن أي موازنة بين قيمة الأرض في مفهوم الوطنية وبين قيمتها في مفهوم العقيدة الإسلامية يبين الفارق الكبير بينهما، فأقل ما يقال فيه أنه كالفارق بين العقيدة الإسلامية، وبين الوطنية إذا عددناها منهجاً ينظم بعض الناس شؤون حياتهم على أساسه.

أعداء الإسلام والجهاد:

على أننا لا نستطيع إغفال دور أعداء الإسلام في تشويه معنى الجهاد ومحاولة تغيير مفهومه وذلك لما كابدوا من كونه سداً منيعاً في وجوههم ما دامت حرارته قائمة في نفوس المسلمين ومفهومه مستقراً في عقولهم.

والكل يعلم كيف أنشأ الإنكليز بعض المذاهب ـ القاديانية ـ وحاول إلصاقها بالإسلام، وكان الهدف الأساسي لإنشائها هو تقرير إلغاء فكرة الجهاد والحث على تركه. . .

ولقد فشلت هذه المحاولة إذ عرف المسلمون انحراف هذه الطائفة وخروجها على الإسلام وعدم ارتباطها به.

على أن أعداء الإسلام لا يرعوون عن غيهم إذا فشلوا في أمر، فهم يحاولون الثانية والثالثة. . . ولذا نلاحظ مجدداً طرق الباب بأسلوب

---

(١) رواه الترمذي.

جديد ذلك هو تمييع مفهوم الجهاد على ألسنة عميلة معروفة العمالة. كما يساهم في هذا بعض المتصوفة. وبهذا يحاولون أن يفقد الجهاد بريقه في النفوس.

إن هذه المحاولات لن تبوء إلا بالفشل أمام فكر المسلمين الذي بات يعرف ما يرصد له، وأمام الجيل الواعي الذي بات يقدر الأمور حق قدرها. وما هذه الضوضاء في طول أرض الإسلام وعرضها إلا محاولة لخنق هذه النهضة الواعية قبل أن تشب عن الطوق. والله غالب على أمره.

غزوات وسرايا

استقر رسول الله ﷺ في المدينة بعد هجرته، يحيط به المؤمنون من المهاجرين والأنصار. كما يرقبه ـ بحذر ـ المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يفتحوا قلوبهم لهدى الله يشاركهم في ذلك اليهود ممن كان يسكن المدينة.

وخلت مكة من المؤمنين إلا من حبس ومنع من الهجرة. وأطلق المشركون أيديهم في أموال المسلمين المهاجرين. الذين منعتهم ظروف الهجرة خفية من اصطحابها.. فغدوا بعد ذلك فقراء، وعلى الرغم من البذل السخي الذي قدمه الأنصار لهم، فإن عزة نفوسهم كانت تمنعهم من مد أيديهم إلا في النادر القليل وفي إطار دفع الحاجات الآنية الملحة.

ونزلت آيات الإذن بالقتال فكانت إيذاناً بإعداد العدة لتعلو راية الحق وتكون كلمة الذين كفروا السفلى، ولطالما تطلع المؤمنون من المهاجرين إلى هذا الإذن، فقد أصيبوا في أنفسهم وأموالهم، وما زالوا يذكرون صلف وطغيان العلية من قريش يؤيدهم أتباعهم ممن باعوا أنفسهم للشيطان..

وبدأ ﷺ يعقد الألوية ويبعث السرايا بل ويقود الغزوات بنفسه، وتتابعت هذه البعوث حتى كانت غزوة بدر الكبرى.

١ ـ ففي شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة عقد ﷺ اللواء لعمه حمزة بن عبد المطلب وبعثه في ثلاثين رجلاً ـ من المهاجرين خاصة ـ يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام فيها أبو جهل، فالتقى الفريقان على ساحل البحر، فاصطفوا للقتال فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين فلم يقتتلوا.

٢ ـ وفي شهر شوال من السنة الأولى بعث ﷺ عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ في ستين رجلاً ـ من المهاجرين خاصة ـ فلقي أبا سفيان. فكان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف وانصرف الفريقان دون قتال.

وفي هذا اللقاء فرّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني وعتبة بن غزوان، وكانا مسلمين، خرجا بغية الالتحاق بالمسلمين وقد تم لهما ذلك[١].

٣ ـ وفي شهر ذي القعدة من السنة الأولى بعث ﷺ سعد بن أبي وقاص إلى الخرَّار[٢] من أرض الحجاز ومعه عشرين رجلاً يعترضون عيراً لقريش... فلم يدركوها وكان أمرُه ﷺ لسعد أن لا يجاوز الخرار.

٤ ـ وفي شهر صفر من السنة الثانية خرج ﷺ في أول غزوة غزاها يريد عيراً لقريش فوصل إلى ودّان أو الأبواء ـ وهما قريتان متقاربتان في وادي الفرع[٣] ـ وكان خروجه في ستين راكباً من المهاجرين. فلم يدرك العير، وعقد مصالحة مع بني ضمرة.

٥ ـ وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية خرج ﷺ في مائتي رجل

---

(١) ابن هشام ١/٥٩٢.

(٢) هو وادي الجحفة وغدير خم يقع شرق رابغ على قرابة (٢٥) كيلاً [معجم المعالم الجغرافية].

(٣) ولذا يسمي بعضهم هذه الغزوة غزوة الأبواء ويسميها بعضهم غزوة ودان وهو من أودية الحجاز يمر على ١٥٠ كيلاً جنوب المدينة المنورة [معجم المعالم الجغرافية].

من المهاجرين يريد عيراً لقريش فيها أمية بن خلف، وبلغ بواطاً فوجد العير قد فاتته ولم يلق كيداً.

٦ ـ ثم خرج ـ في الشهر نفسه ـ في طلب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح[١] المدينة فاستاقه. فخرج في أثره حتى وصل وادي سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فرجع إلى المدينة، وتسمى هذه الغزوة: بدراً الأولى.

٧ ـ ثم خرج ﷺ في جمادى الأولى من السنة الثانية في مائة وخمسين من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام[٢]. فبلغ العشيرة من ناحية ينبع. فوجد العير قد فاتته، فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالٍ من جمادى الآخرة ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم.

٨ ـ سريّة عبد الله بن جحش:

وفي شهر رجب من السنة الثانية بعث ﷺ عبد الله بن جحش ومعه ثمانية من المهاجرين وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا وأمره أن لا يكره أحداً من أصحابه على المسير معه بعد قراءة الكتاب. ولما وصل المكان فتح الكتاب فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد قريشاً وتعلم لنا أخبارها. فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعةً وأخبر أصحابه فلم يتخلف منهم أحد، وساروا حتى نزلوا بنخلة فمرت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي فقتلوه وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وأفلت منهم نوفل بن عبد الله. وقدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة. فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوا. خاصة وأن ذلك حدث في آخر يوم من رجب مما أتاح لقريش أن تجد مقالاً... فقالوا: إن محمداً قد أحل الشهر الحرام.

---

(١) ما يسرح به من النعم.

(٢) وهي العير التي خرجوا لها يوم بدر لما جاءت عائدة من الشام.

وسقط في أيدي عبد الله وصحبه حين أنكر الرسول ﷺ فعلهم. وعنّفهم إخوانهم من المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ. ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ﴾[1] فكان فيه الفرج لعبد الله وصحبه. وفدت قريش أسيريها.

ولا بد بعد استعراض هذه الوقائع التي سبقت غزوة بدر من وقفة يسيرة:

١ - يلاحظ في جميع هذه الغزوات والسرايا عدم اشتراك الأنصار فيها واقتصارها على المهاجرين. وقد يكون ذلك - وهو الأغلب - التزاماً بالبيعة التي نصت على أن يمنع الأنصار الرسول ﷺ في ديارهم لا أن يخرج بهم، وقد يكون إعلاماً لقريش بأن الذي كان يمنع المسلمين من مقاومتهم هو التزامهم بأوامر الله حيث لم يشرع القتال.. وذلك هو جوابه ﷺ كلما سئل عن ذلك (لم أومر بالقتال).

٢ - تتابع هذه الأحداث، فالغزوات والسرايا كانت متلاحقة لم تتوقف إلا في موسم الحج للسنة الأولى للهجرة.. حتى كانت غزوة بدر وفي هذا: إشعار قريش بأنها لم تعد آمنة مطمئنة في رحلاتها وتنقل تجارتها، والتضييق عليها حتى تشعر بنتائج سلوكها.

ثم هو إشعار لمشركي الأوس والخزرج ويهود المدينة بقوة المسلمين حتى لا تسول لهم نفوسهم محاولة الإساءة إليهم.

٣ - ثم هي استطلاع مستمر لما يجري حول المدينة، وذلك ضرورة أمنية لا بد منها.

٤ - كما نلاحظ أنها كلها موجهة ضد قريش. فهي العقبة الكؤود

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

في وجه انتشار هذا الدين. كما أن لها الزعامة الدينية في الجزيرة، ولذا فهي العدو البارز على المسرح يومئذٍ، فكان من الضروري إشعارها بالقوة الناشئة بقيادة الرسول ﷺ.

٥ ـ كما نلاحظ في سرية عبد الله بن جحش بعض الإجراءات التي تتطلبها المهمة.

وهي مهمة استطلاعية وينبغي أن تكون قائمة على السرية. ولذا كانت المهمة ضمن كتاب النبي ﷺ الذي لم يفتح إلا بعد ليلتين من المسير بعيداً عن المدينة حتى لا يعلم أحد أين الاتجاه.

كما أنها أول عملية توغلٍ قريباً من مكة مركز الوثنية. ولذا فهي عملية فدائية[١] ينبغي أن تقوم على الرغبة من المشتركين وطواعيتهم. ولذا أمر عبد الله أن لا يكره أحداً من أصحابه.

وهكذا بدأت الخطط العسكرية والتدابير القتالية تبدو واضحة في هذه السرايا التي اعتبرت نواة العمليات العسكرية الكبرى فيما بعد.

---

(١) وقد كان هذا المعنى واضحاً في ذاكرة عبد الله حينما قال لأصحابه بعد فتح الكتاب: قد نهاني رسول الله ﷺ أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق. ومن كره ذلك فليرجع.. فمضى ومضوا معه لم يتخلف منهم أحد (البداية ٣/ ٢٤٩).

التشريع بين الهجرة وبدر

لئن كانت هذه الفترة الوجيزة من عمر الدعوة مليئة بالأحداث الداخلية التي هدفت إلى توطيد وإرساء قواعد الدولة في المدينة، من إقامة المسجد بكل ما يعنيه في الحياة الإسلامية، ومن الأخوة بين المهاجرين والأنصار، ومن كتابة العقود مع اليهود.. فقد كانت كذلك في الحياة الخارجية من استطلاع لأوضاع المنطقة وما يجري فيها، وخاصة ما يتعلق بقريش فقد كانت هي الحاملة للواء العداوة، وما تلك السرايا والغزوات إلا إجراء من إجراءات الأمن التي اتخذها في سبيل استمرار دولة الإسلام.

وتتابع التشريع أيضاً في هذه الفترة يأخذ بأيدي المسلمين رويداً رويداً نحو استكمال فرائض هذا الدين وتعاليمه. فبالإضافة إلى الإذن بالقتال وهو تشريع مهم في بناء الدولة نستطيع أن نذكر:

١ ـ الصلاة:

سبق الحديث عن الصلاة وأنها فرضت مع بدء الوحي. ثم كان فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج ثم بعد الهجرة زيد في صلاة الحضر ركعتين، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر رسول الله ﷺ ففرضت أربعاً»[(١)].

٢ ـ الأذان:

كان المسلمون يجتمعون للصلاة إذا حان وقتها. كل منهم يسعى إليها من تلقاء نفسه دون أن يكون هناك وسيلة إعلام بذلك. ثم همّ

---

(١) رواه البخاري، رقم (٣٩٣٥).

رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم. ثم كرهه وأمر بالناقوس فنُحت ليُضرب به للمسلمين للصلاة. فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة، النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: إني طاف بي هذه الليلة طائف: مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به، قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إلٰه إلا الله. فلما أُخبر بها ﷺ قال: (إنها لرؤيا حق إن شاء الله. فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك)[1].

٣ ـ تحويل القبلة:

كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما فصلى إلى بيت المقدس واستدبر الكعبة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً. وكان يحب أن تصرف قبلته نحو الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام. وكان يكثر الدعاء والتضرع رافعاً يديه وطرفه إلى السماء. فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[2].

كان تحويل القبلة في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة بعد غزوة عبد الله بن جحش ولم يكد اللغط الذي أثارته قريش في قضية انتهاك

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

حرمة الأشهر الحرم، الذي أنهته الآية الكريمة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ حتى نزل الأمر بتحويل القبلة فوجد المشركون واليهود مرتعاً للحديث والنقد، وقد كان اليهود يحبون أن يظل الرسول ﷺ على قبلتهم، لما في ذلك من الاعتراف بأقدميتهم وسابقتهم، فلما جاء الأمر بالتحويل عنها ساءهم ذلك، وأشاعوا المقالات، ومنها ما قصة القرآن ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ومنها قولهم: إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد تركها وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل. وجاء القرآن يحكي سفاهتهم ويرد عليهم ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[1] ثم بيَّن الله سبحانه أن الاتجاه إلى القبلة الأولى كان مؤقتاً ابتلاء واختباراً.. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[2].

وهكذا تظل العبادة امتثالاً لأوامر الله والتزاماً بما رسم بعيداً عن رغبات النفس أو الاكتراث بأقوال الناس. والأمر والحكم أولاً وآخراً لله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

إن أمر تحويل القبلة لم يكن مجرد تغيير اتجاه في الصلاة، وإنما هي اختبار للمؤمنين ومدى التزامهم باتباع الرسول ﷺ وابتلاء لهم في مدى صمودهم في وجه الإعلام المعادي الذي حمل لواءه اليهود يومئذٍ باعتبارهم أصحاب كتاب، هذا الإعلام الذي يتخذ بعض الأحيان من ظاهر القول ما يبدو للوهلة الأولى أنه حق.

إنه تربية للمؤمنين توجههم إلى التزام منهج الله الذي هداهم إليه، ولئن افتقدوا الحجة والبرهان في تزييف الباطل، فينبغي أن يكون لهم من رسوخ إيمانهم بعقيدتهم ما يجعلهم قوة صلدة يتحطم عليها كل زيف.

وجاءت الآيات بالحجج الدامغة فخرست الألسنة المبطلة. وقد بينت الآيات أن:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

- ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فأمر القبلة معلوم لهم من كتبهم واعتراضهم وتساؤلهم هو تمويه للحقائق ولذا وصفهم الله بالسفهاء.

- ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

وفي هذه الآية البيان الواضح أن الاتجاه إلى القبلة الأولى كان مؤقتاً بالعلة وهي اختبار المؤمنين.

- إن تشوق الرسول ﷺ إلى الاتجاه إلى الكعبة كان تطلع الفطرة الصافية إلى ما قرر في علم الله مسبقاً وألمحت إليه الكتب السابقة كما قررته الآية السابقة ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

- ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وهكذا فكل الجهات لله وقداسة المكان ليست لذاته وإنما لأمر الله الذي يضفي عليه ذلك. ولقد تربى الصحابة على هذا المفهوم.

ومن هذا المنطلق وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمام الحجر وقال له: والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

- ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[1] فالمطلوب من المؤمنين عدم الاهتمام بشبه الظلمة المتعنتين الذين يريدون صرفهم عن الحق والاهتمام بخشية الله التي توفر لهم التمسك بشريعته وتنفيذ أوامره.

المسلمون وتحويل القبلة:

إذا كان تحويل القبلة اختباراً للمسلمين في اتباعهم الرسول ﷺ فقد أثبت المسلمون نجاحاً أيما نجاح. وقد روى الإمام البخاري عن البراء

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٠. وجاء في تفسيرها أن أهل الكتاب يعلمون من صفات هذه الأمة التوجه إلى الكعبة فإذا فقدوا هذه الصفة احتجوا بها.

أن أول صلاة صلاها الرسول ﷺ إلى الكعبة كانت صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة. فداروا كما هم قِبَل البيت[1].

والذي يبدو أن الخبر لم يصل إلى أهل قباء إلا في صلاة الصبح من اليوم الثاني. كما ورد في الصحيحين عن ابن عمر قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة. فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[2].

وواضح من الحادثتين وقد وقعتا في مكانين مختلفين وإحداهما في صلاة العصر والثانية في صلاة الصبح ذلك التوافق العجيب في سلوك المؤمنين تجاه تنفيذ أوامر الله واتباع رسوله، دون ارتياب أو شك أو تأجيل وذلك دلالة أخرى على الثقة القائمة في المجتمع الذي ربي على الصدق والاستقامة. فلم يطلبوا من الناقل دليلاً لوجود تلك الثقة. ولم يتموا صلاتهم في الاتجاه إلى القدس كما بدؤوا. وإنما منذ سماعهم الخبر ـ وأثناء الصلاة ـ تابعوها في الاتجاه الجديد. إنه المسارعة إلى تنفيذ الأمر والفقه في دين الله. إذ بعد بلوغهم الخبر لن تصح صلاتهم في الاتجاه السابق. إنه النجاح في الاختبار من جميع وجوهه.

٤ ـ صوم رمضان:

وفي شعبان من السنة الثانية ـ بعد تحويل القبلة ـ فرض صيام شهر رمضان وأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[3].

---

(١)(٢) البداية ٣/ ٢٥٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

غزوة بَدر الكبرى

استطلاع أخبار قريش:

كان ﷺ يتتبع أخبار قريش، وما سرية عبد الله بن جحش إلا وسيلة من وسائل ذلك. إنه يريد أن يضيق عليها - كما ذكرنا - كما إنه يريد أن يجد حلاً لبعض ما يعانيه الصحابة من الضيق المادي. المهاجرون منهم خاصة أولئك النفر الذين تركوا أموالهم وديارهم في سبيل عقيدتهم، وفي تجارة قريش التي تذهب وتجيء بعض غَناء لو أمكن الحصول عليها. وهذا ما يفسر لنا مشاركة المهاجرين خاصة فيما سبق من غزوات وسرايا.

لا شك في أن الأنصار قدموا الكثير الكثير، ولكن الرسول ﷺ والمهاجرون معه كانوا على درجة من التعفف لا يقابلها إلا كرم الأنصار. ولذا كانت أنظار الرسول تتطلع إلى تلك التجارات التي كانت في الآونة الأخيرة تجهز بأموال المسلمين المهاجرين التي خلفوها في مكة ولم يستطيعوا استصحابها نظراً لظروف سفرهم السرية. إلا ما كان من عثمان وأبي بكر رضي الله عنهما فقد يسر الله لهما ذلك، وكانت أموالهما دائماً في خدمة الدعوة وفي سبيلها.

إن دور المهاجرين بمكة تركت مغلقة ليس فيها ساكن: كدار بني مظعون من بني جمح ودار بني جحش بن رئاب ودار بني البكير وقد وجد طغاة مكة في ذلك فرصة لهم في استلاب ما فيها بل إن أبا سفيان عدا على دار بني جحش فباعها من عمرو بن علقمة..[1] وهكذا كانت

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٩٩.

أموال المسلمين بعض رأس المال في تجارة قريش. فكان في أخذها استعادة لحق مسلوب.

وقد كان ﷺ يتتبع أخبار عير قريش التي يقودها أبو سفيان والتي فاتته في غزوة العشيرة حينما خرج لها وهي في طريقها إلى الشام، وها هي أخبار عودتها في طريقها إلى مكة تصل إلى رسول الله ﷺ[1].

الخروج على عجل:

كانت العير ألف بعير تحمل أموال قريش فندب الرسول ﷺ المسلمين إليها: وقال: (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها) وفي رواية مسلم: (إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا). فجعل رجال يستأذنونه في ظهرهم في علو المدينة فقال: (لا من كان ظهره حاضراً)[2].

وانطلق من بلغه الخبر وكان ظهره حاضراً وتثاقل بعضهم لأن الخروج من أجل العير وهي لا تحتاج إلى العدد الكبير. بل إن الذين خرجوا لم يتخذوا أهبة القتال إذ لم يدر بخلدهم أنهم ذاهبون إلى معركة.

فرسان وسبعون بعيراً كل ما اصطحبه القوم معهم وسيلة لبلوغ الغاية. وإذا علمنا أن عدد المسلمين كان يزيد قليلاً على الثلاثمائة كان على كل ثلاثة أن يعتقبوا بعيراً.

وكان القائد الكريم ﷺ واحداً من الناس... يشاركه علي وزيد بن حارثة ـ أو مرثد ـ في التناوب على بعير واحد، وأحب الصحابيان تحمل

---

(١) في حديث مسلم عن أنس قال: بعث ﷺ بُسيسة عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ... فحدثه الحديث فخرج ﷺ فقال: إن لنا طلبة.. (مسلم ١٩٠١).

(٢) رواه مسلم برقم (١٩٠١).

المشقة ومتابعة السير على أقدامهما ليظل الرسول ﷺ راكباً، كما يفعل كل صحابي لو كان مكانهما.

فقالا: نحن نمشي عنك يا رسول الله.

فقال: ما أنتما بأقوى على السير مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما.

فالأمر ليس أمر مشقة وراحة، وإنما أجر مقابل كل عمل كماً وكيفاً. وبهذا لن يكون نقاش أو مجادلة أو حساب حول كمية أو مسافة المشي والركوب ويُستأصل عامل من عوامل الخلاف، بل أخوة ومحبة.

تغير الموقف:

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان، فهو أمام أمر متوقع، وأصاب خبراً من بعضهم أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك. فأسرع وضرب وجه عيره عن الطريق واتجه بها إلى الساحل تاركاً بدراً عن يساره. وبعث ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر قريشاً، وسُمع صوته في أرجائها وهو ينادي: يا معشر قريش. اللطيمة اللطيمة[1]، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، ولا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث...

وتجهزت قريش سراعاً فكانوا بين رجلين: إما خارج بنفسه وإما باعث مكانه رجلاً، وأبو جهل يحرض الناس قائلاً: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي[2] كلا والله ليعلمن غير ذلك... وخرجت قريش ولم يتخلف من أشرافها أحد إلا أبا لهب الذي بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.

كانت عملية أبي سفيان في تغيير الطريق ناجحة واستطاع أن ينجو

---

(١) اللطيمة: العير التي تحمل التجارة.

(٢) إشارة إلى ما حدث في سرية عبد الله بن جحش. وقد سبق ذكرها.

بالعير فأرسل إلى أبي جهل يطلب منه العودة. . . ولكنه كيف يرجع ومن ورائه ما يقرب من ألف مقاتل، الأمر الذي زاد غروره وصلفه وكبرياءه. فأقسم ألا يرجع حتى يرد بدراً، ويقيم بها ثلاثاً، وينحر الجزر ويطعم الطعام ويشرب الخمر وتعزف القيان. . وحينئذٍ تسمع العرب بمسيرهم ذاك فتكون لهم الهيبة بعدها أبداً.

الشورى:

بلغ نبأ خروج قريش الرسول ﷺ وهو في ذفران بعد مسيرة ليلة أو ليلتين ولا شك أن الخبر شاع بين الصحابة الذين كره بعضهم لقاء قريش - وهم معذورون في هذا لعدم استعدادهم المادي والنفسي - وفي ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[1] وكان جدال ونقاش شارك فيه الجميع لأن الأمر يعنيهم جميعاً. وكان ﷺ يستطيع أن يقطع ذلك بأمر منه فيطاع، ككل قائد عسكري في المواقف الحرجة، ولكنه جمع الناس بحكمته ليقول لهم: (أشيروا علي أيها الناس)، إنه يريد قناعة تستقر في النفوس وتنشرح لها الصدور.

وتكلم أبو بكر ثم عمر بما يتوقع أن يصدر عن مثلهما في ذلك اليوم. ثم قال ﷺ: (أشيروا علي أيها الناس).

فتكلم المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[2] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٥، ٦.

(٢) قوله تعالى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾.. وردت في قصة بني إسرائيل مع موسى وعدم انصياعهم لأوامره. وقد استطاع المقداد ﷺ أن يفهمها درساً عملياً في مجال التطبيق وكيف ينبغي أن يكون أصحاب الرسل وهكذا كانت=

إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له ﷺ خيراً ودعا له به. ثم قال: (أشيروا علي أيها الناس).

وإنما يريد الأنصار، فهم الأكثرية يومئذ[2]، وهذه أول غزوة يخرج فيها الأنصار، وقد تخوف ﷺ أن يكونوا لا يرون عليهم النصرة إلا ضمن المدينة كما توحي بذلك بيعة العقبة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو... فلما كرر قوله: (أشيروا علي أيها الناس) قال سعد بن معاذ:

- والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

- قال: (أجل).

- قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

فسرَّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ما سمع منه.

= تلاوة القرآن واقعاً يعيشونه وفقها يطبقونه فكان حياتهم وكانوا التطبيق الحي له. والحديث في البخاري بلفظ قريب. وكلمة المقداد هذه، تعد من المواقف الفذة لهذا الصحابي حتى قال فيها عبد الله بن مسعود: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به... ثم ذكر كلمته السابقة (البخاري ٣٩٥٢).

(١) برك الغماد: هو موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل، وقال القاضي عياض وغيره: هو موضع بأقصى هجر.

(٢) كان المهاجرون يوم بدر نيفاً على الستين والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين.

وبهذه المشورة وبهذه الكلمات حسم الموقف وتقرر الاتجاه وانشرحت الصدور. إنها معالجة للواقع بالحكمة، فالصحابة بشر يثقلهم ما يثقل الناس... وفي الأزمات قد تغيب أبسط الأوليات عن أذهان الناس. فكانت هذه الكلمات جلاء لما أصاب النفوس من التغير المفاجئ في الموقف. وانسابت بعد ذلك مع ما يريده الرسول ﷺ طائعة مختارة قانعة بما هي مقدمة عليه.

وكان قول سعد إيضاحاً لحقيقة هامة، وهي أن الأنصار في إيمانهم مثلهم مثل المهاجرين لا يحده اتفاق أو معاهدة. وإنما هو التصديق المطلق والطاعة لله ولرسوله، ويستطيع ﷺ أن يأمر - بعد الآن - بما أراد دون حساب لما قد تفسر به بعض نصوص البيعة. فقد تجاوز الأنصار هذا الحاجز.. فهو الإيمان غير المشروط.

وبعد المشاورة قال ﷺ: (سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم). وتابع المسلمون سيرهم إلى بدر وقد عرفوا ما هم سائرون إليه. ولئن فاتتهم العير فإن الرسول ﷺ بشرهم بالطائفة الأخرى وهي الانتصار على الباطل.

المسلمون في بدر:

نزل المسلمون قريباً من بدر. وركب رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر في تحسس الأخبار حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، ولم يخبرهما حتى يخبراه من هما.. وأخبرهما قال: بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم بمكان كذا، للمكان الذي هم فيه ثم حدثهم عن مكان قريش ثم سألهما ممن هما؟ فقال ﷺ: (نحن من ماء) فجعل الرجل يقول: من ماء؟ من ماء العراق؟

وهكذا عظم الظن أن قريشاً أصبحت قريباً منهم. فلما أمسى ﷺ بعث علي بن أبي طالب والزبير وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر

يلتمسون الخبر، فوجدوا غلامين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي. وسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش، فضربوهما حتى قالا: نحن لأبي سفيان. ثم أتم ﷺ صلاته وقال: (صدقاكم فضربتموهما والله إنها لقريش). ثم سألهما فقال: (أخبراني عن قريش) فقالا: هم وراء هذا الكثيب. قال: (كم القوم). قالا: كثير، قال: (ما عدتهم)، قالا: لا ندري، قال: (كم ينحرون كل يوم؟) قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال ﷺ: (القوم بين التسعماية والألف). ثم قال لهما: (فمن فيهم من أشراف قريش؟) قالا: عتبة وشيبة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام.. وأبو جهل وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو فقال: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها).

كان لا يزال عند الصحابة رضي الله عنهم بعض الأمل في إدراك أبي سفيان ولكنهم الآن على يقين من أنهم أمام قريش.

وسارع المسلمون في اليوم التالي فنزلوا على أدنى ماء من بدر. فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل. أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه. أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال ﷺ: (لقد أشرت بالرأي..) وفعل ما أشار به.

وكلمة الحباب التي جاءت مقدمة لاقتراحه هي الفقه كله، فهي تمثل منهج الإسلام، وتحدد مجال الرأي، فما كان أمراً من الله فلا مجال للتقدم عليه أو التأخر عنه، إذ لا مجال للعقل والرأي في هذه الدائرة، وإنما الواجب إزاءها التنفيذ والالتزام. وحيث لا يوجد النص فالواجب الاجتهاد وإعمال العقل، وهذه أولية من أوليات الإيمان.

وهكذا أخذ المسلمون موقعهم في ميدان المعركة. ومشى ﷺ وجعل يشير بيده ويقول: (هذا مصرع فلان، إن شاء الله).

قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما جاوز أحد منهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

ولئن كان الحرص على الانتصار في المعركة يشغل بال كل فرد من المسلمين فإن حرصهم على سلامة رسول الله ﷺ لم يكن بأقل من ذلك. فهذا سعد بن معاذ يقول: يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك. يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ ودعا له بخير، وبني العريش.

وكلمة سعد هذه بمقدار ما تعبر عن الحب للرسول ﷺ بمقدار ما توضح حقيقة المجتمع المسلم يومذاك، فهو المجتمع المتماسك المتراص، فالذين تخلفوا عن رسول الله يومئذ ليسوا بأقل حباً له ممن حضر معه، ولكنهم لم يقدروا أن تكون معركة، ومن حقهم ألا يغمطوا ما هم عليه، وأن يذكروا بما هم أهله، فكانت كلمة سعد رضي الله عنه إنصافاً لهم وبياناً للواقع.

معسكر قريش:

كان المشركون قد وصلوا إلى مقربة من بدر، خلف العقنقل ـ وهو الكثيب الذي جاؤوا منه ـ وبطن الوادي بينهم وبين بدر.

لم يكن الجميع على قناعة بمسيرهم ذاك. وكان بعضهم متثاقلاً في خروجه ورأى بعضهم عدم ضرورة الاستمرار في المسير، بعد أن نجت العير، ولكن أبا جهل كان له رأي آخر.

إن أمية بن خلف وعتبة بن ربيعة خرجا مكرهين. وخرج الأول بعد أن أتاه أبو جهل وقال له: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.. فلم يزل به أبو جهل حتى وافق على المسير، وكان سبب تثاقله ما سمعه من سعد بن معاذ ـ وكان صديقاً له ـ من أن المسلمين قاتلوه[1].

وأما عتبة بن ربيعة فكان قد عزم على القعود. فقال له أخوه شيبة: إن فارقنا قومنا كان ذلك سبةً علينا فامض مع قومك فمشى معهم[2] وحينما أرسل أبو سفيان يطلب عودة أبي جهل بعد نجاة العير، وقد رفض أبو جهل ذلك. قال الأخنس بن شريق لبني زهرة ـ وكان حليفاً لهم ـ: يا بني زهرة قد نجّى الله لكم أموالكم وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا ـ يعني أبا جهل ـ فرجعوا فلم يشهد بدراً زهري واحد[3].

ورجع طالب بن أبي طالب بعد محاورة كانت بينه وبين بعض قريش. فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم ـ وإن خرجتم معنا ـ أن هواكم لمع محمد.

وتابع الباقون طريقهم إلى أن نزلوا حيث ذكرنا، وبعضهم يرى أن المبرر لمجيئهم قد انقضى ولكن الجو العام المشحون بعداء الرسول ﷺ كان يسيطر على الموقف ومن ورائه أبو جهل يؤجج ناره.

وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحُادّك وتكذب رسولك فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحِنهم الغداة)[4].

---

(١) البداية ٣/٢٥٨. وجاء تفصيل ذلك في البخاري برقم (٢٣٠١).
(٢) الكامل ٢/٨٢.
(٣) ابن هشام ١/٦١٩.
(٤) أي أهلكهم.

ورأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة في القوم على جمل أحمر فقال: (إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا)، واتخذت قريش مكانها في الجانب الآخر من بدر في العدوة القصوى.

ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزُر لنا أصحاب محمد. فجال بفرسه حول معسكر المسلمين ثم رجع فقال: ثلاثماية يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا[1] تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَرَوْا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك أتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد. إنك كبير قريش وسيدها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال: قد فعلت، أنت عليّ بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فإني لا أخشى أن يشجر[2] أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب.

وانطلق حكيم إلى أبي جهل فحدثه بما أرسله به عتبة فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. وما بعتبة ما قال،

---

(١) البلايا جمع بلية. وهي الناقة تربط على قبر الميت فلا تعلف حتى تموت.

(٢) أي يخالف بينهم.

ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور[1] وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك[2] ومقتل أخيك، فقام عامر فاكتشف[3] ثم صرخ واعمراه واعمراه... فأفسد على عتبة ما كان يريد.

لا شك أن تعنت أبي جهل يرجع إلى إيغاله في الكفر. أما موقفه المتصلب هذا فيدفعه إليه ما يبدو في الأفق من الذل الذي ينتظره. فها هي سرايا المسلمين غادية رائحة، وقد التقى بنفسه من قبل بسرية حمزة. ثم وصلت سرية عبد الله بن جحش قريباً من مكة. وأصبحت قريش غير آمنة في تحركها خارج مكة، وحتى الأشهر الحرم لم تعد مأمناً، إن الصورة قاتمة، وهو قائد قريش اليوم وقد سنحت له الفرصة في القضاء على المسلمين قبل أن يستفحل أمرهم. فلم لا ينتهز هذه الفرصة وتكون له المكانة في قريش بعد انتصاره على المسلمين.

إن كلا الرجلين ـ أبي جهل وعتبة ـ انطلق في حديثه من جانب القوة وكلاهما كان يظن أن انتصار قريش حتمية من حتميات الواقع المادي. إذ عدد قريش يساوي ثلاثة أضعاف عدد المسلمين. حتى عمير بن وهب الذي أرسل ليحزر عدد المسلمين انطلق من هذه المسلَّمة وهي فناء المسلمين بعد أن يفنوا عددهم من قريش..

إن هناك أمراً لم تحسب قريش حسابه، ذلك هو الإيمان الذي يحدد الغاية والهدف... وهو قوة لم تتعرفها قريش بعد... أما ما خرجت له قريش فتحدده كلمات أبي جهل... أن يرد بدراً.. ويشرب الخمر وتعزف القيان ويتسامع الناس بهم.. فلا تزال لهم الهيبة.. إنه منطلق إبليس حينما قال أنا خير منه.

---

(١) أي عددهم قليل.
(٢) أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك، أي عهدهم.
(٣) أي كشف عورته.

ليلة بدر:

وحلَّ الظلام وبات الفريقان ينتظران الصباح. المسلمون بالعدوة الدنيا ـ القريبة من المدينة ـ والمشركون بالعدوة القصوى، ونزل المطر تلك الليلة فلجأ كل فرد من المسلمين إلى مكان يتقي به، روى ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش[1] من المطر ـ يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ـ فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ ـ يعني قائماً يصلي ـ.

وفي رواية ابن إسحاق عنه أيضاً: لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح[2].

كانت الأرض التي نزلها المسلمون كثيباً تسوخ فيه الأقدام.. فكان نزول المطر إطفاء لغبارها وتلبيداً لرملها. ثم كان النوم الذي به راحة الأبدان لتستعيد نشاطها وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[3].

إن عيناً واحدة لم تعرف النوم تلك عين رسول الله ﷺ الذي بات قائماً بين يدي الله يصلي ويدعو ويستغيث، والصلاة في الأوقات العصيبة ملجأ كان يهرع إليه رسول الله، فمن للإنسان في شدته إلا خالقه، والصلاة وسيلة من وسائل المناجاة. وذلك هو التوجيه القرآني الكريم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4].

المعركة:

قال علي رضي الله عنه: فلما أن طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ للصلاة، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف[5] فصلى بنا رسول الله ﷺ ثم خطب وحض على القتال.

---

(١) طش: هو المطر الخفيف.

(٢) البداية ٣/ ٢٦٧.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٤) سورة البقرة : الآية ١٥٣.

(٥) الحجف: جمع حجفة، وهي الترس إذ كان من جلود ليس فيه خشب.

وصفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وذهب يعدل صفوفهم بقدح[1] كان في يده، وكانت أوامره واضحة بضرورة الانضباط والتزام الطاعة وألا يتصرف أحد إلا بأمر منه ﷺ.

ففي حديث مسلم قال لهم ﷺ: (لا يقدمنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه)[2]. كما أمرهم أن لا يحملوا حتى يأمرهم فقال: (إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل) وفي رواية أبي داود: (إذا أكثبوكم[3] فارموهم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم)...

وهكذا كانت الصورة واضحة في أذهان الصحابة بانتظار الأوامر.. ثم رجع ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر ـ ليس معه غيره ـ وقام يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد اللهم أنجز لي ما وعدتني..) ولم يزل حتى سقط رداؤه فوضعه عليه أبو بكر ثم قال: يا نبيّ الله بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك. وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً ثم انتبه فقال: (أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع)[4]. ثم خرج من العريش وهو يثب في الدرع وهو يقول: (سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)[5] ثم جعل يحرض الناس على القتال ويبشر الناس بالجنة ويشجعهم بنزول الملائكة والناس في مصافهم لم يحملوا على عدوهم بعد.

وبدأت المعركة بخروج الأسود بن عبد الأسد المخزومي من صفوف المشركين: يريد الشرب من الحوض الذي بناه المسلمون، فخرج

---

(١) القدح: السهم لا نصل له ولا ريش.

(٢) أي قدامه، والحديث عند مسلم برقم (١٩٠١).

(٣) معناها: قربوا ودنوا منكم. والحديث عند البخاري بلفظ قريب. انظر جامع الأصول الحديث ٦٠٢٢.

(٤) البداية ٣/ ٢٧٦.

(٥) أخرجه البخاري برقم (٢٩١٥).

له حمزة حتى قتله في الحوض. فحمي عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين وطلبوا البراز خرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: ما لنا بكم حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: (قم يا عبيدة بن الحارث. وقم يا حمزة، وقم يا علي). فكان عبيدة تجاه عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد. فأما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما وأما عبيدة وعتبة فأثبت كل صاحبه وكر حمزة وعلي على عتبة فذففا عليه[1] واحتملا عبيدة.

ثم تزاحف الناس، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصباء ورمى بها قريشاً وقال: (شاهت الوجوه) ثم أمر أصحابه فقال: (شدوا). واقتتل الناس قتالاً شديداً وكان ﷺ في المقدمة يباشر القتال بنفسه. روى الإمام أحمد عن علي قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً[2]. ولم يمض كبير وقت حتى حلت الهزيمة بالمشركين وانطلق المسلمون وراءهم يقتلون ويأسرون.

بعد المعركة:

ولما تمت الهزيمة صعد ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر، ووقف سعد بن معاذ ومعه بعض الأنصار على باب العريش ومعهم السيوف خيفة أن تكرَّ راجعة من المشركين إلى النبي ﷺ[3].

---

(١) ذففا عليه: أي أسرعا قتله.

(٢) البداية ٣/ ٢٧٩. إن هذا الحديث يرد ما نقله الزرقاني في حاشيته عن ابن تيمية رحمه الله حيث قال: لا يعلم أنه قاتل في غزاة إلا في أحد. اهـ. ١/ ٣٨٨ حاشية.

(٣) البداية ٣/ ٢٨٤. إن بعض كتاب السيرة فهموا أن الرسول ﷺ لم يشترك في=

وكان ﷺ قد قال لأصحابه بعد المعركة: (إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرهاً).

فقال أبو حذيفة ـ ابن عتبة ـ: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألحمنه السيف.

فلما بلغت رسول الله ﷺ قال لعمر: (يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف)؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه.. فوالله لقد نافق[1].

ثقلة الأرض.. وحلم الرسول:

وما كان ﷺ ليلبي طلب عمر، وإنما هي كلمات عبر بها ﷺ عن ألمه مما سمع، ولقد كان له ﷺ من سعة الصدر ما يسع به أعداءه فكيف لا يسع أصحابه إذا اجتذبتهم نوازع الأرض في لحظة من اللحظات، وأدركتهم الأخطاء في حالة نفسية صعبة.

إنها كلمة قالها لعمر ثم لم يلق للأمر بالاً، بل ولم يحمل في نفسه ضغينة فها هو ﷺ يأمر بقتلى قريش أن يطرحوا في القليب، فلما أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إليه، نظر ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه فقال له: (يا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء)؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه

= القتال بناء على وجوده في العريش. وفي هذا النص والذي سبقه نقلاً عن الإمام أحمد من رواية سيدنا علي ما يقطع الشك. فقد اشترك في المعركة أيما اشتراك. وأما العريش فكان المكوث فيه قبل المعركة للدعاء ـ كما لاحظنا ـ ثم بعد المعركة. لتدبير الشؤون المتبقية.

(١) البداية ٣/ ٢٨٤.

ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً[1].

أما أبو حذيفة فلم ينسها وقال: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة؛ فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه.

إن أبا حذيفة حينما قال كلمته كان متأثراً ولا شك لمصرع أبيه وعمه وأخيه وكان أكثر تأثراً لموتهم على غير الإيمان... كان يتوقع من عقل أبيه أن يرشده إلى الخير وكان الأمل الذي ينتظره، ولكنه الآن أمام الحقيقة فها هو أبوه قد خرَّ صريعاً في صف المشركين.

أما كلمة رسول الله ﷺ في النهي عن قتل بعض المشركين لأنهم كانوا مكرهين في خروجهم فما كان بالإمكان تأخيرها حتى تهدأ النفوس لأنه يفوت وقتها ثم هي لم تكن خاصة بقرابته ﷺ. فقد نهى عن قتل أبي البختري بن هشام لأنه قد أكف القوم عنه في مكة. بل إنه ﷺ شهد بالعقل لعتبة وقال عنه وهو يقدم قريش: (إن يطيعوه يرشدوا)، وربما لو كان حياً بعد المعركة لكان في جملة من ينهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ولكنه أخذته الحمية بالإثم وأراد أن يري أبا جهل شجاعته وإقدامه فكان في ذلك هلاكه في الدنيا والآخرة.

إن رسول الله ﷺ لم يكن ليميز قرابته في شيء، وذلك واضح في كل سيرته ولو فعل هذا لما استطاع أن يؤدي رسالته ويسير فيها قدماً. إنه علّم الذين اتبعوه المساواة والعدل والنصفة حتى من نفسه فضلاً عن قرابته، وما كان لأتباعه هؤلاء أن يسكتوا لو رأوا أن سلوكه ﷺ يختلف عما يدعو إليه. ولسنا في صدد ضرب الأمثلة في ذلك لكنا نقتصر على

---

(١) البداية ٣/ ٢٩٤.

شاهد واحد. فها هو العباس نفسه في عداد الأسرى يشد بالوثاق كما فعل بغيره. ثم يدفع الفدية كاملة كما دفع أمثاله ولقد استأذن رجال من الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال: (لا تدعوا منه درهماً)[1].

ولو كان يحرص على تمييز قرابته لما كان المبارزون الأوائل في بدر بأمر منه هم حمزة عمه وعلي ابن عمه وعبيدة من بني عمومته، وأمرُهم يومئذٍ هو المجازفة بحياتهم[2].

إن رسول الله ﷺ حينما ينهى عن قتل أولئك إنما ينطلق من الحق الذي أرسل به. ومن العدل أن لا يسوي بين من خرج مندفعاً وبين من خرج مُرغماً، ثم أليس من الوفاء، أن يرد لكفار بني هاشم وقفتهم معه يوم أن حوصر في الشعب فجاعوا معه وعروا وحموه بأنفسهم، يوم كان غيرهم يضيق عليه الخناق ويتآمر في قتله[3].

ولماذا نطيل الوقوف على هذه الكلمة وقد تبرأ منها قائلها وتاب إلى الله منها وظل خائفاً منها طول حياته. إنه الإيمان الذي ينير الطريق. وأما الذين لا إيمان لهم فلن يفهموا موقف أبي حذيفة من قبل ومن بعد، إنه قالها متأثراً لعدم إيمان أبيه ويتوب منها حفاظاً على إيمانه.

العودة إلى المدينة:

أقام ﷺ ببدر بعد انتصاره ثلاثة أيام. جمع الأسرى فيها وكذا الغنائم كما أمر ﷺ بقتلى المشركين فسحبوا إلى القليب[4]، وكان خلالها قد اطمأن أن أبا جهل بين القتلى.

---

(١) أخرجه البخاري، (٢٥٣٧).

(٢) نقول هذا إيضاحاً للفكرة ولم ننس أن الإسلام يعتبر الشهادة مطلباً يسعى إليه المسلم ويتمناه.

(٣) يرى بعضهم أن العباس أسلم قديماً، وبقي في مكة عيناً لرسول الله ﷺ.

(٤) القليب: هي البئر التي بنيت بالحجارة.

ولما كان اليوم الثالث ركب ناقته ووقف على قليب بدر فقال: (يا أهل القليب: يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام. . . هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً). فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال ﷺ: (والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)[1].

ثم تابع طريقه إلى المدينة ومعه الأسرى والغنائم وكان قد أرسل عند الانتصار عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ـ في المدينة ـ كما بعث زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة.

وقد كان سرور المسلمين عظيماً بالبشرى كما كان حزن اليهود والمشركين من الأوس والخزرج عظيماً أيضاً حتى إنهم لم يتمالكوا أنفسهم فذهبوا يشككون في صحة الخبر الذي أصبحوا على يقين منه بعد أن قدم رسول الله ﷺ.

وفي الطريق قتل رسول الله النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط. وكان هذان الرجلان من شرّ عباد الله وأكثرهم كفراً وبغياً وهجاء للإسلام وأهله واستهزاء برسوله ﷺ.

واستقبل المسلمون رسول الله ﷺ يهنئونه بما أكرمه الله به من النصر.

الأسرى والغنائم:

قام نفر من الصحابة بجمع الغنائم ـ بعد المعركة ـ بينما كان آخرون في أثر المشركين يتابعونهم وكان الفريق الثالث في حراسة الرسول ﷺ وقد خافوا كرَّة العدو.

وظن الذين جمعوا الغنائم أنها من حقهم، ولم ير الآخرون ذلك

---

(١) متفق عليه (خ٣٩٧٦، م٢٨٧٥).

لأنهم كانوا أثناء الجمع في مهمات تتعلق بإتمام النصر والحفاظ عليه، فاختلفوا.

وهكذا تبرز مشكلة مادية تحتاج إلى حل، فالصحابة بشر يدخل نفوسهم ما يداخل نفوس البشر ولكنهم يتميزون بالوقوف عند أوامر الله تعالى... ونزلت سورة الأنفال لتبين الحق. قال عبادة بن الصامت ﵁ وقد سئل عن الأنفال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسمه ﷺ بين المسلمين على السواء.

وأما الأسرى - وكان عددهم سبعين مماثلاً عدد القتلى - فقد استشار ﷺ أصحابه في أمرهم. فقال أبو بكر ﵁: نأخذ منهم فدية تكون لنا قوة ونطلقهم لعل الله يهديهم للإسلام. ويؤيد أبا بكر في رأيه أغلبية المسلمين[1]، وكان رأي عمر ﵁ أن قال: لا والله ما أرى ذلك ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديد الشرك. وكذلك كان رأي سعد بن معاذ، وقريباً منه كان رأي عبد الله بن رواحة.

وأخذ ﷺ برأي أبي بكر فنزل قوله تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

فداء الأسرى:

وأخذ الفداء من الأسرى كل بحسبه - بعد الإذن في قوله تعالى:

---

(١) ورد ذكر الأغلبية في رواية عمر عند الإمام أحمد ومسلم في قوله ﷺ مخاطباً عمر: (للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء..) البداية ٣/ ٢٩٧.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧، ٦٨.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ ـ وقد قال ﷺ في صدد الأسرى: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[1].

والحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول ﷺ في جواره حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حوصر المسلمون وبنو هاشم... واعترافاً بذلك يقول عليه السلام: لو كان حياً وسأله أن يترك له الأسرى بغير فداء لفعل إكراماً له، ولقد كان المطعم في كثير من مواقفه شبيهاً بأبي طالب يقدر الرسول ﷺ ويحترمه ويؤمن بصدقه ولكنه آثر ألا يخرج على الماضي الذي نشأ عليه.

ولئن كان في قوله ﷺ الوفاء للمطعم، ففيه جانب آخر ذلك أن مسألة الفداء لم تكن حرصاً على المادة وأخذ المال، فواضح من الحديث كل الوضوح عدم الاهتمام بالجانب المادي ـ وإلا لما فكر بتركهم للمطعم.. ـ وإنما كان جانب الحرص والرغبة في إصلاح أعدائه وتوقع أن يهديهم الله إلى طريق الحق هوالدافع لقبول الفداء. يتضح ذلك من تعليقه ﷺ على موقف كل من أبي بكر وعمر: (إن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾) ثم أخذ برأي أبي بكر.

ونحن لا ننكر الاهتمام بالعامل المادي فذلك واضح في قوله ﷺ بعد التمثيل لأبي بكر وعمر: (أنتم اليوم عالة فلا يفلتنَّ منهم أحد إلا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٣٩).

بفداء أو ضربة عنق)[1] إنه العامل المرجح وليس الأساس الباعث، وهذا بالنسبة لما يفهم من موقفه ﷺ. وهذا لا يمنع أن بعض الصحابة كان ينطلق في اقتراحه من الجانب المادي والحرص على أخذ الفداء. والآية واضحة في الإشارة إلى ذلك: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

وتضع الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ . . .﴾ قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى تُرهب من قبل أعدائها. وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها.

شهداء بدر:

استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. ستة من الخزرج واثنان من الأوس رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم.

«ولكن الله رمى»:

لا شك بأن المسلمين بذلوا قصارى جهدهم في إحراز النصر والإعداد له ضمن الإمكانات المتاحة لهم آنذاك، وقد تم لهم ذلك بفضل الله ولكنهم يظلون بشراً من الناس لهم رغبات الناس، ولذا وجدناهم يختلفون في قسمة الغنائم وترغب الغالبية فيهم أخذ الفداء من الأسرى بل لعلهم رأوا أنفسهم أصحاب الفضل في صنع النصر.

وإزاء ذلك كان لا بد من درس يبين فيه الحق، وتسند النتائج إلى أسبابها، وكان هذا الدرس سورة الأنفال. التي وصفت المعركة وأكدت

---

(1) رواه الإمام أحمد انظر البداية ٣/ ٢٩٧ وكذا تفسير ابن كثير.

(2) لعل مما يؤيد هذا: إن الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم انتقل الخطاب من أسلوب الغيبة والحديث بصيغة الإفراد إلى الخطاب بصيغة الجمع ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾.

على فعل الله في كل ما هيأ من أسباب النصر، مادية كانت أو معنوية وسنحاول استعراض بعض ذلك بإجمال شديد وفق ما ورد في السورة. قال تعالى:

- ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ فالله هو الذي أخرجهم.. وهم يجادلون.

- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ فهم يريدون غير ذات الشوكة والله يريد أن يحق الحق ويقطع دابر الكافرين.

- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ فبعد أن وجدوا أنفسهم أمام المعركة استغاثوا... فأغاثهم.

- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾،

إنها تهيئة لوسائل الراحة النفسية والجسمية، وكذلك تهيئة للجانب المادي بتهيئة أرض المعركة، لتثبت عليها الأقدام.

- ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ فالله قتلهم بنصركم عليهم لا بقوتكم.. والله هو الذي أوصل الحصباء التي رماها الرسول ﷺ إلى عيون القوم.

- ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. إنه التدبير الإلهي مكاناً وزماناً... ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

فقد رأى ﷺ في المنام أن المشركين قلة فأخبر أصحابه فقويت

نفوسهم كما أن كلاً من الفريقين كان قليلاً في عين الآخر وكان ذلك لصالح المؤمنين فرؤيتهم المشركين قلة دفعتهم إلى الحماس ودخول المعركة آملين النصر بينما رأى المشركون المسلمين أكلة جزور ـ كما عبر أبو جهل ـ فدخلوا المعركة غير مبالين فكانت الهزيمة.

كل ذلك يحدث بفعل الله وتقديره وحكمته. وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الحوادث التالية:

• قاتل عكاشة بن محصن الأسدي بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب[1] فقال: (قاتل بهذا يا عكاشة). فأخذه فهزه فعاد في يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيض الحديدة فقاتل به.. ثم لم يزل عنده حتى قتل في قتال أهل الردة رضي الله عنه[2].

• قيل للعباس، وكان جسيماً، كيف أسرك أبو اليسر ولو شئت لجعلته في كفك ـ لصغر جسمه ـ فقال: ما هو إلا أن لقيته فظهر في عيني كالخندمة ـ جبل من جبال مكة[3] ـ.

• لما قدم أبو سفيان بن الحارث مكة سأله أبو لهب عن خبر قريش فقال: والله ما هو إلا إن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيم الله ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض والله لا يقوم لها شيء[4].

• استقبل المسلمون الرسول ﷺ بالروحاء يهنئونه بما فتح الله عليه.. فقال لهم سلمة بن سلامة ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (أي ابن أخي: أولئك الملأ)[5]، ـ أي الأشراف والرؤساء ـ.

---

(١) الجذل: أصل الشجرة.
(٢) ابن هشام ١/٦٣٧.
(٣) شرح الزرقاني ١/٤٣٩ نقلاً عن الطبراني.
(٤) ابن هشام ١/٦٤٧ وأبو سفيان هذا هو ابن عم رسول الله ﷺ.
(٥) ابن هشام ١/٦٤٣.

إن سورة الأنفال لفتت نظر القوم إلى فعل الله، ولقد عاش الصحابة تلك الوقعة وهم يرون بأم أعينهم آثار ذلك الفعل. إنها العقيدة التي تنزل إلى ساحة المعركة فتغير الموازين وتلغي التوقعات. إن الأرض حينما تتصل بالسماء يكون للحياة قانون آخر تعمل بموجبه الأشياء وهي من صنع الله فيتحول غصن الشجر إلى سيف ويصبح الرجل الصغير الجسم جبلاً كبيراً... ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ..﴾.

ولهذه المعاني سميت سورة الأنفال «سورة الجهاد»[1] وأصبحت النشيد الذي يردده المسلمون في معاركهم.

يوم الفرقان:

كان ذلك اليوم يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان للعام الثاني من الهجرة.

ولئن كان رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن هداية للناس وفرقاناً بين الحق والباطل، وفيصلاً بين الجاهلية - كل الجاهلية - وبين الإسلام، فإن رمضان هو الشهر الذي شهد يوم الفرقان يوم بدر الذي كان إيذاناً بانتصار الحق على الباطل بقوة مؤيدة بنصر الله وهداه، وإعلاناً بأن الحق مهما كان له من الوضوح والنصاعة لا يأخذ مكانه على مسرح الحياة ما لم يكن له القوة التي تحميه، هذه القوة التي أرادها الله أن تكون بعيدة عن الرياء والبطر: عاملة في سبيله طالبة مرضاته ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[2].

إن هذه التسمية «يوم الفرقان» من الله تعالى ﴿... وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]. قال

---

(١) الكامل ٢/ ٣٢٥.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٧.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤١.

ابن عباس: سمي يوم الفرقان لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل. ولهذا تعتبر بدر أعظم غزوات الإسلام فضلاً وشرفاً.

ونتساءل هل يعود السبب في ذلك إلى عدم التكافؤ بين الفريقين عدة وعدداً؟

هناك غزوات أخرى تشارك بدراً في هذا الجانب ولكنها لم تعط هذه التسمية الكريمة وهذا الشرف، ولعلنا إذا وقفنا على ما جرى في هذه الغزوة نستطيع أن نرجع الأمر إلى أكثر من سبب:

١ ـ إنها أول غزوة كان لها أثرها في إظهار قوة الإسلام فكانت بدء الطريق ونقطة الانطلاق في انتشار الإسلام. وما تلاها من الغزوات والجهاد كان امتداداً لمعناها.

٢ ـ لقد رسمت الخط الفاصل بين الحق والباطل فكانت الفرقان النفسي والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني فعاشها الصحابة واقعاً مادياً وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت قيم الجاهلية فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه..

• كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة في صف المشركين وقد قتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

• كان أبو بكر الصديق في صف المسلمين.. وكان ابنه عبد الرحمٰن في صف المشركين.

• كان مصعب بن عمير حاملَ لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار فقال مصعب للأنصاري: شد يدك به فإن أخته ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك.

تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك. إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي.

٣ ـ كان شعار المسلمين في بدر «أحد، أحد» وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل بالعبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية ولا الأحقاد والضغائن ولا الثأر هو الباعث والمحرك ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر واحدة في مضمونها:

• سمع عمير بن الحمام رسول الله ﷺ يعظ الناس ويقول: (إن الله أوجب الجنة لمن يستشهد في سبيله)، فأخرج تمرات يأكلهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة، فرمى بهن وقاتل حتى قتل[١] فكان أول قتيل.

• وهذا سواد بن غزية يقول له رسول الله ﷺ: (استو يا سواد) ويضربه بسهم كان بيده يسوى به الصفوف فيقول: أوجعتني يا رسول الله فدعني اقتد منك. فيعطيه رسول الله ﷺ السهم ويكشف له عن بطنه الشريف فيعتنقه سواد ويقبله.. فيقول له: (ما حملك على هذا؟) فيقول: يا رسول الله: قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.. فدعا له ﷺ بخير[٢].

وهذه الواقعة تعبر بعض التعبير عما تكنه نفس هذا الصحابي، وهي في نفس الوقت تلقي الضوء الكبير على غايات هذه العقيدة وأهدافها فالعدل والنصف يأخذان مجراهما حتى في أرض المعركة، وحتى لو كان ذلك من القائد نفسه، وحتى لو كان القائد رسول الله ﷺ، ورسول الله إذ يرفع ثيابه عن بطنه الشريف لم يكن يدري إلا أنه يفسح الفرصة للرجل ليأخذ حقه. ولذا سأله فيما بعد.. (ما الذي حملك على هذا؟).

---

(١) من حديث مسلم (١٩٠١).
(٢) سيرة ابن هشام ١/٦٢٦.

لهذه المعاني وأمثالها فاز يوم بدر بهذه التسمية «يوم الفرقان» وكان لمن حضروه شرف الريادة. فقال ﷺ في حقهم: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم)[١]. وفي الحديث (جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين. قال وكذلك من شهد بدراً من الملائكة)[٢].

لهم ما لأهل بدر:

وإذا كانت بدر بهذه المكانة فمن العدل الذي جاء به الإسلام ألا يحرم منها قوم تخلفوا بأمر من رسول الله ﷺ لمهام أوكلها إليهم. فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم فكانوا كمن حضرها، وهم:

- عثمان بن عفان: تخلف بأمره ﷺ على زوجته رقية بنت النبي ﷺ وكانت مريضة مرض الموت وجاء البشير بالنصر وقد فرغوا من دفنها رضي الله عنها.
- طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد. كانا في مهمة استطلاعية تتعلق بالعير.
- أبو لبابة: استخلفه ﷺ على المدينة.
- عاصم بن عدي: أرسله ﷺ في مهمة لأهل العالية - في المدينة -.
- الحارث بن حاطب: أرسله ﷺ في مهمة إلى بني عمرو بن عوف.
- الحارث بن الصمة: وقع أثناء الطريق فكسر فرد.
- خوات بن جبير: أصابه في الطريق حجر في ساقه فردَّه من الصفراء.

---

(١) البخاري، المغازي باب فضل من شهد بدراً (٤٢٧٤) ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) البخاري المغازي باب شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٢).

وقد يتساءل بعضهم كيف يضمن لهم رسول الله ﷺ الأجر وهو في يد الله تعالى ولا سلطان لأحد عليه؟ والجواب واضح: فالذين ذكروا هم أحد رجلين: إما رجل تخلف لمهمة أوكلها إليه ﷺ، وإما رجل خرج ملبياً النداء ثم منعه بعد ذلك مانع. فالجميع كانت لديهم نية الخروج والعزم عليه بل بعضهم خرج ورد، والحديث الشريف يقول: (من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة) والهمُّ هنا أقل من العزم ومباشرة العمل. ولذا كان ضمان الأجر لهم تطبيقاً للنظام العام وفاء بالعدل وإحقاقاً للحق.

قريش والهزيمة:

كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعي أول من قدم مكة بمصاب قريش فلما سئل جعل يعدد القتلى، حتى ظنه بعضهم قد فقد عقله، فقال صفوان بن أمية ـ برهاناً على جنونه ـ: سلوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان؟ قال: هو ذاك جالس في الحجر.

ولم يطمئن أبو لهب لِما سمع حتى قدم أبو سفيان بن الحارث فقام فجلس إليه ـ والناس قيام عليه ـ فقال: أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا..

وهكذا ذهب عن أعين القوم ما كان يغشيها، وبدت أمامهم الحقيقة جلية وارتفعت الأصوات بالبكاء، وقطعت النساء شعورهن.. وناحت قريش على قتلاها شهراً.. ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا.

وعَلا الحقد في النفوس وظن بعضهم أنه يمكنه تدارك ما فاته في المعركة بالغدر والخديعة. وها هو صفوان بن أمية وعمير بن وهب الجمحي يجلسان في الحجر يتساران. وقد فقد الأول أباه، وكان ابن الثاني أسيراً في يد المسلمين، فقال عمير: أما والله لولا دين عليَّ وعيال

أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فقال صفوان: عليَّ دينك وعيالك مع عيالي.. فقال عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال: سأفعل.. وانطلق فقدم المدينة ـ وقد سم سيفه ـ ووقعت عين عمر عليه، وقد أناخ على باب المسجد، فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا لشرّ، ثم ذهب فأخبر رسول الله ﷺ قال: (فأدخله عليَّ). فأخذ عمر بحمالة سيفه فلببه بها ثم أدخله. فلما رآه ﷺ قال: (أرسله يا عمر ادن يا عمير.. فما جاء بك؟) قال: جئت لهذا الأسير، قال: (فما بال السيف في عنقك؟) قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: (اصدقني ما الذي جئت له؟) قال: ما جئت إلا لذلك. قال: (بل قعدت أنت وصفوان في الحجر ثم قلت: لولا دين علي.. لخرجت حتى أقتل محمداً. والله حائل بينك وبين ذلك). فقال عمير: أشهد أنك رسول الله هذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان. فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ثم شهد شهادة الحق، فقال ﷺ: (فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره).

وباءت مكيدة صفوان بالفشل لتضم مسلماً جديداً إلى صف الدعوة.. وفقدت قريش قادتها وزعماءها وفي مقدمتهم أبو جهل ومات أبو لهب بعد ذلك بأيام في مكة شرّ ميتة. وهكذا تجاوز المسلمون عقبة كأداء في طريقهم.. ولكن الذين بقوا قد أججت المصيبة نار العداوة في قلوبهم. واندفعوا في التماس وسائل الكيد للإسلام ولرسوله.

من فقه الإيمان:

حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين في مكة. وحبس من كان مضطهداً ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين. منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ فشهد معه المعركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم[1].

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيبوا جميعاً[2]. فقتلوا تحت راية الكفر. فنزل في حقهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[3].

قال ابن عباس: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة ـ وكانوا يستخفون بالإسلام ـ فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . .﴾.

إنهم لم يعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوفرة ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصفين، ولن يعدموا ـ لو أرادوا ـ الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل.

إن وجود المسلمين في صف المشركين جريمة مضاعفة. وذلك أن الإسلام لا يقبل من الفرد المسلم أن يتخلف عن مساعدة المسلمين ـ وهو قادر على ذلك ـ فكيف يقبل منه أن يكون في مساعدة المشركين. إن هذا الأمر الذي يبدو هيناً؛ ليس كذلك لا في المقياس المعنوي ولا في المقياس المادي.

إن وجود الفرد المسلم في صف المشركين يعني أن الصف المسلم خسر فردين. فقد نقص هذا الفرد من الصف الإسلامي. وهذا يشكل

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٦٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٦٤١.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٧.

نقص عنصر. ثم لما عمل في صف المشركين. فهذا يعني أن عدد المسلمين نقص إزاء عدد المشركين فرداً آخر. وبهذا تصبح فعالية الفرد مضاعفة.

على أن الإيمان لا يسمح للمسلم أن يسخر قوته أو عقله أو لسانه.. في خدمة الشرك وأهله.. وحينما يحصل هذا فليراجع صاحب الإيمان إيمانه. ومدعي الإسلام إسلامه؟

إن خلط الإيمان بأي خليط آخر يفسده. ذلك أن الإيمان في صفائه غير قابل أن تشوبه شائبة. سواء أكان ذلك على المستوى الفردي في شخصية الفرد أم على المستوى الجماعي في بناء الأمة. ففي حديث مسلم عن عائشة ﵂ قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة[1] أدركه رجل قد كان يذكر منه جولة ونجدة، ففرح أصحاب النبي ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال: يا رسول الله جئت أتبعك لأصيب معك فقال له رسول الله ﷺ: (تؤمن بالله ورسوله؟) قال: لا، قال: (فارجع فلن أستعين بمشرك..)[2].

إن للإيمان مستلزمات تعبر عن صدقه وقوته. ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه. فإذا كان كذلك كان لصاحبه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله. إن الإيمان يصبغ السلوك. فإذا به يشعّ من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة ومن خلال السمت والانفعال، ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين لأن الإيمان الذي ادعوه لم توجد مستلزماته فلم يؤت ثماره.

المدينة بعد بدر:

خرج المسلمون بقيادة الرسول ﷺ إلى بدر وخلفوا وراءهم في

---

(١) موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨١٧).

المدينة المسلمين الذين لم يشتركوا ـ لعدم توقعهم أن تكون معركة ـ والمشركين من الأوس والخزرج الذين لم يسلموا. واليهود الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر على الرغم من العقد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ.

وهكذا كان اليهود ومن ورائهم المشركون الذين يوادونهم ينتظرون أن تصلهم الأخبار التي تسوء المسلمين، بل إن بعضهم بدأ يعيب الإسلام علانية ويؤذي رسول الله ﷺ ويحرض عليه، ومن هؤلاء: كعب بن الأشرف وعصماء بنت مروان... وأبو عامر الراهب.. وأبو عفك.

وجاء زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشرين إلى المدينة بانتصار المسلمين، وقَتْلِ من قتل من المشركين. وفرح المسلمون..

وحزن اليهود والمشركون أيما حزن حتى قال كعب بن الأشرف: أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان ـ يعني زيداً وعبد الله ـ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة وجعل يحرض على رسوله الله ﷺ وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب ثم رجع إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين فقال رسول الله ﷺ: (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله). قال محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله؟ قال: (نعم..)[1].

وقام محمد بن مسلمة مع رجال من الأوس بقتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود وبهذا لقي جزاء خيانته وغدره ونقضه العهد.

وأما أبو عفك: فهو رجل يهودي من بني عمرو بن عوف. وكان

---

(١) البخاري ومسلم.

شيخاً كبيراً يحرض الناس على قتال النبي ﷺ ويقول فيه الشعر يهجوه به، فقال ﷺ: (من لي بهذا الخبيث؟) فقال سالم بن عمير: علي نذر أن أقتله أو أموت دونه. وجعل يطلب له غرة.. إلى أن علم أنه نائم بفناء داره في ليلة حارة فأقبل عليه وقتله[1].

وكانت عصماء بنت مروان اليهودية تؤذي رسول الله ﷺ فتحرض عليه وتقول الشعر. ولما كان ﷺ في بدر قالت في الإسلام وأهله أبياتاً، فسمعها عمير بن عدي - وكان أعمى - فنذر إذا رد الله رسوله سالماً ليقتلنها. فلما قدم رسول الله ﷺ أخذ سيفه وذهب ليلاً فدخل بيتها وهي نائمة فجسها بيده تأكداً منها ثم أنفذ سيفه فيها ورجع فصلى الصبح مع النبي ﷺ وأخبره بذلك وقال: هل علي في ذلك من شيء فقال: (لا ينتطح فيها عنزان) - وهذه الجملة أول من قالها النبي ﷺ - أي لا يعارض فيها أحد وهي إقرار له على ما فعل.

وأثنى ﷺ على عمير فأقبل على الناس وقال: (من أحب أن ينظر إلى رجل كان في نصرة الله ورسوله فلينظر إلى عمير بن عدي)، فقال عمر: انظروا إلى هذا الأعمى الذي يرى، فقال ﷺ: (مه يا عمر فإنه بصير)، وقد سماه البصير[2].

وخرج أبو عامر عبد عمرو بن صيفي - وكان يسمى الراهب فسماه الرسول ﷺ الفاسق - إلى مكة مباعداً لرسول الله ومعه بعض الغلمان من الأوس وجعل يحرض قريشاً ويعدها بالنصر.. وبقي فيها إلى أن عاد مع قريش إلى أحد...

---

(١)(٢) ذكر القسطلاني هذه الحادثة بعد بدر وكذلك حادثة قتل عصماء، وذكرهما ابن هشام بعد حجة الوداع. وواضح أن هذا المكان أنسب لأن في ذلك الوقت المتأخر لم يعد لهذه الأصوات أثر خاصة وأن اليهود أخرجوا من المدينة جميعاً بعد غزوة الخندق. انظر شرح الزرقاني ١/ ٤٥٣ و٤٥٥ وابن هشام ٢/ ٦٣٥، ٦٣٦.

وهكذا كان انتصار المسلمين في بدر وسيلة لتخرج بعضُ النفوس ما فيها مما كانت أخفته. ولا شك أنه كان مثل هؤلاء غيرهم، ولكن الرسول ما كان ليحاسب الناس إلا على ظاهرهم، ولقد أخلّ هؤلاء بالعقد الذي أبرمه ﷺ. بل وخرج بعضهم على التقاليد المتبعة، حين عرضوا بنساء المسلمين. فكان لا بد من أن يلقوا جزاءهم.

على أنه ينبغي أن نتوقف عند هذه الحوادث. فقد دعى ﷺ إلى الأولى والثانية وأقر الثالثة، ذلك أن هؤلاء كانوا يمثلون الإعلام المعادي في ذلك الوقت. فشرهم ليس قاصراً عى أنفسهم بل تعداهم إلى غيرهم فهم مثيرو الفتن وموقدو نار الحرب.. إذ كانت الكلمة تأخذ مأخذها، وكان البيت من الشعر يفعل فعله. فكان لا بد من إسكات تلك الأصوات. وهذا ما يذكرنا بقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث من بين أسرى بدر ذلك أنهما كانا من المستهزئين.. فكان النضر يقول في القرآن: إنه أساطير الأولين..

إن الذين يحاربون الإسلام بأقلامهم وكلماتهم ليسوا أقل خطراً من الذين يحاربونه بسيوفهم وسلاحهم، بل إن أثر هؤلاء أعم وخطرهم أشمل فهم أداة التحريض وهم الشرر الذي يوقد النار. وقد كان الشعر - يومئذ - هو الوسيلة الإعلامية المؤثرة. ولذا استحق أولئك ذلك الجزاء وإن كانت كل جريمة أخرى لهم كافية لتناسُبِ العقوبةِ معها.

بين بدر وأحد

غزوات وسرية

لم تكن هذه الفترة ـ بين بدر وأحد ـ فترة استراحة بل كان على الرسول ﷺ أن يتتبع أخبار ما حوله ويرصد كل تحرك. ولذا لم يكن هناك مجال للراحة.

غزوة بني سليم:

بعد عودته ﷺ من بدر بسبعة أيام خرج في مائتي رجل يريد بني سليم إذ بلغه تجمع بني سليم وغطفان على ماء يقال له الكُدْر، فبلغ ذلك الماء وأقام ثلاث ليالٍ، ولم يلق كيداً إذ هرب القوم، وتركوا نعمهم فظفر بها ﷺ وعاد إلى المدينة[1].

غزوة السويق:

ولما رجع المشركون إلى مكة من غزوة بدر، وعلم أبو سفيان ما حدث، نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ، فخرج في ذي الحجة من السنة الثانية في مائتي راكب من قريش فنزل في مكان قريب من المدينة ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير فضرب باب حيي بن أخطب فأبى أن يفتح له فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ـ سيد بني النضير وصاحب كنزهم ـ فاستأذن عليه فأذن له وقراه وسقاه ثم حدثه خبر الناس ـ أمر المسلمين ـ فخرج في ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً من قريش ناحية من المدينة فحرقوا النخيل ووجدوا رجلاً

(١) شرح الزرقاني ١/ ٤٥٤.

من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما وانصرفوا راجعين. فخرج رسول الله ﷺ - حين بلغه الأمر - في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر وفاته أبو سفيان وأصحابه. ووجدوا أزواداً كثيرة قد ألقاها المشركون يتخففون منها وعامتها سويق. فسميت غزوة السويق.

غزوة ذي أَمَرَ:

ويقال لها غزوة غطفان. وسببها أن جمعاً من بني ثعلبة ومن بني محارب تجمعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة جمعهم دعثور بن الحارث المحاربي فبلغ الأمر رسول الله ﷺ بعد عودته من غزوة السويق فخرج في أربعمائة وخمسين رجلاً فلما سمعوا بمجيئه هربوا في رؤوس الجبال. فأقام ﷺ بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ثم عاد إلى المدينة.

غزوة بحران:

وسببها أنه ﷺ بلغه أن بها جمعاً كبيراً من بني سليم، فخرج في ثلاثمائة من أصحابه حتى بلغ بحران من ناحية الفُرُع، فوجدهم قد تفرقوا، فأقام أياماً ثم رجع إلى المدينة[1].

غزوة بني قينقاع:

كان ﷺ حين قدم المدينة مهاجراً وادع اليهود وكتب بينه وبينهم عهداً، ولكنه حين عاد منتصراً من بدر بدأ يسمع الحسد من بني قينقاع ويسمع ما يشعر بنقض العهد، فلما كثر ذلك منهم جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: (يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم)، قالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

---

(١) شرح الزرقاني ٢/١٦.

وهكذا أغلظوا في الجواب، وكان ذلك إعلاناً منهم لنقض العهد، فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ. وقد كانوا حلفاء لعبد الله بن أبي بن سلول ولعبادة بن الصامت.

ونتيجة لنقضهم العهد[1] حاصرهم رسول الله ﷺ في حصنهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه، فكتفهم وهو يريد قتلهم. فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول ـ حين أمكنه الله منهم ـ فقال: أحسن في موالي، فأبطأ عليه رسول الله فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله، فقال له: أرسلني وغضب حتى رأوا لوجهه ﷺ ظللاً. ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر فقال ﷺ: (هم لك).

أما عبادة بن الصامت فمشى إلى رسول الله ﷺ فخلعهم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم.

---

(١) قال ابن هشام: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع. وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. السيرة ٢/٤٨.
وعلق الأستاذ محمد رضا على الحادثة بقوله: ولم يروِ هذه الحادثة ابن إسحاق وكذا لم يذكرها الطبري في تاريخه ولا ابن اسعد في طبقاته. وليس في هذه القصة ذكر لاسم المرأة ولا اسم الصائغ الذي قتل ولا اسم المسلم القاتل له. ولذلك نشك في صحة هذه القصة لا لأن ابن إسحاق لم يروها بل لأن روايتها بهده الصفة تحملنا على الشك إذا ليس فيها ما يساعدنا على البحث والتحقيق لذلك لا تعتمد عليها. اهـ. ص١٨٢ من كتاب «محمد رسول الله».
ويؤيد قوله: أن الحجاب لم يكن قد فرض. كما أن جمع الرسول لهم يدل على أن أمرهم كان عاماً في نقض العهد وليس بناء على حادث فردي.

وبهذه الحادثة نزلت الآيات من سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ كابن أبي ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾.. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾ إشارة إلى عباده وتبرئه من حلفهم.

ثم أمر الله بإجلائهم وغنم المسلمون أموالهم. وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام وذهبوا إلى أذرعات من أرض الشام.

سرية زيد بن حارثة:

خافت قريش طريق الشام الذي كانوا يسلكونه لتجارتهم، فسلكوا طريق العراق. فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ومعه فضة كثيرة، وهي عظم تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يدلهم على الطريق. ووصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ فبعث لهم زيد بن حارثة فلقيهم على ماء من مياه نجد يسمى: القردة. فأصاب العير وما فيها وأعجزه الرجال. فقدم بها على رسول الله ﷺ.

❀ ❀ ❀

كانت الغزوات الثلاث: غزوة بني سليم وغزوة ذي أمر وغزوة بحران، الأمر الذي لا بد منه للحفاظ على أمن المدينة. فكان لا بد من مبادأة تلك التجمعات المريبة، وتفريقها قبل أن تصل إلى غايتها.

وكانت غزوة السويق رد الفعل الطبيعي لما قام به أبو سفيان من الاعتداء على أطراف المدينة.. كما كانت سرية زيد بن حارثة، تتمة الجواب على فعل أبي سفيان وكانت إيضاحاً لقريش أن تجارتها لن تكون آمنة إلا إذا أراد رسول الله ذلك، وتذكيراً لهم بالمقاطعة الاقتصادية التي فرضوها على المسلمين في الأيام الماضية.

وبهذا أضحى للمدينة هيبتها، وبات يحسب حسابها، وباتت أحلام قريش تتلاشى، كما باتت ريادتها الدينية على وشك الانهيار.

هذا في المجال الخارجي. أما في المجال الداخلي فقد كان لحصار بني قينقاع وطردهم من المدينة عبرة لليهود الباقين إذا ما سولت لهم أنفسهم نقض العهد كما فعل أقرانهم، وتبين لهم أن حلفهم مع عبد الله بن أبي لئن أفادهم في نجاتهم من القتل لم يفدهم في البقاء في المدينة...

وهكذا بقيت كلمة رسول الله هي العليا في المدينة داخلياً، كما كان لها الهيبة خارجياً.

زواج فاطمة (رضي الله عنها)

خطب أبو بكر ثم عمر فاطمة إلى النبي ﷺ فسكت، ولم يرجع إليهما شيئاً، وبلغ الأمر علياً بأن فاطمة تخطب، فذهب إلى رسول الله ﷺ، قال علي: فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما أستطيع أن أتكلم، فقال: (ما جاء بك)؟ فسكت فقال: (لعلك جئت تخطب فاطمة)؟ قلت: نعم. قال: (وهل عندك من شيء تستحلها به)؟ فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: (ما فعلت بالدرع التي سلحتكها)؟ فقلت: عندي قال: (فأعطها إياها).

وتم الزواج وكان جهازها الذي صحبها خميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين.

وكانت حياتهما في غاية البساطة بعيدة عن التعقيد وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده.

جاء في مسند الإمام أحمد[١] قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت[٢] حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وجاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه[٣]. فقالت: أنا والله قد طحنت حتى مجلت[٤] يدي. فأتت

(١) الفتح الرباني برقم ٢٤٦ ج٢١ ص٤٤.

(٢) أي استقيت.

(٣) أي اسأليه خادماً.

(٤) أي ثخن جلدها وتعجر.

النبي ﷺ فقال: (ما جاء بك أي بنية؟) قالت: جئت لأسلم عليك واستحييت أن أسأله. فأتينا جميعاً. فقال علي: يا رسول الله. والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: (والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي[1] بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم. ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم) فرجعا. فأتاهما النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: (مكانكما). ثم قال: (ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟) قالا: بلى فقال: (كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشرا، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعة وثلاثين).

أما ما يتعلق بمظاهر الرفاهية والزينة فلم يكن لها فيها نصيب، جاء في مسند الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة فوجد في يدها سلسلة من ذهب ـ كان أهداها إليها علي ـ فقال: (يا فاطمة بالعدل أن يقول الناس: فاطمة بنت محمد، وفي يدك سلسلة من نار)، ثم عزمها[2] عزماً شديداً، ثم خرج ولم يقعد، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبداً فأعتقته، فلما سمع بذلك النبي ﷺ كبر وقال: (الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار)[3].

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير ويقول: (إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا)[4]

---

(١) طوى من الجوع فهو طاوٍ أي خالي البطن جائع لم يأكل.

(٢) عذل ولام.

(٣) الفتح الرباني ١٧/ ٢٦٠ الحديث ٩٠.

(٤) أخرجه النسائي (٥١٥١).

وكانت فاطمة أشبه الناس برسول الله ﷺ مشية وكلاماً وحديثاً[1] وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: ما رأيت أحداً أفضل من فاطمة غير أبيها[2]: وكان لها في نفس رسول الله ﷺ المكانة الفضلى حباً وتقديراً. بلغه يوماً أن علياً رضي الله عنه يخطب جويرية بنت أبي جهل، فقام على المنبر وكان مما قال: (لا آذن ثم لا آذن ثم آذن وقال: والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد)[3]. وفي رواية: (فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها)[4]. وفي رواية أخرى: (وإني لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع ابنة رسول الله وابنة عدو الله مكاناً واحداً أبداً)[5] وترك علي رضي الله عنه عند ذلك الخطبة.

إن الحديث عن فاطمة رضي الله عنها، يستوقفنا في جوانب كثيرة منه، نقتصر على اثنين منها:

١ ـ خطب أبو بكر وكذلك عمر رضي الله عنهما فاطمة، فلم يحصلا على جواب، وتكلم علي رضي الله عنه فأجيب. ويرى الزرقاني رحمه الله أنه ربما كان الاختيار بسبب خلو علي رضي الله عنه من النساء، بينما كان كل من أبي بكر وعمر عنده زوجة[6]. ويؤيد قوله: ما ورد في الحديث السابق عن عدم إذنه ﷺ بخطبة علي رضي الله عنه.

٢ ـ عاشت فاطمة رضي الله عنها في شظف من العيش، وكانت ممنوعة من وسائل الزينة ـ كما لاحظنا في حديث السلسلة وحديث عقبة ـ ويبدو أن ذلك أمر خاص ببيت النبوة[7]، وهو واضح في لفظ حديث عقبة، ونحن لا نريد هنا تحقيق الحكم الفقهي فلذلك مكانه، ولكنا نريد الوقوف على الواقع الذي كان قائماً في ذلك البيت الكريم.

---

(١) الفتح الرباني ٢٢/ ٩٢، ح٨٨٢ و٨٨٣ وشرحها.
(٢) أخرجه الطبراني على شرط الشيخين. انظر الزرقاني ٢/ ٢.
(٣) رواه الشيخان (خ٣٧٢٩، ٣٧٣٠، م٢٤٤٩).
(٤)(٥) متفق عليهما (خ٥٢٣٠، ٣١١٠، م٢٤٤٩).
(٦) شرح الزرقاني ٢/ ٣. (٧) في هذا الأمر خلاف.

إن كل ذلك الحب الكبير والعطف الكبير الذي كانت تتمتع به فاطمة رضي الله عنها لم يحل دون غضبه ﷺ وهو يرى في يدها سلسلة من ذهب قدمها لها زوجها بعد أيام وأيام من زواجها.. ثم رجع ولم يدخل.. حتى باعتها، كما لم يشفع لها ذلك عنده يوم طلبت خادماً وقد مجلت يداها من الطحن على الرحى.. وهو العطوف الشفوق..

إن ذلك هو بيان للخط الذي ينبغي أن يسلكه قادة الأمة. إن القيادة تكليف وعمل لوجه الله تعالى وينبغي أن يكون المكلف بها وأهله أيضاً على مستوى هذا التكليف.

وضريبة ذلك أن يعيش هو وأهله في الحد الأدنى من العيش. بعيداً عن كل أسباب الرفاهية ومظاهرها حتى يكون به سلوى وعزاء لكل أولئك الذين لا يجدون.

وقد أدرك هذه النقطة الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وفي سيرتهم الكثير الكثير مما يؤكد ذلك.. ونكتفي بمثال واحد:

أقسم عمر رضي الله عنه ـ عام الرمادة ـ ألَّا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس[١]. وما ذاك إلا ليكون في الحالة التي يكون فيها أدنى الناس، ليكون على صلة بواقعهم ودنياهم.

وهكذا كان سلوكه ﷺ في بيته هو السنة التي أثمرت وآتت أكلها، فالتزم بها كل من أراد الله به الخير، ولشدَّ ما لاحظنا أثر هذا السلوك سواء في الحياة الاقتصادية أو السياسية. فقد استطاع عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يعيد للناس سيرة الخلفاء الراشدين حينما سلك هذا المنهج فكان إجماع الأمة على اعتباره خامس الخلفاء الراشدين رحمهم الله.

---

(١) الكامل ٢/ ٣٨٩.

اليهود . . والفتن

لاحظنا كيف نقض بنو قينقاع العهد، فأخرجوا من المدينة . . على أن بقية اليهود لم يكونوا أحسن حالاً منهم، وإن كانوا يتظاهرون بمراعاة العهد، فإذا سنحت لهم فرصة يستطيعون فيها إثارة فتنة لم يضيعوها، طالما أمنوا البعد عن مسرح الأحداث.

قال ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق[١]: مرَّ شاس بن قيس ـ وكان شيخاً قد أسن، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[٢] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل اليهودي، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة[٣]. فغضب الفريقان جميعاً وقالوا

---

(١) ذكرنا هذا الموضوع هنا بين بدر وأُحد وبعد إجلاء بني قينقاع إذ هو أنسب مكان من حيث الزمان.

ففي المرحلة الأولى قبل بدر حاول اليهود عدم إثارة الفتن متريثين ما يؤول إليه أمر رسول الله ﷺ فلما انتصر ببدر نقض بنو قينقاع . . . فزاد حقد اليهود فقام شاس بن قيس وهو من يهود بني قريظة بذلك ليعكر صفاء الجو الذي ساد المدينة. ولا نعتقد أنها بعد أحد، لأن عبد الله بن أبي ظهر نفاقه بعدها فكان هو الوسيلة الأقرب لتنفيذ ما يريده اليهود. وقد ذكر الحادثة ابن هشام قبل غزوة بدر بل قبل جميع الغزوات بصدد حديثه عن اليهود بشكل عام. السيرة ١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٧.

(٢) قيلة بنت كاهل، أم الأوس والخزرج.

(٣) أي فتية شابة، والمراد: رددنا الأمر إلى أوله كما كان.

قد فعلنا. موعدكم الظاهرة - الحرة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: (يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف به بين قلوبكم).

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً. ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله كيد عدوهم.

ونزل بهذه الحادثة الآيات ٩٨ - ١٠٥ من سورة آل عمران ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ..﴾.

وهكذا كان عمله ﷺ دائماً مستمراً بين مراقبة للأعداء في الخارج، وبين ملاحظة أعداء الداخل، وخلال ذلك لا تهدأ العملية التربوية للصحابة الكرام، من تسديد لمسيرتهم وتصحيح لأخطائهم ورعاية لمختلف شؤونهم.

غزوة أُحُد[1]

التقاء الأحقاد:

إن كبرياء قريش وشركها تحطم يوم الفرقان، وقتل فيه من لهم خطرهم فيها. وما كان أبناء الذين قتلوا ليسكتوا لأن سكوتهم عار عليهم، فمشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم - في ذلك اليوم - فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا.

ولم يكن هؤلاء وحدهم هم الداعون لحرب محمد ﷺ بل كان يؤازرهم ويشجعهم يهود المدينة، وقد رأينا كيف جاء كعب بن الأشرف إلى مكة لينذب أهل القليب ويحرض على قتال رسول الله ﷺ.

كما خرج إليهم أبو عامر عبد عمرو - الفاسق - في بعض غلمان من الأوس يعدهم أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، وبقي في مكة حتى جاء مع قريش.

ولبى أصحاب الأموال طلب القوم، فوضعوها تحت تصرفهم وأجمعت قريش على حرب رسول الله ﷺ، وأرسلت رسلها إلى من هو على مثل رأيها في محمد ﷺ. فخرج أبو عزة الجمحي[2] - الذي منَّ

(١) وكانت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة.

(٢) كان رسول الله ﷺ قد من عليه يوم بدر. فأتاه صفوان بن أمية فقال: يا أبا عزة=

عليه رسول الله يوم بدر - يسير في تهامة ويدعو بني كنانة.. وخرج مسافع بن عبد مناف من جمح إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ.

وخرجت قريش بحدها وحديدها وخرج معها من تابعها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بنسائهم، التماس الحفيظة وألا يفروا، وفي مقدمتهم أبو سفيان ومعه زوجه هند بنت عتبة..

وخرج مع الناس وحشي وهو غلام حبشي لجبير بن مطعم، قال له سيده: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق، وكان وحشي يقذف بالحربة فقلما يخطئ بها.

في المدينة:

وصل كتاب إلى رسول الله ﷺ من عمه العباس[1] يخبر فيه بما عزمت عليه قريش.

ورأى رسول الله ﷺ رؤيا فقال لأصحابه: (إني رأيت خيراً رأيت بقراً تذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة. فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأوّلت الدرع الحصينة المدينة)[2].

واستشار الرسول ﷺ أصحابه وكان رأيه أن يمكث في المدينة فلا يخرج منها وعبر عن ذلك حين عرض رأيه: (فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها). وكان ﷺ يكره الخروج.

= إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك فاخرج معنا. فقال: إن محمداً قد منَّ عليَّ فلا أريد أن أظاهر عليه. قال: فأعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك. وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج.

(1)(2) عن المواهب اللدنية انظر شرح الزرقاني ٢/ ٣١ و٣٢.

وكان هذا رأي عبد الله بن أُبي بن سلول.

وقال رجال من المسلمين ـ ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد ـ وبعضهم ممن فاته يوم بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا.. ولم يزل الناس برسول الله ﷺ حتى دخل بيته فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم.

حينئذٍ ندم هؤلاء وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك. فقالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد. فقال: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل).

وخرج الرسول ﷺ في ألفٍ من أصحابه. وكان أبو سفيان قد نزل بعَيْنَين بجبل ببطن السبخة على شفير الوادي مقابل المدينة.

ولما كان ﷺ بين المدينة وأحد رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني. ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب.

وأتبعهم عبد الله بن عمرو بن حَرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم. ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم. قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه.

على أرض المعركة:

نزل رسول الله ﷺ الشعب من أحد. فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: (لا يقاتلنَّ أحد منكم حتى نأمره بالقتال). وانتقى خمسين رامياً وأمر عليهم عبد الله بن جبير ووضعهم أعلى الجبل وقال: (انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك). وظاهر ﷺ بين درعين[1]، وأعطى اللواء إلى مصعب بن عمير.

(١) أي لبس درعاً فوق درع.

ثم صف الصحابة واستعرضهم فرد الصغار منهم وأجاز بعضهم منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وممن ردهم: أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت.

وكان المشركون في الطرف المقابل وقد تعبأت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها ـ يستعملونها إذا اضطروا إليها ـ وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار ـ يحرضهم على القتال ـ: يا بني عبد الدار إنكم وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا. فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه. فقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع؟ وذلك ما أراده أبو سفيان.

وقامت هند بنت عتبة بدورها فجعلت هي والنسوة اللاتي معها يضربن بالدفوف ويحرضن الرجال... وكانت كلما التقت بوحشي تقول له: ويهاً أبا دسمة اشف واشتف ـ تحرضه على قتل حمزة.

وذكّر الرسول ﷺ قومه بالله وقال: (عليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو وانظروا ماذا أمركم الله فافعلوا).

وقال رسول الله ﷺ: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟) فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: (أن تضرب العدو حتى ينحني) قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه. فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، له عصابة حمراء يعتصب بها فيعلم عند الحرب فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين. فقال ﷺ: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)[1].

---

(1) رواه أحمد ومسلم عن أنس، كما في شرح الزرقاني ٢/٢٨.

المعركة:

والتقى الصفان. فكان أول من لقي المسلمين، أبو عامر[1] في الأحابيش[2] وعبدان أهل مكة فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر؛ قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ـ وكان في الجاهلية يسمى الراهب فسماه الرسول ﷺ ـ الفاسق ـ فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر.. ثم قاتلهم قتالاً شديداً.

وحميت الحرب وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس. فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله. قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة ـ وكانت تلك هند بنت عتبة ـ.

وقاتل حمزة قتالاً شديداً قال وحشي: والله إني لأنظر إلى حمزة يهدُّ الناس بسيفه ما يليق[3] به شيئاً، مثل الجمل الأورق. إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فقال له حمزة: هلم إلي يا ابن مقطعة البظور، فضربه فما أخطأ رأسه، وهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت في ثنيته حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فقلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر.

واشتدت المعركة ثم أنزل الله نصره على المسلمين فحسوا الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة، فولى الكفار لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم.. وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم..

---

(١) هو عبد عمرو بن صفي من الأوس، وهو والد حنظلة غسيل الملائكة.

(٢) الأحابيش: هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة، تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له: الأحبش بأسفل مكة.

(٣) ما يليق: ما يبقي.

مخالفة الرماة تغيِّرُ وجه المعركة:

ورأى الرماة الغنيمة تجمع فقالوا: ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، وثبت أميرهم عبد الله في نفر يسير دون العشرة مكانه وقال: لا أجاوز أمر رسول الله ﷺ.

ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكر بالخيل وتبعه عكرمة، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم ثم هبطوا إلى المسلمين وهم مشغولون بجمع الغنائم.

قال الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا، بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد منهم.

ولم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته فاجتمعت قريش حوله وأخذه صؤاب ـ وهو غلام حبشي لبني أبي طلحة ـ فقاتل به حتى قتل عليه.

وتغير وجه المعركة وأحدق المشركون برسول الله ﷺ يريدون قتله، وحوله نفر من الصحابة يقاتلون دونه، وثبت ﷺ. قال المقداد[1]: فوالذي بعثه بالحق ما زالت قدمه شبراً واحداً، وإنه لفي وجه العدو وتفيء إليه طائفة من أصحابه مرة، وتفترق مرة، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه ويرمي بالحجر حتى انحازوا عنه.

وما زال يرمي ﷺ عن قوسه حتى صارت شظايا ـ كما نقل ابن سعد ـ[2]. وعن علي رضي الله عنه: لما انجلى الناس يوم أحد نظرت في القتلى

---

(١)(٢) شرح الزرقاني ٢/ ٣٤ ـ ٣٥.

فلم أر رسول الله ﷺ فقلت: والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى ولكن أرى أن الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي، ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله بينهم - يقاتلهم -[(١)].

قال أنس بن مالك: لما كان يوم أحد انهزم ناس من الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوّب عليه بحجفة قال: وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع وكسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً. قال: فكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: إنثرها لأبي طلحة. قال: ويشرف نبي الله ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك..[(٢)].

ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون. وجرح وجهه، وجعل الدم يسيل عليه وقاتل دونه نفر خمسة من الأنصار فقتلوا؛ وقاتل مصعب بين يدي رسول الله ومعه اللواء حتى قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله فرجع إلى قريش وقال: قتلت محمداً فجعل الناس يقولون: قتل محمد. ولما قتل مصعب أعطى رسول الله الراية لعلي، وترس أبو دجانة رسول الله بنفسه فكان يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله فكان رسول الله يناوله السهم ويقول: (ارم فداك أمي وأبي).

ولما شاع الخبر بمقتل رسول الله، أصاب المسلمين الارتباك والحيرة، فترك بعضهم القتال.. ومر بهم أنس بن النضر فقال لهم: ما يحبسكم قالوا: قد قتل النبي. قال: فما تصنعون بالحياة بعده. موتوا

---

(١) شرح الزرقاني ٢/ ٣٤ - ٣٥.

(٢) متفق عليه (خ٤٠٦٤، م١٨١١). ومعنى مجوب: مترس عليه، والحجفة: الترس إذا كان من جلد.

على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل. فوجد به سبعون طعنة وضربة وما عرفته إلا أخته عرفته بحسن بنانه.

وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، قالت: لما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذبُّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي...

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، بعد قول الناس قتل رسول الله. كعب بن مالك. قال عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله فأشار إلي أن أنصت.

ولما عرفه المسلمون نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين. حتى أسند ﷺ في الشعب وخرج علي فجاء بشيء من الماء ليشرب ﷺ. فلما وجد له ريحاً عافه فلم يشرب منه وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه وهو يقول: (اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبي الله)[١].

وأقبل أبيُّ بن خلف وهو يقول: أي محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ. فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال: (دعوه) فلما دنا تناول رسول الله الحربة وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه إذ انتفض بها ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش ـ وقد خدش في عنقه خدشاً غير كبير فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك. والله إن بك من بأس. قال: إنه قد قال لي بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني، فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون إلى مكة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٠٧٤).

في أعقاب المعركة:

بينما رسول الله ﷺ بالشعب ومعه نفر من أصحابه إذ علا الجبل خالد بن الوليد مع فئة من قريش، فقال ﷺ: (اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا)، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل. وكانت تلك آخر أعمال القتال يوم أحد.

وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: (لا تجيبوه)، قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: (لا تجيبوه)؛ قال: أفي القوم ابن الخطاب؟.. فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله فقد أبقى الله لك ما يحزنك. قال أبو سفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: (أجيبوه)، قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا الله أعلى وأجل). قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: (أجيبوه)، قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا، الله مولانا ولا مولى لكم)، قال أبو سفيان. يوم بيوم بدر والحرب سجال وتجدون مثله لم آمر بها ولم تسؤني[1].

ولما انصرف نادى: إن موعدكم بدر للعام القابل. فقال ﷺ لرجل من أصحابه قل: (نعم هو بيننا وبينكم موعد).

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في آثار القوم وقال: (انظر ما يريدون. فإن كانوا جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزهم). قال علي: فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

وفرغ الناس لقتلاهم، وخرج ﷺ يلتمس حمزة فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثّل به فجدع أنفه وأذناه. فلما وقف رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٣٩).

عليه، قال: (لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليَّ من هذا). ثم قال: (لولا أن تحزن صفية ويكون سنة من بعدي؛ لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير. ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم)[1]. ثم نزل بعد ذلك في النهي عن المثلة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[2].

وقال ﷺ: (من يأتيني بخبر سعد بن الربيع؟) فقال الرجل: أنا يا رسول الله. فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف[3]. قال: ثم لم أبرح حتى مات. فجئت فأخبرت رسول الله ﷺ خبره. ثم أمر رسول الله ﷺ بالشهداء فدفنوا.

وعاد ﷺ إلى المدينة ومر بدور الأنصار فسمع البكاء على القتلى. فذرفت عيناه فبكى ثم قال: (لكن حمزة لا بواكي له). فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة فقال: (اغسلي عن هذا دمه يا بنية. فوالله لقد صدقني اليوم). وناولها علي سيفه فقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم فقال ﷺ: (لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة»[4].

---

(١) ابن هشام ٢/ ٩٥.
(٢) سورة النحل: الآيتان ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) في الموطأ بلفظ قريب. جامع الأصول (٦٠٧٥).
(٤) ابن هشام ٢/ ١٠٠.

حمراء الأسد:

كان يوم أحدٍ يوم السبت للنصف من شوال. ومساء ذلك اليوم رجع ﷺ إلى أهله في المدينة، فلما كان الغد يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بطلب العدو وقال: (لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس).

وكان خروج رسول الله ﷺ إرهاباً للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم وأن الذي أصاب المسلمين لم يوهنهم.

فخرج المسلمون حتى الجرحى منهم وسار بهم ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال -. فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء. ومر به معبد الخزاعي وكان مشركاً - وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة نصح[1] لرسول الله - فقال: يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. وتابع معبد طريقه حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا: أصبنا حد أصحابنا وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط. قد اجتمع معه من كان تخلف عنه، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويحك ما تقول: قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل[2]. فثنى ذلك أبا سفيان عن عزمه.

ومر بأبي سفيان ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة قال: ولِم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة، وأحمل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ. قالوا: نعم. قال: أخبروه أنا أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب

---

(١) أي موضع سِرِّه.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قاله أبو سفيان فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[1].

وفي الطريق إلى المدينة ظفر ﷺ بمعاوية بن المغيرة وبأبي عزة الجمحي. وكان ﷺ قد منَّ على أبي عزة يوم بدر فقال: يا رسول الله أقلني. فقال ﷺ: (والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمداً مرتين: اضرب عنقه يا زبير) فضرب عنقه. وأما معاوية ـ وهو الذي جدع أنف حمزة ومثَّل به بينما بقرت بطنه هند ـ فكان أخطأ الطريق فأتى عثمان فاستجار به فشفع عثمان به إلى رسول الله فأعطاه ثلاثة أيام إن وجد بعدها قتل، فأقام معاوية ليعرف أخبار الرسول[2] ﷺ وتوارى بعد الثلاث فبعث النبي زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال: (إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا..) فوجداه فقتلاه[3].

حصيلة المعركة في أحد:

رأينا كيف انتصر المسلمون في المعركة حتى بدأ بعضهم يجمع الغنائم ثم أصابهم ما أصابهم بمخالفة الرماة أوامر رسول الله ﷺ. ومع ذلك إننا حينما نقارن بين الجيشين لا نستطيع أن نسمي ما أصاب المسلمين هزيمة.

كان عدد جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، منهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس. وكان مجموع المسلمين مع رسول الله ﷺ سبعمائة صحابي منهم مائة دارع ومعهم فَرَسَان.

ولم تهبط راية المسلمين إلى الأرض بل بقيت مرفوعة بيد مصعب بن عمير حتى سقط شهيداً فتناولها علي بأمر من رسول الله ﷺ وقتل تسعة من حملة لواء المشركين ووقع إلى الأرض.. حتى رفعته امرأة..

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٣.
(٢) الكامل ٢/ ١١٣.
(٣) ابن هشام ٢/ ١٠٥.

صحيح أن عدد شهداء المسلمين أكثر من قتلى المشركين، وليس في هذا دلالة على الهزيمة بل دلالته واضحة على الاستبسال. وإذا تذكرنا الفارق الكبير في العدد كان هذا أمراً عادياً. ثم إن المنهزم هو أول من يغادر أرض المعركة وكان المسلمون هم الباقون عليها بعد مغادرة أبي سفيان.

ولقد شعر أبو سفيان بعد مغادرته أرض المعركة أنه لم يحرز نصراً ولذا فكر بالعودة ثانية إلى المدينة، وثناه عن عزمه أولاً صفوان بن أمية لا حباً بالمسلمين وإنما خوفاً على مسمى النصر الذي أحرزوه. حيث قال له: إن القوم قد جربوا ـ غضبوا ـ وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا. ثم ثناه عن عزمه ثانياً قول معبد الخزاعي، فولَّى بعدها مسرعاً يطلب مكة.

ولذا لا نستطيع أن نسمي ما آل إليه أمر المسلمين هزيمة، كما لا نستطيع أن نطلق عليه مسمى النصر وإن كان من وجوه كثيرة يعتبر نصراً.

الدرس المستفاد من المحنة:

إن هذا الدرس من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أدنى تأمل فالمسلمون على الرغم من خذلان المنافقين لهم، وعلى الرغم من رفض الرسول ﷺ الاستعانة باليهود، وعلى الرغم من عددهم الذي لا يعدل الربع من عدد عدوهم.. فقد كانت لهم الغلبة وكان لهم النصر، وقد استطاعوا إزاحة المشركين عن مواقعهم وأضحت هزيمتهم محققة.

ثم خالف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ، رغم وضوح الأمر وصراحته وعدم قابليته للتأويل والاجتهاد ورغم تذكير قائدهم لهم ونصحه إياهم وثباته هو وبعضهم على تنفيذ الأمر بحذافيره... هذه المخالفة كانت السبب في تغيير الموقف وإصابة المسلمين بما أصيبوا به. وكان ذلك ابتلاء من الله وتربية، وتعليماً لهم ضرورة الانضباط، وأن البلاء حينما ينزل يصيب الجميع ولن يكون قاصراً على المتسبب به وتلك سنّة

من سنن الله الماضية في خلقه.. وقد أشار القرآن إلى ذلك بالوضوح الكامل والتفصيل البين: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[١]. إن سبب الفشل هو تنازع الرماة ثم عصيان بعضهم[٢].

ولقد استفاد المسلمون بعد ذلك من هذا الدرس العبرة والعظة، وأصبح الحرص على الانضباط يشارك فيه القائد كما يشارك فيه الجندي، ويخاف القائد آثاره كما يخاف آثاره الجندي، إن القضية ليست تكريماً للقيادة واحتراماً لكلمتها وحسب، وإنما الطاعة والالتزام سبب من الأسباب في إحراز النصر، لأن الله ربط الواحد بالآخر إذا توفرت العوامل الأخرى.

وهذا ما يوضح لنا موقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وشدة خوفه يوم القادسية حينما باشر القعقاع بن عمرو القتال قبل صدور الأمر به إليه، حيث قال: اللهم اغفرها له، وانصره فقد أذنت له[٣].. إن سعداً كان خائفاً وكأنه يحاول تغطية الموقف بالمسارعة بالإذن ويطلب له المغفرة من الله. وهكذا فهموها ذنباً يحتاج للمغفرة، فلئن تلافى سعد ما يتعلق به وهو المسارعة في الإذن اللاحق فقد أضحى بحاجة إلى شيء آخر وهو الاستغفار لمخالفة النظام العام الذي وضعه الله تعالى. ذلك بعض ما وعاه المسلمون من دروس أحد.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

(٢) قال ابن عباس: (حتى إذا فشلتم.. إلخ الآية) عنى بهذا الرماة. انظر حديث رقم (٢٥٣) من الفتح الرباني ٢١/ ٥٤.

(٣) الكامل ٢/ ٣٤٤.

تأملات:

١ ـ بين الشورى والعزم:

رأينا كيف استشار النبي ﷺ أصحابه... وأدلى كل برأيه. ثم عزم على أحد الرأيين.. وقد كان رأيه هو في الطرف الآخر.. ثم ندم أصحاب الرأي وتركوا الأمر له ﷺ...

ولكنه ﷺ لم يرجع بعد العزم عن ما عزم عليه وعبّر عن ذلك بقوله: (ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)[١].

إن كثرة التردد وتغير الرأي.. هو وحده الهزيمة وعدم القوة، ولذا لم يرجع إلى ما كان يرغبه هو وما يرغبه بعضهم الآخر من أمثال عبد الله بن أبي سلول حتى لا يكون التردد هو السّنة المتبعة، إنه لا بد من حسم الأمر وإمضائه. ولهذا كان سلوكه ﷺ بياناً للوقت الذي تجري فيه الشورى وأنها تسبق العزم فإذا تم هذا العزم كان الرجوع عنه هزيمة في نفس القائد أولاً وفقدانه أهلية القيادة وهزيمته في المعركة.

وأمر آخر: إن الرأي الذي يعزم عليه ينبغي أن يصبح رأي الجميع، وأن يتناسى أصحاب الرأي المتروك رأيهم ويعملوا كل إمكاناتهم في سبيل الحق الذي يسعى من أجله الجميع. فالغاية من الشورى الوصول إلى الرأي الأفضل والأحسن وليس المقصود منها فلسفة القول. وحينما يكون المقصود رضوان الله تعالى فلا فرق بين أن يؤخذ برأي أو آخر لأن صاحب الرأي يطرحه متناسياً نفسه حريصاً على الوصول إلى الغاية.

٢ ـ القتال... والعدد:

رأينا الفارق الكبير بين المسلمين وبين عدوهم في العدد والعدة، ولا شك أن ذلك له أهميته، ولكن الجهاد في الإسلام يضع حقيقة أخرى ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار. ذلك أن عنصر الإيمان له الأهمية الكبرى

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣.

في مجال العدة ـ وإن كانت هذه المرة غير منظورة ـ وتتناسب فعالية المجاهد بمقدار إيمانه ولذا رأينا رسول الله ﷺ يذكّر أصحابه بالله ﷻ . . قبل بدء المعركة. ذلك أن هذا السلاح ينبغي أن يهيأ كما تهيأ الوسائل الأخرى.

لقد انتصر المسلمون في بدر وهم القلة، وكانت لهم الغلبة في أحد أولاً وهم القلة. . إن الذين يقاتلون ابتغاء مرضاة الله تعالى، واثقين بنصره الذي وعدهم وبجنته التي أعدت لهم، غير أولئك الذين يحادون الله ورسوله. همهم من الدنيا متاع زائل وشهوات عارضة.

وهكذا لم يكن لرجوع عبد الله بن أبي بن سلول أي تأثير على إحراز النصر وسارت الأمور طيبة، حتى حدث ما حدث. .

ولهذا أيضاً لم يقبل الرسول ﷺ الاستعانة باليهود. فقد قال الأنصار له يوم أحد: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال: (لا حاجة لنا فيهم)[1].

٣ ـ الجانب النفسي في المعركة:

إن خروج الرسول ﷺ في اليوم الثاني من المعركة إثر أبي سفيان كان له الأثر الكبير في دفع أبي سفيان عن العودة إلى المدينة بل وجعله يسرع باتجاه مكة قبل أن يُسلب مسمى النصر الذي أحرزه، كما أنه دلالة على المعنويات العالية التي كان يتمتع بها الصحابة ﷺ فعلى الرغم من جراحهم لم يتخلف منهم أحد.

ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ لم يسمح لأحد بالخروج ممن لم يكن خرج يوم أحد إلا جابر بن عبد الله الذي أبدى عذره[2]، وفي هذا ما فيه من القوة حتى لا تفسّر قوتهم الجديدة وعزمهم اللاحق أنه مستمد ممن

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٤.

(٢) وكان أمره أن أباه خلّفه على أخوات له، ابن هشام ٢/ ١٠١.

انضم إليهم، إن ذلك إن لم يصل إلى أبي سفيان.. فإنه قد أخذ أبعاده في نفس المشركين والمنافقين واليهود الذين في المدينة.. حتى لا يظنوا أن ما حدث كان نتيجة ضعف أو أنه هزيمة فعلية.

أما ما أراده أبو سفيان من التأثير على نفسية المسلمين برسالته إلى الرسول ﷺ فالملاحظ أنها لم تكن لتوهن عزيمتهم، وقد خرجوا لذلك وكان الجواب عليها قولهم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وهكذا كان لسلوك المسلمين بقيادته ﷺ الأثر البعيد في نفوس جميع أعدائه في المدينة وخارجها. بينما كانوا هم على وعي تام لما يريده أعداؤهم من التأثير النفسي عليهم.

٤ ـ مواقف إيمانية:

لا يفوتنا ونحن نتأمل هذه الغزوة أن نقف على تلك المعاني التي برزت بأسلوب أو بآخر لتعبّر عن الإيمان الكامن في القلوب، فتضع بين أيدينا حقائق الحب لله والحب لرسوله وإذا هي ملء العين وملء السمع:

• إن سعد بن الربيع رضي الله عنه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة على أرض المعركة كان يشغل فكره أمر نصرة رسول الله ﷺ وقد قدم هو كل ما يستطيع فلم ينس أن يوصي قومه بما يجب عليهم.. إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف.

• مساهمة الصغار واندفاعهم، في الوقت الذي تراجع فيه عبد الله بن أبي وجماعته، ولئن رد الرسول ﷺ بعضهم وأبقى بعضهم الآخر، فذلك لا يغير من الظاهرة شيئاً وهي ذلك الإيمان الذي يفعل الكثير الكثير.

• وفي طريق العودة مرَّ ﷺ بامرأة من بني دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ ـ بأحد ـ فلما نُعوا لها. قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان: هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[1].

---

(١) ابن هشام ٢/ ٩٩. والجلل: يكون من القليل ومن الكثير، وهو هنا من القليل، أي هينة.

• وفي مرحلة من مراحل المعركة وجد أبو دجانة أن القتال دون رسول الله ﷺ لم يعد يجدي فترس بنفسه فانحنى على رسول الله ﷺ يقع النبل في ظهره دون رسول الله حتى كثر فيه النبل[1].

• ويسمع حنظلة النداء فيعجله الخروج عن الاغتسال ـ وكان مع أهله ـ ويستشهد فتغسله الملائكة[2]. وهو ابن أبي عامر الراهب الذي سماه رسول الله الفاسق..

• وشهد المعركة أخوان من بني عبد الأشهل، فرجعا جريحين فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قال أحدهما للآخر: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ـ حمراء الأسد ـ وما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجا مع رسول الله، وكان أحدهما أيسر جرحاً، فكان إذا غلب أخوه حمله عقبة ومشى أخرى حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون[3].

• ومواقف ومواقف...

٥ ـ (أحد جبل يحبنا ونحبه)[4]:

إنه قول رسول الله ﷺ في حق أحد، والحديث كثير المعاني نتوقف عند واحد منها، إن غزوة أحد هي الأولى التي يصاب بها المسلمون. والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها... وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بياناً للحق وابتعاداً عن الطيرة والتشاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السيئة في نفس الإنسان، ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة، فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٨٢.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٧٥.
(٣) ابن هشام ٢/ ١٠١. وهما عبد الله بن سهل وأخوه رافع، كما في طبقات ابن سعد ٣/ ٤٤٦.
(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٨٩٣).

المعنى السيئ، بيّن لهم أن المكان والزمان مخلوقان لله لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما. وإنما الأمور بيد الله تعالى، والاستشهاد في سبيل الله كرامة لصاحبه لا مصيبة، وهكذا تتساوق المفاهيم في إطارها الإيماني وإذا «أحد» يكرم ويحب انطلاقاً من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في ذلك اليوم.. فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته سبحانه.

٦ ـ العبيد في جيش المشركين:

نقل ابن كثير عن ابن إسحاق قوله: فلما التقى الناس كان أول من لقيهم ـ يعني المسلمين ـ أبو عامر في الأحابيش وعبْدان أهل مكة[١]...

وهذا يعني أن عدد العبيد الذين كانوا مع قريش لا يستهان به، وقد خرجوا لتأييد الباطل ونصرة الشرك، ولا شك أن حدثين هامين وقعا في المعركة كانا من صنع هؤلاء العبيد. فمقتل حمزة رضي الله عنه كان بيد وحشي ـ العبد الحبشي ـ وكان لهذا الحدث أثره في جيش المسلمين عامة، وفي نفس رسول الله خاصة، وقد عبر عن ذلك حينما قال: (لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلي من هذا) ثم قال في عودته: (أما حمزة فلا بواكي له) ولم تذهب حدة هذا الأثر من نفس الرسول ﷺ مع مرور الأيام، وها نحن بعد فتح مكة وقد ضاقت على وحشي الأرض فهرب إلى الطائف ثم أسلم أهل الطائف.. فأشير عليه أن يسلم.. فجاء المدينة فلم يرع رسول الله إلا ووحشي قائم عند رأسه يتشهد شهادة الحق. وبعد أن طلب منه أن يقص عليه كيف قتل حمزة قال له: (غَيِّب عني وجهك فلا أرينك)[٢].

والحدث الآخر كان صاحبه صؤاب غلام حبشي لبني أبي طلحة. وذلك بعد هزيمة قريش.. والتفاف خيل خالد على المسلمين كان لواء

---

(١) البداية ١٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٧٢).

المشركين قد أخذ مقره على الأرض حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية ثم أخذه صؤاب فقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره تحته[١].

وهذا ما جعل حسان بن ثابت يقول:

فخرتم باللواء وشر فخرٍ لواء حين رد إلى صؤاب

جعلتم فخركم فيه بعبد وألأم من يطا عفر التراب

وبهذه الشواهد[٢] نستطيع أن نؤكد ما تحدثنا عنه ـ في بحث السابقين الأولين ـ من أن دعوة الإسلام لم تقم على الأرقاء والضعفاء.. فها هم أولاء يأخذون دورهم في حرب الإسلام، يساعدون الباطل ويرفعون لواءه. وإن الذين أسلموا منهم عدد ضئيل ـ كما ذكرنا ـ وإنهم التزموا بهذا الحق لصفاء سريرتهم وطيب نفوسهم ككل أولئك الذين أسلموا: وليس بعامل الطبقية أو بعامل أمل مزعوم ينتظرونه..

المدينة بعد أحد:

ونعود إلى المدينة بعد أحد وحمراء الأسد نتعرف الجو الذي كان يسودها، ونكتفي بالوقوف على الظواهر الآتية:

١ ـ ظهور النفاق:

ونعني بظهوره: علانيته ووضوحه، لا وجوده.

أما قصة وجوده فقد بدأت بعد غزوة بدر، حيث انتصر المسلمون ذلك النصر المبين، فعرف المشركون واليهود أن أمر الإسلام في تقدم، وأن أقدامه ثابتة، وأن ما كانوا يتوقعون له، أو يرغبون به من الفشل، قد تبدد مع دخول رسول الله ﷺ المدينة ومعه الأسرى، فزالت الغشاوة عن العيون، وأبصرت الواقع، ولكن القلوب السوداء لا تريد أن تتعرف الحق وتسير معه على الرغم من نصاعته، فآثرت أن تبقى في ظلامها مخفية إياه تحت التظاهر بالإسلام.

---

(١) ابن هشام ٢/٧٨.

(٢) الشواهد: أبو عامر يقود العبيد، وقتل وحشي حمزة، ورفع صؤاب اللواء.

جاء في حديث أسامة بن زيد «.. فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله فيها من قتل من صناديد كفار قريش، وقفل رسول الله ﷺ وأصحابه منصورين غانمين، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادة قريش، قال ابن أُبي بن سلول ومن معه من المشركين، عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه. فبايَعوا لرسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا»[1].

وهكذا أعلن كثير من المشركين - من الأوس والخزرج - ومن اليهود إسلامهم وصانَعُوا المسلمين، وهم في الباطن على ما هم عليه من الشرك والكفر، فأصبحت هذه الطائفة هي ما يسمى بالمنافقين. ومن أبرز رجالها: عبد الله بن أُبي بن سلول، الذي كان قبل قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة، سيد أهلها، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره، فلما جاء الإسلام انصرف قومه عنه إلى الإسلام، ورأى أن رسول الله ﷺ استلبه ملكه، فلما رأى أن مكانته سوف تذهب إن استمر على كفره، أظهر الإسلام وبقي مصراً على كفره[2].

وحفاظاً منه على هذه المكانة، كان إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة ليخطب الناس، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، فما كان ينكر قوله أحد، وذلك لشرفه في نفسه وفي قومه، وكان بهذه المقالة يرى أنه يحافظ على ذلك في قومه.

فلما كان يوم الجمعة بعد أحد قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت. فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجراً. فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب عليَّ رجال من

(١) متفق عليه (خ٤٥٦٦، م١٧٩٨). (٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٤.

أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره. قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي[1].

على أن سلوك النفاق لئن كان جلياً في يوم أحد حين رجع عبد الله بن أُبي فيمن رجع، فقد كان واضحاً يوم شفاعته بيهود بني قينقاع والرسول ﷺ ما يريد ذلك.

وهكذا تتضح صورة هؤلاء الناس في أفكار المسلمين، وبدوا معروفين يشهد عليهم سلوكهم وتصرفاتهم التي تناولها القرآن الكريم ففضحهم من خلالها وأظهر خفايا نفوسهم.

إن شماتة هؤلاء وفرحهم بما أصاب المسلمين لم يكن ليخفيهما التظاهر المتصنع. وما تقوله أفواههم غير ما تخفيه قلوبهم. وهكذا تنزل آيات آل عمران مبينة حالهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[2] ولا شك أن الرسول ﷺ تأثر وحزن لهذا الفريق الذي أسلم بالأمس القريب. وهو يراه قد ارتكس في الكفر مرة ثانية بسلوكه، وإن كان في ظاهره معلناً إسلامه، فاتجهت الآيات إليه بالتسلية: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾[3].

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٠٥، وتفسير ابن كثير في سورة المنافقون. ومعنى قلت بجراً: أي أمراً عظيماً.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٦٦ - ١٦٨.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٧٦، ١٧٧.

وبهذا تحل فئة المنافقين في المجتمع المدني بدلاً من فئة المشركين التي أخذت بالتلاشي بين منضو تحت راية الإيمان أو سائر في ركاب عبد الله بن أُبي. ولكن النفاق أشد خطراً من الكفر، فهو معول تهديم من الداخل بينما الكفر عدو ظاهر واضح العداوة، ولعل هذا ما يجعلنا نتأمل أكثر فأكثر الآيات الأولى من سورة البقرة التي تحدثت بعد آية ﴿الٓمٓ ①﴾ عن صفات المؤمنين في أربع آيات ثم تحدثت عن الكافرين في آيتين ثم تحدثت في ثلاث عشرة آية عن سمات المنافقين وما ذاك إلا لخطرهم وبيان أمرهم حتى يحذرهم المؤمنون.

وسنلاحظ أن إيمان المؤمنين كان أعظم من أن تؤثر عليه أراجيف المنافقين، وكان وعيهم أكبر مما يكيد لهم المنافقون ومن يؤازرهم.

٢ ـ اليهود:

كانت غزوة أحد ولما يمض وقت طويل على إخراج يهود قينقاع من المدينة. وقد كانت نفوس اليهود الباقين في المدينة عامرة بالحقد على الرسول ﷺ فكان ما حدث في أحد فرصة استغلها اليهود لتضخيم انتصار قريش، وإظهار المسلمين بمظهر الضعف والوهن. وقالوا[1]: ما محمد إلا طالب مُلك، ما أصيب هكذا نبي قط في بدنه وفي أصحابه..

وهكذا بَدَؤُوا يتطاولون ويتعاونون مع المنافقين ـ وكلاً من الفريقين مكمل للآخر ـ وتناسوا العهد الذي كتبه رسول الله ﷺ بينه وبينهم.

٣ ـ المعركة الإعلامية:

كان الإعلام ـ يومئذٍ ـ يقوم على الشعر، ومرت غزوة بدر دون كبير ضجيج من قريش، وما قيل من الشعر كان رثاء للقتلىٰ وتوعداً بأخذ الثأر، ومن الغريب أن ضرار بن الخطاب ـ وهو مشرك يومئذٍ ـ حاول أن يفخر ببدر على اعتبار أن النصر كان لرسول الله ﷺ والمهاجرين وليس للأنصار وذلك في قوله:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما ... بأحمدَ أمسى جدُّكم وهو ظاهر

(١) شرح الزرقاني ٢/٥٧.

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه ... يحامون في اللأواء[1] والموت حاضر
يُعدُّ أبو بكر وحمزة فيهم ... ويُدْعى عليٌّ وسْط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان منهم ... وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر
أولئك لا من نتَّجت في ديارها ... بنو الأوس والنجار حين تُفاخر

وهكذا يحولها لغة قبلية تقوم على لغة الجاهلية، ولقد أجابه كعب بن مالك فكان مما قال:

وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ... يميسون[2] في المأذى[3] والنقع[4] ثائر

إلى أن قال:

وكان رسول الله قد قال: أقبلوا ... فولّوا وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حمَّه[5] الله زاجر

كما أجابه بقوله:

وبيوم بدر إذ نرد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

وهو أفخر بيت قالته العرب، كما قال صاحب العقد الفريد.

كان شعر قريش في موقف الدفاع والرثاء.. ولا شك أن بدراً ذهبت بكبرياء قريش ومكانتها الدينية. وهي اليوم في أحد وإن كان ما حصلت عليه هو مسمى النصر تحاول أن تضخم هذا النصر فتجعل ـ كما يقال ـ من الحبة قبة استعادة لكبرياء محطمة، فذهب شعراؤها يحاولون بقصائدهم إعادة البناء وفي مقدمتهم: هبيرة بن أبي وهب وعبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاصي.. حتى إن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أسهمت في ذلك بعد المعركة مما دفع عمر بن الخطاب أن يقول لحسان لو سمعت ما تقول هند ورأيت أشرها قائمةً على صخرة

---

(١) اللأواء: الشدة.
(٢) يميسون: هو التبختر والاختيال.
(٣) أي الدروع اللينة.
(٤) النقع: الغبار.
(٥) حمه: أي قدره.

ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة. فقال حسان: أسمعني بعض قولها أكفيكموها، فأنشده عمر بعض ما قالت فقال حسان:

أشرت لكاع وكان عادتها لؤمٌ إذا أشرت مع الكفر

قال ابن هشام وهذا البيت في أبيات له تركناها لأنه أقذع فيها[١]..

إن هذه المعركة التي بدأها شعراء الكفر، ما كان لشعراء الإسلام أن يسكتوا عليها فانبرى لها حسان بن ثابت وكعب بن مالك وأسهم فيها عبد الله بن رواحة، ويبدو أن الرسول ﷺ كان يستمع إلى هؤلاء الشعراء ويصغي إليهم فهم اللسان الذي يدافع عن الحق باللغة التي يفهمها أولئك الناس بل رأيناه يستبدل كلمة بأخرى في بيت لكعب بن مالك وهو قوله:

مجالدنا عن ديننا كل فخمةٍ مدرَّبة فيها القوانِسُ تلمع[٢]

وكانت مجالدنا عن جذمنا كل فخمة، فقال ﷺ: (أيصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا) فقال كعب: نعم فقال ﷺ: (فهو أحسن)[٣].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمامه ﷺ بالكلمة التي تدافع عن الحق وتساعد على إظهار زيف الباطل.

ويلفت النظر ذلك التصحيح من رسول الله ﷺ، إنه ليس مجرد استبدال كلمة بأخرى وإنما هو تغيير في المنهج كله.. كان الناس يدافعون عن القبيلة... وجاء الإسلام ليحدد أهداف القتال فهي دفاع عن العقيدة والدين.. أما الأَصْلُ فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب.. إنه درس للشعراء ولحملة الكلمة أن يكون تعبيرهم ذو ارتباط وثيق بعقيدتهم وأنه ما ينبغي للمسلم أن يستعمل الكلمة الجاهلية.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٩٢. ولكاع: هي اللئيمة.

(٢) مجالدنا: مدافعنا، الفخمة: الكتيبة العظيمة، مدربة: التي تعودت القتال، والقوانس رؤوس بيض السلاح.

(٣) ابن هشام ٢/ ١٣٦ والجذم: الأصل.

ما بعد أحد

الطمع بالمدينة

إن ما أضفته قريش على أحد، وما نشرت حوله، جعل الكثير من مشركي العرب في أنحاء الجزيرة يطمعون بالمدينة، وخاصة بعد سماعهم ـ كما زعمت قريش ـ هزيمة المسلمين. فتتابعت الأحداث ساخنة عنيفة، وكان على رسول الله ﷺ أن يستوعب كل ما حوله من تلك الأحداث فيتصرف تصرف الحكيم ـ الذي عرف به ـ فيضع الأمور مواضعها.

ومع ذلك الضعف الذي توهمه أولئك المشركون. فقد كانوا في قرارة نفوسهم يرون أنهم أمام قوة متعاظمة، وأنها قوة لا يستهان بها، ولعل خير ما بيّن لنا ذلك على مسرح الأحداث هو عامر بن الطفيل[1].

وعامر بن الطفيل هذا زعيم الشرك ورأسه في بني عامر، وقد سمع أحداث بدر وأحد ورأى كيف تعاظم أمر رسول الله ﷺ وتوقع له النجاح والفوز، فوفد على رسول الله ﷺ بعد أحد[2] فقال: اختر مني ثلاث خصال: يكون لك أهل السهل ويكون لي أهل الوبر، أو أكون خليفة من بعدك أو أغزوك بغطفان[3] بألف أشقر وألف

---

(١) هو عامر بن الطفيل العامري وقد مات كافراً وهو غير عامر بن الطفيل الأسلمي الذي كان صحابياً.

(٢) نتوقع أن مجيئه كان بعد أحد، لأنه لم يكن ليجرؤ على ذلك بعد بدر حيث كان أنف المشركين في مكة ممرغاً في الرغام. ونقول بعد أحد لرواية أحمد في المسند لدى الحديث عن بئر معونة: (وكان عامر بن الطفيل أتى النبي..) الفتح الرباني ٢١/ ٦٣ (ح٢٦٦).

(٣) أي بأهل غطفان.

شقراء[1].

وهكذا عرض عامر رأيه فهو قانع بظهور الرسول ﷺ فإما أن يقاسمه الأرض ـ الجزيرة ـ فيحكم كل منهما جانباً، أو يكون الخليفة من بعده، أو يقاتله.

وإزاء هذا الهراء الذي لا ينم عن أي فهم لمهمة الرسول ﷺ سوى أنها ـ كما يراها عامر ـ مظهر للحكم والتسلط، ما كان من الرسول ﷺ إلا الالتجاء إلى الدعاء فقال: اللهم اكفني عامراً[2].

❁ ❁ ❁

وكانت أحد في منتصف شوال من السنة الثالثة.. وما إن انتهى موسم الحج ذلك العام حتى بلغت الأخبار رسول الله ﷺ أن طلحة بن خويلد الأسدي وأخاه سلمة قد جمعا حلفاء من بني أسد ليقصدوا حرب الرسول ﷺ.

وفي مستهل شهر محرم عقد الرسول ﷺ لواء لأبي سلمة، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وقال: (سر حتى تأتي أرض بني أسد فأغر عليهم)، وأوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً.

وسار أبو سلمة حتى أتى أدنى قطن ـ وهو ماء لبني أسد ـ حيث جمع طلحة جموعه فلما انتهى إلى أرضهم تفرقوا وتركوا نعماً كثيراً، فأخذ ذلك كله وأسر منهم ثلاثة مماليك وعاد راجعاً إلى المدينة. وكان غيابه بضع عشرة ليلة[3].

❁ ❁ ❁

وفي الخامس من هذا الشهر بلغه ﷺ أن خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهذلي قد جمع له الجموع. فدعا عبد الله بن أنيس وقال: (إنه

---

(١) أي بألفين من الخيل. والحديث في جامع الأصول رقم ٦٠٨٧.

(٢) مات بالطاعون كافراً بعد برهة من الزمن.

(٣) البداية ٤/ ٦١.

قد بلغني أن ابن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بنخلة أو بعرفة، فائته فاقتله). وانطلق عبد الله حتى انتهى إليه. فقال: من الرجل؟ قال عبد الله: قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاء لذلك. قال: أجل إني لفي ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف فقتلته ثم خرجت...[1].

❁ ❁ ❁

اتسعت رقعة العداء للرسول ﷺ وبدأ الشرك - والكفر كله ملة واحدة - يؤازر أهله بعضهم بعضاً. ولم تعد قريش وحدها في ميدان المعركة. بل أصبح لها من يناصرها ويعاضدها.

إن سرعة اتخاذ القرار التي سلكها الرسول الكريم ﷺ إزاء ما كان يهيأ له، فوتت على المشركين ما فكروا فيه، فبنو أسد وهم يهيئون أنفسهم لم يشعروا إلا وخيل رسول الله ﷺ قد دهمتهم، وكان القضاء على خالد بن سفيان قضاء على سبب الجريمة والمخطط لها.

على أن الشرك الذي لم يستطع حتى الآن أن ينال من رسول الله ﷺ ومن المسلمين بالمواجهة الصريحة، قد ابتكر أساليب جديدة تعتمد على المكر والغدر وخفر الذمة، وهذا ما نلاحظه في يومي الرجيع وبئر معونة وغيرهما مما تتابع من أحداث:

يوم الرجيع

في أواخر السنة الثالثة من الهجرة قدم وفد على رسول الله ﷺ من عضل والقارة. فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن. فبعث رسول الله ﷺ ستة من أصحابه هم: عاصم بن ثابت ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير

---

(١) ابن هشام ٢/٦١٩، زاد المعاد ٣/٢٤٣، الزرقاني ٢/٦٣.

وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق. وأمّر عليهم عاصم بن ثابت ـ كما في الصحيح[1].

وخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع ـ ماء لهذيل بناحية الحجاز ـ غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً. فلم يَرُعِ القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف. فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم. فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما عاصم وخالد ومرثد فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً، ثم قاتلوا حتى قتلوا، وأسر الباقون.

وحاولت هذيل أخذ رأس عاصم ليبيعوه من سلافة بنت سعد التي نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد لئن قدرت على رأسه لتشربن في قحفة الخمر. وكانت قد جعلت لذلك ثمناً مائة من الإبل[2] فمنعه الله بالدّبر وكان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك.

وانطلقوا بالأسرى حتى إذا كانوا بالظهران ـ واد قرب مكة ـ انتزع عبد الله بن طارق يده من القران[3] ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه. وقدموا بزيد وخبيب إلى مكة فباعوهما من قريش.

وانتظرت قريش حتى إذا انقضت الأشهر الحرم خرجوا بهما من الحرم إلى التنعيم، واجتمع لذلك رهط من قريش، فلما قدم زيد ليقتل قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٠٨٦ وذكر أن عددهم عشرة ولم يذكر أسماءهم.

(٢) شرح الزرقاني ٢/ ٧٣.

(٣) القران: القيد.

محمد محمداً. ثم قتله نسطاس مولى صفوان بن أمية.

وأما خبيب فقد أجمعوا على صلبه، فقال لهم: دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه فصلاهما. ثم قال: والله لولا أن تقولوا أن ما بي جزع لزدت ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً. ثم قال أبيات منها:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

فلما رفع إلى الخشبة وأوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا. ثم قتلوه رحمه الله.

وكان ذلك في أول صفر من السنة الرابعة بعد انقضاء الأشهر الحرم.

وقفة تأمل:

إن هذه الحادثة بمقدار ما تحمل من معاني الغدر واللؤم كما قال حسان:

إن سرك الغدر صرفاً لا مزاج له فأت الرجيع فسل عن دار لحيان(١)

بمقدار ما تحمل من معاني الإيمان والتمسك بالعقيدة والموت في سبيلها إضافة إلى الوفاء لتعاليم العقيدة.. ونحاول بإيجاز أن نثبت بعض ذلك:

• إن غزوة أحد لم تشف ما في صدور قريش من آثار بدر، بل إنها أضافت إليها جراحاً جديدة. وما نذر سلافة إلا التعبير عن ذلك. ولا شك أن الكثير من العرب كان يعلم ذلك. وهذا سبب من أسباب الغدر الذي حصل بغية الكسب المادي والتقرب من قريش.

• كان بود هذيل أن تقوم بما قامت به عضل والقارة، وهي التي

---

(١) لحيان: هذيل بن مدركة.

حرضتهما على ذلك. ولكن الذي منعها أن خديعة رسول الله ﷺ ليست بالأمر الهين ولو ذهب وفد منها لتنبه ﷺ للغدر المبيت. ذلك أنها كانت على وشك أن تغزوه بقيادة خالد بن سفيان الذي قضى عليه ﷺ قبل أن يتم مشروعه. ولذا دفعت غيرها ثم ساعدت على ذلك كما رأينا.

• ومن المضحكات ذلك التمسك بالقيم الذي التزمت به قريش.. فهي لم تقتل زيداً وخبيباً في أرض الحرم، بل خرجت بهما إلى الحل. كما أنها انتظرت بهما حتى مضت الأشهر الحرم. أما الغدر الذي ارتكبته، وأما البعد عن المفاهيم التي كان يهتم بها كل ذي رجولة، فكل هذا وضع جانباً. إن عمرو بن ود نزل عن فرسه ليبارز علياً ولم ير من الرجولة أن يقاتله وهو عليها بينما كان علي راجلاً على قدميه[1]. أما قريش فقد قبلت على نفسها أن تقتل هذين وهما خلو من كل شيء إلا إيمانهما.

• إن زيداً وخبيباً وقد استأسرا، لم يكونا يظنان تلك العاقبة. ذلك أنه كان لقريش أسرى عند رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وأذن لهم أن يفتدوا أسراهم، وكان أكبر الظن عند الشهيدين أن قريشاً ستغالي في طلب الفداء ولا شك بأن المسلمين سيرخصون ما غلا في فدائهما. وهذا هو العرف القائم ولكن قريشاً خرجت على الأعراف والقيم.

على أن موقفهما لا يقل عن موقف أصحابهما بطولة وشرفاً وقوة، ولقد كان لذلك الموقف أثره في نفوس من حضره حتى إن طاغية القوم أبا سفيان ألقى بنفسه وبابنه معاوية إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب، لأنهم كانوا يقولون إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه[2].

• جاء في صحيح البخاري أن خبيباً كان في مكان أسره حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته،

---

(١) كان ذلك في غزوة الخندق كما سنرى ذلك.

(٢) ابن هشام ٢/ ١٧٣.

قالت: فغفلت عن صبي لي، تدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه فلما رأيتُه فزعت منه فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله[1].

إنه ولد لأولئك الذين سجنوه وأعدوا لقتله، ولو قتله لكان لفعله ما يبرره ولكنه درس في الالتزام بالمنهج فما كان للصبي من جريرة يؤخذ بها.. إنه الوفاء يتعلمه الناس ممن غُدِرَ بهم، إن الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرخاء والشدة.

- ونزل جبريل عليه السلام ليبلغ رسول الله ﷺ ما أصاب القوم، كما سنرى عند الحديث على بئر معونة...

خبر بئر معونة

قدم أبو براء عامر بن مالك على رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام. وقال يا محمد: لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: (إني أخشى عليهم أهل نجد)، فقال أبو براء: أنا لهم جار.

وبعث ﷺ المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من خيار المسلمين - كانوا يسمون القراء - فساروا حتى نزلوا ببئر معونة - وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم - وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه وعدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم، عُصيّة ورِعل وذكوان. فأجابوه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٥) وفيه قولها: والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيباً.

فخرجوا حتى أحاطوا بالقوم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم.

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد بن عقبة فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر. فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة وقاتل المنذر حتى قتل وأسر عمرو بن أمية. فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

ورجع عمرو إلى المدينة وفي طريقه إليها التقى برجلين من بني عامر فقتلهما ـ وهو يرى أنه أصاب ثأراً من بني عامر ـ ولم يكن يعلم بالعقد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فلما قدم وأخبره قال: (قتلت قتيلين لأدِينَهَّما).

وبلغ جبريل عليه السلام الرسول ﷺ خبرهم ودعا رسول الله ﷺ على رعل ولحيان وعصية شهراً، وذكر لحيان في الدعاء وهم من أصحاب يوم الرجيع لأن خبرهم جاء في يوم واحد مع الذين أصيبوا في بئر معونة[1].

كان ذلك في شهر صفر من السنة الرابعة. وذكر يوم بئر معونة بعد يوم الرجيع في بعض كتب السيرة يوهم أن حادثة القراء في يوم بئر معونة إنما تمت بعد وصول خبر أصحاب الرجيع إلى الرسول ﷺ، ثم أرسل سبعين من أصحابه.. وليس الأمر كذلك فإرسال الرجال في كلا الحادثتين وقع متتابعاً ووصول خبرهما كان في وقت واحد. وما كان رسول الله، ليخدع في المرة الثانية لو بلغه الأمر عن أصحابه الأوائل. وعلى هذا فلا حاجة لما فعله بعض الكتاب من التبرير لذلك والتماس الأعذار[2].

---

(١) حاشية الزرقاني ٢/ ٧٩.

(٢) كما فعل مؤلف كتاب «خاتم النبيين» رحمه الله ص٨٨٨.

إجلاء بني النضير

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه إلى يهود بني النضير ـ وكانت حصونهم على ميلين من المدينة ـ يستعينهم في دية الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري حينما رجع من بئر معونة، فلما أتاهم قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي عليه صخرة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ وأخبره بما أراد القوم فقام ﷺ مظهراً أنه يقضي حاجته وترك أصحابه، ورجع إلى المدينة مسرعاً.

فلمّا استبطأه أصحابه قال لهم حيي: لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته ونقريه. وخرج الصحابة في طلبه ﷺ فعلموا بعد ذلك خبر ما أرادت يهود من الغدر.

وأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. وبعث عبد الله بن أبي بن سلول إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم.

وحاصرهم ﷺ أياماً، وقد تحصنوا في حصونهم، ينتظرون ما وعدهم ابن أبيّ من النصرة، وأمر ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، إرهاباً لهم، فلما لم يروا مؤازرة من أحد.. سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح... ففعل. وحملوا أموالهم وكان الرجل منهم يهدم بيته ليأخذ ما حسن من خشبه أو أبوابه فخرج بعضهم إلى خيبر وسار بعضهم إلى الشام. وكان ذلك في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة.

ونزلت في بني النضير سورة الحشر بأسرها.

إن حادثة بني النضير تضع أيدينا على أمور هامة:

١ ـ إن الغدر من صفات اليهود، وحينما يغيب ذلك عنهم فلعدم تمكنهم مما يريدون، أو انتظاراً للفرصة المناسبة، وهم لا يعرفون الوفاء بالعهود إلا ما دامت في مصلحتهم.

وهكذا تتابعت أعمال الغدر في هذه المرحلة من الزمن من المشركين ومن اليهود.

٢ ـ ولا بد للنفاق أن يدلي بدلوه في كل مناسبة، علّه يستطيع النيل من قوة المسلمين، ولكن الله خيب آمالهم وفضحهم فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[١]. وقد حزن المنافقون لما حل بإخوانهم من اليهود، ذلك أن خروجهم ضعف للقوة المنافسة للرسول ﷺ.

٣ ـ إن خروج رسول الله ﷺ ـ حينما بلغه جبريل غدر اليهود ـ متظاهراً قضاء حاجته، عمل في غاية الحكمة، فهو لا يريد إشعار اليهود بعلمه بما هموا به لأنهم ربما تداركوا أمرهم عليه وعلى أصحابه وهم قلة بعيدون عن المدينة. . . كما لم يعلم أصحابه لنفس السبب فانتظر الفريقان عودته. . ولم يكن اليهود ليغدروا بأصحابه فذلك لا يجديهم شيئاً.

٤ ـ قطع النخيل وحرقه كان ضرورة لإعلام اليهود الذين ينتظرون نصرة المنافقين واليهود الآخرين. . . أنه لن ينصرهم أحد وكان ذلك وسيلة من وسائل قذف الرعب في قلوبهم.

٥ ـ لما غنم ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس فقال: (ادع لي قومك) قال ثابت: الخزرج فقال ﷺ: (الأنصار كلها). فدعا له الأوس والخزرج، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم ذكر الأنصار وما صنعوا

---

(١) سورة الحشر: الآية ١١.

بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: (إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم). فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ يا رسول الله: بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال ﷺ: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار)[1].

وقسّم ﷺ الأموال والدور بين المهاجرتين خاصة، ولم يعط من الأنصار أحداً سوى رجلين هما: أبو دجانة وسهيل بن حنيف لحاجتهما.

وهكذا يتم توزيع الأموال حسب الحاجة، وضمن إطار الضرورة على أن هذا التوزيع كانت إحدى غاياته هي التخفيف عن الأنصار بعض عبء مؤونة المهاجرين.

وما كان الأنصار الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ بحاجة إلى إيضاح حكمة ذلك التوزيع، لعلمهم بأن أموال بني النضير كانت فيئاً، فكانت له ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، ولكنه الهدي النبوي الكريم في سياسة الأمور.

غزوة بدر الآخرة

وهي بدر الموعد التي تواعدوا إليها في أحد ـ كما سبق ذكره ـ بناء على طلب أبي سفيان.

وكان أبو سفيان كارهاً لهذا الخروج وحاول تثبيط المسلمين عن الخروج فأرسل نعيم بن مسعود الأشجعي وجعل له عشرين بعيراً على أن يخذل المسلمين فقدم المدينة وأرجف بكثرة العدو، وأدلى المنافقون بدلوهم، مما كان له بعض التأثير على بعض النفوس حتى قال ﷺ:

---

(١) شرح الزرقاني ٢/٨٦.

(والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد). فأذهب الله عن المسلمين ما كان بهم وخرج رسول الله ﷺ إلى بدر بألف وخمسمائة من أصحابه.

وخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان فلما كان في بعض الطريق وقد علم فشل خطته في تخذيل المسلمين عن الخروج قال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا.. فرجع الناس فسماهم أهل مكة: جيش السويق[1].

وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام التقى خلالها بمخشي بن عمرو الضمري وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان. فقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: (نعم، يا أخا بني ضمرة. وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك)، قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وهذه الغزوة وإن لم يجر فيها قتال فقد كان لها الأثر الكبير، فقد تسامع الناس بخروج الرسول ﷺ وإقامته ببدر وتخاذل أبي سفيان وقد أحست قريش بهزيمتها النفسية فقال صفوان لأبي سفيان: والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترؤوا علينا ورأونا قد أخلفناهم. وهكذا جعل بعضهم يلوم بعضاً.

ولم يكن هذا قاصراً على قريش، ففي اللقاء الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين مخشي بن عمرو الضمري التأكيد الكبير لمعنى القوة التي كان يتمتع بها المسلمون وأن العقد الذي كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا بعامل ضعفهم وبناء على طلب الطرف الثاني وفي هذا ما فيه من القوة للمسلمين وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم.

---

(١) السويق: شراب يصنع من القمح أو الشعير.

وقد تناقل الناس قوة المسلمين وذلك أن بدراً كانت موضع سوق من أسواق العرب في الجاهلية وكان تواجد المسلمين فيها خلال الموسم مما هيأ لهم وسيلة إعلام تنشر لهم وضعهم وتنقل للناس ما حدث.

غزوة دومة الجندل(١)

بلغه ﷺ أن جمعاً كثيراً بها يريدون أن يدنوا من المدينة. وأنهم يظلمون من مر بهم فخرج إليهم في ألف من المسلمين ومعه دليل من بني عذرة، فلما وصلهم خبر قدومه تفرقوا ونزل ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحداً فأقام بها أياماً وبث سراياه، فلم يصب منهم أحداً فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة. وكانت هذه الغزوة في ربيع الأول سنة خمس للهجرة.

---

(١) بلدة بينها وبني دمشق خمس ليال. وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة، وهي قرب تبوك.

غزوة الخندق[1]

أسباب الغزوة:

إن يهود بني النضير الذين أجلوا عن المدينة وذهبوا إلى خيبر، لم يستقروا بها حتى انطلق جماعة من زعمائهم يحرضون الناس ويجمعونهم على حرب رسول الله ﷺ. فسار حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم، حتى قدموا على قريش في مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

وقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ الآيات[2].

وسرَّت قريش لهذا الجواب، ونشطها ذلك لما دعيت إليه من حرب الرسول ﷺ، فاجتمعت على ذلك واتّعدوا مع اليهود له. على أن قريشاً كان لديها من الأسباب الأخرى ما يدعوها ويحثها على الخروج لمثل هذه الحرب، فهي تريد رد اعتبارها بين القبائل بعد أن أخلفت الموعد

---

(١) وكانت في شوال سنة خمس للهجرة.

(٢) سورة النساء: الآية ٥١ ـ ٥٢.

مع رسول الله ﷺ في بدر الآخرة، وكان ذلك بمثابة هزيمة لها. كما إن تجارتها باتت متوقفة مع بلاد الشام حيث لم يعد الطريق آمناً طالما يسيطر عليه المسلمون، وقد قال لهم حسان بن ثابت من قبل[1]:

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقاً وأيدي الملائكِ
إذا سلكت للغور من بطن عالجٍ ... فقولا لها ليس الطريق هنالكِ

وسبب آخر هو أن مكانتها الدينية ما زال الخطر يتعاظم أمامها مع تعاظم الدعوة إلى الله وانتشارها. ولهذا كله لم تكن قريش بحاجة إلى الإلحاح عليها في الدعوة، وها هي ما إن دعيت حتى أجابت.

وتابع وفد بني النضير طريقه إلى غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

ولما لم يكن من الدوافع لقتال الرسول ﷺ لدى غطفان مثل ما لدى قريش فقد أغراهم اليهود بنصف تمر خيبر إن أجابوهم لذلك[2]، ويبدو أن تمر خيبر آتى ثماره فسارعت غطفان للمشاركة.

فخرجت قريش: وقائدها أبو سفيان بن حرب.

وخرجت غطفان: وقائدها عيينة بن حصن الفزاري، في بني فزارة، والحارث بن عوف المري، في بني مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع.

وخرج طليحة بن خويلد الأسدي فيمن أطاعه من بني أسد.

وشارك في ذلك بنو سليم...

فكانوا جمعاً عظيماً وهم الذين سماهم الله: الأحزاب.

---

(١) قال: ذلك بعد أحد في غزوة بدر الآخرة. انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠.

(٢) شرح الزرقاني ٢/١٠٣.

حفر الخندق:

وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فاستشار أصحابه، فأشار سلمان الفارسي[1]، بحفر الخندق فقال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا. واستحسن ﷺ الفكرة فأمر بحفر الخندق.

وكان لا بد من توزيع العمل فحدد ﷺ لكل عشرة من المسلمين مسافة معينة يحفرونها، وكان ﷺ يباشر بنفسه الحفر ونقل التراب حتى وارى التراب جلدة بطنه الشريف.

وقد شارك في الحفر جميع المسلمين من المهاجرين والأنصار، وكيف لا يعملون بجد ودأب وهم يرون رسول الله ﷺ على رأسهم يشاركهم العمل مثله مثل أي واحد منهم. وكانوا يرتجزون أثناء العمل ومن قولهم:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

ومنه:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا   إذا أرادوا فتنة أبينا

وتخاذل المنافقون عن العمل، فكان الواحد منهم ينسل خفية بغير علم الرسول ﷺ ولا إذنه. وتخلف بعضهم معتذرين بالضعف.

إن الخندق الذي يحفره المسلمون ليس ساقية ماء وإنما هو في العمق بحيث لا يستطيع من وقع فيه أن يخرج منه، وفي العرض بحيث لا يستطيع الفارس اقتحامه، ولذا فقد استغرق العمل فيه وقتاً غير يسير[2]

---

(١) كانت غزوة الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر. الكامل ٢/ ١٢٢.

(٢) اختلف في المدة التي استغرقها الحفر ففي رواية الواقدي أربعاً وعشرين ليلة. =

صبر فيه المسلمون على التعب والمشقة، كما صبروا على الجوع، وكان عليهم مع هذا أن ينجزوا العمل قبل مجيء المشركين.

ويتضح من الروايات التي نقلت جانباً من حديث الخندق أن الناس كانوا - وقتئذ - في مجاعة وشدة وضيق مادي.

مرت أخت النعمان بن بشير برسول الله ﷺ فقال: (تعالي يا بنية، ما هذا معك؟) قالت: هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه. قال: (هاتيه)، فصبته في كفي رسول الله ﷺ، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه ثم قال لإنسان عنده: (اصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء)، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدروا عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب[1].

وهذا الخبر يوضح لنا ما كان القوم فيه من شدة كما ينقل لنا معجزة من معجزاته ﷺ. ولعل في حديث جابر الذي رواه البخاري وغيره ما يبين لنا بأوضح من هذا مدى ما كانوا فيه في شدة.

قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة[2] فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقال: (أنا نازل) ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب، فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[3]، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق[4]، فذبحتُ

= وفي الروضة للنووي خمسة عشر يوماً وعند ابن سعد ستة أيام انظر الزرقاني ٢/ ١١٠.

(١) ابن هشام ٢/ ٢١٨.

(٢) كدية: هي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض.

(٣) أي رملاً سائلاً لا يتماسك. (٤) هي الأنثى من المعز.

العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ، والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[1] قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: (كم هو؟) فذكرت له، فقال: (كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي)، فقال: (قوموا) فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: (ادخلوا ولا تضاغطوا)[2]، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية قال: (كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة)[3].

وفي حديث جابر رضي الله عنه البيان الواضح.. فكانت تمضي الأيام الثلاثة لا يذوقون فيها ذواقا... وفي نهاية الحديث قوله ﷺ... فإن الناس أصابتهم مجاعة.. إنه بيان لما كان عليه المسلمون أثناء حفر الخندق، وقد تغلب المسلمون على جوعهم بصبرهم وبتأسيهم برسول الله ﷺ. وكان عليهم أن يتغلبوا على أمر آخر وهو كلمات المنافقين التي كانوا يثبطون به الهمم.. وكان مما قالوه: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم.

إن رصيد الإيمان كان العدة الأولى التي تسلح بها المسلمون إزاء كل تلك العقبات مادية كانت أو معنوية فلم يكن هذا أو ذاك ليفت من عضدهم والرسول ﷺ معهم يتحمل ما يتحملون بل وأكثر مما يتحملون.

الوضع الدفاعي في المدينة:

تمَّ حفر الخندق، وقد امتد من طرف الحرة الشرقية، إلى طرف

---

(١) البرمة: القدر، والأثافي: الأحجار التي يوضع عليها القدر.

(٢) لا تضاغطوا: أي لا تزدحموا. (٣) أخرجه البخاري برقم (٤١٠١).

الحرة الغربية، ومن خلفه جبل سلع. قال ابن سعد: فكان المهاجرون يحفرون من ناحية راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل بني عبيد، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان فهي كالحصن. وخندقت بنو عبد الأشهل عليها، مما يلي راتج إلى خلفها حتى جاء الخندق من وراء المسجد، وخندقت بنو دينار من عند جُرْبا إلى موضع دار ابن أُبي الجنوب اليوم[1].

ونقل التراب إلى الخلف وأتي بالحجارة ـ التي كانت من أعظم سلاحهم يرمون بها المشركين ـ من جبل سلع، وكانوا يجعلون التراب مما يلي النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا يسطرون الحجارة مما يليهم كأنها جبال التمر[2].

وهكذا استوعب الخندق الأمكنة التي يمكن للمشركين الدخول منها، إلى المدينة[3].

حصن بني قريظة:

لم يحفر المسلمون خندقا تجاه حصن بني قريظة، وكان نقطة بين معسكر المسلمين على الخندق وبين العوالي من المدينة.

لهذا كان رسول الله ﷺ حينما يستأذنه أهل العوالي في الذهاب إلى بيوتهم للاطمئنان على أهليهم يقول لهم: إني أخاف عليكم بني قريظة، فإذا ألحوا في كثرة ما يستأذنونه يقول: من ذهب منكم فليأخذ سلاحه

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٦ والمغازي للواقدي ٢/ ٤٥٠.

(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٦.

(٣) جاء في معجم المعالم الجغرافية للسيرة النبوية: «ولما كانت المدينة المنورة محاطة بالحرار [جمع حرة] من ثلاث جهات، فإن الجهة الوحيدة التي تصلح أن يحشد فيها المشركون هي الجهة الشمالية الغربية، بين سلع وأسفل حرة الوبرة، والجهة الشمالية الشرقية بين سلع أيضاً وحرة واقم فحفر الخندق بين الحرتين مطيفا بجبل سلع من ورائه» ص١١٤.

فإني لا آمن بني قريظة: هم على طريقكم وكان كل من يذهب منهم إنما يسلكون على سلع حتى يدخلوا المدينة ثم يذهبون إلى العالية[١].

ولعل السبب الذي ألجأ المسلمين إلى الاطمئنان إلى العهد الذي كان بينهم وبين بني قريظة، هو ضيق الوقت، الذي لم يتح لهم إكمال خطتهم الدفاعية، فكان الركون إلى المعاهدة أمراً لا بد منه.

كان الوقت غاية في الضيق، فها هما أبو بكر وعمر ينقلان التراب في ثيابهما يومئذٍ من العجلة إذ لم يجدا مكاتِل لعجلة المسلمين[٢].

وها هم المسلمون يتمون حفر جزء من الخندق ليلاً بعد وصول المشركين فقد انتهت خيل المشركين إلى مكان ضيق... فردهم أسيد بن حضير وأصحابه وكان فيهم سلمان: فقال: هذا مكان متقارب من الخندق - وكان الناس عجلوا في حفره - فبات سلمان وأصحابه يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق[٣].

ولهذا كان الحصن ضمن الخطة - كما ذكرنا - وليس بين المسلمين وبينه أي حاجز. واتخذت الاحتياطات الأخرى حذراً.

معسكر المسلمين:

اتخذ الرسول ﷺ أهبته للقتال، فوزع أصحابه على امتداد الخندق، وقد جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، ودفع لواء المهاجرين إلى زيد بن حارثة، كما دفع لواء الأنصار إلى سعد بن عبادة[٤] وأمر بالذراري والنساء فجعلوا فوق الآطام[٥].

أما عدد المسلمين يومئذ، فإن بعض الروايات تذهب إلى أنهم كانوا ثلاثة آلاف[٦] ويذهب بعضها الآخر إلى أنهم كانوا ألفاً، وهو

---

(١) المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٤٩.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٦٥.
(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧.
(٥) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٠. والآطام: الحصون.
(٦) ابن هشام ٢/ ٢٢٠ وابن سعد ٢/ ٦٦ والبداية ٤/ ١٠٢.

الأقرب إلى الصواب[1].

واستعمل ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم.

الأحزاب على أبواب المدينة:

وما إن فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق حتى أقبلت قريش فنزلت بمجمع الأسيال من رومة بين الجوف وزغابة ونزل معهم من تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة. وأقبلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد فنزلوا بذنب نَقْمى إلى جانب أحد..

وكان عددهم عشرة آلاف منها أربعة آلاف عدة قريش ومن تبعها.

ودهشت الأحزاب إذا رأت الخندق يحول بينها وبين الوصول إلى المدينة، وقالوا: إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها.

على أن هذا لم يشل حركتهم فقد قام رؤساء الأحزاب باستطلاع الخندق علّهم يجدون مضيقاً يقحمون منه خيلهم إلى النبي ﷺ فلم يجدوا.

---

(١) ونقل الزرقاني في شرحه: قال في الفتح... وقيل: والمسلمون نحو الألف ٢/١٠٥.

ونقل باشميل في كتابه غزوة الأحزاب/ ١٦٩ قول ابن حزم: أن جيش المسلمين لم يزد على تسعماية.. وأيد هذا القول بأدلة منها: أن الوقت الفاصل بين أحد والخندق لم يكن طويلاً يساعد على دخول هذا العدد في الإسلام. وإنه لو كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف لما أصابهم ما أصابهم من الخوف ـ فقد كانت نسبتهم إلى عدوهم في بدر وأُحد مثلها في الخندق.

أقول: ويؤيد هذا القول: حديث جابر. ففي رواية البخاري (وهم ألف) وفي رواية البيهقي ما يوضح أن هذا العدد هو جميع من كان معه ﷺ حيث جاء فيها (ودخلت على امرأتي أقول: افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين..) انظر البداية ٤/٩٧ ـ ٩٨.

كما يؤيد هذا القول، أن عدد المسلمين في الحديبية كان ألفاً وأربعماية، وقد استنفر الرسول ﷺ الناس للخروج إليها ـ كما يقول ابن هشام ـ وهي بعد الخندق.

ومع هذا فقد استطاع بعض فرسان قريش اقتحام الخندق بخيلهم منهم عمرو بن ود، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب،... وخرج إليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي نفذوا منها.

وطلب عمرو بن ود من يبارزه، فبرز له علي، فقال له عمرو: من أنت قال: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب؟ قال: يا ابن أخي من أعمامك؟ من هو أسن منك؟ فإني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضباً فتنازلا وتجاولا فقتله علي... وخرجت خيولهم منهزمة.. وحمل الزبير بن العوام على نوفل بن عبد الله بالسيف فشقه باثنتين.. وقد ألقى عكرمة رمحه يومئذ وهو منهزم... فكان مما قال فيه حسان بن ثابت[1].

فرّ وألقى لنا رمحه لعلك عكرمُ لم تفعل

وهكذا كانت تجربة فاشلة فقد فيها المشركون بطلاً من الأبطال المعلمين وهذا ما دفعهم فيما بعد لشراء جثته من المسلمين بعشرة آلاف فقال ﷺ: (ادفعوا إليهم جيفته فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية). فلم يقبل منهم شيئاً.

وقد أدرك المشركون عقم هذه المحاولات.. فالمسلمون في

---

(١) روى ابن هشام ٢/ ٢٢٨ حادثة قتل صفية اليهودي وامتناع حسان عن ذلك مما يدل على أن حسان كان جباناً شديد الجبن.

وقال الزرقاني في شرحه: قال ابن الكلبي كان حسان لسناً شجاعاً فأصابته علة أحدثت فيه الجبن.. ثم قال الزرقاني مشيراً إلى رواية ابن هشام وأنكره بعض العلماء منهم ابن عبد البر في الدر، ولأنه حديث منقطع الإسناد ولو صح لهجي به حسان. فإنه كان يهاجي الشعراء.. فما عيرّه أحد منهم بجبن ولا وسمه به، فدل ذلك على ضعف حديث ابن إسحاق. ٢/ ١١١ ـ ١١٢.

حراسة الخندق ليل نهار يتناوبون ذلك لا يتيحون المجال لأية عملية اقتحام أخرى. . . وكانت المناوشات بالسهام عبر الخندق.

حيي في حصن قريظة:

كان لا بد للمشركين من التفكير بوسيلة ينفذون من خلالها إلى المدينة. . والثغرة الوحيدة التي تسهل لهم ذلك هي: بنو قريظة فطلب أبو سفيان من حيي بن أخطب أن يذهب إليهم ويقنعهم بنقض العهد مع الرسول ﷺ.

وخرج حيي حتى أتى كعب بن أسد زعيم بني قريظة وصاحب عهدهم، فلما سمع كعب بحيي أغلق دونه بابه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له وقال له: إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، قال: ويحك افتح أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. . فما زال به حتى فتح له.

وتحادث الرجلان فكان مما قاله حيي: جئتك بعز الدهر وببحرٍ طام[1] جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتها بمجمع الأسيال، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. . . فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام[2] قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. .

ولكن حيي بن أخطب الذي حزب الأحزاب، واستطاع أن يجمع تلك الجموع من قريش وغطفان وغيرهما. . لن يصعب عليه كعب الذي يدين بدينه. . فمازال به حتى أقنعه بما جاء له.

ولم يكن امتناع كعب ـ أولاً ـ عن نقض العهد، شرفاً ومروءة ووفاء، ولكنه قد رأى بأم عينيه ما آل إليه حال بني النضير وبني قينقاع

(١) أراد كثرة الرجال.
(٢) السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

فلا يريد أن يصير إلى ما صاروا إليه. . . فلما أقنعه حيي بأن الكسب محقق وأن القوة الموجودة على أبواب المدينة لا يمكن جمعها بعد اليوم، وأنها الفرصة التي لا تعوض، وأن شرف النصر في هذه المعركة سيعود إليه. . فها هي قريش وغطفان ومن معهما لا يستطيعون القيام بأي عمل. . وأن انضمامه إليهم هو الذي سيحرز لهم النصر فيكون له شرفه. . وذهب التطبع وعاد الطبع اليهودي إلى أصالته في الخيانة واللؤم. . ونقضت قريظة العهد. . .

إعلان قريظة نقض العهد:

انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ، وهو ما كان يخشاه، فأراد التأكد منه فأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وهما يومئذ سيدا الأوس والخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وطلب منهم أن يتحققوا من الأمور وأمرهم إن كان حقاً أن يلحنوا له لحناً حتى لا يفتّوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء أن يجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ. وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. . . وقد حاول سعد بن معاذ ـ حليفهم ـ أن ينصحهم وأن يخوفهم نتيجة غدرهم. . فأجابوه بكلمات بذيئة خسيسة فقال لهم: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة.

وعاد الوفد إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة. أي غدر كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع. . .

المسلمون في الموقف الحرج:

لم يكن نقض العهد من قبل قريظة بالأمر الهين، إنه يعني وجود منفذ لقوات العدو يمكنها أن تعبر منه إلى المدينة، كما يعني انشغال قسم من قوات المسلمين في جبهة كانت موصدة مما يضطر المسلمين إلى تخفيف الحماية التي تحرس الخندق لتأمين المواجهة مع قريظة وهذا ما

يسهل ردم جزء من الخندق لانشغال المسلمين والعبور منه وهكذا يصل المشركون إلى ما خططوا له...

كان الرسول ﷺ حريصاً ألا يصل خبر نقض العهد من قريظة إلى عامة المسلمين حفاظاً على معنوياتهم ولكن الخبر وصل فعلاً ولعل السبب في ذلك هو حرص اليهود على إضعاف المسلمين وما زال اليهود على صلة وثيقة بالمنافقين وعن طريقهم شاع الخبر وانتشر...

ونستطيع أن نجمل ما ترتب على نقض قريظة العهد بالأمور التالية:

• فقد عظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم فكانوا كما وصف القرآن الكريم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[1].

• قويت عزيمة المشركين بعد فتور واشتدت هممهم بعد ركود فشددوا الحصار على المسلمين ودنوا منهم وكان الترامي بالنبل والحجارة ولم يستطع المسلمون مغادرة أماكنهم ففاتتهم صلاة العصر فصلوها بعد المغرب وقال ﷺ: (ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا من الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)[2].

• وفي هذا الجو القاتم نجم النفاق وظهر أهله، وانطلقت مقالات السوء من أفواههم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[3] ويتمادى النفاق ببعضهم فيدعو إلى الرجوع للمدينة، ويستأذن بعضهم الآخر مدعين أن بيوتهم في خطر من مداهمة العدو: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ١٠ ـ ١١. (٢) متفق عليه (خ٢٩٣١، م٦٢٧).
(٣)(٤) سورة الأحزاب: الآيتان ١٢، ١٣.

وبهذا تبرز على مسرح الأحداث فئة في صفوف المسلمين تظاهر الأعداء بسلوكها وتصرفاتها وتزيد الموقف حراجة.

• وإزاء الوضع الجديد كان لا بد من تعديل في توزيع قوات المسلمين حسب المعطيات الجديدة للمعركة. فأرسل ﷺ دوريات للحراسة في المدينة، يقول ابن سعد: وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة[١].

مفاوضة:

لقد ثقلت الوطأة على المسلمين وحف بهم البلاء من كل جانب، فالأعداء يحيطون بهم من كل جانب ولا شك أن انحسار المنافقين من أرض المعركة كان له بعض الأثر.. والهجوم متوقع بين لحظة وأخرى.. كل ذلك دفع رسول الله ﷺ إلى التفكير في وسيلة يستطيع بها تخفيف الضغط الذي أصاب المسلمين.

فأرسل إلى عيينة بن حصن قائلاً: (أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر الأنصار أترجع بمن معك من غطفان وتخذل بين الأحزاب؟) فأرسل إليه عيينة: إن جعلت لي الشرط فعلت. فأرسل النبي ﷺ إلى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فأخبرهما بذلك فقالا: إن كنت أُمرت بشيء فامضِ لأمر الله. قال: (لو كنت أمرت بشيء ما استأمرتكما، ولكن هذا رأي أعرضه عليكما). قالا: فإنا نرى أن لا نعطيهم إلا السيف[٢].

وفي رواية ابن إسحاق: .. فقالا له: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به.. أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: (بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٧٣.

واحدة..) فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى، أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: (فأنت وذاك)[1].

وهكذا انتهت هذه المفاوضة، ولا شك أن الرسول ﷺ كان مسروراً بموقف السعدين. فهو إنما يصنع ما يصنع من أجلهم - وقد رأى العرب قد رمتهم عن قوس واحدة - أما إن كانت المعنويات بهذا المستوى الذي يحمله السعدان فلا حاجة، فما يزال في النفوس الرصيد الكبير للصبر على الشدة.

كانت المفاوضة اختباراً غير مباشر لمعنويات القوم ومدى مقاومتها... فكانت صلبة قاسية رغم كل تلك الظروف.. وهذا ما طمأن الرسول ﷺ إلى سلامة الموقف، موقف المؤمنين الصابرين.

في الوقت المناسب:

وجاء نعيم بن مسعود الأشجعي من غطفان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت؛ فقال ﷺ: (إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة).

وخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم؛ قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم ونساؤكم... وإن قريشاً وغطفان قد

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٣.

جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة[1] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم.. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل، قال: إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأرسل إليهم أن: نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً...

ثم خرج حتى أتى قومه غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش.

طال الوقت على أبي سفيان وجمعه فقد مضى أكثر من عشرة أيام دون أن يحرز تقدماً، وقد بدأت الأطعمة تنضب ـ ذلك أنهم لم يكن في حسبانهم تلك الإقامة وظنوها معركة يوم أو بعض يوم ثم يعود كل إلى بلده بالخير الوفير والنصر العزيز ـ وهذا ما دفع حيي بن أخطب أن يلبي طلب أبي سفيان فيحمل له عشرين بعيراً كان أرسلها له مع ضرار بن الخطاب، حملها له شعيراً وتمراً وتيناً... ولكنها وقعت في يد إحدى دوريات المسلمين فأتوا بها رسول الله ﷺ فكانت طعاماً لهم حتى نهاية المعركة. وعاد ضرار ليخبر أبا سفيان بما حدث.. فقال أبو سفيان: إن حيياً لمشؤوم، قطع بنا، ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا[2].

---

(١) النهزة: الفرصة.

(٢) شرح الزرقاني ٢/ ١٢٢ نقلاً عن الواقدي.

وتخلصاً من الأزمة أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، فقد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ ما بيننا وبينه.

فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم..

فلما وصل الخبر أبا سفيان وغطفان قالوا: إن الذي حدثكم به نعيم لحق ثم أرسلوا إليهم، وإنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.. فقالت قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم لحق.. وهكذا انتهت العلاقة بين الفريقين، وأثمرت جهود نعيم بن مسعود.

على أن ما حدث لم يصل علمه إلى رسول الله ﷺ لأن نعيم بن مسعود كان عليه أن يقيم مع قومه غطفان حتى لا ينكشف الأمر الذي قام به ولذا بقيت حالة الخوف والرعب مسيطرة على أجواء المسلمين.

يوم الأحزاب:

جرت المفاوضات ليلة السبت بين أبي سفيان وغطفان وبني قريظة وانتهت ـ فيما يبدو ـ في ذلك اليوم نفسه، وانتهى معها الأمل الذي منى فيه القوم أنفسهم، وكان عليهم أن يبحثوا عن طريق آخر.. وكان ذلك هو تشديد الحصار والضغط على المسلمين بكثافة الرمي، وكان ذلك اليوم هو يوم الثلاثاء[1].

---

(١) هذا هو يوم الأحزاب في أغلب الظن. فهو اليوم الذي سبق انصراف المشركين وذكر ابن سعد أن انصراف النبي ﷺ إلى المدينة كان يوم الأربعاء بعد ذهاب الأحزاب. ابن سعد في الطبقات ٢/ ٧٠.

استعد المشركون لذلك اليوم أن يغدوا جميعاً ولا يتخلف منهم أحد، فباتوا يعبئون أصحابهم ثم وافوا الخندق قبل طلوع الشمس.

وعبأ النبي ﷺ أصحابه وجمعهم على القتال، ووعدهم النصر إن صبروا. وسأل أبو سعيد الخدري النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر فقال: (نعم. اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)[١].

وأحاط المشركون بالمسلمين وأحدقوا بهم بكل وجه من الخندق. فكان المسلمون في مثل الحصن من كتائب أعدائهم.

ووجه المشركون كتيبة عظيمة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذاك إلى هوي من الليل ما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحد من المسلمين أن ينزلوا من مواضعهم فلم يصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء. فلما حلَّ الظلام انكشفوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ﷺ. وأقام أسيد بن حضير في مائتين من المسلمين على الخندق...

وأمر ﷺ بلالاً فأذن، وأقام الظهر فصلى، ثم أقام العصر ثم أقام لكل صلاة..

وكرت خيل المشركين بقيادة خالد ليلاً يطلبون غرة فناوشهم أسيد والمسلمون معه حتى كشفوهم وقتل في هذه المناوشة الطفيل بن النعمان من بني سلمة رحمه الله[٢].

وكانت ليلة ليلاء لم يبق فيها مع الرسول ﷺ إلا ثلاثمائة[٣] وكان مع أسيد بن حضير مائتان بمهمة حماية الخندق بينما كان سلمة بن أسلم

---

(١) شرح الزرقاني ٢/١٢١ من رواية الإمام أحمد.
(٢) طبقات ابن سعد ٢/٦٨ وشرح الزرقاني ٢/١١٧.
(٣) شرح الزرقاني ٢/١١٨.

في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثماية رجل في مهمات حراسة بالمدينة[1] أنيط بكل منهما عمل خاص به.

ليلة الأحزاب[2]:

ونترك الحديث عنها لحذيفة رضي الله عنه قال: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هوياً[3] من الليل ثم التفت إلينا فقال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟) فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد، دعاني فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا). قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف[4]، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله، وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي: أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم.

---

(١) وهذا ما يؤيد قول من قال إن عدد المسلمين يوم الخندف هو ألف.

(٢) هذه التسمية وردت في حديث حذيفة من رواية الحاكم.. قال: (لقد رأيتنا ليلة الأحزاب..) انظر البداية ٤/ ١١٤.

(٣) قطعة منه. (٤) أي الخيل والإبل.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ - وهو قائم يصلي، في مرط[1] لبعض نسائه - فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه، فلما سلَّم أخبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم[2].

وهزم الأحزاب وحده:

كان من دعائه ﷺ يومئذ: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم).

واستجاب الله الدعاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾[3]. فأرسل الله عليهم الريح فقلعت الأوتاد وألقت عليهم الأخبية وكفأت القدور، وسفت عليهم التراب ورمتهم بالحصباء.. فارتحلوا هاربين.

وفي رواية الحاكم لحديث حذيفة: وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضرب بها[4] ولذا كان يقول ﷺ: (لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده). كما في رواية أبي هريرة عند البخاري.

العودة إلى المدينة:

ومع الفجر من يوم الأربعاء[5] كانت ساحة المعركة خلواً من

---

(١) المرط: الكساء.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٢، وأصله عند مسلم وكذا رواه الحاكم انظر البداية ٤/ ١١٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٩.

(٤) البداية ٤/ ١١٥.

(٥) شرح الزرقاني ٢/ ١٢٦.

المشركين وتنفس المسلمون الصعداء بعد أيام عصيبة استمرت بضع عشرة ليلة وقال ﷺ حينئذٍ: (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا) وفي رواية: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)[1].

وأمر ﷺ بالعودة إلى المدينة، ووضع السلاح.

وأمر بسعد بن معاذ ـ وكان أصيب في أكحله ـ أن يجعل في خيمة في مسجده ﷺ أقيمت لمداواة الجرحى تشرف عليه امرأة من أسلم يقال لها: رفيده. كانت تداوي الجرحى.

وقد استشهد في غزوة الخندق من المسلمين ستة نفر منهم سعد بن معاذ رضي الله عنهم.

وقتل من المشركين ثلاثة نفر منهم عمرو بن ود.

تأملات في غزوة الخندق

تمثل هذه الغزوة فترة عصيبة في حياة دولة الإسلام الناشئة، تعاونت فيها عوامل الجوع والبرد وقلة العدد والعدة مع سيل الأعداء الذي جاء يستأصل شأفة الإسلام وجماعة المسلمين، وقد بلغت الحال بالمسلمين كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ..﴾[2].

واستطاع المسلمون بفضل الله ورحمته، تجاوز تلك العقبة، ليخرجوا منها مرفوعي الرؤوس، معتزين بإيمانهم، وقد تعلموا الكثير الكثير من الدروس، يمليها عليهم رسول الله ﷺ، واقعاً عملياً، فإذا هو أبلغ من كل قول، وإذا القول حينئذٍ بعض العمل.

والتأمل في هذه الغزوة، وما جرى فيها من أحداث، يفتح أعيننا على الكثير من الدروس، التي ينبغي أن يعيها المسلمون، لتكون لهم العون، والمرشد الذي يأخذ بأيديهم في أوقات الشدة ـ وما أكثرها في حياتهم ـ وما أحوجهم إلى درايتها.

ونكتفي بذكر بعض هذه التأملات:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤١١٠). (٢) سورة الأحزاب: الآية ١٠.

١ ـ مكان القيادة:

تقرر حفر الخندق، وخطه رسول الله ﷺ، وعيَّن لكل جماعة ما يخصها، وبدأ المهاجرون والأنصار العمل في غداة باردة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من النصب والجوع والبرد، قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وما أن سمع الصحابة ذلك حتى أجابوه بقولهم:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا[(١)]

كانت لفتة كريمة من رسول كريم، أراد ألا يكون صوت المعاول هو الذي يسمع وحده، فهو يذكر بالتعب والجوع، ولذا رفع صوته مذكراً بأن الغاية هي الدار الآخرة، ومن عرف ما قصد، هان عليه ما بذل، وأن ما يصيب المرء في الدنيا إلى زوال، وأجابه القوم بما استقر في نفوسهم... إنها البيعة على الجهاد الدائب المستمر..

إنها كلمة الحق... فالعيش عيش الآخرة، ولذا فها هو ﷺ في الخندق، يشارك القوم في الحفر، ويشاركهم بنقل التراب، قال البراء بن عازب: كان رسول الله ﷺ ينقل التراب، يوم الخندق، حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر[(٢)].

ولنترك الكلام لأبي واقد الليثي أحد الصحابة الذين كانوا يعملون في الخندق قال: كنت أرى رسول الله ﷺ، وإنه ليضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب في المكتل، وقد رأيته يوما بُلغ منه، فجلس ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم، فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه، يبعدان الناس، أن يمروا به فينبهوه[(٣)] وأي جهد أكبر من هذا؟.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٣٤). (٢) متفق عليه (خ٤١٠٦، م١٨٠٣).

(٣) الواقدي: المغازي ٢/ ٤٥٣.

كما شاركهم الجوع، بل ربما كان أكثرهم جوعاً، وفي حديث جابر.. إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق فقال: (أنا نازل)، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً...[1].

ويصل المشركون إلى المدينة فيكون نصيب الرسول ﷺ من العمل كنصيب أي فرد، إضافة إلى أعباء القيادة، حتى الحراسة ليلاً... قالت أم سلمة: وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قر شديد[2].

إنها القيادة في وسط الناس ومعهم في كل شيء معهم في الحفر معهم في نقل التراب معهم في الجوع معهم حتى في الرجز والإنشاد..

ويدعى إلى طعام جابر فيأبى أن تكون الدعوة خاصة به ـ وطعام جابر لا يكفي إلا الأفراد ـ ويدعو أهل الخندق، وتكون معجزة من معجزاته صلّى الله عليه وسلّم[3].

وكل فرد من الأفراد في الجيش الكريم له مكانته في نفس القائد فكان ﷺ يتفقدهم فرداً فرداً يطمئن عليهم بنفسه في الوقت الذي أقعد فيه الخوف والجوع والبرد الكثير منهم..

قال حذيفة: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود.. إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عليَّ..[4].

إن قيادة هذا وضعها لن يخذلها الله أبداً، وإن جنداً هذه قيادتهم سيتفانون في سبيلها وقد فعلوا..

إنه منهج الإسلام في القيادة...

---

(١) رواه البخاري برقم (٤١٠١).
(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤. والقر: البرد الشديد.
(٣) متفق عليه (خ٤١٠١، ٤١٠٢، م٢٠٣٩).
(٤) البداية ٤/ ١١٤.

٢ ـ الجانب المعنوي من المعركة:

إن الاحتفاظ بالمعنويات في نفوس الأفراد هو أحد أسباب الانتصار، وفي سبيل ذلك اتخذ رسول الله ﷺ الأمرين التاليين:

أ ـ فقد ابتلي المؤمنون بالمنافقين ضمن صفوفهم، وقد كان هؤلاء عوامل تثبيط للمؤمنين. وقد واجه ﷺ هذه المشكلة بإذكاء الإيمان في النفوس، فاستطاع أن يتغلب عليها. وبهذا الصدد وردت الآية الكريمة تبين وضع المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

ب ـ كما اتخذ كل الوسائل التي تهيء الراحة النفسية للصحابة الكرام الذين يتحملون معه عبء المعركة ولعل أول ما يشغل الفكر الأولاد والنساء، ولذا أمر بهم ﷺ فنقلوا إلى أبنية منيعة، وكان ذلك احتياطاً في بدء الأمر قبل أن تنقض قريظة العهد.

وبعد نقضها العهد عززت المدينة بالدوريات المكثفة وخاصة بالليل، والتي أمرت أن تظهر التكبير حتى ترتفع بمعنويات النساء والأطفال[١].

كما عمل ﷺ على إبعاد كل ما من شأنه أن يفتَّ في عضد المؤمنين ويلاحظ هذا واضحاً في أمره ﷺ للوفد الذي أرسله إلى بني قريظه ليتأكد من نقضهم العهد، بأن يلحنوا إليه لحناً يعرفه ولا يفتوا في أعضاد المسلمين، إن كانوا غدروا، وإن كانوا على العهد أن يجهروا به أمام الناس[٢].

تلك بعض إجراءات القيادة للحفاظ على الجانب النفسي لدى المسلمين وهم يخوضون معركة غايتها استئصالهم من الوجود الإنساني.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧.
(٢) البداية ٤/ ١٠٣.

٣ ـ حسن الاستفادة من الطاقات المتوفرة:

جاء نعيم بن مسعود ليعلن إسلامه بكلمات: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت؛ ويدرك ﷺ مرمى قوله: «وإن قومي لم يعلموا بإسلامي» فهذا جانب يستفاد منه في هذه الأوقات العصيبة، ويقول ﷺ: (إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة). وبهذا يوجهه إلى السبيل الذي يمكن أن يؤدي دوره فيها. ذلك أن انضمامه إلى رسول الله ﷺ لن يكون له جدوى أكثر من أن يزيد في عدد أصحابه رجلاً واحداً، أما ما قام به مستفيداً من التوجيه الكريم فإنه يعدل عمل فرقة بكاملها..

وهكذا تكون الاستفادة من الطاقات، حيث يوضع كل فرد في مكانه الملائم.. وقد استفاد الصحابة الكرام فيما بعد من هذا الدرس القيم ووضع كل رجل في المكان المناسب له، وقدر الرجال أقدارهم[1]، وبهذا سادت دولة الإسلام في تلك الفترة الوجيزة.

٤ ـ الأثر الاقتصادي:

لا شك أن الجانب الاقتصادي له الأثر الكبير في المعركة، أي معركة، وكثيراً ما كان عاملاً مهماً في النصر، أو الفشل والهزيمة.

وإن غزوة الخندق فُرضت على المسلمين من وقت شدة، ولم يكن لهم إمكانية في تغيير موعدها، وكان عليهم أن يواجهوا الموقف بكل ما فيه من أوضاع لم تكن في صالحهم. وكلها كانت كذلك:

أ ـ فالغذاء: لم يكن متوفراً، ولعل حديث جابر المتقدم، يعطينا الصورة التي كان عليها المسلمون من الجوع، ونضيف إليه ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال ـ وهو يبين طعام الناس يومئذ ـ: «فيؤتون

---

(١) ونذكر على سبيل المثال قول أبي بكر رضي الله عنه في القعقاع: «لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل» عن الإصابة.

بملء كف من الشعير فيصنع لهم بإهالة سَنِخَة[1] توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منكرة»[2].

إنه غذاء غير مناسب في كميته، وغير مناسب في طعمه، وكذا في رائحته.

ب ـ **اللباس**: ولم يكن وضعهم، من حيث اللباس، أحسن حالاً من الطعام. فقد كانوا في قلة منه، حتى كان الكثير منهم يلبس الواحد منهم ثوب امرأته، قال حذيفة يصف نفسه حينما أمره ﷺ أن يأتي بخبر القوم: . . . وما عليّ جنَّة[3] من العدو ولا من البرد إلا مرط لأمرأتي ما يجاوز ركبتي. .[4] بل إن رسول الله ﷺ نفسه كان كذلك. . ففي حديث حذيفة المتقدم. . فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مراجل[5]، فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليَّ طرف المرط. .[6] وهكذا كان وضع أكثر المسلمين.

ج ـ **العتاد**: والأمر الثالث: السلاح والعتاد وهو عامل أساسي في أي معركة، ولم يكن وضعه ووجوده لدى المسلمين إلا كما هي الحال في الطعام واللباس. ولنأخذ على سبيل المثال: سيد الأوس سعد بن معاذ؛ ونترك الكلام لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكانت يوم الخندق في حصن بني حارثة ومعها أم سعد قالت: ـ وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ـ فمر سعد وعليه درع له مقلّصة[7]، قد خرجت منها ذراعه كلها. . . قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي؛ قالت: وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه، فرمي سعد بسهم فقطع منه الأكحل. . .[8].

---

(1) سنخة: المتغيرة الرائحة مثل الزنخة.

(2) أخرجه البخاري برقم (٤١٠٠).

(3) أي ما يقيني من العدو والبرد.

(4) البداية ٤/ ١١٤ من رواية الحاكم والبيهقي، والمرط: الكساء.

(5) مراجل: قال ابن هشام: ضرب من وشي اليمن. السيرة ٢/ ٢٣٣.

(6) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٣.

(7) قصيرة.

(8) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٦.

وصبر المسلمون على هذا كله، وواجهوا به قوة هي أضعافهم، وثبتوا وانتصروا، وذلك بفضل الإيمان الذي وقر في صدورهم.

وأثبت المسلمون في الميدان العملي في هذه المعركة أن العامل الاقتصادي ليس هو كل شيء، وأن هناك من العوامل الأخرى، ما يغطي النقص في هذا الجانب حال وجوده، إن وجود الرسول ﷺ مع أصحابه في كل شيء، يتحمل معهم ما يتحمله كل فرد منهم، من جوع وبرد ونقص في الثياب والعتاد.. خفف عنهم الكثير، وأكد في نفوسهم إمكانية الصبر، كيف لا وهو الأسوة لهم، أفلا يصبرون كما يصبر؟ ويتحملون كما يتحمل؟.

إنه ليس من قبيل المصادفات أن يرد قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ...﴾ ضمن الآيات التي وردت في سورة الأحزاب، والتي نزلت بمناسبة هذه الغزوة، فهي تلفت النظر إلى الأسوة فيه بالصبر على المشاق وتحمل المآسي وهذا لا يمنع عموم الآية.. ولكنه يوجه إلى جانب مهم في فهم الآية الكريمة.

وبهذا تجاوز المسلمون الأزمة الاقتصادية في هذه المعركة كما تجاوزوها في غيرها، فأثبتوا فعالية البديل منها عند الضرورة.

٥ ـ بين التصور.. والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم، يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق[1]... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين..

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة ويتخيل أنه لو وجد مع

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٢، والحديث في مسلم برقم (١٧٨٨).

رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام.. . والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة ﷺ بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلاً عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله، خير القرون قرني.. فبين أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاؤوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام ممتداً، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة، يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر.. وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن نفير عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود ﷺ يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ. والله لوددنا أننا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت؛ فاستُغضِبَ، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل عليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف يكون فيه، والله! لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم، والله لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعثَ عليها نبياً من الأنبياء، في فترة وجاهلية، ما يرون أن ديناً أفضلَ من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرّق بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً ـ وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ـ يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

---

(١) الفتح الرباني للبنا ١/١٠٦.

إن كلا الرجلين الذي تحدث إلى حذيفة والذي تحدث إلى المقداد بن الأسود لم يدفعهما إلى الحديث إلا التعبير عن الحب لرسول الله ﷺ. وكلاهما لم يفهما ذلك فلسفة بل عملاً فالأول قال: ما تركناه يمشي على الأرض. وقال الثاني: وشهدنا ما شهدت.. ليت الذين يدعون محبة الرسول ﷺ يترجمون ذلك في أعمالهم فتكون متساوقة مع ما أمر به ﷺ وحينئذٍ يبرهنون على الصدق في قولهم.

٦ ـ مهمة حذيفة:

ولا بد لنا من وقفة عند مهمة حذيفة رضي الله عنه والتي سبق ذكرها في حديثه المتقدم. وأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة جوانب منها:

ـ عرضت المهمة على الصحابة، وكان الجزاء لها رفقة النبي ﷺ في الجنة ومع ذلك لم يستجب أحد.. ثم أُمر حذيفة رضي الله عنه بها.. فقام مستجيباً رغم كل الصعوبات التي منعته من الإسراع إليها مع ما عرض لها من جزاء...

وكان عليه أن يؤدي المهمة تنفيذاً للأمر، وهنا تتغيّر حاله النفسية فيذهب الخوف، والبرد.. حتى قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قراً في جوفي إلّا خَرج من جوفي فما أجد فيه شيئاً[1] وفي رواية مسلم: فلما وليت من عنده جعلت كأني أمشي في حمام حتى أتيتهم[2].

إن الحرص على تنفيذ الأمر وأداء المهمة جعله وكأنه لا خوف من حوله، ولا برد، ولا ريح...

ـ ووضع السهم في كبد القوس، وأراد أن يرمي أبا سفيان بعد أن تعرف عليه، ولكنه ذكر قول الرسول ﷺ في وصيته له: (لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني). فيمسك امتثالاً للأمر وانضباطاً مع الوصية، رغم ما في نفسه تجاه أبي سفيان حامل لواء الكفر يومئذ.

---

(١) البداية ٤/ ١١٤.   (٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٨٨).

ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص...[1].

وهكذا بَدَرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج... الذي ربما كان أودى بحياته..

٧ ـ الحلال والحرام:

عرضت قريش فداءً مقابل جثة عمرو بن ود.. فقال ﷺ: (ادفعوا إليهم جيفته فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئاً)[2].

حدث هذا وأزمة الاقتصاد كما قدمنا، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام.. فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا.. وما شابهه؟!.

٨ ـ من به ضيعة من المسلمين:

«.. وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: (اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب..)[3]».

ويفهم من النص السابق أن من أصيب من المسلمين، إن كان له أهل، اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين.

---

(١) شرح الزرقاني ٢/ ١٢٠. (٢) البداية ٤/ ١٠٧.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩ وأصل الحديث في الصحيحين (خ٤١٢٢، م١٧٦٩).

وسعد بن معاذ، سيد الأوس، وليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل. ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلمَ ضربت الخيمة في المسجد وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟.

إن سعد بن معاذ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا عملهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ.

هذه تعاليم الإسلام يتنزل بها القرآن الكريم، وتؤكدها السنة واقعاً عملياً ثم قولاً يكون منهجاً ودستوراً.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه)[1].

وهكذا تلتقي هذه المعاني في سورة الأحزاب، التي كانت مقدمتها موضوع هذه الغزوة، فيكون المسلمون بين درس «الأسوة» وبين الرعاية النبوية قد عاشوا الحياة الإيمانية التي تنزلت الآيات بتسجيلها، لتكون منهجاً للمسلمين مدى الزمن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣٩٩).

غزوة بني قريظة

إشارة جبريل عليه السلام:

رجع رسول الله ﷺ من الخندق إلى المدينة مع الصباح من تلك الليلة التي انسحب فيها المشركون، وما كاد يضع سلاحه، يستريح هو والمسلمون من عناء تلك الأيام القاسية حتى جاءه جبريل عليه السلام ظهر ذلك اليوم فقال: (قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، أخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: هاهنا، وأشار إلى بني قريظة)(1).

فدعا رسول الله ﷺ علياً فدفع إليه لواءه، وبعث بلالاً فنادى في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم ألا تصلوا العصر إلا في بني قريظة(2).

ومر ﷺ بنفرٍ من أصحابه قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: (هل مر بكم أحد؟) قالوا: مر بنا دِحية الكلبي على بغلة بيضاء، فقال رسول الله ﷺ: (ذلك جبريل)، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم. قال أنس: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة»(3).

وتلاحق الناس، فوصل بعضهم بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر، تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ. إذ شغلهم ما لا بد منه من أمور الحرب.

---

(1) متفق عليه (خ٤١٢٢، م١٧٦٩).

(2) طبقات ابن سعد ٢/ ٧٤ وجاء في الحديث المتفق عليه: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) (خ٩٤٦، م١٧٧٠).

(3) أخرجه البخاري برقم (٤١١٨).

ولما أقبل ﷺ تلقاه علي رضي الله عنه وقال: ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود.. وكان قد سمع منهم قولاً سيئاً لرسول الله ﷺ وأزواجه فكره أن يسمع ذلك - فقال ﷺ: (أظنك سمعت في منهم أذى؛ فامضِ، فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئاً مما سمعت).

الحصار:

وحاصرهم ﷺ بضع عشرة ليلة: حتى اشتد عليهم الأمر، وكان معهم في الحصن حيي بن أخطب، دخل معهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد، وكان عاهده على ذلك حين دفعه إلى نقض العهد.

وفي سبيل الخروج من الحصار عرض كعب بن أسد خطة لذلك فقال: يا معشر يهود! قد نزل فيكم ما ترون؛ وإني أرى أن نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل؛ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، قال: فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه - لم نترك وراءنا ثقلاً - حتى يحكم الله بيننا وبينه،... قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم هذه، فإن الليلة ليلة سبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة. قالوا: نفسد علينا سبتنا وقد أصاب من كان قبلنا ما لم يخف عليك. قال: ما بات رجل منكم مذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا. فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكى النساء والصبيان، فرقّ لهم، فقالوا له: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه وأمرّ عليه أصابعه، يعني أنه يراد بهم القتل.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت إني قد خنت الله ورسوله ﷺ[1].

نزولهم على حكم رسول الله ﷺ:

وبعد شدة الحصار وتعاظم الخوف، لم يجدوا بداً من النزول على حكم رسول الله ﷺ.

وأسرع رجال من الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا ما قد علمت[2]. فقال ﷺ: (يا معشر الأوس ألا ترضون أنه يحكم فيهم رجل منكم؟) قالوا: بلى. قال: (فذاك إلى سعد بن معاذ).

وأتي بسعد من المسجد حيث كان يداوى؛ فلما وصل، قال ﷺ للأنصار: (قوموا إلى سيدكم) فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ها هنا؟ - في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ. وهو معرض عنه إجلالاً له - فقال رسول الله ﷺ: (نعم)؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم: أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فقال ﷺ: (لقد حكمت فيهم بحكم الله)[3].

---

(١) ثم لم يعد إلى رسول الله ﷺ بل انطلق على وجهه حتى ارتبط إلى سارية من سواري المسجد. وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليَّ.
ونزلت توبته بعد أيام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾. وكان ذلك في بيت أم سلمة رضي الله عنها، وهي التي بشرته.

(٢) وذلك حينما حاصر بني قينقاع، ثم سأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له.

(٣) الحديث متفق عليه (خ٤١٢١، م١٧٦٨).

تنفيذ الحكم:

وجيء بهم إلى المدينة، فحبسوا في دار بنت الحارث، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق.

وقال بعضهم لكعب: ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع[1]، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل.

وأُتي بحيي بن أخطب، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل. ثم أقبل الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه.

العقوبة المتوقعة:

إن السلوك الشائن الذي انتهجه بنو قريظة، هو الذي أوردهم مورد الهلاك، ولو تم لهم ما أرادوا لكان المسلمون في مثل موقفهم أو أسوأ منه.

إنهم غدروا في موطن يوجب عليهم النصر للمسلمين بموجب العهد الذي بينهم. ولما ذهب إليهم وفد رسول الله ﷺ يذكرهم العهد، أنكروا معرفتهم برسول الله ﷺ وشتموا أفراد الوفد وتنكروا لهم...

إن العقوبة كانت متوقعة، وإن لم يصرح بها صاحب الحق في ذلك، وهذا ما جعل أبا لبابة يشير إلى حلقه، وهو نفسه الذي جعل الأوس يتواثبون إلى رسول الله يطلبون حسن معاملة مواليهم، وهو نفسه الذي عرفه الذين كانوا يقنعون سعداً وهو في طريقه إلى رسول الله ﷺ أن

---

(١) أي لا يكف عن النداء.

يحسن إلى مواليه. فقال: آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم فرجع بعضهم إلى المدينة ينعي بني قريظة، ولم يكن سعد قد أصدر حكمه.

إنها بدهية عقلية، إنه لا يلام القاتل في ميدان المعركة، لأنه إن لم يكن القاتل فهو المقتول. إن بني قريظة نزلوا إلى الميدان ظالمين معتدين فألقوا بأيديهم إلى التهلكة. وقد عرفوا هذه النتيجة، وإلا فلم كان بكاء النساء والصبيان في وجه أبي لبابة.. وقديماً قالت العرب: على نفسها جنت براقش.

في أعقاب الخندق وقريظة

موت سعد:

انفجر جرح سعد، بعد قريظة، فمات منه شهيداً. وكان ﷺ دعا الله تعالى فقال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فأفجرها واجعل موتي فيها»[1]. وقال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة[2].

وحزن المسلمون لموت سعد ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، قال علقمة: فقلت: يا أمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[3].

---

(١) متفق عليه (خ٤١٢٢، م١٧٦٩). (٢) أخرجه الترمذي برقم (١٥٨٢).

(٣) البداية ٤/ ١٢٤ وقال ابن كثير: وهذا الحديث إسناده جيد وله شواهد..

مقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان سلام بن أبي الحقيق أحد الذين حزبوا الأحزاب ـ على رسول الله ﷺ ـ مع حيي بن أخطب. وقد أمكن الله من حيي في حصن بني قريظة، وقتل معهم، فلما انقضى أمر الخندق وبني قريظة، استأذن خمسة نفر من الخزرج رسول ﷺ في قتل أبي رافع، فأذن لهم وأمّر عليهم عبد الله بن عتيك، ونهاهم أن يقتلوا ولداً أو امرأة.

وخرج هؤلاء حتى أتوا خيبر واستأذنوا عليه ليلاً، بحجة أنهم ناس من العرب يلتمسون الميرة. ثم أغلقوا الأبواب خلفهم، ثم ابتدروه في ظلام الليل، ما يدلهم عليه إلا بياضه، حتى أجهزوا عليه ثم انسحبوا وقد صاحت امرأته. قالوا: جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده: ولولا ذلك لفرغنا منها بليل.

وبهذا ينال رأس من رؤوس الفتنة جزاءه.

أمر محيصة وحويصة[1]:

بعد نقض قريظة العهد. قال رسول الله ﷺ: (من ظفرتم به من

---

(١) هذه الحادثة ذكرها ابن هشام بعد مقتل كعب بن الأشرف وقبل أحد ٢/٥٨. وكذلك ابن كثير في البداية ٤/٨. دون تحديد الزمن الذي وقعت فيه. والذي يبدو، والله أعلم، أنها بعد نقض قريظة العهد، لأن أمره ﷺ: (من ظفرتم به من رجال يهود..) هو نص عام وما كان ليقول ذلك وبينه وبين القوم عهد، ثم هو عام في اليهود. وكان في المدينة وقتئذ بنو النضير وبنو قريظة، ولم تكن إحداهما نقضت العهد. فالذي يرجح أن هذا الأمر كان بعد نقض قريظة العهد وقبل أن ينزلوا على حكمه ﷺ، والذي دفع ابن سبينة للمجيء إليهم هو صلته التجارية، وكان يظن أن علاقته القديمة بهم تمنعه مما أصابه.

هذا وذكر ابن هشام رواية أخرى ملخصها أن الرسول ﷺ دفع ابن سبينة بعد الحكم على بني قريظة إلى محيصة ليقتله فلامه أخوه بعد قتله. وهذا مستبعد، لأنه لم يلم أحد أحداً في بني قريظة لشناعة فعلتهم.

رجال يهود فاقتلوه) فوثب محيصة بن مسعود، على ابن سبينة ـ رجل من تجار اليهود ـ فقتله.

وكان ابن سبينة، يلابس بني مسعود ويبايعهم. فلما قتله محيصة جعل أخوه حويصة ـ وكان إذ ذاك لم يسلم، وكان أسن من محيصة ـ يضربه ويقول: أي عدو الله، أقتلته! أما والله لرُبّ شحم في بطنك من ماله. قال محيصة: فقلت: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك، قال: آلله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال: نعم، والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها. قال: والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب... فأسلم حويصة.

على هامش غزوة قريظة:

١ ـ «عن ابن عمر ﵄ قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم»[١].

إن الصحابة الكرام اختلفوا في فهم النص في قوله ﷺ، وكل عمل بقناعته حسب ما أدى إليه اجتهاده، والجانب المهم الذي نحب أن نقف عنده، أن هذا الاختلاف لم تكن له مضاعفات، فلم ينتج عنه عداوة بين الفريقين، ولم يعتبر بعضهم أنه الأحسن وأن فهمه هو الأفضل، بل عمل بقناعته، مع احترامه الكامل وتقديره للفريق الآخر، والأهم من هذا وذاك أن هذا الخلاف لم يؤخرهم عن أداء المهمة التي انتدبوا إليها وهي الوصول إلى بني قريظة.

فليت المسلمين إذ يختلفون ـ حيث يكون الأمر محتملاً لوجهات النظر المتعددة ـ يبقى بعضهم على احترامه وتقديره لبعضهم الآخر، ثم لا

---

(١) متفق عليه (خ٩٤٦، م١٧٧٠).

ينسيهم ذلك مهامهم الأساسية وبهذا تكون لهم في القرن الأول ـ خير القرون ـ الأسوة الحسنة، وبهذا يكون الخلف على نهج السلف.

٢ ـ فإن ديناً بلغ بك هذا لعجب!!

كان ذلك جواب حويصة على سلوك أخيه محيصة الذي قال له: لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك.

وعجب الأخر لقول أخيه، فذهب يبحث عن تعاليم هذا الدين الذي يفعل كل هذا الفعل، فإذا العقيدة فوق كل الاعتبارات الأخرى مهما كان شأنها... ليس في مجال القول وإنما على مسرح الأحداث في مجال التطبيق العملي.. وأسلم حويصة إعجاباً بسلوك أخيه، وهكذا كان سلوك المسلمين دعوة إلى الإسلام لأنه سلوك متميز.

المدينة بعد الخندق وقريظة:

تعتبر أيام الخندق ذروة الخط البياني لأيام الشدة التي أصابت المسلمين في المدينة إبان حياته ﷺ. قالت أم سلمة رضي الله عنها: قد شهدت معه ﷺ مشاهد فيها قتال وخوف ـ المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح، وحنين ـ لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة[1]، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، والمدينة تحرس حتى الصباح، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً[2].

وبانتهاء تلك الأيام وذهابها تبدأ المدينة عهداً جديداً، ويصبح زمام المبادرة بأيدي المسلمين. وقد قال ﷺ حين انصرف الأحزاب عنه: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)[3] وجاءت الأحداث بعد ذلك مصداق قوله ﷺ.

---

(١) الحرج: المكان الضيق الكثير الشجر، والمراد: أنه أحيط بهم.

(٢) المغازي للواقدي ٢/٤٦٧. (٣) أخرجه البخاري برقم (٤١١٠).

إن قوة الشرك التي التقت على حرب المسلمين يومئذ هو أكبر قوة يمكن جمعها، ولئن فشلت وهي مجتمعة، فليس من السهل أن تفكر قريش بعد الآن وهي منفردة أن تجازف بسمعتها مرة أخرى فتخرج من مكة تريد حربه ﷺ.

وخرج المؤمنون من هذا الابتلاء مرفوعي الرؤوس بإيمانهم، شاكرين الله تعالى ذاكرين نعمه عليهم.

وخرجت المدينة أيضاً من هذه المحنة، وقد نظفت أرضها من بني قريظة آخر القبائل اليهودية التي كانت فيها. وبهذا تخلصت من عامل هام كان يسعى لبث الفرقة، وإثارة الفتن، وتقوية النفاق وأهله، وتأييد الباطل والساعين تحت لوائه.

وطأطأ النفاق رأسه، خاصة وأن أهله كانوا يتوقعون نتيجة أخرى. فجاء الواقع بغير ما يشتهون، ومما ساءهم وفضح نواياهم الآيات الكريمة التي نزلت بحقهم، فأبطلت كل زيف كانوا يتظاهرون به وبدت حقائقهم وليس هناك ما يسترها: ولنستمع للآيات الكريمة: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾.... أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾(١).

وكان على المنافقين أن يغيبوا وجوههم عن المؤمنين حياء وخجلاً - إن كان فيها ذلك - ولو إلى حين، ريثما يمضي على الحادثة الزمن الكافي، أو ريثما يُشغل المسلمون بما يستجد من أحداث. كما غابت القبائل اليهودية عن مسرح الأحداث في المدينة، وأضحت كلمة الإيمان لا مزاحم لها.

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ١٢ - ١٩.

زواجه ﷺ من زينب ونزول الحجاب

زواج زينب من زيد:

زينب بنت جحش، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ. وكان ﷺ قد خطبها لفتاه زيد بن حارثة، فترفعت عليه لشرف نسبها وجمالها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1]. فقالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ. وتم الزواج، واستمرت الزوجية بينهما مدة عام أو أكثر، وكانت زينب امرأة فيها حدة، فكان زيد يشكو ذلك إلى رسول الله ﷺ، رغبة بالطلاق، فيقول ﷺ: (أمسك عليك زوجك).

وحدث أن أعلم الله نبيه ﷺ بأن زينب ستكون من أزواجه، وكان ذلك قبل استشارة زيد النبي ﷺ بطلاقها.

ووقع الطلاق وانتهت مدة العدة، فقال النبي ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها عليّ، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري؛ أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتىٰ أؤامر ربي ﷻ ثم قامت إلى مسجدها، ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦. (٢) رواه مسلم (١٤٢٨).

أما القرآن الذي نزل فهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾[1].

مع تفسير الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق بعد أن وهبته خديجة للنبي ﷺ، وكذلك بالتبني إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ﴾ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا تطلقها واتق الله في أمرها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له، قال علي بن الحسين زين العابدين والسُّدي[2]: إن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه. اهـ..

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي تخاف أن يقول الناس: تزوج محمد حليلة ابنه، والله أحق أن تخشاه وحده، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها زيد. قال ابن عباس: خشي أن يقول المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه[3].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي فلما قضى زيد حاجته من نكاحها وطلقها زوجناك إياها. وهذا نص قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بعد تطليق زيد تنفيذاً لأمر الوحي.. ومعنى (زوجناكها) جعلناها زوجة لك. قال المفسرون: إن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧. (٢) تفسير ابن كثير.

(٣) تفسير صفوة التفاسير.

الذي تولى تزويجها هو الله جلّ وعلا فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود. وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ، روى البخاري عن أنس قال: كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوجكن أهليكن وزوجني ربي من فوق سبع سماوات[1].

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وهذا تعليل وبيان للحكمة من هذا الزواج. فهو بيان عملي لإبطال أمر الجاهلية في التبني والآثار المترتبة عليه.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وكان أمر الله لك ووحيه إليك بتزوج زينب مقدراً كائناً لا محالة[2].

روايات باطلة:

قال ابن كثير في تفسيره[3]: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ها هنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها، فلا نوردها.

ومما جاء في التعليق على هذه الأقوال، قول صاحب صفوة التفاسير:

يتشبث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية ـ للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم ـ وُجدَت في بعض كتب التفسير!! من هذه الروايات الباطلة ـ التي تلقفها المستشرقون وخبوا فيها وأوضعوا[4] ـ: إن الرسول ﷺ رأى زينب، وهي متزوجة بزيد بن حارثة،

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٢١). (٢) عن تفسير صفوة التفاسير.

(٣) في تفسير الآية السابقة.

(٤) الخبب: نوع من السير البطيء، والإيضاع: السرعة في السير، والمعنى: أنهم وجدوا مجالاً لأنواع الافتراء والكذب.

فأحبها ووقعت في قلبه فقال: سبحان مقلب القلوب، فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول: (امسك عليك زوجك) حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك. . . وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة: أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان. فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيظهر ما أخفاه الرسول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب؟ أم أن الذي أظهره هو أمره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال «حكم التبني» الذي كان شائعاً في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علناً جهاراً: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾[1] فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لزوجة جاره؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأة هي في عصمة رجل وأن يخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه. فإن هذا لا يليق بأي رجل عادي، فضلاً عن أشرف الخلق. . اهـ.

وجاء بعض كتّاب السيرة فنقلوا هذه الأقوال وكأنها مسلمات بل وبدا لبعضهم أن يدافع عنها وينكر على من أبطلها. . وننقل على سبيل المثال ما قاله ابن الديبع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس في استحسانه ـ أي الرسول ﷺ - لها ورغبته في نكاحها لو طلقها (زيد) قدح في منصبه الجليل، حتى يوجب الطعن في الروايات الثابتة (كذا!!) المنقولة في هذه القصة. بل قد جعلها العلماء من أصحابنا أصلاً استدلوا به على أن من خصائصه ﷺ وجوب طلاق من رغب في نكاحها على زوجها، ووجوب إجابتها، فجوزوا رغبته في نكاح منكوحة غيره، وأن في هذه القصة ما لا يخفى من التنويه بقدر المصطفى ﷺ والإعلام بعظم مكانته عند ربه سبحانه. وأنه يحب ما يحب ويكره ما يكره. وينوب عنه في إظهار ما استحيا من

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

إظهاره علماً منه ـ سبحانه ـ بأنه إنما يفعل ذلك قمعاً لشهوته ورداً لنفسه عن هواها»[1].

وأقول تعقيباً على هذا القول: إن الخلق الجاهلي يأبى مثل هذه القصة وقد قال الشاعر:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواها

فأين مكارم الأخلاق التي بعث الرسول ﷺ لإتمامها؟ بل غريب أن تقلب المفاهيم فتعد القصة الباطلة التي صفق لها المستشرقون وأعداء الإسلام وردها العلماء الموثوق بعلمهم ودينهم أن تعتبر دليلاً على قدر النبي ﷺ وإكرام الله له بتنفيذ رغبته.. مهما كان شأنها ـ وحاشاه أن يكون له رغبة تخدش فيها الفضيلة والمروءة وبعد:

ـ أليس الرسول الكريم ﷺ هو الذي خطبها على زيد. فما الذي كان يمنعه أن يخطبها لنفسه يومئذٍ؟ لو كان له بها رغبة؟.

ـ ثم ألم يكن الرسول ﷺ على علم بجمالها؟ فهي قريبته، ثم إن الحجاب لم يكن قد فرض بعد. فمن المتفق عليه أن الحجاب نزل صبيحة زواج النبي ﷺ من زينب.

ـ كان المنافقون ينتظرون أي ثغرة يستطيعون التعليق بها على سلوكه ﷺ، فلو كان الأمر كما ذكرته هذه الروايات الباطلة لكان لهم صولات وجولات. ولكنهم لم يفعلوا..

ـ أليس في تكليف الرسول ﷺ لزيد بخطبتها الدليل الواضح أن كل ذلك لا وجه له من الصحة. إذ كيف يطلق رجل زوجته لرغبة رجل آخر بها ثم يكلف بخطبتها له؟.

---

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ٢/ ٦٠٤ لمؤلفه ابن الديبع الشيباني، وما كنت أود نقل هذا النص لو أن محقق الكتاب أشار ولو بكلمة موجزة لبطلان هذا الكلام وبعده عن مفاهيم الإسلام الأخلاقية أولاً ثم المفاهيم التشريعية. وكيف يبنى التشريع على روايات قال العلماء الذين يعتد بقولهم ببطلانها؟!.

ـ لقد غفل أولئك عن التعليل الصريح في الآية الكريمة: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ..﴾ فكيف استطاعت تلك الروايات أن تقف على أقدامها بعد هذا النص الصريح.. إن هذا لا يحدث تلبية لرغبة الرسول ﷺ... بل لأمر يريده الله تعالى وهو نفي الحرج فيما ذكر.. ولذا كان التزويج من فعل الله (زوجناكها) ولم يكن إذناً بالزواج.

الحجاب:

كان نزول آية الحجاب في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، بعد غزوة قريظة، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾[1].

وجاء في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: أنا أعلم الناس بشأن الحجاب وكان في أول ما أنزل في مبتنى النبي ﷺ بزينب، أصبح النبي ﷺ بها عروسا...

تأملات في زواج زينب:

إن زواج زينب رضي الله عنها من زيد أولاً ثم من رسول الله ثانياً يعني أموراً هامة في بناء الحياة الاجتماعية في ظل الإسلام، وإنهاء لقيم قديمة قامت على أسس جاهلية ما كان ينبغي لها أن تستمر وقد بسط الإسلام سلطانه على المجتمع المسلم الممثل يومئذ بالمدينة المنورة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٥٣، ٥٤.

جاء الإسلام ليقرر المساواة بين الناس ويلغي أنظمة الطبقات التي سادت كل المجتمعات يومئذ. فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، فالأصل واحد فكيف يتعالى بعضهم على بعض..؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1] وكان لا بد من تحقيق هذا المعنى في الحياة الاجتماعية للمسلمين، وكان المجال العملي هو الزواج، ذلك الميدان الذي فيه للناس ـ قديماً وحديثاً ـ اعتبارات ومقاييس. وحيث كان لاعتبارات النسب أولاً، وللرق والحرية،... ثانياً... في الحياة يومئذ المقام الأول في أمر الزواج، فكان كسر تلك القيود وإحلال المقاييس الربانية مكان المقاييس الجاهلية يتطلب جهداً كبيراً وقوة عظمى فلم يكن لهذا إلا رسول الله ﷺ فهو القدوة..

ولهذا يذهب ﷺ بنفسه ليخطب زينب، وهي ابنة عمته، وهي من شريفات قريش لزيد بن حارثة مولاه ـ الذي كان رقيقاً ثم حرره ﷺ ـ وتأبى زينب ذلك للاعتبارات التي ذكرناها ولكن الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ تجعلها تنصاع لأمر الله وأمر رسوله.

وبهذا تبرز القيم الجديدة، ويقدر الناس بموازين إنسانية، تعنى بقيمة الإنسان الذاتية بعيداً عن الأشياء المحيطة به من جاه ونسب وغنى... وتصبح موازين الكرامة هي تقوى الله.. والحب لله ولرسوله ﷺ... وبهذا المعنى كان زيد حب رسول الله ﷺ. فهو يحمل المؤهل ـ بهذا المعنى ـ ليكون كفؤاً لزينب.

وكان ﷺ حريصاً على تأكيد هذا المعنى في واقع الناس. ففي صحيح الإمام مسلم من حديث فاطمة بنت قيس «... قالت: فلما

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله ﷺ: (أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد) فكرهته، ثم قال: (انكحي أسامة) فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به»[1] إن هذه الإشارة إلى أسامة والتأكيد عليها تبين ذلك الحرص الذي كان في نفس رسول الله ﷺ على إقامة ذلك المعنى وأسامة هو ابن زيد. وفاطمة بنت قيس فهرية قرشية.

وعرف المسلمون رغبة رسول الله ﷺ بذلك فبدأ الناس يتجاوزون تلك العقبات الاجتماعية التي هي من رواسب الجاهلية.. فها هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة يزوج مولاه سالماً من ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة[2] وتزوجت ضباعة بنت الزبير المقداد بن الأسود[3] وضباعة هاشمية، والمقداد هو ابن عمرو الكندي نسب إلى الأسود بن عبد يغوث الزهري لكونه تبناه فكان من حلفاء قريش[4] وبهذا تقرر القاعدة الإسلامية الكبرى حيث لا فضل إلا بالتقوى.. الأبيض والأسود.. والعربي والعجمي. ويصبح الناس في التعامل الواقعي أخوة.. كلهم لآدم.

والأمر الثاني: الذي يحسن بنا أن نقف عليه: هو أمر التبني، حيث كان يحل المتبنى من المتبني محل الابن وتترتب عليه الآثار المترتبة على النسب من ميراث وتحريم زوجة المتبنى على متبنيه. وجاءت الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ .... ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[5] فأبطلت هذا النظام، ونودي زيد: زيد بن حارثة بعد

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٨٠). (٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٨٨).

(٣) رواه البخاري برقم (٥٠٨٩).

(٤) فتح الباري في شرحه للحديث السابق.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥.

أن كان ينادى ابن محمد، . . . وبطلت التسمية ولكن الآثار المترتبة على ذلك بقيت في أذهان الناس فاحتاجت إلى بيان عملي يبطل هذه الآثار وكان هذا البيان زواجه ﷺ بأمر الله تعالى. وبهذا يلغى عرف جاهلي كما تلغي الآثار المترتبة عليه.

إن الأعراف التي تستقر في حياة الناس، وتأخذ أبعادها مع مرور الأيام لا يكون إلغاؤها بكلمة أو موعظة. وإنما بعرف عملي آخر يقوم في حياة الناس وهذا لا يعني أن الصحابة لم يأتمروا بما أمر الله أو بما أمر رسول الله. فذلك غير وارد، ولكن ربما لم يحاول أحدهم أن يقوم بذلك الفعل وفي غيره ما يغنيه عنه، فالذي يريد الزواج فهو وإن كان يعتقد حل مطلقة متبناه، ولكنه لا يجرؤ على الإقدام على ذلك، ويجد في غيرها بغيته، وهو بذلك لم يخالف أمر الله، ولكنه لم يجرؤ أن يفعل ما أحل الله خوفاً من آثار باقية في نفوس الناس، فكان فعله ﷺ إلغاء عملياً وليس إلغاء ذهنياً فحسب. وهذا بعض معاني «الأسوة الحسنة» التي أنيطت بالرسول الكريم ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

غزوة وسرية

غزوة بني لحيان:

لم يُنسِ مرور الأيام رسولَ الله ﷺ أصحاب الرجيع، خبيب بن عدي وأصحابه، فقد كان وجده شديداً عليهم، فخرج ﷺ بعد ستة أشهر من قريظة يريد بني لحيان.

وأظهر ﷺ أنه يريد بلاد الشام، وذلك بقصد التمويه، لعله يصيب من بني لحيان غرة، وسار حتى نزل على غُران، وهي منازلهم، فوجدهم قد هربوا وامتنعوا برؤوس الجبال. فبعث سراياه فلم يقدروا عليهم. وسار حتى نزل بعسفان[١]. وبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم[٢] لتسمع به قريش. وقد استمرت غيبته عن المدينة أربع عشرة ليلة[٣].

ولا شك أنه كان لهذه الغزوة أثرها المعنوي الكبير، فقد وصلت خيل رسول الله ﷺ قريباً من مكة، مكة التي كانت تلقي بثقلها قبل أشهر حول المدينة، كما أن كل من سمع بمسير الرسول ﷺ هابه وخافه، ومن جملة هؤلاء قريش. التي لا شك أصبحت تحسب له حسابه بمقاييس جديدة تختلف عن مقاييسهم قبل الخندق.

---

(١) عسفان: بلدة على بعد ٨٠ كم من مكة شمالاً على الجادة إلى المدينة (معجم السيرة).

(٢) كراع الغميم: بين عسفان ومكة على بعد ٦٤ كم من مكة (معجم السيرة).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٩، زاد المعاد ٣/ ٢٧٦.

سرية زيد بن حارثة إلى العيص:

وكانت في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة. حيث بلغ رسول الله ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب يتعرض لها، فأخذوها وأسروا ناساً ممن كان في العير. وكان أبو العاص بن الربيع في التجارة فهرب. ثم أقبل تحت الليل حتى وصل إلى المدينة ودخل على زينب[1] بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح وكبر وكبر معه الناس، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلّم رسول الله ﷺ من الصلاة، أقبل على الناس فقال: (أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟) قالوا: نعم، قال: (أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم)، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: (أي بنية، أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له).

ثم بعث ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: (إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به)، فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه.

واحتمل أبو العاص تجارته إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ثم قال: يا معشر قريش: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه. قالوا: لا فجزاك الله خيراً. فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا

---

(١) وكانت زوجة له. فلما كانت غزوة بدر كان في عداد الأسرى. وأرسلت زينب في فدائه. وأطلقه ﷺ بعد أن أخذ عليه العهد أن يخلي سبيل زينب ويرسلها إلى المدينة. ووفى بوعده حين قدم مكة وبعث بها رغم معارضة قريش، . . . وبعد إسلامه وذهابه إلى المدينة رد الرسول ﷺ عليه زينب رضي الله عنها.

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٦٥٧، طبقات ابن سعد ٢/٨٧، البداية ٤/١٧٨ شرح الزرقاني ٢/١٥٥.

غزوة بني المصطلق
(وتسمى المريسيع)

أسباب الغزوة:

وكانت في شعبان سنة ست[1] وسببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار[2] فبعث ﷺ بريدة بن الحُصيب الأسلمي يعلم له علم ذلك. فسار إلى الحارث وكلمه وتظاهر له أنه سيكون معه هو وقومه.. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر[3].

وندب ﷺ الناس فأسرعوا في الخروج وخرج من المنافقين جمع كثير وفي الطريق وقع بيد المسلمين جاسوس للمشركين، فسئل عن أمر قومه فلم يذكر شيئاً وعرض عليه ﷺ الإسلام فأبى فأمر عمر بن الخطاب فضرب عنقه. وكانت راية المهاجرين مع أبي بكر الصديق وراية الأنصار مع سعد بن عبادة. وداهمهم ﷺ وهم على ماء لهم يسمى المريسيع فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأموالهم.

---

(١) جعل بعض كتاب السيرة هذه الغزوة قبل الخندق، وقضية فرض الحجاب من الأدلة القوية على أنها كانت بعد الخندق فقد نزل الحجاب صبيحة زواجه ﷺ من زينب وهذا حدث بعد الخندق. وفي حديث الإفك الذي حدث في هذه الغزوة أن عائشة رضي الله عنها كانت متحجبة. وفي الخندق قولها ـ ولم يكن الحجاب ضرب علينا ـ وانظر التفصيل في زاد المعاد ٣/ ٢٦٥ وشرح المواهب ٢/ ٩٥.

(٢) هو أبو جويرية بنت الحارث، زوج رسول الله ﷺ.

(٣) انظر شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ٩٦، نقلاً عن ابن سعد.

دعوها فإنها منتنة:

وأثناء إقامته ﷺ على ذلك الماء حدث أن ازدحم جهجاه بن مسعود ـ هو أجير لعمر بن الخطاب ـ وسنان بن وبر الجهني حليف الخزرج على الماء، فاقتتلا. فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فقال ﷺ حين سمعهما: (دعوها فإنها منتنة)[1].

وغضب عبد الله بن أبي بن سلول ـ وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم، غلام حدث ـ فقال: أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب[2] قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسول الله ﷺ: (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. لا، ولكن أذن بالرحيل).

وأذن بالرحيل في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها. وجاء عبد الله بن أبي يحلف بالله أنه ما قال... مماجعل بعضهم يقول: يا رسول الله: عسى أن يكون الغلام ـ زيد بن أرقم ـ قد أوهم في حديثه.

وسار رسول الله ﷺ فجاءه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها:

---

(١) يعني أنها كلمة خبيثة، لأنها من دعوة الجاهلية. فإن الله جعل المؤمنين أخوة.

(٢) جلابيب قريش: كان لقباً لمن أسلم من المهاجرين ـ لقبهم به المشركون وأصله: الأزر الغلاظ، كان المسلمون يلبسونها فلقبوهم بذلك.

فقال له ﷺ: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟) قال: وأي صاحب؟ قال: (عبد الله بن أبي) قال: وما قال؟ قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

وسار رسول الله بالناس يومهم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس. ثم نزل بالناس. فلم يلبثوا أن جلسوا إلى الأرض حتى ناموا من شدة التعب.

ونزلت سورة المنافقين، فأخذ رسول الله ﷺ بأُذن زيد بن أرقم، ثم قال: (هذا الذي أوفى لله بأُذنه).

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني. وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فاقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار. فقال ﷺ: (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا).

قصة الإفك:

وتابع ﷺ مسيره حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ثم أذَّن مؤذنه بالرحيل، وارتحل الناس.. وكانت عائشة في بعض شأنها.. فكانت قصة الإفك.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. فلما كانت غزوة بني المصطلق، خرج سهمي وخرج بي رسول الله ﷺ. وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي ثم يأتي القوم الذين كانوا يرحلون لي فيحملونني ويأخذون بأسفل الهودج فيضعونه على ظهر البعير.. ووجه رسول الله قافلاً حتى

إذا كان قريباً من المدينة نزل فبات بعض الليل ثم أذن بالرحيل فارتحل الناس.

وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري. فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده. وقد أخذ الناس في الرحيل. فرجعت ألتمسه حتى وجدته. وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لي البعير فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه - كما كنت أصنع - فاحتملوه ولم يشكوا أني فيه - وكان النساء إذ ذاك لم يثقلهن اللحم - ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به.

ورجعت إلى العسكر، وما فيه داع ولا مجيب، وقد انطلق الناس. فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إلي فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي. وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته فلم يبت مع الناس. فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليَّ - وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآني قال: إن لله وإنا إليه راجعون: ظعينة رسول الله ﷺ ما خلفك يرحمك الله؟ وأنا متلففة في ثيابي، فما كلمته. ثم قرب إلي البعير، فقال: اركبي واستأخر عني. فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس. فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي. فقال أهل الإفك ما قالوا وارتج العسكر ووالله ما أعلم بشيء ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت.

ولاحظت عائشة أثناء مرضها عدم اللطف الذي عهدته من النبي ﷺ فاستأذنت أن تذهب إلى بيت أبيها.

وانتشر الحديث بين الناس ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم. وحبس الوحي شهراً، وخطب ﷺ الناس فقال: (ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق. والله ما علمت عليهم إلا خيراً،

ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً).. فقال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا أمرك. فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. فقام سعد بن عبادة ـ قالت عائشة: وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً[1] ـ فقال: كذبت، لعمر الله ما تضرب أعناقهم.. لو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.. وكاد الشر يقع بين الأوس والخزرج.

ودعا الرسول ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى خيراً فقال: أهلك وما نعلم منهم إلا خيراً. وقال علي: إن النساء لكثير...

كل هذا يحدث وعائشة لا تدري منه شيئاً. ثم بلغها الخبر، فبكت ـ كما قالت ـ حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي..

ودخل عليها رسول الله ﷺ وعندها أبواها، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (يا عائشة، إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت قد ألممت بذنب، فاستغفري، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه).

فقالت لأبيها: أجب عني رسول الله، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقالت لأمها مثل ذلك. وقالت أمها مثل ذلك.

فقالت: إن قلت إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقوني. ولا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

ونزل الوحي على رسول الله ﷺ فأما أنا، فقلت: إن الله لا يقول

---

(١) قال في فتح الباري: وكان صالحاً ولكن الغضب بلغ منه، ومع ذلك لم يغمص عليه في دينه. انتهى. وجاء في رواية للبخاري (٤٧٥٠): (وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية).

إلا الحق وأما أبواي فوالذي ذهب بأنفاسهما، وما أقلع عن رسول الله ﷺ إلا خفت أن أرواحهما ستخرجان. فكان أول كلمة قالها: أما الله يا عائشة فقد برأك. قال أبواي: قومي إلى رسول الله. قلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله[1].

تأملات في غزوة بني المصطلق:

١ - الباعث على الغزوة:

إن الباعث على هذه الغزوة، هو رد الاعتداء الذي بات وشيكاً على المدينة. ولم يقم بها رسول الله ﷺ إلا بعد التأكد من الأمر بإرسال مبعوثه إلى الحارث، فلم تكن غايته ﷺ من الغزو هي الغزو أو الحصول على الغنائم، ولذا نلاحظ في سلوكه أنه حينما يحصل له ما قصد، يتجاوز عن المكاسب بأسلوب أو بآخر وما زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث إلا الدليل الواضح على ذلك.

وزعت الغنائم فكانت جويرية في سهم ثابت بن قيس[2]، فكاتبته على نفسها وأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء، ما لم يخف عليك، فوقعت في سهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، وجئتك أستعينك على كتابتي. قال: (فهل لك في خير من ذلك؟) قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: (أقضي عنك كتابتك وأتزوجك) قالت: قد فعلت.

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية. فقالوا: أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم. قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد

---

(١) جاءت قصة الإفك مطولة في الحديث المتفق عليه (خ٤١٤١، م٢٧٧٠).

(٢) ثابت بن قيس صحابي أنصاري خزرجي، كان خطيب رسول الله ﷺ شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، قتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه.

أعتق في سبيها مائة من أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها[1].

إن الذي قسّم الغنائم هو رسول الله ﷺ ولو كان يريد الزواج لكان في سهمه من يريد، ولكن لم يكن ذلك هدفاً، فلما جاءت جويرية وهي بنت سيد القوم كان زواجها إطلاقاً لقومها، وهذا ما قالته عائشة رضي الله عنها. وقد يتساءل سائل لمَ لم يطلق سراحهم قبل التقسيم.. فالجواب: إن هذا حق للمجاهدين، وإرغامهم على ذلك غمط لحقهم، فكان الزواج الوسيلة التي حققت الهدف.

٢ ـ المنافقون:

خرج المنافقون في هذه الغزوة، ولم تكن المشاركة في الجهاد غايتهم، وإنما دفعهم إلى ذلك المغنم المتوقع. وقرب المسافة نسبياً، بل لعل العامل الأهم هو استعادة مكانتهم في صفوف المسلمين، بعد أن أصابها ما أصابها نتيجة فعلهم وسلوكهم في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ما فعلوه في غزوة أحد من رجوعهم.. وقد بدا موقف الرسول ﷺ قوياً وفي صعود فكان عليهم أن ينتهزوها فرصة، يتظاهرون بمؤازرتهم للرسول ﷺ وحرصهم على نصرته.

ويشاء الله ألا يتم لهم ما أرادوا، فالنفوس المظلمة لا يمكن أن ينبعث منها النور، وإذا هم أمام موقفين لعلهما من أسوأ المواقف التي للنفاق في تاريخه القذر:

أولهما: في قول ابن أبيّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ولئن كان هذا القول يمثل مستوى الانحدار الذي هوى فيه المنافقون، فقد كان موقف المؤمنين منه يمثل الجانب الآخر في سمو العقيدة وصلابة الإيمان في نفوس المؤمنين الصادقين وقد تمثل ذلك في

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٥، ورواه أبو داود برقم (٣٩٣١).

أكثر من موقف، منها: موقف أسيد بن حضير الذي قال على البداهة حين سمع الأمر من رسول الله ﷺ: فأنت يا رسول الله، والله تخرجه منها إن شئت، وهو والله الذليل وأنت العزيز. ومنها: موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي حيث وقف على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه قال له: وراءك، فقال: ما لك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقة[1] - فشكا إليه ابن أبي ابنه: فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له. فقال: أما إذا أذن لك رسول الله فجز الآن[2]... إنها مواقف الإيمان.

ثانيهما: موقف النفاق في اختلاق «قصة الإفك» هذه القصة التي هزت المدينة مدة شهر كامل هزاً عنيفاً، وكانت السهام موجهة فيها إلى النبي ﷺ وفي بيته الكريم وإلى أعز الناس عليه عائشة رضي الله عنها وإلى أبيها الصديق...

ومرة أخرى تنزل الآيات[3] ببراءة السيدة الكريمة زوج النبي ﷺ وبتكذيب المنافقين، كما نزلت من قبل الآيات بتصديق الذي أوفى لله بأذنه، زيد بن أرقم وبتكذيب المنافقين..

وقد لا يكون غريباً أنه لم تثبت تهمة القذف على المنافقين الذين أشاعوا الخبر ورتبوه.. بينما أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش فضربوا حد القذف[4]، ونجا المنافقون.. وما ذلك

---

(١) أي في آخر الناس.

(٢) عن تفسير ابن كثير في سورة المنافقين.

(٣) الآيات في سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾.. الآيات.

(٤) «عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل=

إلا لأن طبيعة النفاق العمل بعيداً عن السطح هكذا يتورط غيرهم وهم بعيدون.

٣ ـ من حكمته ﷺ:

وكل مواقفه ﷺ وتصرفاته حكمة، ولكنا نقتصر في هذه الغزوة على ذكر موقفين:

ـ حينما بلغته كلمة ابن أبي، أذَّن بالمسير، وفي وقت ما كان يروح في مثله، ثم سار بالناس يومهم وليلتهم وصدراً من نهارهم.. حتى أنهكهم التعب... وما ذاك إلا ليشغل الناس عن حديث عبد الله(١) لأن هذا الحديث ربما أدى إلى توسع الخلاف بين المؤمنين والمنافقين في وقت لا يريد الرسول ﷺ أن يفتح فيه جبهة جديدة للعداوة.. يدل على ذلك حديثه مع عمر الآتي:

ـ اقترح عمر قتل عبد الله بن أبي ـ كما رأينا ـ ومرت أحداث بعد ذلك ورسول الله ﷺ يسعه بحلمه حتى افتضح أمره افتضاحاً عظيماً.. فجعل قومه بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاتبونه ويعنفونه، فقال ﷺ لعمر بن الخطاب ـ حين بلغه ذلك من شأنهم ـ: (كيف ترى يا عمر؛ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته). قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري(٢).

ومن تلك الآنف التي أشار إليها رسول الله ﷺ موقف سعد بن عبادة ـ الذي سبق ذكره ـ يوم خطبة الرسول ﷺ بأمر الإفك.. حيث قال أسيد بن حضير كلمته فقال له سعد: كذبت لعمر الله ما نضرب

= أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم» رواه أحمد وأهل السنن الأربعة. ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان ومسطح وحمنة. [تفسير ابن كثير الآية ١١ من سورة النور] ووردت تسميتهم أيضاً في صحيح مسلم ح(٢٧٧٠/٥٨).

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٣.

أعناقهم... تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً» فسعد كان يرى رجلاً صالحاً.. ولم يكن يحسب من تلك الآنف ولكن الأحداث أظهرت منه ما لم يكن متوقعاً[1].. وهكذا تظهر حكمته ﷺ وَبُعْد نظره في تقدير الأمور.. هذا في المستوى الداخلي وأما في المستوى الخارجي فقد حدده بقوله ﷺ: (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

٤ ـ الاقتصاد:

كان من قول عبد الله بن أبي في كلمته الخبيثة: سمِّن كلبك يأكلك... هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

لا شك أن الأنصار قد قدموا الكثير الكثير. ولكن النفاق لا يفهم إلا منطق المادة، فهو لم يدرك لذة الإيمان لحظة واحدة، إنه يظن من خلال تجاربه ومفاهيمه عن الحياة، أن الإنسان يقاد من شهوة بطنه ومن خلال حاجاته المادية، وما درى أن هؤلاء المهاجرين قد تعالوا على المادة بكل ما لديها من وسائل الضغط، إنه لم يطلع فيما يبدو على تاريخ الإيمان ـ القريب العهد ـ ليتعلم منه أن المهاجرين صبروا على الجوع ثلاث سنوات في الحصار الاقتصادي في شعب أبي طالب، ولو كان منطقه صحيحاً لما وصل الإسلام إلى المدينة ولانتهى أمره في مكة، إن دعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ إلى الناس كانت تتعامل مع عقولهم وأفئدتهم تتعامل مع قلوبهم ومشاعرهم. ولم تكن أبداً دعوة تقوم مرتكزاتها الأساسية على التلويح للناس بتحقيق شهواتهم... إن ابن أبي أخطأ التقدير كما أخطأ الفهم. كما أخطأ الطريق السوي.. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

---

(١) سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، كما قالت عائشة رضي الله عنها، ولكنه احتملته الحمية فدفعته إلى ذلك الموقف، ولم يغمص عليه في دينه بسبب ذلك فمواقفه الكثيرة لا تنسى.

سرية سيف البحر[1]

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة إلى سيف[2] البحر، يرصدون عيراً لقريش، وفي الطريق أوشك زادهم أن يفنى، فجمع أبو عبيدة أزواد الناس، وجعل يقوتهم إياه. حتى كان يعطي كل رجل منهم كل يوم تمرة.

وسأل وهب بن كيسان جابر بن عبد الله فقال: وما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت.

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة، فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع، فكان مزودي تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت، ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه القوم ثمان عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ثم مرت تحتهما فلم تصبهما»[3].

وفي الرواية الأخرى «فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط[4]، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط»[5].

---

(١) ذكر ابن هشام هذه السرية في آخر كتابه في اجمال الغزوات والسرايا ٢/ ٦٣٢. وقال ابن سعد: كانت في رجب سنة ثمان، الطبقات ٢/ ١٣٢. وقال ابن كثير في البداية ٤/ ٢٧٧: إن هذه السرية كانت قبل صلح الحديبية، وكذلك قال صاحب الفتح: مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السرية في سنة ست أو قبلها. قبل هدنة الحديبية. اهـ. [فتح الباري ٨/ ٧٨]. وهو القول الأقرب لأنه ما كانت لتبعث هذه السرية والهدنة قائمة بين قريش والمسلمين.

(٢) سيف: ساحل.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٣٦٠). والظرب: الجبل الصغير. وقوله: (ثمان عشرة ليلة) كذا وردت في نسخ البخاري، وهو استعمال صحيح.

(٤) الخبط: ورق المسلم.

(٥) متفق عليه (خ٥٤٩٤، م١٩٣٥).

وقد دفعت هذه الحال من الجوع، رجلاً من القوم إلى نحر الجزر. قال جابر: «وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه»(١) وكان ذلك الرجل هو قيس بن سعد بن عبادة ﵄.

أما كيف حصل قيس بن سعد على هذه الجزر، فالجواب في رواية الواقدي قال: إن قيس بن سعد لما رأى ما بالناس قال: من يشتري مني تمراً بالمدينة بجزر هنا، فقال له رجل من جهينة: من أنت؟ فانتسب، فقال: عرفت نسبك. فابتاع منه خمس جزائر بخمسة أوسق، وأشهد له نفراً من الصحابة، وامتنع عمر لكون قيس لا مال له، فقال الأعرابي: ما كان سعد ليخنى بابنه في أوسق تمر، وأرى وجهاً حسناً وفعلاً شريفاً(٢).

ويبلغ أمر قيس رسول الله ﷺ بعد قدومهم فيقول: (إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت)(٣).

❁ ❁ ❁

ويطالعنا في هذه السرية أمور:

١ ـ حكمة أبي عبيدة ﵁ حيث جمع الأزواد، وسوى بين المجاهدين في التوزيع ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درس تعلمه من رسول الله ﷺ عملياً أكثر من مرة.

٢ ـ كرم قيس بن سعد بن عبادة ﵄، في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفف عن الناس، فلم تعوزه الحيلة أن فكر في الاستدانة على مال أبيه، وقد بدأ ينحر وينحر حتى نهاه أبو عبيدة. فقال: يا أبا عبيدة أترى أن أبا ثابت يقضي ديون الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، لا يقضي عني تمر القوم، مجاهدين في سبيل الله؟ وكاد أبو عبيدة يلين، ولكن عمر جعل يقول: اعزم، اعزم، فعزم عليه.

---

(١) من الحديث قبله، وجزائر: جمع جزور، وهو البعير.

(٢) عن شرح الزرقاني ٢/ ٢٨٢ ومعنى يخنى: يقصر.

(٣) من رواية ابن خزيمة، انظر فتح الباري ٨/ ٨١.

وعمر في ذلك يمثل عفة المهاجرين، ولا يريد أن يحمل الرجل ما لا يطيق، وقد حاول الوقوف في عدم إتمام الصفقة ولكن الجهني لم يهتم بذلك ويرى فيه الفعل الشريف.

ويعلم سعد بنهي أبي عبيدة لقيس بحجة أنه لا مال له، وإنما المال لأبيه، فيهبُ ابنه أربع حوائط أدناها يجذُ منه خمسون وسقاً[1].

فاستحقا بذلك ثناء الرسول ﷺ: (إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت).

٣ ـ يرى بعض المستشرقين وأعداء الإسلام، أن دعوة الإسلام قامت على قوم أعوزهم الجوع فانطلقوا بذلك الدافع..

والاتهام تافه لا يستحق الرد، ولكن هذه السرية تستوقفنا لما هو أكبر من الرد.

إن المسلمين في هذه السرية بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التمرة الواحدة طعام الرجل طوال يوم كامل في سفر ومشقة، ويمرون وهم على تلك الحال من فقد التمر وأكل الخبط على الجهني ـ الذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهلية.

إنهم اليوم ينطلقون بدين الله الذي جاء ليحفظ على الناس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرقون بين الحلال والحرام..

إن عمر ـ أخذاً بالحيطة في الحفاظ على أموال الناس ـ لم يقبل الشهادة على استدانة قيس من الجهني، ذلك لأنه ليس بصاحب مال وإنما يستدين على مال أبيه...

فهل هناك ما يحفظ على الناس أموالهم أكثر من ذلك؟ إن الإسلام لا يقود الناس من بطونهم ولكنه يقودهم من قلوبهم وأفئدتهم.

---

(١) من رواية الواقدي انظر شرح الزرقاني ٢/ ٢٨٢.

رصد تحرك اليهود

كان مركز تجمع اليهود بعد غزوة قريظة هو خيبر، وكان من المتوقع أن يتابع اليهود فيها عداوتهم للرسول ﷺ، ولهذا كان ﷺ يتحسس أخبار خيبر وما يدور حولها.

ووصلت الأنباء إلى رسول الله ﷺ أن بني سعد بن بكر - بفدك - يجمعون جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فبعث إليهم علي بن أبي طالب في مائة رجل. فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى وصل إلى الهمج - ماء بين خيبر وفدك - فوجد به رجلاً فسأله عن القوم فأنكر، فلما شد عليه اعترف أنه عين لهم أرسلوه إلى خيبر يعرض على يهودها النصر على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم. وتابع علي سيره حتى بلغ معسكرهم فلم يجد أحداً حيث علم به القوم من الرعاة فتفرقوا هاربين وساق علي ما وجد من النعم وعاد إلى المدينة[1] وكانت هذه السرية في شعبان من السنة السادسة.

كانت هذه السرية تأديباً لكل من تسول له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع. حيث علمت تلك القبائل أن عين المدينة يقظة لكل ما يدور حولها. وأن جميع التحركات كانت تحت المراقبة.

وإزاء غدر اليهود كان من الضروري معرفة أنباء خيبر ذاتها. بعد أن وصلت الأخبار إلى المدينة أن أسير بن زارم، رأس اليهود، قد سار في غطفان وغيرهم يجمع لحرب رسول الله ﷺ. فوجه ﷺ عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر - وذلك في رمضان - إلى خيبر سراً يستطلع أمورها. وحال أهلها وما يريدون وما يتكلمون به. فدخل وأصحابه خيبراً فتفرقوا في آطامها فوعوا ما سمعوا ومكثوا ثلاثة أيام. ثم عادوا إلى المدينة. فنقلوا إلى رسول الله ﷺ ما رأوا وما سمعوا.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٨٩، والواقدي ٢/ ٥٦٢.

وفي شوال بعث ﷺ عبد الله بن رواحة في نفر من الصحابة إلى خيبر، فاجتمعوا إلى أُسير فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم: ولي منكم مثل ذلك قالوا: نعم. فقالوا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه، فإنك إن قدمت إليه استعملك على خيبر وأحسن إليك. فخرج معهم في نفر من اليهود. فحمله عبد الله بن أنيس على بعيره فلما كانوا على أميال من خيبر ندم أسير على مسيره إلى رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن أنيس: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنت له، وقلت غدراً أي عدو الله؟ ثم اقتحم به عن البعير وضربه بالسيف فقتله بعد أن أصابه أسير في رأسه. ومال كل رجل من المسلمين إلى صاحبه فقتله[1].

لم تكن مهمة هذه السرية ـ فيما يبدو من النصوص التي أوردتها كتب السيرة ـ هي قتل أسير حيث خرج معهم وكل فريق قد أمن الآخر، ولكن مبادرته بالغدر هي التي أودت بحياته وحياة من كان معه. ولعل الرسول ﷺ كان يريد إبرام معاهدة معه، تكون نهاية لتحريض اليهود ضده، ولكن ذلك لم يتم بسبب ما حدث.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٦١٨، طبقات ابن سعد ٢/٩٢.. وجاء في سيرة ابن هشام اليسير بن رزام.

صلح الحديبية

الخروج إلى العمرة:

أعلن رسول الله ﷺ في الناس أنه يريد العمرة، ودعاهم إليها، ثم خرج لهلال ذي القعدة سنة ست بالمهاجرين والأنصار الذين لبّوا دعوته وكانت عدّتهم ألفاً وأربعمائة.

ولما كان بذي الحليفة قلد الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت معظّماً له، وكان يخشى أن تعرض له قريش بحرب أو يصدّوه عن البيت، فأرسل عيناً له من خزاعة هو بشر بن سفيان يستطلع له أمر قريش.

وسار النبيّ ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاظ[1] أتاه بشر بن سفيان الخزاعي فقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش[2]، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك، فقال: (أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدّونا عن البيت...) قال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجّه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه، قال: (امضوا على اسم الله)[3]، فلما كانوا ببعض الطريق قال

---

(١) موضع تلقاء الحديبية.

(٢) هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزاعة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحالفوا جميعاً بوادٍ يقال له: الأحبش بأسفل مكة فسموا الأحابيش. سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٣.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٧٨، ٤١٧٩).

النبيّ ﷺ: (إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين..) فما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش[1]، فانطلق يركض نذيراً لقريش[2].

وسار النبيّ ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط منها عليهم بركت به راحلته، فقالوا: خلأت القصواء[3]، فقال ﷺ: (ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلّا أعطيتهم إياها) ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية[4].

المفاوضات:

فلما اطمأنّ رسول الله ﷺ أتاه بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل[5] وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال ﷺ: (إنّا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا[6]، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره) فقال بديل: سأبلغهم ما تقول[7].

---

(١) قترة الجيش: الغبار الساطع منه.
(٢) البخاري كتاب الشروط برقم (٢٧٣١).
(٣) خلأت: حرنت: والقصواء اسم ناقة النبيّ ﷺ.
(٤) رواه البخاري: كتاب الشروط، وهو تتمة الحديث قبله.
(٥) هي الإبل الحديثة النتاج، والمراد أنهم خرجوا معهم بالنساء والأطفال.
(٦) استراحوا.
(٧) البخاري: كتاب الشروط، وهو تتمة الحديث قبله.

وانطلق بديل إلى قريش يبلغهم ما سمع... فاتّهموه... وقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب[1].

ثم جاء مكرز بن حفص فانتهى إلى مثل ما انتهى إليه بديل.

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة ـ سيد الأحابيش ـ فلما أشرف على النبيّ ﷺ قال: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت.

ورجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك. فغضب الحليس وقال: والله ما على هذا حالفناكم، أيصدُّ عن البيت من جاء معظماً له، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. قال: فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فلما أتاه جعل يكلّم النبيّ ﷺ، فقال له نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً[2] من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك.

فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه؟

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

---

(١) ابن هشام (٢/ ٣١١).

(٢) هم الأخلاط من الناس والرعاع.

وجعل يكلّم النبيّ ﷺ، فكلما تكلم كلمةً أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر[1]، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك[2].

ثم جعل عروة يرمق أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه يلاحظ احترامهم وتعظيمهم للرسول ﷺ.

ورجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً. . . إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[3].

بيعة الرضوان:

ولما لم تصل تلك المفاوضات إلى نتيجة دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، ولكني أدلّك على رجل أعزّ بها مني، عثمان بن عفان، فدعاه ﷺ فبعثه إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً البيت معظماً لحرمته.

---

(١) وهو غطاء من حديد مسرود يضعه المحارب على رأسه.

(٢) كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبيّ ﷺ: (أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء).

(٣) البخاري: كتاب الشروط، برقم (٢٧٣١).

وخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ، وأتى عثمان عظماء قريش فبلغهم ما جاء به، فلما فرغ قالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها فبلغ المسلمين أن عثمان قد قتل.

وقال ﷺ حين بلغه ذلك: (لا نبرح حتى نناجز القوم). ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، ولم يتخلّف عنها إلى الجد بن قيس[١].

وفي حديث أنس عند البيهقي قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: (اللّهمّ إن عثمان في حاجة الله تعالىٰ وحاجة رسوله)، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم[٢].

وقد سئل سلمة بن الأكوع: على أيّ شيء بايعتم؟ قال: على الموت[٣]، ثم تبين بعد ذلك أن خبر مقتل عثمان كان باطلاً.

إبرام الصلح وشروطه:

وبعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: (سهل لكم من أمركم)، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلّم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

فقال سهيل: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال: (اكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم). فقال سهيل: أما

(١) قال في الإصابة: يقال إنه كان منافقاً... ويقال: إنه تاب وحسنت توبته، ومات في خلافة عثمان.

(٢) عن تفسير ابن كثير في سورة الفتح. (٣) البخاري: كتاب المغازي.

(الرحمٰن) فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللّهمّ. فقال النبيّ ﷺ: (اكتب باسمك اللّهمّ). ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله). فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبيّ ﷺ: (والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله...).

وكانت اتفاقية الصلح تشتمل على أربعة شروط:

- وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض.

- من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه.

- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

- أن يرجع الرسول ذلك العام ويعود إلى مكة العام القابل، فيدخلها فيقيم بها ثلاثاً معه سلاح الراكب.

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد.

أبو جندل:

حينما كتبت الشروط كان من جملتها ما اشترطه سهيل بقوله: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلّا رددته إلينا. فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ وصادف ذلك مجيء أبي جندل، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل: هذا يا محمد أوّل من أقاضيك عليه أن تردَّه إليّ.

فقال النبيّ ﷺ: (إنا لم نقضِ الكتاب بعد).

فقال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

قال النبيّ ﷺ: (فأجزه لي).

قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال: بلى فافعل.

قال: ما أنا بفاعل.

وقال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟[1].

وقال رسول الله ﷺ: (يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم)[2].

عمر بن الخطاب:

لقد أصاب المسلمين غمّ شديد لهذه الشروط، ولعل خير ما يمثل حال بعضهم قول عمر: فأتيت نبي الله فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: (بلى). قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: (بلى)، قلت: فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: (إني رسول الله ولست أعصيه)، قلت: أوَ ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: (بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟) قلت: لا، قال: (فإنك آتيه ومطوف به).

قال عمر: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه[3] فوالله

---

(١) البخاري، كتاب الشروط برقم (٢٧٣١).

(٢) ابن هشام ٢/٣١٨.

(٣) الغرز للرحل، بمنزلة الركاب للسرج.

إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه، ومطوف به.

قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[1].

وكان من عمل عمر أنه حاول إغراء أبي جندل بقتل أبيه، إذ قام يمشي معه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم مشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، وجعل يدني قائم سيفه من أبي جندل، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضنّ الرجل بأبيه[2].

التحلّل من العمرة:

فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب، قال لأصحابه: (قوموا فانحروا ثم احلقوا...) حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[3].

خزاعة وبنو بكر:

ونتيجة لعقد الصلح دخلت خزاعة في عقد الرسول ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدها.

العودة إلى المدينة:

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح.

---

(١) البخاري: كتاب الشروط (٢٧٣١)، ومعنى قوله: «فعملت لذلك أعمالاً» أي أعمالاً صالحة ليكفر عما مضى من التوقف في تنفيذ الأمر.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣١٩.

(٣) البخاري: كتاب الشروط (٢٧٣١).

قال أنس بن مالك: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ - إلى قوله - فَوْزًا عَظِيمًا﴾، مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية فقال: (لقد نزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً)[(١)].

أبو بصير في المدينة:

استطاع أبو بصير - عتبة بن أسيد الثقفي - أن يفلت من حبسه في مكة ويأتي إلى المدينة.

وأرسل المشركون رجلين في طلبه إلى رسول الله ﷺ، فقالا: العهد الذي جعلت لنا. فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك). قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني. قال: (يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً)[(٢)].

قال في فتح الباري: وفي رواية أبي المليح: فقال عمر: أنت رجل وهو رجل ومعك السيف.

ودفع رسول الله ﷺ أبا بصير إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: (لقد رأى هذا ذعراً)، فلما

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٨٦).

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٣.

انتهى إلى النبيّ ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير، فقال: يا نبيّ الله، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم.

قال النبيّ ﷺ: (ويلُ أمه مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد)[1]. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر[2].

جماعة أبي بصير:

ونزل أبو بصير على ساحل البحر، بطريق قريش التي كانوا يسلكونها إلى بلاد الشام، ووصلت كلمته ﷺ لأبي بصير (لو كان معه أحد) إلى المسلمين الذين احتبسوا بمكة، فانفلت أبو جندل من أبيه وأهله ولحق بأبي بصير... فاجتمع إلى أبي بصير قريب من سبعين رجلاً. فضيّقوا على قريش، ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلّا اعترضوها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم...

وأرسلت قريش إلى النبيّ ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن.

فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير[3]، فقدم كتابه، وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده، فدفنه أبو جندل مكانه، وقدم ومن معه إلى المدينة.

---

(١) قال في فتح الباري: ويل أمه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم. ومسعر حرب: قال الخطابي: كأنه يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير لنارها. لو كان له أحد: أي ينصره ويعاضده، وفيه إشارة إليه بالفرار لئلا يرده إلى المشركين، ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين أن يلحقوا به اهـ.

(٢) البخاري: كتاب الشروط (٢٧٣١).

(٣) فتح الباري من رواية موسى بن عقبة عن الزهري.

تأملات في الحديبية

١ ـ قريش... والصلح:

لقد أذهل مجيء رسول الله ﷺ قريشاً، فلم يمض إلّا أشهر على غزوهم له، وحصارهم للمدينة، وها هو الآن يأتي مع أصحابه، وكأن الصلة بينه وبين أهل مكة صلة ودّ وعطف... فانبعثت بتجهيز نفسها لصدّه وها هي مقدمتها وطليعتها بقيادة خالد بن الوليد خارج مكة لتمنعه الدخول. إن العداء ومرارة الكره له بلغت ذروتها، ثم إن سمعتها اليوم معرّضة للذل الذي ليس بعده ذلّ، ولذا فهي مصرة ألا يدخل محمد مكة مهما كانت النتائج.

أما رسول الله ﷺ، فإنه يخرج لأداء نسك، ومكة بلد الله الحرام ما ينبغي أن يصدّ عنه من جاء معظماً له، أما الكره والحقد... فما عرفه رسول الله ولكنه كان حبّه لله وبغضه لله... وهو بهذا يكرهُ قريشاً... ويحب لها أن ترشد وتهتدي إلى سواء الصراط.

ووجدت قريش نفسها مضطرة لإرسال رسول يفهم قصد الرسول ﷺ من مجيئه ذاك... وكان ذلك بداية المحاورة بين الطرفين.

لم يدر في خلد قريش أن صلحاً وهدنة ستكون بينها وبين رسول الله ﷺ وهم بالأمس قد ذهبوا لاستئصال شأفته، ولكن هذا كان بعض ما يفكر فيه ﷺ، وقد قال وهو في الطريق: (والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلّا أعطيتهم إياها).

وكانت المفاوضات أخذاً ورداً، كان موقف رسول الله فيها ثابتاً... وهو أنه جاء معظماً للبيت، وكان موقف قريش ثابتاً وهو أنهم لن يسمحوا له بدخولها عليهم عنوةً.

ولعل الذي دعا قريشاً إلى التفكير في الصلح هو:

أ ـ كلمة عروة التي وصف بها أصحاب محمد ومحبّتهم له واحترامهم ومبادرتهم لتنفيذ أمره... ذلك الأمر الذي يجعل منهم قوة لا تقاوم، وقد جرّبوا هذه القوّة من قبل.

ب ـ سماعهم بالبيعة بعد حجزهم عثمان ـ وسواء أكانت البيعة على الموت أم على عدم الفرار فالمؤدّى واحد ـ وبهذا علموا أن الأمر جد، وأن حرمة مكة التي كانت سنداً قوياً لهم لن تمنع رسول الله ﷺ من عقابهم على سوء تصرّفهم.

فمالوا إلى الصلح، وأرسلوا إليه سهيل بن عمرو وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلّا أن يرجع عنّا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنّا أنه دخلها علينا عنوةً أبداً.

كان ذلك شرطهم الأول الذي لا ينبغي لممثلهم أن يتنازل عنه، ففي ذلك حفظ لماء وجوههم، واستنقاذ لسمعتهم.

٢ ـ اتّهموا رأيكم:

لم يكن الصحابة إجمالاً ـ باستثناء أبي بكر ـ راضين عن هذا الصلح، سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون.

فمن حيث الشكل: لم يقبل سهيل كتابة بسم الله الرحمٰن الرحيم... فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلّا «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فقال النبيّ ﷺ: (اكتب باسمك اللّهمّ)[(١)]، وكذلك رفض سهيل كتابة: محمد رسول الله... فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يمحوها، فقال عليّ: لا والله لا أمحوها، فقال رسول الله ﷺ: أرني مكانها فأراه مكانها فمحاها، وكتب ابن عبد الله[(٢)].

ومن حيث المضمون: فقد كانت الشروط ـ في ظاهرها ـ قاسيةً في حق المسلمين، وكأنهم فيها هم الجانب الضعيف، وزاد الموقف حراجة، مجيء أبي جندل أثناء كتابة العقد، وردّه إلى المشركين، وهذا ما دفع عمر إلى فعل ما فعل... ولم يكن ذلك سلوك عمر وحده،

---

(١) البخاري: كتاب الشروط رقم الحديث (٢٧٣١).

(٢) مسلم: كتاب الجهاد، صلح الحديبية رقم الحديث (٩٢).

فها هو سهل بن حنيف يقول يوم صفين: أيها الناس، اتّهموا رأيكم والله لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أني أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته[1].

وهذا ما جعل المسلمين في كآبة وحزن بل وذهول حتى إن رسول الله ﷺ أمرهم ثلاث مرات بنحر الهدي والتحلّل فلم يفعلوا... حتى قام فنحر وحلق... فقاموا مسرعين حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً، وكأنهم تنبّهوا للأمر الذي لم ينفذوه... واستمرّ هذا الغمّ والحزن حتى أثناء العودة.

قال أنس: «لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ - إلى قوله - فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة...»[2]. كانت نظرة الصحابة محدودة بالأوضاع القائمة وكانت نظرته ﷺ بعيدة المرمى ولم يتبيّن لهم ذلك إلّا فيما بعد. وقد أرسلت قريش تناشد الرسول ﷺ الرحم أن يبعث إلى أبي جندل وصحبه ويضمّهم إليه.

إنه الدرس الذي لخّصه سهل بن حنيف رضي الله عنه بقوله: «اتّهموا رأيكم على دينكم»[3].

٣ ـ خير أهل الأرض:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: (أنتم اليوم خير أهل الأرض) وكنّا ألفاً وأربعمائة[4]، وهي شهادة من الرسول ﷺ، وقد خلت هذه الغزوة من المنافقين وضعيفي الإيمان الذين ظنوا أن ذلك الذهاب لن يكون بعده عودة، اعتمدوا في

---

(١) البخاري ومسلم واللفظ لمسلم (خ٣١٨٢، م١٧٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٦).

(٣) والمعنى: أن الرأي إنما يكون عند فقد النص، ولا يقف الرأي في مقابلة النص.

(٤) متفق عليه (خ٤١٥٤، م١٨٥٦).

تقديراتهم الجوانب المادية من حيث العدد والعدّة. . . بعيداً عن حساب الإيمان فوصلوا إلى ذلك الظن ولذا آثروا القعود وعدم مشاركة المسلمين في مذهبهم ذاك وقد جاءت سورة الفتح لتؤكد شهادة الرسول ﷺ لأصحاب البيعة ولتفضح المنافقين. . . وتبيّن ما يعتذرون به قبل أن يقولوه: قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. . . وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[1]، ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ. . . سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾[2].

وبعد هذا البيان لشرف الصحابة إذ إن الذين يبايعون الرسول ﷺ إنما يبايعون الله تعالىٰ. . . وبعد بيان وضع المنافقين وضعيفي الإيمان، تأتي الآية الكريمة لتقول: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[3]، أجل إنهم خير أهل الأرض.

٤ ـ الفتح:

كانت الحديبية فتحاً، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين، لما ترتب على الصلح من وضع الحرب وشيوع الأمن حيث توفر للناس التعرّف على الإسلام، وأتيح للمسلمين عرض دعوتهم فكراً وسلوكاً، فدخل في دين الله الكثير ممن كان توقف. ووصل إلى المدينة من لم يكن قادراً قبل ذلك على الوصول إليها، وكان فتح مكة نتيجة من نتائجه.

---

(١) سورة الفتح: الآيات ٤ ـ ٩.
(٢) سورة الفتح: الآيات ١٠ ـ ١٢.
(٣) سورة الفتح: الآية ١٨.

قال البراء بن عازب ﷺ: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[١].

وجاء في حديث مسلم: «... فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه. فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: (نعم)»[٢]. إن الذين دخلوا في الإسلام خلال سنتي الصلح يعدل أو يزيد على أولئك الذين دخلوا من قبل، وبهذا، كانت الحديبية فتحاً.

٥ ـ الفقه الحركي:

وصل أبو بصير المدينة وبعد ثلاثة أيام وصل مبعوثا المشركين للمطالبة به، وما كان رسول الله ﷺ ليخلَ بما أعطى من التزام، وقد رأينا كيف أعاد أبا جندل والاتفاقية ما زالت تكتب، ويسلم رسول الله ﷺ أبا بصير للمطالبين به، وفقاً للاتفاق...

ويعود معهما أدراجه إلى مكة، والصورة التي تركها فيها من فتنة المؤمنين ما تزال خيالاتها في ذهنه، إنه يعود الآن بملء إرادته إليها بعد أن أفلت منها. فلمَ يعود؟ إنه لا يربطه بهم عقد ولا ميثاق، وإن استعادته ليست من باب التكريم بل هي الإذلال والفتنة... وتسنح له الفرصة فيقتل أحد الرجلين ويتبع الآخر الذي لاذَ بالمسجد... ويبادر الرسول ﷺ قائلاً: قد والله أوفى الله ذمّتك، ولم يؤنبه رسول الله ﷺ. ولكنه قال: (ويل أمه، مسعرَ حرب لو كان معه أحد).

وفهم منها أنه إن بقي في المدينة فسيرد ثانية إلى قريش، فتركها إلى ساحل البحر، إن الرسول ﷺ وصفه بأنه مسعر حرب أي محرّكها... ووصل فعل أبي بصير إلى مكة ووصلت كلماته ﷺ إلى المسلمين المستضعفين، فرأوا في سلوك أبي بصير سنّة يحسن سلوكها.

---

(١) البخاري، كتاب المغازي (٤١٥٠).

(٢) متفق عليه (خ٣١٨٢، م١٧٨٥).

إنه لا حقَّ لقريش أن تطالب رسول الله به وبأمثاله، ولا سيطرة لها عليهم، وهكذا تلاحق المستضعفون من المسلمين إلى أبي بصير، ذاك الرجل الذي كان سلوكه التفسير العملي لقول الرسول الكريم ﷺ: (إن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً...).

وكان الفرج مطالبة قريش ومناشدتها الرسول أن يضمّ هؤلاء إليه... رحمك الله أبا بصير لقد وصلك كتاب رسول الله ﷺ وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة بعد أن أعطيت أكبر درس في الفقه الحركي، ما أحوج المسلمين إليه وإلى أمثاله من الدروس.

غزوة ذي قَرَدْ (الغابة)

كانت غطفان طامعة في المدينة، وقد جاءت من قبلُ يومَ الخندق وأملها كبير في الحصول على المغانم... وها هي فزارة تهاجم المدينة وتسوق لقاح رسول الله ﷺ بعد أن قتلوا راعيها.

قال سلمة بن الأكوع: «خرجت قبل أن يؤذن بالأولى، وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد، فلقيني غلام لعبد الرحمٰن بن عوف فقال: أُخذت لقاح[1] رسول الله ﷺ فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان، قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه، قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة[2]، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي - وكنت رامياً وأقول:

أنا ابن الأكوع   اليوم يوم الرضع

وأرتجز: حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة، قال: وجاء النبيّ ﷺ والناس...»[3].

وتبدو في هذه الغزوة بطولة سلمة بن الأكوع، وحسن تصرفه فقد

---

(١) لقاح: جمع لقحة، وهي ذات اللبن القريبة العهد بالولادة.

(٢) لابتي المدينة: هما الحرتان.

(٣) متفق عليه (خ٤١٩٤، م١٨٠٦).

نادى فأسمع، ثم انطلق وحيداً يطارد القوم، كما في رواية مسلم - فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليّ فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته فعقرته، حتى إذا تضايق[1] الجبل فدخلوا في تضايقه علوت الجبل فجعلت أرميهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً، يستخفون،... فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر، فإذا أولهم الأخرم الأسدي، وعلى أثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي...

واستمرّت هذه المطاردة طوال اليوم، حتى إذا حلّ الظلام عاد إلى رسول الله ﷺ يسوق فرسين وهما آخر ما استنقذه من المغيرين، قال: قلت: يا رسول الله، خلني فأنتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلّا قتلته، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النهار، فقال: (يا سلمة أتراك كنت فاعلاً؟) قلت: نعم والذي أكرمك، قال: (إنهم الآن ليُقْرَوْن[2] في أرض غطفان).

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة، قال سلمة: فوالله ما لبثنا إلّا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر[3].

وقد ساعد سلمة على القيام بهذا الدور الفعال سرعته في العدو، وقد هدد أولئك الأربعة من غطفان الذين توجهوا إليه قائلاً: «والذي كرّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلّا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني»، وقد عرفوا منه هذا طوال اليوم، فكان ذلك مقنعاً لهم بالرجوع عنه.

---

(١) تضايق: أصبح ضيقاً. (٢) من القرى وهي الضيافة.

(٣) مسلم برقم (١٨٠٧) من حديث طويل. قال ابن كثير في البداية: إن هذه الغزوة بعد الحديبية وقبل خيبر، وهو أشبه مما ذكره ابن إسحاق، وبهذا قال صاحب زاد المعاد ج٣/ ٢٧٩.

كما يتّضح هذا في وصفه للعودة إلى المدينة، حيث قال: «ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، فبينما نحن نسير ـ قال: وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً ـ قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة، هل من مسابق فجعل يعيد ذلك، فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً، قال: لا، إلّا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: بأبي وأمي ذرني فلأسابق الرجل، قال: إن شئت... ثم عدوت في أثره... قال: فسبقته إلى المدينة»[1].

إنها إمكانات تسخّر في سبيل الله، فإذا هي تؤتي ثمارها، وهكذا يقدم كل مسلم ما عنده وما يحسنه لإعلاء كلمة الله تعالىٰ... ذهب يعدو... وعاد خلف رسول الله ﷺ.

---

(١) حديث مسلم السابق (١٨٠٧).

غزوة خيبر

مؤامرات اليهود لا تتوقف:

لم يسرَّ اليهود لقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولكنهم لم يكن باستطاعتهم فعل شيء، وسكتوا ردحاً من الزمن حينما وجدوا في المنافقين الوسيلة لتنفيذ ما يريدون، ولكنهم لم يستطيعوا الصبر طويلاً، حيث نكث بنو قينقاع العهد، ثم تبعهم بنو النضير، الذين سار أشرافهم إلى خيبر، وبهذا أصبحت خيبر المركز اليهودي الأول الذي حمل لواء العداوة للرسول ﷺ.

ومن خيبر انطلق الوفد الذي جمع الأحزاب وقادهم إلى المدينة، وحيي بن أخطب أحد رؤوس الوفد البارزين هو الذي زيّن لقريظة الخيانة والغدر فأوردها ونفسه موارد الهلاك...

وبعد قريظة أصبحت خيبر هي الثغرة التي يتوقع منها الخطر، ولاحظنا في بحث «رصد تحرك اليهود» كيف أن الرسول ﷺ اضطر لإرسال سريّتين إحداهما بقيادة عليّ بن أبي طالب، والثانية بقيادة عبد الله بن رواحة، لإبطال بعض التآمر الذي يحاك ضد المسلمين.

وكانت النوايا مبيتة لقيام اليهود بهجوم واسع النطاق على المدينة تستعين فيه خيبر بيهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا تستعين بأحد من العرب، اتّعاظاً بما حدث في غزوة الخندق[1].

على أن هذا لم يمنع اليهود من توثيق صلتهم بغطفان، فقد كانت الصلة بين الفريقين متبادلة.

---

(١) كان هذا رأي سلام بن مشكم، الواقدي ٢/ ٥٣٠.

وإزاء هذا الخطر الكامن كان لا بد للرسول الكريم ﷺ من تصفية حسابه مع خيبر، لا سيما وقد توقفت العداوة بينه وبين قريش، ولو إلى حين.

الطريق إلى خيبر وافتتاحها:

أقام ﷺ بالمدينة بعد الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر. ولم يخرج معه إلا الذين حضروا الحديبية[1] وسلك الطريق... حتى نزل بوادٍ يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ[2].

وهكذا كان ﷺ قد حسب لغطفان حسابها، فجعلها في طريقه ليكشف الطريق، ولا شكّ أنه كان له من العيون ما يوافيه بالمعلومات اللازمة. وكان المسير ليلاً، قال أنس: أتى رسول الله ﷺ خيبر ليلاً فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمد والخميس، فقال النبيّ ﷺ: (خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[3].

إن خيبر هي مجموعة حصون متقاربة، وقد حاصرها ﷺ وافتتحها حصناً حصناً... وكان أوّلها حصن ناعم... ثم انتهى إلى حصنيهم

---

(١) جاء في مسند أحمد عن مجمع بن جارية الأنصاري: (... فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل فيها أحد إلا من شهد الحديبية)، وعنده من رواية أبي هريرة قال: (ما شهدت مع رسول الله ﷺ مغنماً قط إلا قسم لي إلا خيبر فإنها كانت لأهل الحديبية خاصة)، الفتح الرباني ٢١/١٢٦، وجاء في تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالىٰ من سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ...﴾ قال: (فإن الله تعالىٰ قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم) اهـ.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٠.

(٣) متفق عليه (خ٣٧١، م١٣٦٥).

الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، فلما أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل.

عليٌ يفتح حصن القموص:

عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله)، فبات الناس يدوكون[١] ليلتهم، أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: (أين عليّ بن أبي طالب؟) فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: (فأرسلوا إليه)، فأتى فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: (أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[٢].

قال ابن حجر صاحب الفتح: وكان اسم الحصن الذي فتحه عليّ «القموص» وهو من أعظم حصونهم[٣].

وفتح الله على عليّ رضي الله عنه بعد قتال... وتمَّ فتح خيبر.

إبقاء اليهود في خيبر:

وبعد أن تمّ فتح خيبر عنوةً بعد قتال، ونزل أهلها على الجلاء، دعاهم رسول الله ﷺ فقال: (إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم فأقرّكم ما أقرّكم الله)، فقبلوا. وهكذا بقيت بأيديهم على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها.

---

(١) يدوكون: باتوا في اختلاف. (٢) متفق عليه (خ٤٢٢٠، م٢٤٠٦).
(٣) فتح الباري: شرح الحديث السابق.

شاة مسمومة:

بعد فتح خيبر أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم لرسول الله ﷺ شاة مصلية وضعت فيها السم، فتناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: (إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم) ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: (ما حملك على ذلك؟) قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبر، ومات بشر من أكلته تلك.

فدك:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أوقع الله تعالىٰ بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، وكانت المصالحة على مثل معاملة أهل خيبر. وكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف[1] عليها بخيل ولا ركاب.

العودة إلى المدينة:

وخرج رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، فلما انتهى إليه استقبلهم اليهود بالرمي، فأصيب خادم للرسول ﷺ بسهم وهو يحط الرحل فعبأ الرسول ﷺ أصحابه ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة... ثم دعاهم إلى الإسلام... ثم قاتلهم حتى أمسى، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة... وأقام أربعة أيام، ثم ترك الأرض والنخيل بأيدي يهود وعاملهم عليها.

فلما بلغ أهل تيماء خبر خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم[2].

ثم تابع طريقه عائداً إلى المدينة.

---

(١) الوجيف: سرعة السير، أي لم يكن فتحها عنوة.

(٢) البداية ٤/٢١٨.

تأملات في غزوة خيبر

١ ـ لأعطين الراية:

عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله) قال: فبات الناس يدوكون[١] ليلتهم: أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: (أين علي...)[٢].

وهكذا بات الصحابة ـ أو كبارهم ـ ليلتهم يقدرون ويتساءلون... من يعطاها؟ كلهم يرجو أن يكون هو، وما ذلك إلا للوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ ذلك الصحابي، فهو يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله وتلك منزلة يسعى لها ويتمناها كل صحابي، بل هي بغية كل من آمن بالله ورسوله إلى أن تقوم الساعة.

ولهذا تمناها ـ فيمن تمناها ـ عمر فقال: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فتساورت لها رجاء أن أدعى لها»[٣]، وفي حديث بريدة: ما منّا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلّا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها[٤].

ما نشك أنه لم يكن أحد منهم إلّا وهو يحب الله ورسوله، ولكنه الحرص الكبير على تلك الشهادة من الصادق المصدوق، والتي فيها أن الله ورسوله يحبانه... وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

---

(١) بات القوم يدوكون دوكاً: وقعوا في أخلاط ودوران وخاضوا في أمر (جامع الأصول).

(٢) متفق عليه (خ٤٢١٠، م٢٤٠٦).

(٣) مسلم، فضائل علي رضي الله عنه من حديث أبي هريرة رقم الحديث (٢٤٠٥).

(٤) عن فتح الباري في شرح الحديث رقم (٤٢٠٩ و٤٢١٠).

٢ ـ إبقاء اليهود في خيبر وغيرها:

فتحت خيبر وفدك ووادي القرى، وصالح أهل تيماء على دفع الجزية، والملاحظ أن الرسول ﷺ لم يخرجهم على الرغم من أن ذلك هو ما نزلوا عليه أولاً، ثم أبقاهم على أن يقوموا بإصلاح الأرض والعناية بها ولهم شطر الناتج منها، وللرسول ﷺ إخراجهم متى أراد.

وسواء أكان هذا العرض ـ الذي تمّ الاتفاق عليه ـ من قبل الرسول ﷺ أم من قبلهم، فالنتيجة واحدة، فقد استمرّوا في أرضهم...

كانت مصلحة المسلمين في هذا الاتفاق، فما كان بإمكان الصحابة الكرام أن يدعوا الرسول ﷺ والدعوة إلى الله، ليشتغلوا في الأرض وإصلاحها، إن أخطاراً كبيرة ما زالت قائمة في وجه الدعوة، ولا بدّ من متابعة الطريق، وقد يتساءل بعضهم عن فائدة ذلك الفتح إذن؟ إن هذه المناطق اليهودية كانت وكراً لحياكة المؤامرات في تلك الحصون المغلقة، أما الآن فهي مفتوحة تحت سمع الرسول ﷺ وبصره وإخراجهم ممكن لأي بادرة تظهر منهم.

واستمرّ بقاء اليهود إلى خلافة عمر حيث بدأت تظهر منهم بوادر الخيانة والاعتداء على المسلمين، فأجلاهم وفقاً للاتفاق...

٣ ـ عواطف... وعواطف:

ترامت الأنباء إلى مكة عن خروجه ﷺ إلى خيبر، وخيبر يومئذ هي ـ كما عرف عنها ـ قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً، وقد كان أهل مكة مهتمّين لهذه الأنباء ومعرفة ما تصير إليه الأمور، سواء منهم من كانت عواطفه مع المسلمين ـ من المسلمين المحجوزين في مكة أو غير المسلمين ممن له صلة قرابة بالنبيّ ﷺ كالعباس ـ وكذلك من كانت عواطفه مع الشرك وأتباعه، المسلمون يتمنون انتصار النبيّ ﷺ، والمشركون يمنون أنفسهم أن تأتيهم أنباء الهزيمة... ولم تعد الأمور بعيدة عن السطح فقد أصبح المسلمون يعلنون في مكة فرحهم أو حزنهم...

واندفع فريق آخر في مكة في توقع النصر لهذا الفريق أو ذاك حتى كان بينهم تراهن عظيم وتبايع[1]، منهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه، ومنهم من يقول: يظهر يهود خيبر...

وأسلم الحجاج بن علاط وحضر مع الرسول ﷺ خيبر ثم استأذنه في العودة إلى مكة ليجمع أمواله واستأذنه أن يقول شيئاً في سبيل ذلك فأذن له، فلما جاء مكة قال لامرأته ـ وهي لا تعلم إسلامه ـ: اجمعي لي ما كان عندك فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم... وفشا ذلك الحديث في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، وبلغ الخبر العباس فجعل لا يستطيع أن يقوم، فأرسل غلاماً له إلى الحجاج يستفسره عن الخبر، فقال له: إن الخبر على ما يسره، ووعده أن يأتيه سراً، والتقيا فأخبره الحجاج أن الرسول ﷺ افتتح خيبر وغنم أموالهم وأنه قال ذلك ليجمع أمواله وطلب إليه أن يكتم الحديث عنه إلى ما بعد ثلاثة أيام حتى يكون غادر مكة بأمواله إلى المدينة.

وأذاع العباس الخبر فيما بعد، فردّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين وخرج من كان من المسلمين دخل بيته مكتئباً حتى أتى العباس فأخبرهم الخبر فسرَّ المسلمون...[2].

إن قضية الإسلام وأحداثه وأخباره هي الشغل الشاغل لمكة من زمن بعيد ولكنها اليوم تأخذ منحىً جديداً، فقد أصبح للإسلام في مكة أنصار يفرحون لعزة الإسلام وانتصاره ويحزنون لما يحزن المسلمين.

لم يكن حزن المشركين يسيراً، فهم يعلمون تلك القوة التي كانت

---

(١) البداية ٤/ ٢١٧ نقلاً عن موسى بن عقبة في مغازيه.

(٢) حديث الحجاج بن علاط في مسند أحمد، ج٢١/ ١٢١ من الفتح الرباني، قال ابن كثير في البداية: هو على شرط الشيخين، وكذلك ابن هشام في سيرته ٢/ ٣٤٥.

تشكلها خيبر في وجه الدعوة الإسلامية، فهي نصيرهم الأول، أو لنقل هم نصراؤها الأول، وها هي تتداعى وتنتهي، وهذا لا يبشر بخير حسب مفاهيمهم، ولذلك كان حزنهم كبيراً لا يعادله إلّا فرح المسلمين الذي أخذ دور العلانية والظهور في مكة بعد تغيب طويل.

وتعلم قريش أيضاً أن خلوّ مسرح الأحداث من اليهود يعني فقدان السند الحقيقي للنفاق، وهذا يعني تراجع النفاق وعدم فعاليته.

٤ ـ الوضع الاقتصادي بعد خيبر:

تُعدّ خيبر مركز إنتاج زراعي، وبعد فتحها أضحت ملكاً للمسلمين يعمل فيها اليهود على النصف من إنتاجها، وبهذا أصبح للمسلدين مورد يسدّ بعض حاجتهم، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر»[1]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[2].

إن الوضع الجديد جعل المهاجرين يراجعون حسابهم، فقد ورد عن أنس بن مالك قال: «لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة... قال أنس: لما فرغ ﷺ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم»[3].

فقد أدّى الأنصار ما عليهم تجاه المهاجرين، فكان لهم في ذلك الفضل الكبير، وبعد خيبر وقد وسَّع الله على المسلمين قام المهاجرون بردّ ما في أيديهم إلى الأنصار.

---

(١) متفق عليه (خ٢٤٤٢، م٢٥٠٢). (٢) متفق عليه (خ٤٢٤٣، م٢٥٠٣).

(٣) متفق عليه (خ٢٦٣٠، م١٧٧١).

وفي الحديث ما ينبغي التوقف عنده، وهو أن المهاجرين، أو الكثير منهم لم يقبلوا تلك المنائح دون مقابل، بل بشرط أن يعملوا في الشجر والأرض ولهم نصف الثمار. ولم تطب نفوسهم أن يقبلوها منيحة محضة، وهذا لشرف نفوسهم وكراهتهم أن يكونوا عالة على غيرهم، وهذا ولا شك وفّر الوقت للأنصار ليعملوا في مجالات أخرى فهم أصحاب البلد ولهم الخبرة الكافية التي يستطيعون من خلالها الاستفادة من فراغهم في مجال آخر من مجالات الإنتاج.

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه وقال: (ما أدري بأيهما أنا أسرّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر).

وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أُمية الضميري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر.

وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين، روى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «بلغنا مخرج النبيّ ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبيّ ﷺ حين افتتح خيبر»[1].

وهكذا رجع مهاجرو الحبشة إلى المدينة بعد طول غياب عن رسول الله ﷺ فقد تركوه في مكة، وها هم يعودون إليه في المدينة بناء على طلبه، ولقد ظنّ بعض المسلمين أن هذا الغياب فوّت عليهم كثيراً

---

(١) متفق عليه (خ٤٢٣٠، م٢٥٠٢).

من الأجر والثواب عند الله تعالىٰ، مما اضطرّ بعضهم إلى الدفاع عن وجهة نظره ورفع الأمر أخيراً إلى رسول الله ﷺ ليفصل فيه.

دخلت أسماء بنت عميس[1] على حفصة زوج النبيّ ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة - وأسماء عندها - قال عمر - حين رأى أسماء -: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: آلحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم. قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنّا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء بالحبشة. وذلك في الله وفي رسوله ﷺ وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبيّ ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبيّ ﷺ قالت: يا نبيّ الله، إن عمر قال كذا وكذا. قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: (ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان)[2].

إنها خصومة بين أسماء وعمر ولكنها ليست على دنيا، وإنما من أجل الآخرة، لقد كانت أسماء رضي الله عنها محقّة في دفاعها عن رأيها، إنها المقاييس الفطرية التي نماها الإسلام فإذا هي على صواب من أمرها... إن عملاً صنع لله لا يضيع هدراً، إن غيبتهم عن الهجرة الأولى كانت كغيبة عثمان رضي الله عنه عن بيعة الرضوان، كان في أمر الله وأمر رسوله ﷺ فبايع عنه رسول الله ﷺ، إنها مقاييس واحدة... لكم أنتم أهل السفينة هجرتان... إنهم أول من هاجر وها هم يهاجرون الهجرة الثانية إلى المدينة.

---

(١) هي زوج جعفر بن أبي طالب وكانت معه في هجرته إلى الحبشة.

(٢) تتمة الحديث السابق.

قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبيّ ﷺ. وفي رواية: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[١].

وحق لهم أن يفرحوا، وحق لأبي موسى أن يسمع الحديث مرة وأخرى إنها الغايات التي يسعى لها المؤمنون، والآمال التي يرتجيها الصالحون وكيف لا؟ وهي كلمة العدل من الصادق المصدوق.

سرية
بشير بن سعد الأنصاري

قدم حسيل بن نويرة، وكان دليل النبيّ ﷺ إلى خيبر، فقال له النبيّ ﷺ: (ما وراءك؟) قال: تركت جمعاً من يمن وغطفان وحيان وقد بعث إليهم عيينة: إما أن تسيروا إلينا، وإما أن نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سِرْ إلينا، وهم يريدونك، أو بعض أطرافك.

فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر، فذكر لهما ذلك، فقالا: ابعث بشير بن سعد[٢]، فعقد له لواء وبعث معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار. وخرج معهم حسيل دليلاً، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا أسفل خيبر، ودنوا من القوم، فأغاروا على سرحهم وبلغ الخبر جمعهم فتفرّقوا، فخرج بشير في أصحابه حتى أتى محالهم، فوجدها ليس بها أحد فرجع بالنعم. وأصاب منهم رجلين فأسرهما وقدم بهما إلى رسول الله ﷺ فأسلما فأرسلهما[٣].

---

(١) تتمة الحديث السابق.

(٢) هو والد النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٣) طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٠، وقد ذكر أن هذه السرية في شوال سنة سبع للهجرة، زاد المعاد ٣/ ٣٦٣.

غزوة ذات الرقاع

اختلف في سبب التسمية، وقد ورد في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا قال: وحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟ كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه»[1]. وبعد هذا لا مجال للخلاف في التسمية.

وسبب هذه الغزوة أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان جمعوا الجموع يريدون رسول الله ﷺ، فخرج في أربعمائة من أصحابه حتى نزل نخلاً ـ موضع من نجد من أراضي غطفان ـ فلقي بها جمعاً عظيماً وتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلّى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس[2].

---

(١) متفق عليه (خ٤١٢٨، م١٨١٦).

(٢) اختلف في تاريخ هذه الغزوة ونلخص هنا الآراء في ذلك نقلاً عن شرح المواهب للزرقاني.
فعند ابن إسحاق بعد بني النضير سنة أربع في شهر ربيع الآخر وبعض جمادى
وعند ابن حبان وابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس.
وجزم أبو معشر أنها كانت بعد بني قريظة.
وقال صاحب الفتح: جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر فقال: وهي بعد خيبر لأن أبا موسى جاء بعد خيبر... واستدل لذلك بأمور ومع ذلك ذكرها قبل خيبر عقب قريظة. قال الحافظ ابن حجر: الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة لأن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت. وقد ثبت في الصحيح عن جابر وغيره وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع فدل على تأخرها بعد الخندق ثم قال ابن حجر: عند قول البخاري وهي بعد خيبر لأن أبا موسى الأشعري جاء بعد خيبر من الحبشة سنة سبع. وقال بعضهم: أن الغزوة التي حضرها أبو موسى، غير هذه بدليل قوله: ونحن ستة نفر. والغزوة=

وقد حدثت خلال هذه الغزوة أحداث ننقل بعضها:

جاء في الصحيحين عن جابر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاه، يستظلّون بالشجر. ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس. فقال رسول الله ﷺ: (إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فها هو جالس) ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ.

وهذا بعض تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

= التي فيها صلاة الخوف كان فيها أضعاف ذلك. والجواب عن ذلك أن العدد الذي ذكره أبو موسى محمول على من كان مرافقاً له ولم يرد جميع من كان مع النبيّ ﷺ اهـ ٢/ ٨٧.

أقول: يؤكد هذا أن رواية أبي موسى بيان لسبب التسمية وأن كثرة المتعاقبين على الجمل الواحد كان سبباً في ذلك، ولو كان لكل واحد ما يركبه ما لزمهم لف الخرق على أرجلهم. فذكر عدد النفر بيان لمقدار المشقة وكثرة المشي وليست بياناً لعدد من حضر الغزوة.

وقد جزم الأستاذ البوطي بأنها قبل غزوة الخندق بناء على حديث جابر ولكنه اضطر أن يقول إن حديث أبي موسى كان عن غزوة ثانية. مستنداً في ذلك إلى ذكر (ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه) وقد رد ذلك بما سبق. ومع هذا فالأستاذ البوطي يتوقف في حديثه عن العبر والعظات ليتحدث أول ما يتحدث عن حديث أبي موسى.

قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ساق الأدلة: وهذا يدل على أن غزوة ذات الرقاع بعد خيبر فالصواب تحويل غزوة ذات الرقاع من هذا الموضع إلى ما بعد الخندق بل بعد خيبر وإنما ذكرناها ها هنا تقليداً لأهل المغازي والسير ثم تبين لنا وهمهم. زاد المعاد ٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣. (وجاء ذكرها عنده قبل الخندق).

وفي طريق عودته ﷺ نزل منزلاً، فقال: (من رجل يكلؤنا[١] ليلتنا هذه؟) فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار[٢]، فقالا: نحن يا رسول الله. قال: (فكونا بفم الشعب). فلما كانا فيه قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه؟ أوّله أم آخره؟ قال: بل اكفني أوّله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي... وكان رجل من المشركين لحق بالمسلمين يريد منهم غرة، فلما رآه يصلي عرف أنه ربيئة القوم[٣]، فرمى بسهم فوضعه فيه، فنزعه ووضعه... ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم عاد بالثالث فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ثم أيقظ صاحبه فقال: اجلس فقد أثبتُّ. فوثب فلما رآهما الرجل هرب. ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أهببتني[٤] أوّل ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تتابع الرمي ركعت فآذنتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[٥].

---

(١) يكلؤنا: يحفظنا ويحرسنا.

(٢) هما عمار بن ياسر وعباد بن بشر.

(٣) الربيئة: الطليعة الذي يحرس القوم.

(٤) أهبَّ: أيقظ.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/٢٠٨.

الرسل إلى الملوك والأمراء

الوقت الملائم:

أصبح الوضع العام ملائماً بعد خيبر لتبليغ الدعوة إلى الناس عامةً، فقريش بينها وبين المسلمين عقد صلح، وخيبر افتتحت، وغطفان تصل أنباؤها إليه ﷺ فلا يتيح لها أن ترفع رأسها، والمنافقون تقوقعوا على أنفسهم، فهم لا ينشطون إلّا في الأزمات، وقد تجاوز المسلمون هذه المرحلة، وهكذا وجد ﷺ الوقت مناسباً ليبعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته ويعرض عليهم ما جاء به.

لم يكن يبعث هؤلاء الرسل في وقت واحد، بل بدأ ذلك بعد الحديبية واستمرّ إلى وفاته ﷺ ـ كما قال ابن إسحاق[1] ـ وقد روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه النبيّ ﷺ[2].

ولما أراد ذلك قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلّا أن يكون مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة، وكان نقشه من ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، وسطر الله. وذلك من أسفل إلى أعلى، فكان يختم به الرسائل[3].

ويحسن بنا أن نلمّ إلمامة سريعة ببعض هذه الرسائل.

---

(١) البداية ٤/ ٢٦٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٧٤).

(٣) شرح المواهب ٣/ ٣٣٤.

إلى هرقل:

كان ذلك بعد رجوعه ﷺ من الحديبية، وقد أمر دحية الكلبي أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى هرقل، وقد سلم إليه الكتاب حينما ذهب حاجّاً إلى بيت المقدس.

وقد أحبّ هرقل أن يعرف شيئاً عن سلوك النبيّ ﷺ وصفته، فأرسل صاحب شرطته يبحث له عن رجل من بلده ﷺ، فعثر على أبي سفيان فجيء به ومعه صحبه، فلما حضروا سألهم عن أقربهم من رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: أنا، فقربه منه وسأله أسئلة... ثم قال لترجمانه: قل له سألتك عن نسبه، فزعمت أنه فيكم ذو نسب. وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسّى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فإذا فيه: (بسم الله الرحمٰن الرحيم.

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾).

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا. فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

قال الزهري: فدعا هرقل عظماء الروم، فجمعهم في دار له، فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد آخر الأبد، وأن يثبت ملككم، قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد أغلقت، فقال عليَّ بهم، فدعا بهم فقال: إني إنما اختبرت شدّتكم على دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببت، فسجدوا له ورضوا عنه[(١)].

إلى كسرى:

وبعث ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزّقه، قال ابن المسيّب: فدعا عليهم النبيّ ﷺ أن يمزقوا كل ممزق[(٢)].

كتب أخرى[(٣)]:

وبعث ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر، والعلاء بن الحضرمي

---

(١) متفق عليه (خ٤٥٥٣، م١٧٧٣). (٢) صحيح البخاري برقم (٤٤٢٤).

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠٧، والبداية ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٧٣، والكامل ٢/ ١٤٣ - ١٤٧.

إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام.

والمهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن. وعمرو بن العاص إلى صاحبي عمان ـ وذلك بعد إسلام عمرو ـ.

النتائج:

إن الحكمة تقتضي اختيار الوقت المناسب للعمل الذي يريده الإنسان، وقد رأينا كيف كان الزمن ملائماً لإرسال الرسل إلى الملوك.

والملاحظ أيضاً أنه ﷺ لم يرسل هؤلاء الرسل في وقتٍ واحد، بل بدأ إرسالهم إثر عودته من الحديبية واستمرّ بعد ذلك حتى وجدنا بين رسله عمرو بن العاص، وهو لم يسلم إلا قبيل فتح مكة، وفي ذلك من الحكمة ما فيه، فإن الردود لم تكن معروفة، وقد يكون في بعضها ما يحتاج معه الرسول ﷺ إلى استعمال القوة... فإن كسرى أرسل إلى عامله أن يرسل إلى المدينة من يأتيه به ﷺ؟! وبهذا التأني تتاح الفرصة لمعرفة الردود، ومن خلالها يصنف الرسول ﷺ أولئك الملوك والأمراء بين عدوّ وصديق... وبهذا يمكنه تحديد سياسته الخارجية والطريقة التي يستطيع بها إيصال دعوته إلى الناس كافة.

وكانت هذه الرسائل وسيلة هامة لإسماع الناس نبأ الدعوة، وقد كان بعضهم خالي الذهن منها ككسرى، وبعضهم ينتظرها كقيصر... ولكنه لم يكن يعلم أنها في العرب... وكانت الرسائل يومئذ وسيلة إعلامية في بعض مهماتها.

وكان لهذه الرسائل آثار إيجابية أخرى غير ما ذكر، فقد:

- أسلم المنذر بن ساوى العبدي صاحب البحرين.
- وأسلم ملكا عمان وأسلم معهما خلق كثير.

ـ وأسلم باذان أمير اليمن ومن معه. . .

ـ وأظهر المقوقس الودّ في ردّه.

ولا شك أن إرسال الرسل للدولتين الكبريين يومئذ ـ فارس والروم ـ يبين مدى القوة الذاتية التي كان يتمتّع بها رسول الله ﷺ مؤيّداً بحفظ الله ورعايته، واثقاً من نصره الذي وعده إياه.

وبهذا تكون الدعوة قد سارت خطوة أخرى واسعة نحو تحقيق موعود الله سبحانه وتعالىٰ.

سرايا استطلاعية

لم تكن الفترة بين خيبر وبين عمرة القضاء فترة راحة، بل كان ﷺ يسيِّر السرية تلو السرية في اتجاهات مختلفة، يستطلع من خلالها الجوّ العام الذي يحيط به، كما أنه يُظهر بتلك السرايا قوة المدينة حتى لا يطمع فيها طامع، وكان من تلك السرايا في هذه الفترة:

ـ سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة.

ـ سرية عمر بن الخطاب إلى تربة من أرض هوازن وراء مكة على أربع ليال.

ـ سرية بشير بن سعد إلى بني مرة من أرض فدك.

ـ سرية غالب بن عبد الله الكلبي إلى بني الملوح بالكديد.

ـ ومن هذه السرايا سرية محمد بن مسلمة قبل نجد[1] التي قامت بمهمتها وفي طريق عودتها أسرت رجلاً من بني حنيفة، لا يشعرون من

---

(١) ذكر بعض كتاب السيرة هذه السرية قبل الحديبية. . . ولكن ابن كثير بعد أن ذكرها هناك قال: إن هذه السرية جاءت في رواية أبي هريرة وهو إنما هاجر بعد خيبر. فتؤخر إلى ما بعدها اهـ. ويؤيّد قول ابن كثير أن ابن هشام ذكر ثمامة بن أثال في عداد الذين أرسل لهم رسول الله ﷺ رسائل. فمن المؤكد أنها كانت بعد ذلك إذ ليس يعقل أن يكون مسلماً قبل ذلك ويرسل إليه بذلك.

هو، حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: (أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي)، أحسنوا إساره، ورجع ﷺ إلى أهله فقال: (اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه)، وأمر بلقحته أن يُغدى عليه بها ويراح. وكانت إقامته بالمسجد، فخرج عليه رسول الله ﷺ فقال: (ماذا عندك يا ثمامة؟) فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه ﷺ حتى كان الغد فكرّر عليه القول وكرّر عليه ما قال، ثم كان الأمر كذلك بعد الغد. فأمر ﷺ بإطلاق سراحه، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فأعلن إسلامه، وقال مخاطباً النبيّ ﷺ: والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إليّ... ودينك أحب الدين كله إليّ... وبلدك أحب البلاد كلها إليّ.

ثم قال: إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره ﷺ وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت... ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[1].

إن ثمامة كان سيد أهل اليمامة - كما في حديث مسلم - وقد كان الرسول ﷺ مهتماً بإسلامه، وما إرسال رسالة له مع رسائل الملوك والأمراء إلّا دليل على ذلك. وقد بقي في الأسر ثلاثة أيام، قدّم له ﷺ أنواع الإكرام وكان يعرض عليه الإسلام، ولكنه أبى... ثم أسلم طواعية.

إن بقاءه بالمسجد ورؤيته المسلمين وسلوكهم ورؤيته رسول الله ﷺ

---

(١) حديث ثمامة متفق عليه (رقم البخاري ٤٣٧٢ ورقم مسلم ١٧٦٤).

عن كثب غيّرت الصورة السيّئة التي كانت مستقرة لديه من جراء الدعاية التي كانت تبثّها قريش وأعداء الإسلام، وإزاء هذه الصورة المشرقة أعلن إسلامه طواعية، ولم يعلنه قبل ذلك حتى لا يقال إن الخوف هو الذي دفعه لذلك.

وهكذا دخل المسجد والرسول ﷺ أبغض الناس إليه ليخرج منه وهو أحبهم إليه... وحينما عنفته قريش على إسلامه ـ أثناء عمرته ـ منع عنهم تجارة الطعام التي كانت ترد إليهم من اليمامة، حتى اضطرّت قريش أن تكتب إلى رسول الله ﷺ تطلب منه صلة للرحم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي بينهم وبين الميرة ففعل ﷺ.

وهكذا بدا صدق الإيمان لدى ثمامة من اللحظة الأولى التي أعلن إسلامه فيها[١].

عمرة القضاء

لمّا كان مستهل شهر في القعدة من العام السابع للهجرة دعا ﷺ الناس أن يتجهّزوا للعمرة، وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في العمرة التي جرى فيها صلح الحديبية.

ولما سمع به أهل مكة خرجوا عن البيت، وقالوا: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، وصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.

فلما دخل ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوّة. ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها.

---

(١) قام ثمامة بعد وفاة الرسول ﷺ مقاماً حميداً حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة حيث أطاعه ثلاثة آلاف منهم وانحازوا إلى المسلمين.

وقد أحاط المسلمون برسول الله ﷺ يسترونه خوفاً من أذى الغلمان والسفهاء، بل والمشركين جميعاً.

وقد كان ﷺ دخل مكة وعبد الله بن رواحة ينشد بين يديه، فقال له عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبيّ ﷺ: (خل عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل)[1].

وأقام ﷺ في مكة ثلاثة أيام، فلما كان صباح اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذن بالرحيل.

إسلام
عمرو بن العاص وخالد بن الوليد
وعثمان بن طلحة

كان ذلك في شهر صفر من العام الثامن للهجرة، ولنترك الحديث لعمرو يحدثنا قصة إسلامه، قال[2]:

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنّا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحبّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن يظهر قومنا فنحن من قد

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٨٤٧)، والنسائي برقم (٢٨٧٣).

(٢) وردت هذه القصة في مسند الإمام أحمد (ج٢١ ص١٣٤) من الفتح الرباني وفي سيرة ابن هشام ٢/٢٧٦ نقلاً عن ابن إسحاق.

عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا الرأي. قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده، إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها، حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع؛ فقال: مرحباً بصديقي، أهديت إلي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه. ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوٌّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا؛ قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقّت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عمّا كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد ـ وذلك قبل الفتح ـ وهو مقبل من مكة؛ فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم[1]، وإن الرجل لنبيّ، أذهبُ والله فأسلم،

---

(١) بوزن المسجد: معناه تبيين الطريق.

فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلّا لأسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ. فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخّر، قال: فقال رسول الله ﷺ: (يا عمرو، بايع فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها) قال: فبايعته ثم انصرفت.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتّهم، أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما، حين أسلما.

ولنستمع بعد هذا إلى بعض قصة إسلام خالد[1]. قال:

لما صالح رسول الله ﷺ قريشاً بالحديبية، قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتّبع محمداً، وأصحابه عنده آمنون. فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية... ودخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية فتغيّبت ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبيّ ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. أمّا بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له وقدمناه على غيره. فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة».

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرّني سؤال رسول الله ﷺ عني،... فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب؟ فلقيت صفوان بن أمية. فقلت: يا أبا

---

(1) البداية ٤/٢٣٨ عن الواقدي.

وهب أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه، فإن شرف محمد لنا شرف. فأبى أشدّ الإباء، فقال: لو لم يبق غيري ما اتّبعته أبداً، فافترقنا. وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر.

فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، فقلت: فاكتم علي، قال: لا أذكره.

فخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق، فلو ذكرت له ما أرجوه، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما علي وأنا راحل من ساعتي. فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صبّ فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي فأسرع الإجابة... فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة، فنجد عمرو بن العاص بها، قال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك. فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتّباع محمد ﷺ. قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا. فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي، فقال: أسرع، فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسرّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي، فاطّلعت عليه، فما زال يبتسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلّمت عليه بالنبوة فردّ عليّ السلام بوجه طلق. فقلت: إني أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله. فقال: (تعال). ثم قال رسول الله ﷺ: (الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلّا إلى خير). قلت: يا رسول الله، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادع الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام يجبّ ما كان قبله)، قلت: يا رسول الله على ذلك، قال: (اللّهمّ اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيل الله).

قال خالد: وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ.

تلك قصة إسلام هذين الرجلين القائدين اللذين كان لهما الأثر الكبير في الإسهام في حمل دعوة الإسلام كما كان لهما خطرهما من قبل في الصدِّ عن سبيل الله تعالىٰ. إن الإسلام وصل إلى نفسيهما منذ مدة قبل إعلانه، ولكن مكانهما في قيادة المشركين حالت دون السرعة في الانحياز إليه، إن القائد الذي يحمل الراية ويقود الناس ليس من السهل انتقاله إلى الصف المقابل، وإن القناعة قائمة أن مكة ستسقط في يد رسول الله ﷺ غداً أو بعد غد... فجعل كل منهما يفكر أين يعيش وكيف؟... ولقد يسَّر الله لكل منهما ما دفعه إلى طريق الإيمان .. إن كلمة النجاشي وهو رجل كان من أهل الكتاب وهو على علم وثقافة كانت كفيلة بأن تضع عَمْراً على الجادّة.

وأما خالد فقد تغيّب عن مكة، وما نعتقد أن ذلك كان بعامل الكره للإسلام، وإنما بعامل الخجل والشعور بالهزيمة إزاء دخول الرسول ﷺ إليها، وقد شعر من قبل أن عقد الصلح كان نهاية الشرك في مكّة، إن الأمر واضح في انتصار الإسلام وصدق النبوّة، ولكن كيف السبيل إليه، إن صور الماضي كانت تجتمع في رأس خالد فتحول بينه وبين الإسلام... كيف يسلم وهو الذي قاد خيل المشركين في أُحد وفي الخندق وفي الحديبية... وتجيء رسالة أخيه الوليد، لتضع خالداً على الجادة، لا سيما وأنها تبين تقدير الرسول الكريم له، والاحتفاظ له بمنزلته، والرسول ﷺ خير من قدر الرجال.

وهكذا جمعهما الطريق إلى المدينة فالتقيا على غير موعد، وقد كان كلّ منهما قد راجع حسابه، فإذا بهما يشعران - ولم يسلما بعد - بثقل الماضي وإثمه وشروره فيحاولان المخرج منه... ويبايع خالد طالباً الدعاء بالمغفرة ويبايع عمرو على أن يغفر له ما تقدم من ذنبه... إن الذي يشغل بال كل منهما أمر الماضي... أليس هذا هو الفقه؟

وبدأ كل منهما صفحة جديدة، كتب فيها مآثر الخير، وسجّل أحداثاً كانت بعض تاريخ الإسلام العظيم فإذا هما ـ وأمثالهما ـ يفسران قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)[1].

ونعتقد أن الكثير ممن كان في مكة كانوا في مثل حال عمرو وخالد، ولكن أسباباً كثيرة حالت دون سلوكهم الطريق التي سلكاها، فلما افتتحت مكة انطلقوا يحملون راية الإسلام، ويبرهنون عن قناعة بالإيمان لا تقلّ عن قناعة غيرهم، ولعلّ هذا يفسر لنا عدم ردة مكة يوم ارتدّ المرتدّون.

---

(١) متفق عليه (خ٣٤٩٣، م٢٥٢٦).

غزوة مؤتة[1]

أحداث المعركة وأسبابها:

كان في جملة الرسل الذين أرسلهم النبيّ ﷺ إلى الملوك والأمراء، الحارث بن عمير وقد بعثه بكتاب إلى ملك بصرى الحارث بن أبي شمر الغساني - أميرها من جهة هرقل -. فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - من أمراء قيصر على الشام - فقال: أين تريد؟ لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

وبلغ نبأ مقتله رسول الله ﷺ، فاشتدّ ذلك عليه، فندب الناس فاجتمع له ثلاثة آلاف، فقال: (أميركم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة). وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هنالك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلّا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم.

وخرج ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم، وودع الناس أمراء رسول الله ﷺ قائلين: دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين. فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرة   وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

---

(١) هي قرية من أرض البلقاء من الشام، وسميت غزوة - على الرغم من عدم مشاركته ﷺ بها - لكثرة جيش المسلمين، ولمكانة هذه المعركة، بسبب كثرة الأعداء، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضمّ إليهم من لخم وجذام وبهراء وبلي مائة ألف، فلما بلغهم ذلك أقاموا في معان ليلتين يفكّرون في أمرهم، فقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا، فإما أن يمدّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. ولكن عبد الله بن رواحة شجّع الناس فقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة.

ومضى المسلمون حتى أتوا مؤتة، وهناك كان اللقاء بالمشركين والروم، فتعبأ المسلمون، ثم التقى الجيشان واقتتلوا، فقاتل زيد براية رسول الله ﷺ حتى قتل، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا أُحيط به نزل عن فرسه فعقرها ثم قاتل حتى قتل، بعد أن قطعت يمينه فأخذ الراية بشماله فقطعت فاحتضنها بعضديه، ثم أخذ الراية عبد الله فتقدم بها فقاتل حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم العجلاني، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

وكان اليوم الأول من القتال قد انتهى فبات خالد، وغدا وقد غيَّر تشكيلة القتال حيث جعل المقدمة ساقة، والساقة مقدمة، والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة[1].

وقاتل خالد، فدافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس[2].

واستطاع خالد أن يوهم العدو بأن المدد قد جاءه بتغيير المواقع

---

(١) الواقدي ٢/ ٧٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨٠.

كما أن ذلك التشكيل يفسر الحكمة من أسلوبه في القتال. فقد أضحت المقدمة في مكان الساقة. . . فكان القتال قتالاً مع التراجع، فكأنه يريد جرّ العدو من مواقعهم، ولعل هذا الأسلوب الذي لم يعهد، جعل بعضهم يفسر فعل المسلمين هزيمة، وليس كذلك، بل هو القتال مع التراجع حتى استطاع أن ينحاز بالمسلمين وابتعد العدوّ عنه.

وعاد الجيش إلى المدينة، وكانت هذه الغزوة في جمادى الأولى للعام الثامن من الهجرة.

نعي الأمراء الثلاثة:

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه «أن النبيّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)»[1].

ودخل ﷺ بيت جعفر فقال لزوجته أسماء بنت عميس: (ائتني ببني جعفر). قالت: فأتيته بهم، فتشمّمهم وذرفت عيناه. فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: (نعم، أصيبوا هذا اليوم)، قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إليّ النساء وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: (لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم)[2].

تأملات في غزوة مؤتة

١ ـ اللقاء الأول مع الروم:

ما كان لرسول الله ﷺ أن يسكت على قتل رسوله، لما في ذلك من انتهاك لأعراف عامة واستهانة بالمرسل، وكان الإعلان تشكيل

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، غزوة مؤتة (٤٢٦٢).

(٢) ابن هشام ٢/ ٣٨١.

الجيش الذي اعتبر حتى ذاك الوقت أكبر جيش للمسلمين، وإن تعيين الأمراء الثلاثة يدلّ على اهتمامه ﷺ بتلك المعركة، كما يدلّ على توقعه لحدوث بعض ما وقع.

كان ﷺ يعتمد في حروبه على عنصر المفاجأة للعدو، والذي يبدو أن المنافقين كانوا عاملاً سيئاً في إبطال هذا العنصر إذ وصلت الأخبار إلى الروم وجيش المسلمين لم يتحرك من المدينة بعد.

لم تكن مهمة هذا الجيش هي اللقاء مع جيوش الدولة الرومانية ـ وهو ما حدث بالفعل ـ وإنما كانت مهمة تأديبية للمنطقة التي قتل فيها رسول رسول الله ﷺ.

٢ ـ جيش الروم:

ونتساءل لماذا هذه الكثرة في جيش الروم:

إن أنباء الإسلام لم تعد خافية على أحد وخاصة الأماكن المتاخمة للجزيرة العربية، حتى إن أنباء الرسل إلى الملوك والأمراء قد علمها الناس، ولذا لاحظنا قول شرحبيل للحارث: لعلك من رسل محمد؟ كما لم يكن خافياً أن جيش المسلمين يتمتع بالكفاءة العالية...

وإن توجه جيش المسلمين إلى مؤتة يعني إهانة الدولة الرومانية يومئذ وهي الدولة المنتصرة حديثاً على الفرس، والتي لا تزال تعيش نشوة النصر، فلا بدّ من حشد قوة كبيرة فكانت طلائع ذلك الجيش هي ما جمعه شرحبيل قاتل الحارث تزيد على مائة ألف...

وكان على قيصر أن يظهر اهتمامه بهذه الأماكن التابعة له حتى لا تقتطع الواحدة بعد الأخرى، وحتى يشعر عمالها التابعين له باهتمامه بهم، فيظلوا على ولائهم له، فسيّر جيشه بقيادة أخيه تيودور لمؤازرة شرحبيل بن عمرو الغساني.

٣ ـ المقاييس الجديدة:

لم يفاجأ الجيش بجيوش العدو، فقد توقفوا في معان، يناقشون مشكلة كثرة جيش العدوّ. . . ومع ذلك تابعوا طريقهم رغم أن جميع المقاييس المادية لا توافقهم على سلوكهم ذاك. ولكنهم دخلوا المعركة بمقاييس إيمانية، لماذا يتراجعون وهم خرجوا يطلبون الشهادة. . . إن التي تفرون منها هي التي خرجتم تطلبون.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُرْدفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مشتهي الثّواءِ[1]

فلما سمعتها منه بكيت. قال: فخفقني بالدرة وقال: وما عليك يا لُكَعْ أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل![2].

ودارت المعركة وقد انعدمت فيها كل مقوّمات التكافؤ، اللّهمّ إلّا من الإيمان الذي تجسم يومئذٍ فإذا به هو جند الإسلام، وإذا به هو اللغة الوحيدة التي تكلمت يومها «قال عبد الله بن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية»[3].

قال خالد بن الوليد: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلّا صفيحة يمانية[4].

وقد أحرز جيش الإسلام أكثر من انتصار في هذه المعركة، إن مجرد دخول المعركة بهذا الوضع هو انتصار لا مثيل له، وإن الثبات فيها هو انتصار آخر. . .

---

(١) الثّواء: الإقامة في المكان. (٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٧.
(٣) البخاري باب غزوة مؤتة (٤٢٦١). (٤) أخرجه البخاري برقم (٤٢٦٥).

٤ ـ سيف الله:

(حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم) كان هذا قول رسول الله ﷺ في المدينة. وعرف الناس فيما بعد أن آخذ الراية هو خالد بن الوليد، وحمل هذا الوسام ولم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر.

وخالد بن الوليد في هذه المعركة هو الخبرة العسكرية والبطولة النادرة ـ التي عرفها الناس ـ وقد خالطها الإيمان، فلم يعد خوض المعارك في نظره مجرد مخاطرة بحياة وإنما انتصار دعوة.

إن خالداً وهو يخوض هذه المعركة جندياً ما كان عليه إلّا أن ينفذ أوامر القيادة، ولا شكّ أنه كان فعالاً، لا سيما وأنها المرة الأولى التي يحمل فيها سيفه ليدافع عن عقيدة، وأنها المرة الأولى التي تخفق فيها فوق رأسه راية لا إلٰه إلّا الله.

ولما آل الأمر إليه قائداً فكّر بعقلية أخرى، إنها عقلية المسؤولية، إن هذا الجيش الذي يقوده الآن، هو عدّة الإسلام، ولئن فني فتلك خسارة لا تعوّض. وهداه الله إلى تلك الخطة السليمة، إذ رتّب الجيش ترتيباً عكسياً فكانت الساقة مكان المقدمة وأعطيت الأوامر للجند بالقتال والتراجع، وهكذا حتى انحاز وانحيز عنه، فتراجع من قبله، وتراجع العدوّ عنه[1]. وبهذا لم يحمل جيش المسلمين عار الهزيمة، وعاد بجيشه والكرامة موفورة، وبهذا فتح الله عليهم، وعرف الروم أن للمسلمين جيشاً لا يسكت على ضيم، وتحقق الغرض الذي من أجله عقد رسول الله ﷺ ذلك اللواء.

٥ ـ الفقه الحركي:

لا بدّ من وقفة أمام ثابت بن أقرم العجلاني، إنه أخذ اللواء بعد

---

(١) ابن سعد ٢/ ١٣٠.

استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل... فاصطلح الناس على خالد.

وفي رواية أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد فقال: لا آخذه منك، أنت أحقّ به، فقال: والله ما أخذته إلّا لك.

إن مضمون كلا الروايتين واحد، أن ثابتاً - وهو من أهل بدر - رفع الراية ريثما يأخذها من هو أهلٌ لها. إنه لم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا. ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالىٰ، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ للنفس.

إن ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين - وهو ممن حضر بدراً - ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر، إن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل. وقد ساعد ثابت على الوصول إلى الطريق الأمثل، إنه درس تطبيقي في ميادين العمل لتعاليم الرسول الكريم ﷺ.

٦ - درس نبوي في احترام القادة:

قال عوف بن مالك: خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مددي من اليمن[1]... ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وله سلاح مذهب. فجعل الرومي يفري بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمرّ به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفرّ الرومي، فعلاه بسيفه فقتله، وحاز فرسه وسلاحه فلما

---

(1) مددي أي ممن جاء مدداً، وفي رواية أخرى: رجل من حمير.

فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب.

قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى ـ ولكني استكثرته، قلت: لتردنّه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: (يا خالد، ما حملك على ما صنعت؟) قال: استكثرته، فقال: (رد عليه الذي أخذت منه).

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: (وما ذلك؟) فأخبرته قال: فغضب رسول الله ﷺ وقال: (يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره؟)[1].

إن التصرف النبوي الشريف الذي ورد ذكره في هذا الحديث يبيّن في غاية من الدقّة كيف ينبغي أن تقاس الأمور وتوزن الأعمال.

إنه ﷺ حينما سمع القصة من عوف بن مالك، أمر خالداً أن يعيد الحق لصاحبه وفقاً للسنن النبوي الشريف، وكان أمراً عادياً أن تعاد الأمور إلى نصابها.

ولكن عوف بن مالك حينما تصدى لخالد ـ بعدها ـ يعرّفه أنه نال منه وأن كلمته علت كلمة خالد، ظهر لرسول الله ﷺ أمر آخر لم يكن يظنّه، وهو أن الدافع لعوف لم يكن إقامة الحق، وإنما عامل نفسي آخر هو التقليل من شأن خالد، وعندها كان للرسول الكريم أمر آخر.

إنه درس في إخلاص العمل لله أولاً، فإرادة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا ينبغي أن تشوب الدافع إليه أيّة شائبة من الترفّع على الآخرين، أو أي عامل نفسي آخر. . . فإذا دخلته العوامل الأخرى فقد قيمته عند الله تعالىٰ حيث الأعمال بالنيّات.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٥٣).

والأمر الثاني، وهو ما أغضب الرسول ﷺ أن يستهان بالقادة، ويقولها ﷺ صريحة: (هل أنتم تاركون لي أمرائي)، إن أُمة لا تقدر رجالها ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظام. إن عوفاً أقدم إسلاماً من خالد، وهذا لا يعني الترفّع عليه، ولقد رأينا أبا بكر وعمر تحت إمرة عمرو بن العاص في ذات السلاسل ولما يمض على إسلامه عام واحد وهما من هما في الإسلام.

إنها التربية الحقّة التي استطاعت بناء هذه الأمة بناء سليماً، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يُحترم ويُقدّر، بمقدار ما يقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وبعد أليس في الحديث وسام آخر يضاف إلى خالد رضي الله عنه حيث عُدّ من أمراء الرسول ﷺ... تلك سنّته عليه الصلاة والسلام في تقدير الرجال.

سرية ذات السلاسل[2]

ما إن وصل جيش مؤتة إلى المدينة حتى وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أن جمعاً من بليّ وعذرة وبني القين - وهم بطون من قضاعة - قد تجمّعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة. فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص وعقد له لواء أبيض وبعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار. وأمره أن يسير إليهم وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) نقل البخاري عن ابن إسحاق عن يزيد عن عروة: هي بلاد بَليّ وعذرة وبني القين (باب غزوة ذات السلاسل). وقال ابن سعد هي وراء وادي القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام ٢/ ١٣١ (الطبقات).

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يطلب مدداً، فبعث إليه أبا عبيدة في مائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا.

ولحق أبو عبيدة عمراً، فلما كان وقت الصلاة أراد أبو عبيدة أن يؤمّ الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً وأنا الأمير... فلما رأى ذلك أبو عبيدة ـ وكان حسن الخلق ليّن الشيمة ـ قال: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال: (إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا)، وإنك إن عصيتني لأطيعنك، وصلّى عمرو بالناس.

وسار عمرو حتى وطئ بلاد قضاعة، فدوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرّقوا، وعاد إلى المدينة وبعث عوف بن مالك بريداً إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم.

تأملات في ذات السلاسل

١ ـ أعداء الإسلام:

تنتشر قضاعة فيما بين تبوك ومعان، وهو المكان الذي مرَّ منه جيش المسلمين إلى مؤتة، ولا شكّ أن تلك القبائل علمت ما لاقاه هذا الجيش من كثرة عدد عدوّه، فظنّوا أن الفرصة سانحة للإغارة على المدينة، ولكن استطلاع الرسول ﷺ الدائم فوّت عليهم هذه الفرصة، فأرسل إليهم عمراً قبل أن يباشروا ما عزموا عليه، وكانت لعمرو جولة واسعة النطاق في المنطقة استطاع من خلالها أن يفرض هيبة الإسلام وفي حدود بلاد الشام، قريباً من موقعة مؤتة.

٢ ـ عمرو وأبو عبيدة:

قد يظن أن عمراً استأثر بإمرة الجيش فغمط أبا عبيدة حقّه، وما

نظن أن عمراً فعل ذلك وهو يعتقد أحقية أبي عبيدة، فلواء الجيش إنما عقد له، ومجيء المدد إنما كان بناء على طلبه، والمدد تبع للأصل، وهو حينما طلب المدد ما كان يعلم بمن سيمده رسول الله ﷺ، فلذا فهو إنما تمسك بحق له بمسؤولية أناطها به رسول الله ﷺ، فما ينبغي أن يقصر فيها. ولا شك أن فرحه كان عظيماً وهو يرى ذلك المدد الذي فيه أبو عبيدة وأبو بكر وعمر.

وكان بعض جند أبي عبيدة يرون أحقيته لما له من سابقة في الإسلام ولم يكن لدى أبي عبيدة تصريح من رسول الله ﷺ بأنه هو الأمير، وإنما هناك وصية، سمعها هو ولم يسمعها عمرو وهي قوله ﷺ: (فتطاوعا)، فكان على أبي عبيدة أن ينفذها وقد فعل، رضي الله عنهم جميعاً.

٣ ـ فقه عمرو:

روى أبو داود عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، قال: فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب). قال: فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك النبيّ ﷺ ولم يقل شيئاً[1].

ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرعون عليها الأحكام، فإن الذي يستوقفنا في السيرة منها تلك السرعة في أخذ عمرو للقرآن وصلته به حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات، وهو لم يمض على إسلامه أربعة أشهر، إنه الحرص على الفقه في دين الله.

وقد يكون عمرو ـ وهذا احتمال وارد ـ على صلة بالقرآن قبل إسلامه يتتبع ما يستطيع الوصول إليه، وحينئذٍ نكون أمام مثال آخر من

---

(١) عن البداية ٤/ ٢٧٤.

عظمة هذا القرآن الذي لوى أعناق الكافرين وجعلهم وهم في أشد حالات العداوة لهذا الدين يحاولون استماع هذا القرآن، كما رأينا ذلك في العهد المكي. يؤيّد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النجاشي أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام.

٤ ـ مكانة عمرو:

قال عمرو: «قدمت من جيش ذات السلاسل فحدّثت نفسي أنه لم يبعثني على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلّا لمنزلة لي عنده، فأتيته حتى قعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله، أي الناس أحبّ إليك؟ قال: (عائشة)، فقلت: إني لست أعني النساء إنما أعني الرجال. فقال: (أبوها)، فقلت: ثم من؟ قال: (ثم عمر بن الخطاب)، فعدّ رجالاً فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم، وقلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا»[١].

من حقّ عمرو أن يحرص على أن تكون منزلته عند رسول الله ﷺ متقدمة، فذلك أمر يحرص عليه كل الصحابة الكرام. وقد أحبّ أن يعرف أين هذه المنزلة، لا سيما وقد شجّعه على ذلك تأميره من قبل الرسول ﷺ على جيش فيه أبو بكر وعمر.

وسأل... فكانت البساطة في الجواب، بحيث لم يخطر على فكر عمرو أنه يطرح سؤالاً عاماً، فاضطر أن يحدّد السؤال وأنه يسأل عن الرجال، فيجاب: إنه أبو بكر... إنه عمر... وتوقف عمرو عن متابعة الأسئلة خوفاً أن يجد نفسه آخر القوم.

إن رسول الله ﷺ يزن بميزان الله فما كان ليغمط قوماً من أمثال أبي بكر وعمر حقهم وهم المهاجرون الأوّلون وهم من حضر المشاهد وعاش الأزمات... وإذا كان ﷺ قد أعطاه تلك السرية، فذلك من باب الاستفادة من الطاقات، وعدم تعطيل القدرات المتوفرة.

---

(١) متفق عليه (خ٣٦٦٢، م٢٣٨٤).

وفي الحديث لفتة هامة إلى سلوكه ﷺ مع أصحابه جميعاً، فلكل واحد منهم مكانته في نفس النبيّ الكريم يسأل عن الصغير والكبير، وبهذا يشعر كل منهم وكأنه الصاحب المقرّب له ﷺ، وهذا ما دفع عمراً أن يسأل، إن الخلق العظيم الذي كان عليه النبيّ الكريم كان يسع جميع الناس.

إنه درس لكل الذين يقودون الأمة في كيفية التعامل مع الناس وتعليم لهم كيف تساس الأمور وفقاً لمقتضيات الإيمان تمشياً مع المنهج الخلقي الكريم الذي كان ﷺ أسوة للناس فيه.

فتح مكة[1]

قريش تنقض العهد:

كان مما تمّ في صلح الحديبية أن خزاعة دخلت في عقد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش. واستمرّ العمل بما تمّ عليه الاتفاق ثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له الوتير ـ قرب مكة ـ فقتلوا منهم واقتتلوا، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم بعض قريش مستخفياً. وانحازت خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: إنا دخلنا الحرم يا نوفل، إلٰهك إلٰهك، فقال نوفل بن معاوية ـ وهو قائدهم يومئذ ـ كلمة عظيمة: لا إلٰه له اليوم... ودخلت خزاعة مكة ولجأوا إلى دار بديل بن ورقاء.

ولم يكن أمام خزاعة إلا أن تلوذ برسول الله ﷺ تسأله العقد، فجاءه عمرو بن سالم فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين الناس، فأنشده أبياتاً منها:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا
فانصر هداك اللّه نصراً أعتدا ... وادع عباد اللّه يأتوا مددا
في فيلق كالبحر يجري مُزبداً ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
هم بيتونا بالوتير هُجّداً ... وقتّلونا ركّعاً وسجداً

فقال ﷺ: (نصرت يا عمرو بن سالم).

ثم قدم المدينة بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة، فأخبروا

---

(١) كانت في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

رسول الله ﷺ بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش لبني بكر، ثم رجعوا إلى مكة: فقال رسول الله ﷺ: (كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة).

أبو سفيان في المدينة:

لم يكن أبو سفيان بعيداً عن مسرح الأحداث، إن لم يكن أحد المشاركين فيها، ولم يعد الأمر سراً ـ كما أرادوه ـ فقد حدثت أعمال القتل في الحرم، ولجأت خزاعة إلى مكة... بعد أن لم يغنها دخول الحرم...

وكان واضحاً أن أنباء الحدث ستصل إلى رسول الله ﷺ، فخرج أبو سفيان مسرعاً يريد المدينة.

وقدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ـ زوج النبيّ ﷺ ـ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولا أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلّم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على عليّ، وعنده فاطمة، وحسن غلام يدبّ بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد. فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

ثم استنصح علياً في فعل شيء، فقال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكن قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك.

كان المشركون في مكة ينتظرون عودته، فلما أخبرهم بما حدث، لم يروا أنه أغنى عنهم شيئاً، فقال: لا والله ما وجدت غير ذلك[(١)].

لا شك بأن أبا سفيان ومن وراءه، لم يكونوا راغبين في الأمن والسلام الذي يسعون له، فما كانوا عناصر خير يوماً من الأيام الماضية، ولكن الذي دفعهم إلى ذلك شعورهم بأنهم أمام قوة لا طاقة لهم بها، فهم على صلة بأخبار المدينة، فقد فتحت خيبر وما حولها، وبدأ المسلمون معاركهم مع الروم، وجابت سراياهم أرض قضاعة فدوّختها، وسرايا المسلمين تتابع تحركات غطفان في كل مكان... وازداد عدد المسلمين وأنصارهم... كل هذا وغيره جعل أبا سفيان في ذلك الموقف من الذلّ ثم عاد بخفَّيْ حنين.

الاستعداد للخروج إلى مكة:

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة، وهي تهيّئ بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنية، أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري.

وكان ﷺ يريد مباغتة قريش، فها هو يأمر الناس بالجهاز دون بيان الوجهة. قال ابن سعد: لما همَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر، سرية إلى بطن إضم، وذلك في أول شهر رمضان سنة ثمان، ليظن ظانّ أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار... حتى لقوا النبيّ ﷺ بالسقيا[(٢)].

ثم أعلم رسول الله ﷺ الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٧. (٢) الطبقات ٢/ ١٣٣.

والتهيّؤ، وقال: اللّهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

رسالة حاطب إلى قريش:

ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بذلك، روى البخاري عن عليّ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة، إلى ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: (يا حاطب ما هذا؟) قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش - يقول: كنت حليفاً - ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (أما إنه قد صدقكم). فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: (إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطّلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ - إلى قوله - فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الممتحنة[1].

---

(١) متفق عليه (خ٤٢٧٤، م٢٤٩٤).

في الطريق إلى مكة:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة لعشر خلت من رمضان، واستخلف عليها أبا رهم، كلثوم بن حصين الغفاري، فلما كان بالكديد أفطر وأفطر الناس.

وكان عدد الجيش عشرة آلاف، فيهم المهاجرون والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد.

ولما كان ﷺ بالجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب، عمّه، وقد خرج مهاجراً بعياله، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية قد لقيا رسول الله ﷺ - بنيق العقاب - بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: (لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي[١]، وأمّا ابن عمتي فهو الذي قال لي ما قال)[٢]، فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بني له، فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

وكان مما أنشده أبو سفيان في إسلامه واعتذاره:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أُهدى وأهتدي

---

(١) كان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ وقد أجابه حسان عنه كثيراً.

(٢) هو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب وهو أخو أم سلمة لأبيها، وكان قوله: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك. شرح المواهب ٢/ ٣٠١.

النزول بمرّ الظهران:

وتابع النبيّ ﷺ سيره حتى أتى مرّ الظهران[1]، فنزل فيه عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب.

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. وركب بغلة رسول الله ﷺ وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله ﷺ فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوةً.

وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، قال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[2] الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلّ وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها...

وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك، فداك أبي وأمي، قال العباس، قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدوّ الله، الحمد لله الذي أمكن

---

(١) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة على (٢٢ كلم). (معجم المعالم الجغرافية).

(٢) حمشتها الحرب: أحرقتها.

منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقته فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته... فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلّا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: (اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به). فلما أصبح غدوت به فلما رآه رسول الله ﷺ قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلّا الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: (نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن).

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: (يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمرّ به جنود الله فيراها). قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ.

ومرّت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: ما لي ولسُليم، ثم تمر به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة... حتى مرّ

به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوّة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك.

توزيع المهام:

ولما وصل النبيّ ﷺ إلى ذي طوى[١] وزّع المهام «فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[٢] وبطنَ الوادي[٣]، فقال: (يا أبا هريرة ادع لي الأنصار) فدعوتهم فجاؤوا يهرولون، فقال: (يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش)[٤]؟ قالوا: نعم. قال: (انظروا إذ لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً) وأحفى بيده ووضع يمينه على شماله، وقال: (موعدكم الصفا)»[٥].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه. وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت. وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفّوا أيديهم ولا يقاتلوا إلّا من قاتلهم[٦].

---

(١) ابن هشام ٢/٤٠٦ وفي رواية مسلم: (حتى قدم مكة فبعث الزبير...).
(٢) البياذقة: الرجالة. (٣) وبطنَ الوادي: أي سار في بطنه.
(٤) وهم الذين جمعتهم قريش من قبائل شتى.
(٥) صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، (١٧٨٠).
(٦) عن فتح الباري نقلاً عن موسى بن عقبة.

وبهذا كانت المسؤوليات واضحة، وكلٌ قد عرف ما أُسْنِد إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه[1].

أبو سفيان في مكة:

جاء أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فـ(من دخل دار أبي سفيان فهو آمن). فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس[2] ـ تشبّهه بالزق لسمنه ـ قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فـ(من دخل دار أبي سفيان فهو آمن). قالوا: قاتلك الله، وما تغني

---

(١) جاء في صحيح البخاري فيما يتعلق بحبس أبي سفيان في مضيق الجبل: (...حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية. فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة... فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: قال كذا وكذا. فقال: كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة)، ثم جاءت روايات ضعيفة تقول: إن رسول الله ﷺ أمر أن تؤخذ الراية من سعد ثم اختلفت الروايات فيمن أخذها على ثلاثة أقوال. بعضها قال: إنها أعطيت لابنه قيس بن سعد، وبعضها قال أعطيت لعليّ وبعضها قال أعطيت للزبير، وعلى هذا أصبح معه رايتان؟! ـ ورد ذكر هذه الروايات في فتح الباري ـ.
والذي يبدو أن كلمة سعد كانت أثناء المرور من الوادي ثم كان توزيع المهام بعد ذلك بذي طوى.
وقد ورد التوزيع في صحيح مسلم كما رأينا، وسعد واحد من الأنصار الذين كانت مهمتهم واضحة، فلا حاجة لأخذ الراية وقد عرف كل ما أنيط من مسؤوليات وأوامر.
ومما يؤكد تأخر إعطاء المهمات عن المرور بالوادي ما جاء في مطلع رواية مسلم: (حتى قدم مكة فبعث الزبير...).

(٢) الحميت: زق السمن، الدسم: الكثير الودك، والأحمس هنا: الشديد اللحم.

عنّا دارك، قال: (ومن أغلق عليه بابه فهو آمن)، ومن دخل المسجد فهو آمن، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا.

وفي رواية مسلم: ووبشت أوباشاً لها[1] وأتباعاً، فقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا.

دخول مكة:

كانت الأوامر من رسول الله ﷺ إلى أمراء المسلمين ـ كما رأينا ـ ألا يقاتلوا إلّا من قاتلهم، فانطلق خالد بالمجنبة اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة فدخل من أسفل مكة، وانطلق بقية الأمراء، فدخلوا من حيث أُمِروا.

والتقى خالد بجمع صفوان وعكرمة، فكانت مناوشة تفرّقوا على أثرها منهزمين بعد أن خلفوا وراءهم اثني عشر قتيلاً، واستشهد من المسلمين اثنان.

والتقى بعد ذلك بجمع من بني بكر وبني الحارث ومن هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش فقاتلهم خالد فانهزموا وقتل من بني بكر نحو من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة.

ويبدو أن الأنصار التقوا ببعض المقاتلين فحصدوهم، قال أبو هريرة: فما أشرف يومئذ لهم أحد إلّا أناموه.

وصعد رسول الله ﷺ الصفا، وجاءت الأنصار فأطافوا بالصفا ـ وفقاً لأمر رسول الله ﷺ ـ فجاء أبو سفيان، فقال: يا رسول الله أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، قال رسول الله ﷺ: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)[2].

---

(١) أي جمعت جموعاً من قبائل شتى. (٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٨٠).

إنه تأكيد للإعلان الأول الذي أعطي لأبي سفيان، أضيف إليه فقرة جديدة تتعلق بالمقاتلين وهي (ومن ألقى سلاحه فهو آمن).

ثم اتّجه ﷺ إلى المسجد حتى دخله - والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله - فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[2]، والأصنام تتساقط على وجوهها[3].

وكان ﷺ في دخوله المسجد مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلال ومعه عثمان بن طلحة - من الحجبة - فلما أناخ به أمر عثمان أن يأتي بمفتاح البيت، فدخله ومعه أسامة وبلال وعثمان، فمكث فيه نهاراً طويلاً ثم خرج فاستبق الناس فكان أوّل داخل إليه عبد الله بن عمر[4].

وطلب منه عليّ رضي الله عنه مفتاح الكعبة، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال ﷺ: (أين عثمان بن طلحة) فدعي له، فقال: (هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء).

وعلا بلال - يوم الفتح - ظهر الكعبة، بأمر من رسول الله ﷺ، فأذن عليها بالصلاة.

الأمن العام:

لما استقرّ الفتح أمن رسول الله ﷺ الناس جميعاً، وفقاً لما أمر به أبا سفيان قبل دخوله ﷺ مكة من إعلان أماكن الأمان، وهي البيت ودار أبي سفيان، وكل من أغلق عليه بابه، ثم أضاف إلى ذلك كل من وضع السلاح. . .

واستثنى رسول الله ﷺ نفراً سمّاهم فأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.　　(٢) سورة سبأ: الآية ٤٩.

(٣) الحديث عند البخاري ومسلم (خ٤٢٧٨، م١٧٨١).

(٤) متفق عليه (خ٥٠٥، م ١٣٢٩).

أستار الكعبة، منهم عبد الله بن أبي سرح، وعبد الله بن خَطَل، ومقيس بن صبابة، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل... وذلك لشدة عداوتهم للإسلام، وبعضهم كان ارتكب جرائم قتل...

ولم يقتل من هؤلاء إلّا أربعة وحصل الباقون على الأمان، ومنهم صفوان وعكرمة الذين حسن إسلامهما فيما بعد.

الطلقاء:

خرج رسول الله ﷺ بعد دخوله الكعبة ليقف على بابها، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال يدَّعى أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد، السوط والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، ثم قال:

يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخٍ كريم.

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء)[2].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢.

قال علماء الحديث بضعف الفقرة الأخيرة: (يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً... اذهبوا فأنتم الطلقاء). أما القسم الأول من الخطبة فله شواهد كثيرة. انظر زاد المعاد ٣/ ٤٠٨ التعليق. =

ثم جلس رسول الله ﷺ للناس الذين أقبلوا يبايعونه على الإسلام وأخذ عليهم السمع والطاعة فيما استطاعوا، ثم بايع النساء بعد ذلك[1].

هدم بيوت الأوثان:

طهر البيت الحرام من الأوثان التي كانت فيه، ولا شك أن الناس رجعوا إلى بيوتهم - بعد إيمانهم بالله ورسوله - فكسروا ما بها من أوثان ونظفت مكة من الوثنية.

كان لا بدّ بعد هذا من هدم البيوت التي أقيمت للأوثان، فكانت معالم للجاهلية ردحاً طويلاً من الزمن.

فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى - وكانت بنخلة - وكانت بيتاً تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها، وكان سدنتها بني شيبان، فلما سمع سادنها بمسير خالد إليها، علق عليها سيفه، وولّى هارباً وانتهى إليها خالد فهدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ في مكة[2].

كما بعث ﷺ عمرو بن العاص إلى سواع - صنم هذيل - ليهدمه، وهو على ثلاثة أميال من مكة، فقام بالمهمة وعاد إلى رسول الله ﷺ في مكة[3].

كما بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة - وكانت بالمشلل للأوس والخزرج - فقام بالمهمة وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ في مكة[4].

= قلت: وانظر الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد ٢١/ ١٦١.
وهذه الفقرة لها شاهد قوي، وهو تسمية الذين أسلموا يوم الفتح بـ«الطلقاء» التي وردت في الصحيح، ولولا أن الرسول ﷺ هو الذي أطلقها، لما جرؤ أحد أن يسميهم بذلك. ففي البخاري من حديث أنس: (لما كان يوم حنين التقى هوازن ومع النبيّ ﷺ عشرة آلاف والطلقاء...) باب غزوة الطائف، وفي الباب نفسه عنده: (فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئاً)، وعند مسلم والترمذي كذلك انظر جامع الأصول (ح٦١٥٨).

(١) انظر الفتح الرباني شرح الحديث ج٢١/ ١٦٣ باب ما جاء في بيعة أهل مكة رجالاً ونساء.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٦.

(٣)(٤) ابن سعد ٢/ ١٤٦، وشرح المواهب ٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩.

كان ذلك كله في أواخر رمضان، وبهذا انتهت معالم الوثنية وقضي عليها، كما قضي على تخيّلات الوهم التي كانت قائمة في رؤوس المشركين وعلموا ـ وقد تحطمت أصنامهم ـ أنها لا تضر ولا تنفع، وأنها لم تدفع عن نفسها، فكيف بها تدفع عن غيرها.

تأملات في فتح مكة

فتح مكة هو أحد المعالم الهامة في السيرة النبوية الشريفة، وما يكاد القارئ لتلك الصفحة الخالدة ينتهي من قراءتها حتى يجد أمامه حشداً من الصور الرائعة لوقائع تناولت جوانب متعددة من أمور الحياة سواء في الميدان الفردي أو الاجتماعي، وفي الميدان الحربي أو السياسي، وفي ميدان المشاعر أو في واقع الحياة...

وسأحاول تناول بعض هذه المواقف مكتفياً بالإشارة إليها بعيداً عن الإسهاب والإطالة.

١ ـ بنت أبي سفيان:

أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبيّ ﷺ من المسلمات اللاتي هاجرن إلى الحبشة، ثم قدمت المدينة مع جعفر... وجاءها أبوها... فإذا بها تطوي الفراش الذي كان في نيّته أن يجلس عليه بعد وصوله من السفر...

إنه فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس... هكذا كان جوابها لأبيها وقد سأل عن السبب.

إنه موقف لا يستغرب من أم حبيبة، وهي ممن هاجر الهجرتين... إنها قطعت صِلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم ترَ أباها منذ ستة عشر عاماً، فلما رأته لم ترَ فيه الوالد الذي ينبغي أن يقدّر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة بأحداثها... واجتمعت لديها مواقف أبيها... فلم تملك أن كفّت الفراش... ليخرج أبو سفيان... وقد رأى في ابنته أنه قد أصابها الشر، ذلك مفهومه!

إنها المفاصلة للجاهلية حتى في إنهاء وشائج القرابة القريبة في إطار الأبوّة والبنوة، وإذا كان هذا الموقف غير مستغرب فإنه يستحق أن يسجّل ويذكر.

٢ ـ حاطب:

لم تكن الرسالة التي بعث بها حاطب إلى قريش أمراً يسيراً، خاصة وأن الرسول ﷺ يتخذ من الوسائل ما هو كفيل بتعمية خبر خروجه عن قريش، وهذا ما دفع عمر أن يقول: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

ومما لا مرية فيه أن كل ابن آدم خطّاء، ولكنه مما يخفّف من حدة الخطأ، أو يزيدها الباعث والنية، وعرض حاطب الباعث الدافع له على ما فعل، فكان تعليق الرسول ﷺ: أما إنه قد صدقكم، فالرسول الكريم ﷺ ـ وهو الخبير بالرجال ـ عرف صدقه، فليس الباعث النفاق، أو الكفر بعد الإسلام وإذا كان الأمر كذلك، فقد قبل الرسول ﷺ عذره خاصة، وأنه من أهل بدر فما ينبغي للخطأ بتلك المواصفات أن يلغي جهاد الرجل السابق.

وقد أوردت بعض الروايات نص الكتاب، فكان فيه: إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجزٌ له ما وعده[١].

إن كتاباً هذه عبارته فيه من الإيمان بالرسول والثقة بنصر الله له، ما لا يمكن أن يصدر عن قلب فيه ذرّة نفاق، ولكن ثقلة الأرض وجواذبها قد تثقل بالمرء في ساعة من ساعات الغفلة، فيصدر عنه ما لا يقبله لنفسه حينما يصحو من غفلته، ومن كان كذلك فرحمة الله فيها السعة لتشمله.

٣ ـ حقن الدماء:

كان ﷺ يريد فتح مكة، ولكنه يريده فتحاً دون إراقة دماء، ولذا نلاحظ أنه اتّخذ من الوسائل ما هو كفيل بتحقيق ذلك:

---

(١) البداية ٤/ ٢٨٤ عن السهيلي.

فقد بذل قصارى جهده بتعمية الأخبار عن قريش حتى يفجأهم فيها فلا يكون لديهم الوقت الكافي لأخذ زمام المبادرة والدفاع، فيضطروا إلى الاستسلام دون مقاومة.

ولما كان في مرّ الظهران أمر أن يوقد كل فرد من أفراد الجيش ناراً ليعلم سكان مكة بكثافة الجيش الذي جاء به، فيكون في ذلك القناعة النفسية لهم بالاستسلام دون مقاومة، وقد آتت هذه الوسيلة ثمارها في نفس أبي سفيان، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء وهم كبار القوم.

وكان حبس أبي سفيان في المضيق ليمرّ الجيش أمامه وسيلة أخرى تعطي القناعة التامّة بعدم جدوى المقاومة، ليكون قادراً على إقناع غيره وهذا ما حصل، فعندما تلقّته هند مسفهةً قوله، قال: لا تغرنّكم هذه من أنفسكم فقد جاءكم ما لا قِبَل لكم به... ثم حدّد وسائل الأمن...

ولئن كانت هذه الوسائل كلها تتعلق بالأعداء وإقناعهم بما يريده الرسول ﷺ، فقد اتخذت وسائل أخرى في سبيل ذلك تتعلق بسلوك الجيش المسلم، فقد لاحظنا أنه بعد أن أعطيت المهام لقادة الفرق التي ستدخل مكة كان الأمر العام: أن يكفّوا أيديهم ولا يقاتلوا إلّا من قاتلهم.

وما جاء من أمره ﷺ للأنصار أن يحصدوا الأوباش الذين جمعتهم قريش، إنما كان لتأكيد هذه الغاية. إن السرعة الخاطفة في عمليات القتال هي التي تؤمن اجتياح المكان المطلوب بأقل الخسائر، كما أن الشدّة في القتال هي التي تقنع الخصم بعدم جدوى فعله خاصة إذا كان غير صاحب قضية كهؤلاء الأوباش... فكانت السرعة في حصدهم تقصيراً لزمن القتال، وبالتالي تقليلاً لكمية الخسائر.

كان استعمال السلاح ضرورة، ولم يأذن الرسول ﷺ بغير ذلك، فقد ورد في مسند الإمام أحمد عن أبي شريح الخزاعي، قال: «أذن لنا

رسول الله ﷺ يوم الفتح في قتال بني بكر حتى أصبنا منهم ثأرنا وهو بمكة، ثم أمر رسول الله ﷺ برفع السيف، فلقي رهط منا الغَدَ[1] رجلاً من هذيل في الحرم يؤم[2] رسول الله ﷺ ليسلم، وكان قد وترهم[3] في الجاهلية، وكانوا يطلبونه فقتلوه، وبادروا أن يخلص إلى رسول الله ﷺ فيأمر[4]، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً والله ما رأيته غضب أشد منه، فسعينا إلى أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما نستشفعهما، وخشينا أن نكون قد هلكنا، فلما صلّى رسول الله ﷺ الصلاة قام فأثنى على الله عزّ وجلّ بما هو أهله ثم قال: (أمّا بعد، فإن الله عزّ وجلّ هو حرم مكة، ولم يحرمها الناس، وإنما أحلّها لي ساعة من النهار أمس، وهي اليوم حرام كما حرمها الله عزّ وجلّ أوّل مرة، وإن أعتى الناس على الله عزّ وجلّ ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل في الجاهلية، وإني والله لأدينَّ[5] هذا الرجل الذي قتلتم)، فوداه رسول الله ﷺ»[6].

وبهذا استطاع الرسول الكريم ﷺ أن يحقن الدماء التي جاء منهجه ليؤكّد حرمتها والمحافظة عليها.

٤ ـ هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة:

نقل أبو سفيان قول سعد بن عبادة: «اليوم تستحل الكعبة» إلى رسول الله ﷺ، فقال: (كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة...)[7].

إن التعظيم الحقيقي بدأ ذلك اليوم بعد أن شابه ما شابه، فقد كان

---

(١) يعني صباح اليوم التالي ليوم الأمر برفع السيف.

(٢) يؤم: يقصد. (٣) أي أصاب منهم جناية.

(٤) أي فيأمر بعدم قتله.

(٥) أي لأدفعن ديته لأوليائه، والذحل: الثأر.

(٦) الفتح الرباني ٢١/ ١٦٠، وسيرة ابن هشام ٢/ ٤١٥.

(٧) البخاري: كتاب المغازي (٤٢٨٠).

تعظيمها لدى قريش متوارثاً، بعيداً عن مفاهيم العقيدة والدين الحق، ولذا أحاطوها بالأصنام... وكان الطواف حولها مكاءً وتصدية فكان التعظيم مظهراً من المظاهر وشكلية من الشكليات.

وجاء يوم الفتح، فطهرت الكعبة كما طهر البيت من كل آثار الوثنية وأزيلت معالم الجاهلية، فإذا كلمة التوحيد، تعلن من فوق الكعبة، يعلنها بلال ذلك العبد الحبشي، ليعلن معها أن كرامة الإنسان مرتبطة بعقيدته فهو لم يرتق فوق الكعبة بلونه أو جنسه، وإنما بالكلمة التي يحملها، وبالكلمة التي ينادي بها.

إنه يرتقيها ليعلن من فوقها المبادئ التي أقيمت الكعبة من أجلها.

إن التعظيم الحق هو الذي ينبثق من العقيدة الحقّة فيوافق أوامرها، ويقف عند حدودها.

لقد شدهت قريش وهي ترى بلالاً فوق الكعبة، فكيف يحق لعبد حبشي أسود أن يقف فوقها؟ قال رجل من قريش للحارث بن هشام: ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد؟ فقال: دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره[1]، إنهم لم يتعلموا بعد أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن التفاضل بالتقوى... إنها المفاهيم التي عظمت الكعبة من خلالها.

وقد كان سلوك رسول الله ﷺ البرهان الأقوى على تعظيم الكعبة قبل أن يقول كلمته تلك، فإنه ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى ـ حيث وزع المهام على القادة ـ وقف على راحلته، معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل[2].

قال أنس: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً[3].

---

(1) البداية ٤/ ٣٠٤. (2) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٠٥.

(3) البداية ٤/ ٢٩٣ من رواية البيهقي.

وبهذا عظمت الكعبة ذلك اليوم وما بعده سلوكاً وقولاً واعتقاداً، فكان الأمر كما قال الرسول الكريم ﷺ.

٥ ـ مهلاً يا عباس:

كان ذلك من قول عمر بن الخطاب وهو يردّ على العباس حينما اتّهمه بأن إلحاحه على قتل أبي سفيان لأنه كان من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي ما فعل ذلك. ثم قال عمر:

فوالله لإسلامك أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلّا أني عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

تلك كانت مفاهيم الصحابة، وتلك كانت عواطفهم، إن مشاعرهم ـ حتى المرتبطة بوشائجهم وقراباتهم الخاصة ـ كانت تنساب تبعاً لعواطف رسول الله ﷺ ومشاعره، فما يحب هو الذي يحبون، وما يكره هو الذي يكرهون، إنه بعض تفسيرات الحب لله ولرسوله ﷺ.

ولئن كانت تلك عواطف الحب في نفس عمر، فليس ذلك الأمر من خصوصياته بل إن الصحابة ـ وخاصة الأوائل منهم ـ كانوا يعيشون ذلك المعنى في كل أحوالهم، فقد حدث يوم الفتح أن «الأنصار قال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي، قال رسول الله ﷺ: (يا معشر الأنصار)، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: (قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته)، قالوا: قد كان ذلك. قال: (كلا، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم)، فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: (إن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم)»[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٨٠).

إن الأنصار ﷺ لما رأوا عطف الرسول ﷺ على أهل مكة وتسامحه الكبير، خافوا أن يكون ذلك تعبيراً عن رغبته بالبقاء فيها، فقالوا كلمتهم تلك ضناً به أن يتركهم، وحرصاً عليه وحبّاً له، فلما قال لهم: (المحيا محياكم...) كان البكاء بعض التعبير عن الفرح وبعض التعبير عن الاعتذار عن قولهم، ثم اعتذروا أن الدافع هو الحرص عليه ﷺ، ويكفيهم أن يقول لهم ﷺ: (إن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم).

تلك بعض صور الحب التي تبقى دونها كل الصور الأخرى، إلّا ما كان منطلقاً من معناها، إنها بحاجة إلى التأمّل فيها طويلاً حتى يستشفّ القارئ معالمها ويفهم معطياتها. وتبقى الكلمة عاجزة أن تنقل لنا معالم الفن في لوحة رسام، فكيف تنقل لنا عواطف الحب وهي مشاعر تحسّ ولا ترى، إن كل الكلمات دون التعبير عن هذه المعاني.

٦ ـ «لقطعت يدها»:

إذا كان بلال وهو يرتقي سطح الكعبة قد أعطى قريشاً درساً بليغاً من دروس الإسلام في إلغاء نظام الطبقات... فقد أراد الله أن يعطوا درساً آخر في معنى العدل وضوابطه في ظل الدين الحنيف

فقد حدث أثناء وجود الرسول ﷺ في مكة ـ في غزوة الفتح ـ أن امرأةً من بني مخزوم سرقت، فاهتمت قريش لذلك، وذهبوا يفتشون عن الوسائل التي تخلص المرأة مما ينتظرها، وتخلص قومها من عار الحد الذي سيقع عليها، ووجدوا في أسامة بن زيد ـ حب رسول الله ﷺ ـ بغيتهم، فهو القريب من الرسول ﷺ الذي يستطيع أن يكلّمه في مثل هذا الأمر، فلما كلّمه أسامة قال له: (أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟) فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله...

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد: فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق

فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها[1].

ووجدت قريش نفسها مرة أخرى أمام تشريع لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمامه سواء، وأضحت مقاييس الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالىٰ، فيها يرتفع من كتب الله له الرفعة، وبالبعد عنها ينخفض من آثر اتّباع الشيطان.

٧ ـ إنها النبوّة:

قال أبو سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، فقال له العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوّة.

وبون شاسع بين النبوّة والملك، وأبو سفيان لم يعرف بعد النبوّة، وإنما أعشى عينيه مظاهر القوّة التي مرّت أمامه، فعبّر عن ذلك بلغة المادة التي يعرفها، ولكنه تبيَّن له هذا الفارق فيما بعد حينما عاش في ظلّ الإسلام.

دخل ﷺ مكة بتلك القوة الهادرة، ولا شكّ أنه كان يذكر الأيام الماضية فيها، يذكر التكذيب والاستهزاء والسخرية، يذكر مشاهد أصحابه وهم يعذبون وهو لا يستطيع مساعدتهم، يذكر يوم ألقي عليه الفرث وهو ساجد... وغيره كثير، وكثير ممن فعلوا هذا كانوا لا يزالون أحياء في مكة، وهو اليوم يدخلها منتصراً، ومن حقه أن يرفع رأسه عالياً، فيدخلها بكل الشموخ والكبرياء والتعالي، وأن يعمل السيف في أولئك البقايا ممن أساء إليه وإلى المسلمين حتى أخرجوهم من بلدهم. ولو فعل ذلك لما كان هناك من يستطيع لومه، ولكنه دخلها متخشعاً متواضعاً، وقال للذين فعلوا كل ما فعلوا: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، وعفا حتى عن

---

(١) متفق عليه (خ٣٤٧٥، م١٦٨٨).

المجرمين الكبار من أمثال أبي سفيان، وقبل الشفاعة في بعض النفر اليسير الذين أهدر دمهم لجرائمهم الكبرى من أمثال عكرمة وصفوان... وهند زوج أبي سفيان التي جاءت تبايعه وهي متنكرة... هؤلاء الذين لم يكن فسادهم في أنفسهم فحسب، بل تعدّى ذلك فكانوا عناصر إفساد وتحريض... لا شكّ أنها النبوّة.

٨ ـ لا هجرة بعد الفتح:

يعتبر فتح مكة من الأيام الفاصلة في التاريخ، فقد كانت مكة المركز الديني للعرب منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حينما بنيا الكعبة، ثم مرّت الأيام واحتفظت الكعبة بمكانتها في نفوس العرب قاطبةً، وكذلك البيت الحرام، ثم أدخل الناس الباطل إلى الحرم فأحيطت الكعبة بالأصنام، وابتعدوا عن المشاعر التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

وجاء الإسلام وللبيت حرمته في النفوس، ولمكة قداستها، فهي البلد الحرام وفيها الحرم، ولقريش سيادتها على العرب جميعاً باعتبارها القائمة على شؤون البيت، وإليها تعود المفاخر من السدانة والسقاية...

وكان لقريش من الرسول ﷺ ذلك الموقف الذي عرفناه... فهاجر وكانت الهجرة واجباً على كل مسلم... ليضمن البعد عن الفتنة في دينه، وليكون فيه القوة لإخوانه المسلمين، في إعداد قاعدة رئيسة ينطلق منها الإسلام، فلما فتحت مكة زالت الأسباب الداعية إلى الهجرة.

عن عطاء بن أبي رباح قال: زرت عائشة مع عبيد بن عمير، فسألها عن الهجرة فقالت: «لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفرّ أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه، فأمّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونيّة»[١].

---

(١) البخاري: المغازي، فتح مكة (٤٣١٣).

على أن الهجرة في مقياس الإسلام هي الفضل الكبير لمن حازها حتى قال الرسول ﷺ في حقِّها: (ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار)[1]، ولهذا المعنى لم تقبل أسماء بنت عميس من عمر قوله: (سبقناكم بالهجرة)، حتى جاءت رسول الله ﷺ فقال: (له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان).

وجاء الناس بعد الفتح يبايعون رسول الله ﷺ، فإذا بالبيعة تخلو من الهجرة. روى البخاري عن مجاشع قال: أتيت النبيّ ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، قال: (ذهب أهل الهجرة بما فيها). فقلت: على أي شيء تبايعه؟ قال: (أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد)[2].

كان الإسلام قبل الهجرة يعني ترك الأهل والبلد والمال... والانحياز إلى رسول الله ﷺ. فقد كان من وجهة النظر المادية مغرماً، أمّا الإسلام بعد الفتح فلم يعد بحاجة إلى ذلك. ولهذا انتهت الهجرة وذهب أهلها بما فيها، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[3].

٩ ـ انتشار الإسلام بعد الفتح:

رأينا في الفقرة السابقة مركز مكة في نفوس العرب، وقد توقف أكثر العرب عن الدخول في الإسلام ينتظرون ما تؤول إليه مكة، ولمن يستقر الأمر فيها؟ فلما فتحت زالت الغشاوة عن العيون، وأبصر الناس الهدى يعمّ أرجاء مكة، فسارعوا بعد ذلك للاستضاءة بنور الإسلام... فقد كان الناس قبل ذلك يتناقلون أخبار الرسول الكريم ﷺ ويتتبعونها

---

(١) البخاري: كتاب مناقب الأنصار (٧٢٤٤).

(٢) متفق عليه (خ٤٣٠٥، م١٨٦٣). (٣) سورة الحديد: الآية ١٠.

منتظرين كلمة أم القرى، فلما أعطت كلمتها للإسلام، كان الناس لها تبعاً.

ونترك عمرو بن سلمة ينقل لنا صورة من خارج مكة تعتبر مثلاً عن الأماكن الأخرى، قال: كنّا بحاضر[1] وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحي إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام لكأنما يقرّ في صدري، وكانت العرب تلوَّم[2] بإسلامهم الفتح فيقولون: أتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبيّ ﷺ حقاً....[3].

وهكذا انطلق الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وانساح الإسلام في أرض العرب.

١٠ ـ أثقل من أحد:

لما نزل رسول الله ﷺ في مرّ الظهران قبل دخوله مكة ذهب المسلمون يجتنون الكباث[4]، وانطلق ابن مسعود معهم فلما صعد شجرة جعلوا ينظرون إلى دقة ساقيه فيضحكون، فقال رسول الله ﷺ: (تعجبون من دقة ساقيه فوالذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد)[5].

---

(١) المكان الذي استقرّ به القوم فلا يرحلون عنه. وهذه الجملة وردت في رواية أبي داود باب: من أحق بالإمامة ح٥٨٥، وذلك لأنها توضح المعنى وبقية الحديث في البخاري.

(٢) أي تنتظر.

(٣) البخاري، رقم الحديث (٤٣٠٢).

(٤) الكباث: ثمر الأراك.

(٥) البداية ٢٨٨/٤ من رواية البيهقي، والحديث رواه الإمام أحمد عن علي، وفي رواية أخرى عن ابن مسعود. (الفتح الرباني، ما جاء في فضل ابن مسعود ٢١٢/٢٢). قال الشيخ أحمد عبد الرحمٰن البنا في التعليق على رواية علي: =

إنه درس في تقييم الرجال، والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، يبيّن بوضوح أن التقييم يرتكز إلى ذاتية الإنسان لا إلى الأشياء الخارجة عنه. وتعوّد الناس فيما مضى أن تكون المقاييس المادية هي الوحيدة التي يرجعون إليها، وقد قال أهل مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال فرعون من قبلهم: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2]، تلك هي الموازين التي تعوّد الناس الرجوع إليها.

إن المال شيء خارج عن الإنسان، وإن ضخامة الجسم أو صغره أمر لا يد للإنسان فيه فذلك خلق الله... ولكن صفاء السريرة وقوّة الإيمان وحبّ الخير هي الأثقال في ميزان الله، ومن هذا المعيار الجديد انطلقت مفاهيم الإسلام، فلا يحتقر الإنسان لقلة ذات يده، ولا يحتقر لرثاثة ثيابه... إنه ينبغي أن يُحترم ويكرم للإيمان الذي يستقر في قلبه، وقد كان ﷺ حريصاً على تأكيد هذا المعنى في نفوس المسلمين؛ إذ إنه أحد المفاهيم التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي. قال سهل بن سعد

= أورده الهيثمي وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح غير أم موسى وهي ثقة اهـ. وقال الحافظ في الإصابة بعد أن أورد اللفظ المرفوع منه أخرجه أحمد بسند حسن. وقال في التعليق على رواية ابن مسعود: أورده الهيثمي في مجمع الزوائد. وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق. وأمثل طرقه فيها عاصم بن أبي النجود وهو حسن الحديث على ضعفه وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح اهـ. وله شاهد أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: كان ابن مسعود على شجرة يجتني لهم منها فهبت الريح وكشفت عن ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد)، قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقرّه الذهبي.

(١) سورة الزخرف: الآية ٣١. (٢) سورة الزخرف: الآية ٥٣.

الساعدي ﷺ: «مرّ رجل على النبيّ ﷺ فقال لرجل عنده جالس: (ما رأيك في هذا؟) فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: (ما رأيك في هذا؟) فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا)»[1]، وهكذا يتعلّم الناس في ظلّ الإسلام المقاييس الحقّة التي تتناسب مع إنسانية الإنسان الذي كرّمه الله تعالىٰ.

١١ ـ لا إكراه في الدين:

وقبل أن نتوقف في الحديث عن فتح مكّة، نحب أن نتساءل هل دخل أهل مكة الإسلام تحت عامل القوة والإكراه؟

إن كل النصوص تدلّ على غير ذلك، فالرسول ﷺ حينما بعث أبا سفيان بالأمان لمن دخل المسجد، أو دار أبي سفيان، أو دخل بيته... لم يشترط عليهم الدخول في الإسلام، ثم بعد دخوله مكة، وشكوى أبي سفيان من القتال الذي دار فيها كرّر ﷺ أمره السابق بالأمن وأضاف إليه: ومن وضع سلاحه فهو آمن، وهكذا لم يرد لاشتراط الإسلام ذكر.

كان سكان مكة قبل الفتح ثلاث فئات:

ـ فئة مسلمة مغلوبة على أمرها لم تهاجر، وقد رأينا حزنهم يوم بلغهم هزيمة المسلمين في خيبر ثم فرحهم بعد ذلك حينما تبيَّن كذب الخبر، فهؤلاء كان الفتح عندهم عيداً.

ـ وفئة ناصبت الرسول ﷺ العداوة، يدفعها إلى ذلك حرصها على زعامة تافهة، كأبي سفيان، أو هي تعيش امتداداً لحقد آبائها كعكرمة وصفِوان... ومن كان على شاكلتهم، وهذه الفئة حمل بعضها السلاح

(١) رواه البخاري برقم (٥٠٩١).

وقاوم الفتح واضطروا إلى الهرب بعد ذلك، كعكرمة وصفوان. وبعضها شعر بجرائمه السابقة في عداوته وشتمه للرسول ﷺ كعبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب، فغادر مكة ولم يطق الإقامة فيها، وبعضهم الآخر أسلم كأبي سفيان عن غير قناعة[1] ظناً منه أنه بغير الإسلام لا يستطيع أن يضمن حياته.

والإسلام ليس مسؤولاً عن فهم هؤلاء الخاطئ، ولقد أعطى الرسول ﷺ الأمن لجميع الناس، كما أعطى الأمن لكل من طلبه حتى ولو كان من أصحاب الجرائم. فقد طلب عمير بن وهب الأمن لصفوان بن أمية، فلما جاء به إلى رسول الله ﷺ قال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمّنتني، قال: (صدق)، قال: فاجعلني فيه ـ في الإسلام ـ بالخيار شهرين. قال: (أنت فيه بالخيار أربعة أشهر)[2].

ـ وفئة ثالثة: هي عامة الناس الذين ظلوا على شركهم امتداداً للواقع الذي كانوا فيه، وحرصاً على رضى السلطة، تلك السلطة التي كانت متمثلة في كبار القوم، وإن كان الكثير منهم في ذوات نفوسهم على قناعة تامّة بالإسلام، ولكنهم تنقصهم الجرأة والقوّة على ذلك... فلما فتحت مكة، أسلم بعض هؤلاء بعد أن ارتفع عنهم طغيان السلطة، وأحسوا بالطمأنينة، فحكموا عقلهم بناء على ما يعرفونه عن رسول الله ﷺ وما رأوه بأعينهم ـ وكثيراً ما كذبوها في الماضي تحت ضغط كبار القوم ـ فإذا هم يرون أنفسهم مدفوعين إلى الإسلام بتلك القناعات السابقة.

ومما يؤكد قناعة هؤلاء بإسلامهم ما ورد من مشاهد تؤيد ذلك:

اندفع بعض هؤلاء ـ في سرور عظيم ـ يحضرون أبناءهم الصغار ليحصلوا على البركة والخير برؤية رسول الله ﷺ، فهذا عبد الله بن ثعلبة بن صعير يخبر أن

---

(١) قال أبو سفيان... تعقيباً على مقابلة هرقل: «والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره». البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبيّ ﷺ إلى الإسلام.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٤١٨.

النبيّ ﷺ كان قد مسح وجهه عام الفتح وقد كان يومئذ صغيراً[1].

وعن عائشة بنت قدامة قالت: أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية والنبيّ ﷺ يبايع النسوة، ويقول: (أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصين في معروف). قالت: فأطرقن، فقال لهن النبيّ ﷺ: (قلن نعم فيما استطعتن)، فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني: قولي أي بنية فيما استطعت[2].

أرأيت هذا الحرص من الأم على تلقين ابنتها ومشاركتها في البيعة، هل يكون مثله عن إكراه أو إجبار؟ كلا، إنها الطواعية والرغبة.

على أن هذا كله لا يعني أن أهل مكة كلهم باتوا مسلمين، بل إن الكثير الكثير منهم استمرّ على شركه، ويقول موسى بن عقبة في مغازيه: إن رسول الله ﷺ لما خرج إلى هوازن خرج معه أهل مكة، لم يغادر منهم أحد ركباناً ومشاةً حتى خرج النساء يمشين، على غير دين، نظاراً ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون مع ذلك أن تكون الصدمة برسول الله ﷺ وأصحابه[3]. وهكذا يصرح أنهم خرجوا على غير دين، ويؤكد هذا ما رواه البيهقي حيث ذكر انتصار الرسول ﷺ في هوازن قال: «وأسلم ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله رسوله ﷺ وإعزاز دينه»[4]، وكذلك ما جاء من قول النضير بن الحارث أنه خرج مع قومه من قريش إلى حنين، وهم على دينهم بعد[5].

---

(١) البخاري، المغازي فتح مكة باب (٥٣) برقم (٤٣٠٠) تعليقاً.

(٢) الفتح الرباني ٢١/ ١٦٤ باب بيعة أهل مكة نساء ورجالاً، ولعل أطراقهن في قولها (فأطرقن) بسبب عدم معرفتهن ماذا يفعلن فعلمهن ﷺ أو بسبب حيائهن كما وقع في حديث عائشة حينما بايعت فاطمة بنت عتبة. فلما قال: ولا يزنين. وضعت يدها على رأسها حياء. الفتح الرباني ٢١/ ١٦٤.

(٣) البداية ٤/ ٣٣٠.

(٤) عن البداية ٤/ ٣٣٠.

(٥) البداية ٤/ ٣٦٤ نقلاً عن الواقدي.

كل هذه الروايات تؤكّد أن إسلام أهل مكة كان عن طواعية، وكل منهم أسلم في الوقت الذي حصلت له فيه القناعة.

وقد استمر السماح للمشركين بدخول مكة والإقامة فيها، إلى أن كان موسم الحج من العام التاسع ـ أي بعد أربعة عشر شهراً ـ حيث أعلن في مكة: أن لا يحج بعد العام مشرك...

ونعتقد أنه إلى ذلك الوقت كانت المدة كافية لتزول الغشاوة عن الأعين وليبصر أي إنسان السبيل، وهكذا عمّ الإسلام مكة، دون إكراه، ولما منع المشركون من دخولها، لم يحصل أن غادرها أحد بسبب عدم إسلامه مما يؤكد ما ذكر.

استقرّ الإسلام في مكة، وأنست به النفوس واطمأنّت إليه، وآمنت به القلوب عن رغبة وقناعة، وهذا ما يفسّر لنا ثبات مكة على الإسلام يوم الردة.

١٢ ـ إسلام العباس:

يلاحظ أن كتب السيرة تذكر لقاء العباس بالرسول ﷺ بالجحفة، ولا تذكر شيئاً عن إعلان إسلامه، فابن هشام يقول: «لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راض»[(١)].

وقد جرت العادة أن كل من أسلم، كان يعلن ذلك أمام رسول الله ﷺ كما رأينا في إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبي سفيان بن الحارث... ولكن هذا لم يحدث بالنسبة للعباس، مما يؤيّد أن إسلامه كان قبل ذلك. وهذا ما أشار إليه ابن حجر رحمه الله في الإصابة، حيث قال: ورجع إلى مكة ـ من أسره ببدر ـ فيقال: إنه أسلم وكتم قومه، وصار يكتب إلى النبيّ ﷺ بالأخبار.

ومما يؤكد قدم إسلامه، ذلك الفهم الدقيق الذي أجاب به أبا سفيان بن حرب حينما قال له: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال له العباس رضي الله عنه: إنها النبوّة.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٠٠.

غزوة حنين

هوازن تجمع لحرب النبيّ ﷺ:

كان لفتح مكة صداه في العرب جميعاً، وكانت هوازن قريبة من مكة في مضاربها، فدعا مالك بن عوف النصري إلى حرب رسول الله ﷺ، فاجتمع إليه من هوازن ثقيف كلها واجتمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وكان من جشم دريد بن الصمة شيخ كبير، ليس فيه إلّا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب وكان شيخاً مجرباً.

وكانت القيادة العامة إلى مالك بن عوف، فلما أجمع المسير إلى رسول الله ﷺ أمر الناس أن يحملوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ونزل بأوطاس حتى اجتمع إليه الناس.

وفي أوطاس سمع دريد بن الصمة بكاء الصغار ورغاء البعير، فتساءل عن ذلك فقيل له: إن مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم... فقال: أين مالك؟ فدعي له، فقال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك وهذا يوم كائن له ما بعده... ثم خطّأه بخروجه بالنساء والأموال بحجة دفع الرجال للقتال ومنعهم من الفرار، وقال له: إنها إن كانت لك لم ينفعك إلّا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. فقال مالك: إنك قد كبرت وكبر عقلك، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

وبلغت أنباء التجمّع رسول الله ﷺ فبعث عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل فيهم ويعرف خبرهم.

وتأكدت لديه ﷺ صحة النبأ، فأجمع على السير إلى هوازن ليلقاهم، وذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه ـ وهو يومئذ مشرك ـ فقال: (يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً)، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: (بل عارية مضمونة حتى نؤدّيها إليك). قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح.

مغادرة مكة:

وخرج رسول الله ﷺ إلى هوازن في الخامس من شوال سنة ثمان من الهجرة وخرج معه جيش الفتح عشرة آلاف وخرج معه ألفان من الطلقاء، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد، أميراً على من تخلف عنه من الناس.

وسبق مالك بن عوف إلى وادي حنين، فكمنوا في شعابه وأنحائه ومضايقه، وقد أجمعوا للحرب وتهيّؤوا، وقال لهم مالك: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدّوا شدّة رجل واحد، وبعث عيوناً من رجاله يستطلعون أنباء المسلمين.

وقدم ﷺ سُليماً وعليهم خالد بن الوليد، وكان المسلمون على ثقة من النصر لكثرة عددهم، حتى قال قائلهم: لن نغلب اليوم من قلّة.

المعركة:

دخل المسلمون وادي حنين في عماية الصبح ـ لم ينقشع الظلام ـ فانحدروا فيه، وهم لا يرون عدواً، ولا يشعرون به، فلما كانوا في الوادي، ثارت في وجوههم الخيل من كل مكان، فانكفأت سليم منهزمة وتبعها أهل مكة وتبعهم الناس.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ومعه أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث... وكان ﷺ يقول حين رأى من الناس ما رأى: (إلى أين أيها الناس؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا

محمد بن عبد الله)، ولكن الناس لا يلوون على شيء، وقد حملت الإبل بعضها على بعض.

قال العباس: إني لمع رسول الله ﷺ، آخذ بحكمة بغلته البيضاء، وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت، فقال: (يا عباس، اصرخ يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة)، فأجابوا لبيك، لبيك، قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا، فكانت الدعوة أول ما كانت يا للأنصار، ثم خلصت آخراً: يا للخزرج، وكانوا صُبراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم، فقال: (الآن حمي الوطيس).

وكان رجل من هوازن بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، أمام هوازن، وهي خلفه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينما هو كذلك إذ أهوى عليه عليّ ورجل من الأنصار يريدانه فأتى عليّ من خلفه فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصاري على الرجل فقتله واجتلد الناس...

ولما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب واستقبل بها وجوههم، وقال: (شاهت الوجوه...) وهزمهم الله.

ورجع الناس من هزيمتهم فوجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ.

أبو سفيان وأضرابه:

لما كانت هزيمة المسلمين أول الأمر، لم يستطع بعض الطلقاء إخفاء ما في نفوسهم من الضغينة، فرحاً بما أصاب المسلمين، وشماتة برسول الله ﷺ. فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر

ـ وكانت الأزلام ما زالت في كنانته ـ. وقال كلدة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان بن أمية: اسكت فضّ الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن.

متابعة الفلول:

وأمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجمعت من الإبل والغنم والسبايا والأموال وأمر أن تساق إلى الجعرانة فتحبس هناك، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

كما أرسل السرايا إثر المنهزمين، فتوجه مالك بن عوف النصري بمن معه حتى دخلوا الطائف وتحصنوا بها. وكان أبو عامر الأشعري قد أمر بملاحقة من توجه قبل أوطاس، فأدرك بعض الفارّين وكانت مناوشة استشهد فيها أبو عامر، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ـ ابن عمه ـ فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم.

غزوة الطائف

خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف، ذلك أن ثقيفاً كانت قد شاركت في حنين، وبعدها في أوطاس ثم فرّت إلى الطائف ومعها مالك بن عوف ومن معه، ودخلوا حصنهم وأغلقوه، وتهيّؤوا للقتال.

ونزل ﷺ قريباً من حصنهم، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس منهم بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، فارتفع الرسول ﷺ إلى موضع متأخر بحيث لا يصل النبل إليهم، ثم رمى حصنهم بالمنجنيق، وهي أوّل مرة يستعمل فيها المسلمون هذه الآلة، كما استعمل الدبابة، وهي جهاز خشبي دخل المقاتلون تحته حتى وصلوا السور في محاولة فتح ثغرة فيه، فألقت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها فرموهم بالنبل، فقتلوا رجالاً منهم.

واستمرّ الحصار سبع عشرة ليلة، ونادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر

رجلاً، منهم أبو بكرة، فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه.

ولما طال الحصار على رسول الله ﷺ استشار نوفل بن معاوية الديلي، فقال: (ما ترى؟) فقال: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك. فأمر ﷺ مناديه فأذن بالرحيل، فثقل على المسلمين وقالوا: نذهب ولم يفتح علينا؟ فقال: (فاغدوا على القتال)، فغدوا على القتال فأصاب المسلمين جراحات، فقال ﷺ: (إنا قافلون غداً إن شاء الله)، فسروا بذلك وأعجبهم، فضحك النبيّ ﷺ.

توزيع الغنائم

قفل رسول الله ﷺ من الطائف ومعه الناس حتى نزل الجعرانة - حيث جمعت الغنائم - وكان سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، وكانت الغنائم من الإبل والشياء والفضة شيئاً كثيراً. واستأنى ﷺ بتوزيع الغنائم بضع عشرة ليلة ينتظر أن تقدم عليه هوازن فيرد عليها سبيها وأموالها، فلما أبطأ وفدهم باشر القسمة.

فبدأ بالأموال فقسمها وأعطى المؤلّفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مائة بعير، فقال: ابني معاوية، فأعطاه مائة بعير، وأعطى كلاً من حكيم بن حزام والحارث بن كلدة وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وصفوان بن أمية مائة بعير، وأعطى آخرين من قريش دون المائة، ثم أتمّ ﷺ توزيع الغنائم.

كانت تلك الأعطيات الكبيرة في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، فأثر ذلك في الأنصار، ووجدوا في أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، وقال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ ودخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا

الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب لم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: (فأين أنت من ذلك يا سعد؟) قال: يا رسول الله ما أنا إلّا من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فلما اجتمعوا أتى سعد رسول الله ﷺ فأخبره، فأتاهم ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: (يا معشر الأنصار ماقالة بلغتني عنكم، وجِدَة وَجَدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم)، قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنّ وأفضل، ثم قال: (ألا تجيبونني يا معشر الأنصار)، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل، قال ﷺ: (أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقْتُم ولصُدّقتم: أتيتنا مُكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرّقوا[1].

وبعد أن انتهى ﷺ من توزيع الغنائم والسبايا، جاءه وفد هوازن وقد أسلموا، فقال: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منَّ الله عليك. وقام زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك، اللاتي كن

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤٩٨.

يكفلنك، ولو أنا مَلَحْنا[1] للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منّا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين. فقال لهم رسول الله ﷺ: (معي من ترون، وأحب الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السَّبْي وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم) ـ وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ـ فلما تبيّن لهم أن رسول الله ﷺ غير رادّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنّا نختار سبينا[2]. فقال لهم: (أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صلّيت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم).

فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلّموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: (وأما ما كان لي ولبني المطلب فهو لكم)، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، فقال رسول الله ﷺ: (أما من تمسك منكم بحصة من هذا السَّبي فليرد عليهم ونعطيه إيّاه أول ما يفيء الله علينا). فقال الناس: قد طبنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: (إنّا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم). فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[3].

وهكذا ردّ رسول الله على هوازن أبناءهم ونساءهم.

---

(١) ملحناً: أي أرضعنا.

(٢) البخاري ـ المغازي ـ غزوة حنين (٤٣١٨).

(٣) ابن هشام ٢/٤٨٩ وبعضه في البخاري، وكذلك عند النسائي انظر جامع الأصول (٦١٧٢).

وقفل ﷺ عائداً إلى مكة حيث استخلف عليها عتاب بن أسيد، وخلف معه معاذ بن جبل، يفقه الناس في الدين ويعلّمهم القرآن[1].

ثم رجع ﷺ إلى المدينة لست ليال بقين من ذي القعدة.

تأملات في حنين والطائف

١ ـ الدرس القرآني:

خرج المسلمون من مكة بالنصر المؤزر، وقد فتح الله عليهم، وها هم يتابعون الطريق باتجاه هوازن ـ وقد أعدت لحرب رسول الله ﷺ ـ إنهم كثير وزاد كثرتهم الطلقاء من أهل مكة، وقد أُعجب بعضهم بهذه الكثرة، فقال: لن نغلب اليوم من قلّة، فشق ذلك على النبيّ ﷺ[2].

إن الاعتماد على الكثرة والاطمئنان إليها، يعني فيما يعني، تقلّص جانب نفسي هام كان عنصراً أساسياً في النصر للمسلمين في المعارك السابقة، ألا وهو الثقة بالله والاعتماد عليه، ولم يكن المسلمون في كل ما سبق من حروبهم يواجهون عدوّهم بمثل عدده، فقد خاضوا معركة بدر وأُحد والأحزاب... وهم أقلّ عدداً من عدوّهم وهم اليوم يدخلون المعركة بعدد أكبر، فكان لهذا أثره في بعض النفوس، فكان الدرس المهم، وكانت الهزيمة.

كان الدرس في أُحد: ضرورة الالتزام بتنفيذ الأوامر، ودرس اليوم، هو الثقة بالله بعيداً عن المقاييس المادية، وهذا لا يعني إهمالها فقد استعار الرسول ﷺ العدّة والسلاح من صفوان، وهو بعض مقتضيات الإعداد للمعركة. ولكن الأمر الذي ينبغي أن يستقر في خلد المؤمنين أن القتال في سبيل الله ولإعلاء كلمته، فينبغي أن يكون الاعتماد عليه أولاً وآخراً بعيداً عن الإعجاب بالنفس والعدة.

---

(١) ابن هشام (٢/ ٥٠٠).

(٢) قال في مختصر ابن كثير ـ الحاشية: أخرجه البيهقي.

ولقد كانت سرعة فائقة من الرسول ﷺ أن يدرك سبب الهزيمة، فينحاز إلى جانب الجبل ليطرح من حسابه كل تلك الكثرة ـ التي كانت سبب الهزيمة ـ وليأمر عمّه العباس أن يصرخ: (يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة)[1]، إنهم هم الذين يدركون المعاني الإيمانية، وهم الذين يدركون العمل الخالص لله، وهم الذين لهم التجارب في ذلك، ولعل تلبيتهم النداء هي نموذج مادي لما وقر في صدورهم «قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأنَّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك»[2]، كان الواحد منهم يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤمّ الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقتتلوا...

وكانت معركة حامية الوطيس ـ كما عبّر ﷺ ـ وحثّ الناس بعضهم بعضاً على الثبات، فكان النداء أوّلاً: يا للأنصار، ثم كان بعد ذلك: يا للخزرج، وكانوا صبراً في الحرب[3]...

وانتصر ﷺ بالمائة بعد أن انهزم اثنا عشر ألفاً، إنه درس الواقع في قيمة العدد، إن أبا طلحة ـ وحده ـ قتل يومها عشرين قتيلاً[4]... وعاد الفارّون ليجدوا الأسرى مقيّدين بين يدي رسول الله ﷺ.

وخلد الله تعالىٰ هذا الدرس قرآناً يُتلى، ليكون الدرس الذي يقرع أسماع المؤمنين كلما ثقل عليهم الحمل واشتدّت عليهم الوطأة، فيكون لهم الأمل والثقة والحافز إلى العمل، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى

---

(١) الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان.

(٢) صحيح مسلم ـ المغازي ـ باب غزوة حنين (١٧٧٥).

(٣) ليس هذا من باب العودة إلى الدعوة الجاهلية، كما يظن بعضهم، وإنما هو من باب استنهاض الهمم، ممن عرف منهم النجدة والنخوة.

(٤) من رواية أبي داود برقم (٢٧١٨).

﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

٢ ـ الطلقاء والمعركة:

إذا كنّا نتحدث عن أسباب الهزيمة فلا بدّ من الوقوف عند الطلقاء، وهم الذين خرجوا من أهل مكة ـ بعد فتحها ـ مع المسلمين، سواء منهم من أعلن إسلامه أو من بقي على كفره.

إنهم لم يخرجوا للقتال، وإنما خرجوا على غير دين، نظاراً ينظرون، ويرجون الغنائم، ولا يكرهون مع ذلك أن تكون الصدمة برسول الله ﷺ وأصحابه[2].

وها هم قادة مكة أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام لما بدأت المعركة اعتزلوا وراء القوم ينظرون لمن تكون الدائرة[3].

إنهم وكأنهم لا شأن لهم، فلما كانت الصدمة الأولى كانوا عاملاً قوياً من عوامل الهزيمة، فهم إنما خرجوا للمغنم فإذا فاتهم فلمَ يعرضون أنفسهم للتهلكة.

وكانت الهزيمة فرصة تعبّر فيها النفوس عما تكنّه، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ كلدة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم[4] ومرّ رجل من قريش بصفوان بن أمية فقال: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجتبرونها أبداً[5].

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٢٥، ٢٦.

(٢)(٣) البداية ٤/ ٣٣٠ نقلاً عن موسى بن عقبة في مغازيه.

(٤) ابن هشام ٢/ ٤٤٣.

(٥) البداية ٤/ ٣٣٠ نقلاً عن موسى بن عقبة.

وقد كان أثر الطلقاء كبيراً في إحداث الهزيمة، وتنبّه المسلمون إلى ذلك فقد جاءت أم سليم - زوجة أبي طلحة - إلى الرسول ﷺ إثر المعركة وقالت له: «يا رسول الله: اقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: (يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن)»[1].

وبهذا يمكن القول أن الطلقاء كان وجودهم من عوامل الهزيمة التي وقعت أول الأمر، على أننا نستطيع أن نضيف لهم صنفاً آخر من الناس شبيه بهم من حيث الخروج للمغنم، كأمثال عيينة بن حصن الفزاري الذي علق على امتناع أهل الطائف على رسول الله ﷺ بقوله: مجدة كرام، فقال له بعض المسلمين: قاتلك الله أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟ فقال: ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ولكني أردت أن تفتح الطائف فأصيب من ثقيف جارية[2]...

على أن الحكمة كانت تقضي بالإغضاء على وجودهم كما سنلاحظ ذلك لدى الحديث عن المؤلّفة قلوبهم.

٣ - شجاعته ﷺ:

إن ثبات القيادة عامل مهم من عوامل النصر، وإنما تظهر الشجاعة في مواطن البأس وفي وقت الشدّة، وقد رأينا الهزيمة وقد حلت بشكلها المروع، حتى قال أبو سفيان - وهو رجل حرب - إلى البحر...

ولكن ثبات الرسول ﷺ هو الذي غيّر وجه المعركة، ففي البخاري عن أنس: «فأدبروا عنه حتى بقي وحده...»[3]، وفي حديث البراء: «فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته ودعا واستنصر، وهو يقول:

(أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٩).

(٢) ابن هشام ٢/ ٤٨٥.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٧).

اللّهمّ نزِّل نصرك). قال البراء: كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقي به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به - يعني النبيّ ﷺ»[1].

وفي حديث العباس: «فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ اكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان[2] آخذ بركاب رسول الله ﷺ»[3].

وهكذا والناس فارّون والرسول ﷺ في اتّجاه معاكس يسرع باتجاه العدو... حتى إذا هزم الله المشركين كان ﷺ «يركض خلفهم على بغلته»[4].

إنها الحركة الفعّالة في جو المعركة أن تكون القيادة في المقدمة، تعطي القدوة للجند، فتعطيهم معها القوة والثبات والجلد والصبر.

إن من أهم عوامل الثبات والنصر أن يرى الجندي قائده يتلقّى الصعاب فيسيطر عليها ويتغلّب عليها، فيكون قدوةً له، ويتأمّن عامل نفسي مهم، هو عامل الثقة بالقائد، وقد كان ﷺ هو القائد في كل هذه الميادين وعنه تؤخذ الدروس فيها.

إن الناس جميعاً يعجبون لمشاهد البطولة، وقد رأى أهل مكة في ذلك اليوم عجباً من بطولة الرسول ﷺ، فبينما هم يرون الهزيمة التي لا يقف في طريقها شيء إذ يرون النبيّ ﷺ وقد أحرز النصر والأسرى بين يديه، وهذا ما جعل الكثير من أهل مكة يعلن إسلامه حين رأوا نصر الله رسوله ﷺ وإعزاز دينه[5].

٤ ـ المؤلفة قلوبهم:

إنهم طائفة من الناس برزت في الحياة الإسلامية في هذه المرحلة

---

(١) مسلم: المغازي، باب غزوة حنين (١٧٧٦).

(٢) أبو سفيان بن الحارث.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٥).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٧٥).

(٥) البداية ٤/ ٣٣٠ من رواية البيهقي.

من الزمن ـ بعد فتح مكة ـ فهم لم يسلموا بدافع الرغبة في الإسلام، وإنما بدافع الحفاظ على مركزهم الاجتماعي، وقد أسلم من حولهم، وهم الأشراف في أقوامهم، أو أسلموا لأنهم ظنوا أن إعلان إسلامهم هو الذي يحفظ لهم حياتهم إثر سلسلة الجرائم التي ارتكبوها في حق هذا الدين.

إن هذه الطريقة في إعلان الإسلام خطر على الإسلام، وإن عدم معالجتها والقضاء على جرثومتها قد يؤدي إلى استفحالها لتنشئ طائفة لا تقل في خطرها عن فئة المنافقين التي ظهرت في المدينة، بل قد يلتقي الفريقان على طريق الباطل لأن الوضع الاجتماعي والحالة النفسية لدى الفريقين متشابهة.

وقد أفلح ﷺ في احتواء هذه الطائفة من الناس ـ وهي من الأشراف الذين لهم كلمتهم في أقوامهم ـ بالعفو عنهم، والإحسان إليهم.

ولعلّ أبرز وسائل الاحتواء كانت في توزيع غنائم حنين، فقد بدأ ﷺ بإعطائهم قبل غيرهم، وكان العطاء عظيماً إذ كانت عطية الواحد منهم مائةً من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس بن عدي[1].

لا شكّ أن هذا العطاء كان له التأثير الكبير على نفسية القوم، قال صفوان بن أمية: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وأنه أحب الناس إليّ[2]، وكان ذلك سبب إسلامه.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٤٩٣، وفتح الباري، باب غزوة الطائف شرح حديث زيد بن عاصم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٣).

ولما جاء وفد هوازن سألهم رسول الله ﷺ عن قائدهم مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال: أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فلما وصله الخبر خرج خفية من الطائف، خوفاً من ثقيف أن يحبسوه إن هم علموا بقصده، وجاء فأدرك الرسول ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم وحَسُن إسلامه[1].

إن هذه العطايا أثّرت التأثير الكبير، فقد استطاعت أن تجتث الحقد والعداوة من النفوس، وأن تجعل من الأعداء للإسلام متحمسين له، وإذا كانت لم تصل ببعضهم إلى درجة الحماس فقد كفت أذاهم عن المسلمين، واضطرتهم أن يغضوا حياء من عظمة هذا الرسول الكريم ﷺ.

ولقد أثمرت هذه الخطة ثمرات يانعة فها هو مالك بن عوف يستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلّا أغار عليه حتى ضيَّق عليهم[2]... إن ذلك كان خيراً من أن يبقى على عداوته للإسلام يؤازر ثقيفاً...

٥ ـ التريث في توزيع الغنائم:

رأينا كيف انتظر الرسول ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف استأنى بها أن يأتيه وفد هوازن قبل قسمة الغنائم، والذي يدلّ عليه سياق حديث البخاري السابق أنه ﷺ كان يريد أن يردّ عليهم الأموال والسبي لو صادف مجيئهم قبل القسمة، حيث قال لهم: (معي من ترون؟ وأحب الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السَّبي وإما المال وقد كنت استأنيت بكم)، فهو يعتذر لهم بسبب تأخر مجيئهم ثم يخيرهم إحدى الطائفتين، ولو لم يكن يريد إرجاعهما بدءاً لما كان هناك حاجة للاعتذار، ثم هناك الجملة التي بدأ بها حديثه ﷺ: (معي من ترون)،

---

(١)(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩١.

وهذا في بعض دلالاته يعني أن الذين معه ليسوا جميعاً ممن استقرّ الإسلام في قلوبهم فهم على استعداد لتنفيذ أمر رسول الله ﷺ، إذا كان يعني الانسلاخ من الغنيمة كاملة، وهذا جانب آخر من الاعتذار.

وقد جاء الواقع ـ فيما بعد ـ مبرهناً على دقة تقديره ﷺ للأمور، حينما رغب إلى الناس بإرجاع السبي، فإن بعضهم رفض ذلك، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

ولعل هذا التقدير الدقيق هو الذي جعل الرسول ﷺ يلجأ في استرداد السبي إلى طريقة ـ التعليم بالقدوة ـ ولم يستعمل أسلوب الأمر، ولذا علم الوفد الطريقة التي يطلبون بها نساءهم وأبناءهم حيث استشفعوا برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله. فقال ﷺ: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم)، وتبعه المهاجرون ثم الأنصار.. وتلك هي الحكمة.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه ﷺ كان راغباً في التريّث أكثر من ذلك، ولكن إلحاح الناس عليه بطلب توزيع الغنائم هو الذي اضطرّه إلى مباشرة ذلك، فقد روى البخاري من حديث جبير بن مطعم أنه بينما هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس، مقفله من حنين، علقت الأعراب برسول الله ﷺ يسألونه حتى اضطرّوه إلى شجرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ ثم قال: (أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً)[1].

ولعله مما يوضح الصورة ما رواه الإمام مالك عن عمرو بن شعيب: أن رسول الله ﷺ حين صدر من حنين وهو يريد الجعرانة سأله الناس، حتى دنت ناقته من شجرة فتشبكت بردائه فنزعته عن ظهره، فقال

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢١).

رسول الله ﷺ: (ردوا عليّ ردائي، أتخافون أن لا أقسم بينكم ما أفاء الله عليكم؟ والذي نفسي بيده، لو أفاء الله عليكم مثل سمر تهامة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً)، فلما نزل رسول الله ﷺ قام في الناس فقال: (أدّوا الخائط والخيط فإن الغلول عار وشنار على أهله يوم القيامة)، قال: ثم تناول من الأرض وبرةً من بعير أو شيئاً، قال: (والذي نفسي بيده ما لي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه، إلا الخمس والخمس مردود عليكم)[1]. إن هذه الطريقة في الإلحاح جعلته ﷺ يباشر عملية التوزيع، وهي التي جعلته يخيّر وفد هوازن بين المال والأهل ويقول لهم معتذراً: (معي مَنْ ترون!).

٦ ـ العتب في أمر القسمة:

رأينا كيف بدأ ﷺ حين توزيع الغنائم بالمؤلّفة قلوبهم، وكانت لهم الأعطيات الكبيرة، مما جعل في نفوس كثير من المسلمين، شيئاً من العتب على رسول الله ﷺ، خاصة وأن هؤلاء الناس لم يخرجوا للقتال، ولم يشاركوا فيه، والعطاء في الغنائم ـ أصلاً ـ هو تعبير عن تقدير الجهد المبذول من المعطى، فهو وسام شرف وتقدير قبل أن يكون كسباً مادياً، ولهذا لما أعطى ﷺ كلاً من عيينة والأقرع مائة من الإبل وأعطى العباس بن مرداس دون المائة قال:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فأكمل له ﷺ المائة[2].

---

(١) أخرجه في الموطأ، انظر جامع الأصول (١٢٢٧) قال المعلق: وهو مرسل وقد وصله النسائي وانظر حديث أبي داود والنسائي. جامع الأصول (٦١٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٠)، والعبيد: اسم فرسه..

وإذا كان للرسول ﷺ ما يبرّر فعله، فقد خفيت الحكمة من ذلك على الناس وانطلقت الكلمات تعبّر عن العتب. ونستطيع أن نرى ـ من خلال معالجته ﷺ للأمر ـ أن الناس في هذا كانوا فئات ثلاث:

ـ الأنصار: وقد رأينا صراحة سعد في ذلك وحديث رسول الله ﷺ إليهم.

إن الأنصار من هم في نصرة الرسول الكريم ﷺ، وما إن سمع ﷺ بمقالتهم حتى أمر بجمعهم وحدهم ليتحدث إليهم شارحاً لهم الأسباب، والحكمة، ويوضح ما خفي عليهم، إنه الحديث الخاص، ولذا قال قبل بدء حديثه: (فيكم أحد من غيركم؟) قالوا: لا إلّا ابن أختنا، قال: (ابن أخت القوم منهم)(١). ثم عدّد فضل الله عليهم... ثم قال: ألا تجيبون... ولقد كان جوابهم: المنُّ لله ولرسوله، كانوا في غاية الأدب، ولما لم يجيبوا بما لهم من أثر في نصرة الإسلام، أوضح لهم ذلك بقوله: (أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك...) إنه لا ينسى فضلهم وإذا كان يمنعهم العطاء اليوم فهي مأثرة تضاف إلى سجل مآثرهم. وقد أزال الغشاوة عن العيون بقوله: (ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟) تلك هي القسمة في حقيقتها، فإذا بهم يُخَصّون بالحظ الأوفر، وإذا بمقاييس المادة تتحطم دفعة واحدة ليشعر القوم بمدى الخطأ الذي ارتكبوه والخجل الذي ألمّ بهم فإذا بهم ما يملكون أنفسهم من البكاء حتى اخضلّوا لحاهم، وهم بين الأسف لما بدر منهم وبين الفرح بتلك القسمة التي غابت حقيقتها عن أذهانهم.

ـ الفئة الثانية: وهم ممن كان لهم بلاء ولم يعطوا. روى ابن إسحاق أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه: يا رسول الله، أعطيت

---

(١) متفق عليه (خ٣٥٢٨، م١٠٥٩).

عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري، فقال رسول الله ﷺ: (أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض، كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه)[1].

وفي مثل هذا ما رواه البخاري عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكأنهم عتبوا عليه، فقال: (إني أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم وأَكِلُ قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب)، قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم[2].

هذا فريق لم يطلب بحقه ولم يعتب، ولكن بعضهم الآخر وجده أهلاً لأن يعطى، كما أعطي غيره فبيَّن لهم رسول الله ﷺ علّة ذلك.

ـ الفئة الثالثة: لم ينطلق في عتبه من منطلق الإيمان، وإنما كان الدافع له هو النفاق ووجدها فرصة سانحة ليشكك في فعل الرسول ﷺ. قال جابر بن عبد الله: «أتى رجل بالجعرانة النبيّ ﷺ منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل. قال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أعدل). فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال: (معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميَّة)»[3]، وإزاء هذا الفريق من الناس كان سلوك رسول الله ﷺ هو الصبر كما ورد ذلك في رواية عبد الله بن مسعود: «فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها ولا أريد فيها وجه الله. قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، قال: فأتيته فأخبرته

---

(١) ابن هشام ٢/٤٩٦.
(٢) البداية ٤/٣٦١.
(٣) رواه مسلم برقم (١٠٦٣).

بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف[1]، ثم قال: (فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟) ثم قال: (يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)»[2].

إن الهدف الذي قصد إليه الرسول ﷺ من ذلك التوزيع للغنائم إنما يرمي للغايات البعيدة في سبيل مصلحة الإسلام، وما كان ينبغي أن يفصح عما في نفسه والأسباب الداعية لذلك، ولو فعل لبطلت الغاية المتوخاة التي يرمي إليها.

إن إمعان النظر في النفسيات التي أغدق عليها ﷺ العطاء، يُظْهِر أن العلاج الوحيد لإصلاحها، هو ما فعله ﷺ، وهذا دليل على الحكمة التي كان يتمتع بها ﷺ وعلى معرفته بالرجال.

أمّا ما لاقاه ﷺ من الأذى في سبيل ذلك، فإنه سبيل الأنبياء والمرسلين كما عبّر عليه الصلاة والسلام بقوله: (يرحم الله موسى...).

٧ ـ ما خص الأنصار من الغنيمة:

نتساءل بعد ما سبق، هل أصاب الأنصار شيء من الغنيمة؟

ورد في البخاري ومسلم النصان التاليان «فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئاً» «قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً»[3]، ويلاحظ الإطلاق في نفي العطاء في كل من النصّين.

وقد ورد ما يشعر بتقييد هذا الإطلاق، ففي رواية البخاري ومسلم: «فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس»[4]، وفي رواية ابن

---

(١) كالصرف: أي أحمر شديد الحمرة، كما جاء في الرواية الأخرى: (واحمر وجهه).
(٢) متفق عليه (خ٣١٥٠، م١٠٦٢).
(٣) متفق عليه (خ٤٣٣٧، م١٠٥٩)، (خ٤٣٣٠، م١٠٦١).
(٤) متفق عليه (خ٤٣٣٠، م١٠٦١).

إسحاق: «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا»[1]، فكان العتب موجّه إلى تلك الأعطيات الكبيرة، فهو لا يعني أنهم حرموا نصيبهم كمجاهدين لهم حقّهم من الغنيمة، ومما يؤكد تقييد إطلاق الروايتين الأوليين، أن أبا طلحة أعطي سلب القتلى الذين قتلهم، وكذلك أعطي أبو قتادة سلب قتيله وكلاهما أنصاريان.

كما يؤيد أنهم أخذوا استحقاقهم أنهم تنازلوا عن نصيبهم من السبي حين دعا رسول الله ﷺ إلى ذلك، فلو لم يكن بأيديهم نصيبهم من القسمة لما كان لتنازلهم معنى[2].

وقد أورد البخاري رحمه الله حديث عتب الأنصار ـ السابق ـ في كتاب فرض الخمس، وبوّب له بقوله: «باب ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلّفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه».

قال في الفتح: واختلف من أين كان يعطي المؤلفة؟ فقال مالك

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٨.

(٢) ورد تنازلهم في حديث النسائي انظر جامع الأصول (ح٦١٧٢) وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٩ هذا وإن سياق ابن إسحاق يشعر أن رد السبي كان قبل القسمة. ولكن النصوص الأخرى تؤكد أنه كان بعد القسمة، ففي حديث البخاري ـ كما سبق «وقد كنت استأنيت بكم، وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة...» وهل التأني إلا بتأخير القسمة، ثم قسمها لما لم يحضروا. وفي رواية ابن إسحاق أنه ﷺ أعطى علياً جارية، وأعطى عثمان جارية، وأعطى عمر جارية... وأما عيينة فأخذ عجوزاً طمع في عظم فدائها... ولما رد المسلمون ما بأيديهم من السبايا أبى عيينة أن يردها، فقال له زهير بن صرد: خذها عنك، فوالله ما فوها ببارد ولا ثديها بناهد ولا بطنها بوالد ولا زوجها بواجد... فردها حينئذ بست فرائض كما وعد الرسول ﷺ من لم يرد عن طيب نفس. سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٠.

ومن هذا يتبين أن استرداد السبي كان بعد القسمة، وهذا يعني أن الأنصار كانوا قد أخذوا حقهم المقرر لهم من نصيب المقاتلين.

وجماعة: من الخمس، وقال الشافعي وجماعة من خمس الخمس[1].

وبهذا يتّضح أن تصرّفه ﷺ كان من الخمس وأن نصيب المجاهدين وزع عليهم كل حسب استحقاقه.

٨ ـ القيادة... والأفراد:

إنه لمن مقاييس تقدم الأمة ورقيّ حضارتها عناية القيادة بالأفراد أو عناية المنهج بمعتنقيه، وقد كان الإسلام صاحب القدح المعلّى في هذا الميدان ـ كما هو في كل ميدان ـ وقد رأينا كيف بعث الرسول ﷺ جيش مؤتة، انتقاماً للاعتداء على الحارث بن عمير الأزدي.

وبين أيدينا صورة أخرى لا تقلّ شأناً عن سابقتها، ذلك أن كلاً منهما تطبيق للمنهج.

قال سهل بن الحنظلية رضي الله عنه: «إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين... ثم قال ﷺ: (من يحرسنا الليلة؟) قال أنس بن أبي مرثد الغنوي أنا يا رسول الله، قال: فاركب، فركب فرساً له فجاء إلى النبيّ ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا نغرَّن[2] من قبلك الليلة)، فلما أصبحنا خرج النبيّ ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين، ثم قال: (هل أحسستم فارسكم؟) قالوا: يا رسول الله ما أحسسنا، فثوب بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلي ويلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال: (أبشروا جاء فارسكم) فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ...»[3].

أرأيت إلى هذا الاهتمام البالغ من الرسول ﷺ، حتى جعل يلتفت

---

(١) فتح الباري ٦/٢٥٢.

(٢) من الغرور: أي لا يأتينا العدو من قبلك على غفلة.

(٣) أخرجه أبو داود (٩١٦، ٢٥٠١).

في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلّا لأمر هام، ثم إنه ﷺ يقول لأصحابه: (أبشروا فقد جاء فارسكم)، إنها الكلمة التي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة.

تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كماً مهملاً، ولا رقماً في سجل، ولا بزالاً في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة ليؤتى بغيره، إنه بعض التفسير للمنهج الإلهي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[1].

٩ ـ عتقاء الله:

لما حاصر النبيّ ﷺ الطائف نادى مناديه: أيما عبد نزل إلينا فهو حرّ فخرج إليه ثلاثة وعشرون رجلاً منهم أبو بكرة فأسلموا وأعتقهم ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله، فلما أسلمت ثقيف تكلّموا في أرقّائهم فقال ﷺ: (لا، أولئك عتقاء الله)[2].

ويستوقفنا في الخبر أنه ﷺ دفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله، إنها نقلة كبيرة بين عالم الرق وعالم الحرية، تحتاج في كثير من الأحيان إلى المساعدة والأخذ باليد ليتعلم أسلوب الحياة الجديدة حيث يتصرّف المرء من تلقاء ذاته، بعيداً عن أوامر سيده، إنه أصبح مسؤولاً عن فعله وتصرّفه، بعد أن كان مجرّد أداة لتنفيذ الأوامر، إنه بحاجة إلى التدرّب على نمط الحياة الجديدة، فأوكل الأمر إلى من يقوم به، أضف إلى ذلك أنه بحاجة إلى ألّا يشعر بوطأة الحياة ومسؤولياتها مباشرة وأنه بحاجة إلى فترة نقاهة مما كان فيه فلا بدّ أن ينزل ضيفاً على المسلمين ريثما يتأمن له المسكن ومورد الرزق.

هذا الذي فعله رسول الله ﷺ لم يستطع الغرب أن يتنبه إليه أو

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) شرح المواهب ٣/ ٣٢، والبداية ٤/ ٣٤٧، وابن هشام ٢/ ٤٨٥.

يفطن له بعد عشرة قرون، فالعبيد الذين حرّرهم لنكولن، بالتشريع عادوا إلى سادتهم يرجونهم أن يقبلوهم عبيداً لديهم كما كانوا[1]، إنه ظن أن التحرّر يحصل بجرة قلم ونسي أنه انتقال من وضع إلى آخر، وأن هناك عقبة تحتاج إلى المساعدة أثناء اجتيازها.

١٠ ـ القيادة في مكة:

رأينا كيف استخلف النبيّ ﷺ على مكة عتاب بن أسيد، وذلك قبل عودته إلى المدينة. وعتاب هذا من مسلمة الفتح، وكان شاباً، عمره لم يبلغ الثلاثين، وهذه خطوة من الرسول ﷺ ما كانت تتوقعها قريش، فأين دور المشيخة من أمثال أبي سفيان وحكيم بن حزام؟

إن سجل هؤلاء حافل بعداء الإسلام والكيد له، وإسلامهم لم يكن عن رغبة، ولقد رأيناهم في صفوف المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم الرسول ﷺ العطايا الكبيرة ليساعدهم على استقرار الإيمان في قلوبهم، إنهم لم يكونوا في وضعهم هذا ليصلحوا ممثلين للرسول ﷺ في مكة، ومع هذا لم يكن باستطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم في الاعتراض؛ لأن ماضيهم غير مشرف، ولأنهم في حاضرهم قد لوى رسول الله ﷺ رؤوسهم بأعطياته، وهكذا أصبح هؤلاء كغيرهم من الناس، مسلمين من رعايا مكة، أميرهم عتاب بن أسيد.

أما عتاب فهو شاب لم يكن في سجله تلك المواقف في محاربة الله ورسوله، وقد عرف الرسول الكريم ﷺ صدق إسلامه، ولهذا استخلفه على مكة أثناء غيابه في غزوتي هوازن والطائف.

الإعلام بعد الفتح

كان الشعر ـ يومذاك ـ هو الصحافة التي توجه الرأي العام، وإن كان يمتاز عليها بأنه يستطيع إلهاب المشاعر، واستنهاض الهمم لما يريده.

---

(١) عن شبهات حول الإسلام لكاتبه الأستاذ محمد قطب.

وكان للرسول ﷺ شعراؤه، وكانوا من الأنصار، وهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وقد استطاعوا أن يؤدّوا دورهم كاملاً في الدفاع عن الرسول ﷺ وعن الإسلام... وأن يكونوا بالمرصاد لشعراء قريش وغيرها ممن كانوا لسان الشرك الذي يقاوم الحق ويدافع عن الباطل.

وقد كان من أبرز شعراء الجاهلية المدافعين عنها: ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وهبيرة بن أبي وهب، والعباس بن مرداس، وكعب بن زهير، وقد أسهم هؤلاء جميعاً في نصرة الباطل وكانوا لسانه حتى فتح مكة.

فأمّا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقد رأينا كيف أسلم قبيل فتح مكة والرسول ﷺ في طريقه إليها، وكيف أعرض عنه أولاً ثم صفح عنه، وقد حسن إسلامه وكان موقفه يوم حنين من المواقف التي تذكر، فقد ثبت مع الرسول ﷺ حين فرّ الناس عنه.

وأما ضرار بن الخطاب، فلم يكن في قريش أشعر منه، وقد أسلم يوم الفتح[1]، وأسلم عباس بن مرداس ـ وأمه الخنساء ـ قبيل الفتح وكان من المؤلّفة قلوبهم، ولجأ الحارث بن هشام ـ أخو أبي جهل ـ يوم الفتح إلى بيت أم هانئ بنت أبي طالب التي أجارته وجاءت به إلى رسول الله ﷺ فأسلم.

وهرب هبيرة بن أبي وهب، وعبد الله بن الزبعرى ـ حين الفتح ـ إلى نجران، فرمى حسان بن ثابت عبد الله ببيت واحد من الشعر قال:

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلك بغضه ... نجرانَ في عيش أحذَّ لئيم

فلما بلغه ذلك جاء إلى رسول الله ﷺ فأعلن إسلامه، وأما هبيرة فأقام بها حتى مات كافراً[2]، ولم يكن واحداً من الذين أهدر الرسول ﷺ دمهم بل إن زوجته أم هانئ بنت أبي طالب هي التي أجارت الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية، وكان بإمكانه أن يبقى بمكة كما بقي كل الطلقاء، ولم

---

(١) الإصابة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٤١٨ ـ ٤٢٠.

يكن الرسول ﷺ أجبر أحداً على الإسلام ـ كما رأينا ـ فلم يكن ثمة داعٍ لفراره إلى نجران، ولكنه كره أن يعيش في بلد أصبح خاضعاً لنفوذ الإسلام، فآثر أن يعيش غريباً، فكانت تلك بعض عقوبته في الدنيا قبل الآخرة.

ولما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش: ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.

وكان كعب أرسل إلى أخيه بجير يعاتبه على إسلامه أبياتاً منها

وخالفت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء وَيْبَ غيرك دلّكا[1]

على خلق لم تلف أماً ولا أبا ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

وقرأها بجير على الرسول ﷺ ـ كره أن يكتمها ـ ثم كانت رسالة بجير إلى أخيه، فلما بلغته الرسالة ضاقت به الأرض، فلما لم يجد بدّاً، قال قصيدته التي يمدح بها الرسول ﷺ والتي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفدَ مكبول

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهنّد من سيوف اللّه مسلول

ثم جاء فأعلن إسلامه[2].

وبإسلام كعب نستطيع القول بأن الكلمة المعارضة قد انتهى دورها، فقد كان هؤلاء حملة لوائها، وقد تحوّلوا إلى صفّ الإسلام واستظلّوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام، بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا جانب آخر من جوانب فتح مكة.

---

(1) ويب غيرك: أي هلكت هلاك غيرك.

(2) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠١ ـ ٥٠٣.

غزوة تبوك

دعوة الإسلام... إلى الناس كافّة:

فتحت مكة، ومن قبلها خيبر، وأسلمت هوازن، وبدأت الوفود تفد إلى الرسول ﷺ تعبيراً عن ولائها وإعلاناً لإسلامها[1]، فكان لا بدّ بعد هذا من أن تأخذ الدعوة طريقها الذي رسمه الله تعالىٰ لها، فقد جعلها دعوة للناس كافة، وكان لا بدّ من تبليغ هؤلاء الناس من غير العرب، ابتداء من الأقرب بالأقرب، وكانت منطقة تبوك هي حدود الدولة الرومانية إذ كانت تلك الأماكن تابعةً لها.

قال ابن كثير: عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[2].

---

(١) ذكر أكثر كتاب السيرة، الوفود في العام التاسع بعد حجة أبي بكر رضي الله عنه والسبب هو كثرة الوفود في هذه الفترة، وإلا فقد بدأ توافدهم إليه ﷺ قبل ذلك. قال ابن كثير: وقد ذكر محمد بن إسحاق ثم الواقدي والبخاري ثم البيهقي بعدهم، من الوفود ما هو متقدم تاريخ قدومهم على سنة تسع بل وعلى فتح مكة. البداية ٥/ ٤٠.

(٢) البداية ٥/ ٢ هذا ما اختاره ابن كثير بعد أن ذكر ما روي عن ابن عباس في سبب هذه الغزوة وهو: أنه لما أمر تعالىٰ أن يُمنع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره قالت قريش: لينقطعن عنا المتاجر والأسواق... فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بالقتال لأهل الكتاب... اهـ. =

ولهذا نستطيع اعتبار هذه الغزوة أنها المباشرةَ العملية للدعوة في إطارها العالمي وذلك بعد المباشرة التمهيدية التي سبقتها وهي إرسال الكتب والرسل إلى الملوك والأمراء.

أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيّؤ لغزو الروم وذلك في رجب من السنة التاسعة للهجرة، حيث كان الناس في عسرة وجدب من البلاد، وكان الوقت في شدّة الحر، حيث طابت الثمار وقد حبّب المقام في الظلال.

وعين ﷺ الوجه الذي يقصد إليه، على غير عادته ـ إذ كان قلّما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ـ وما ذاك إلّا لبعد المسافة، وشدّة الزمان وكثرة العدو المتوقعة، فكان في تعريف الناس المقصد ما يساعدهم على التأهب والتجهّز بالحجم الذي يتناسب مع المسافة والاتجاه المقصود والعدوّ المتوقع.

وبدأ الناس عملية جادة في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ والاستعداد، كما بدأ ﷺ بدعوة الناس إلى الإنفاق والتبرّع للتغلب على الأزمة المادية وليتمكن من تأمين أولئك الذين لا يجدون الوسائل التي تساعدهم على المشاركة في الغزوة.

وسارع أهل الغنى إلى النفقة والحملان في سبيل الله، وأنفق عثمان

= وأقول: إن آية التوبة المشار إليها إنما بلغت لأهل مكة في موسم الحج، وغزوة تبوك قبل الموسم بخمسة أشهر مما يستبعد معه أن يكون هو السبب.
وذكر ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٦٥ سبباً آخر للغزوة هو: أن الروم جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة... وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء، فندب رسول الله ﷺ الناس ...اهـ.
أقول: وهذا السبب مستبعد لأنه لم يحصل أي قتال في هذه الغزوة، ولو فعل الروم ذلك لكان قتال، فيبقى ما اعتمده ابن كثير هو السبب المعقول، وهو الدعوة إلى الله تعالىٰ.

ابن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، فجهز جيش العسرة حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً: في ثلاثمائة بعير، وجاء بمال كثير فوضعه بين يدي النبيّ ﷺ.

ووجد المنافقون فرصتهم لتثبيط الناس، مستفيدين من الضيق المادي الذي يعيشه الناس، ومن شدة الجوّ في حرارته، ومن أن عدوّ اليوم هو غير عدو الأمس... وكان بيت سويلم ـ اليهودي ـ مقراً لهؤلاء المثبطين، فبعث النبيّ ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل، واقتحم المنافقون البيت من ظاهره فأفلتوا.

ولما أجمع ﷺ السير خرج يوم الخميس وضرب عسكره على ثنية الوداع، ومعه يومئذ ما يزيد على ثلاثين ألفاً، وضرب عبد الله بن أُبي ـ رأس المنافقين ـ عسكره أسفل منه، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله في طائفة المنافقين وأهل الريب[1].

واستعمل ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، كما خلف علي بن أبي طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون وقالوا: ما خلفه إلّا استثقالاً له وتخففاً منه، فلما قالوا ذلك أخذ عليّ سلاحه ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ ـ وهو نازل بالجرف ـ فأخبره بما قالوا، فقال: (كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبيّ بعدي)[2]، فرجع عليّ ومضى رسول الله ﷺ في سفره.

في الطريق إلى تبوك:

انطلق رسول الله ﷺ إلى غايته، فلما مرّ بالحجر[3] قال:

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١٩.
(٢) متفق عليه (خ٤٤١٦، م٢٤٠٤).
(٣) الحجر مكان ثمود.

(لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلّا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي[١].

وكان الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حرٍّ شديد، فأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها[٢].

وكان نفر من المسلمين أبطؤوا حتى تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب، وكان الصحابة يقولون: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: (دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه)، حتى قيل: قد تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره، فقال ﷺ مقالته تلك، ولما أبطأ على أبي ذر بعيره، أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا ذر)، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال ﷺ: (رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده، ويبعث وحده)[٣].

ودخل أبو خيثمة بيته ـ بعد مضيه ﷺ ـ فنظر إلى امرأتيه وقد هيّأتا الطعام والماء البارد، فقال: رسول الله في الضح[٤] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيّأ... ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فارتحل ناضحه[٥] ثم خرج حتى أدركه حين نزل تبوك، فلما دنا، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا خيثمة)، فقالوا:

---

(١) متفق عليه (خ٤٣٣، م٢٩٨٠).

(٢) البداية ٥/٩ نقلاً عن الإمام أحمد.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٥٢٣.

(٤) الضِّح (بالكسر): الشمس.

(٥) الناضح: الجمل الذي يستقى عليه الماء.

يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول الله ﷺ قال له: أولى لك يا أبا خيثمة، ثم أخبره أبو خيثمة الخبر فدعا له بخير.

المعسكر في تبوك:

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه «يحنة بن رؤبة» صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، وكتب لهم كتاباً، كما كتب لصاحب أيلة كتاباً آخر، فيهما الأمان لهم.

ثم دعا رسول الله ﷺ خالد بن الوليد وبعثه في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر دومة، وهو رجل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً، وقال ﷺ لخالد: (إنك ستجده بصيد البقر).

وخرج خالد فوجده مع نفر من أهل بيته بصيد البقر ـ كما أخبرهم بذلك رسول الله ﷺ ـ في ليلة مقمرة فأخذوه وقتلوا أخاه لأنه قاتلهم، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجّبون منه، فقال رسول الله ﷺ: (أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا).

وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية ثم خلّى سبيله، فرجع إلى قريته.

العودة إلى المدينة:

أقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

وفي الطريق كان ماء بوادي المشقق، يروي الراكب والراكبين، فقال ﷺ: (من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه)، فسبق إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلما أتاه ﷺ وقف عليه، فلم ير فيه شيئاً، فقال: (من سبقنا إلى هذا الماء؟) فقيل له: فلان

وفلان، فقال: (ألم أنههم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟) ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده ومسحه بها ودعا بما شاء الله أن يدعو فانخرق الماء، وشرب الناس.

وروى الإمام أحمد عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل. فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: (قد، قد)، حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل، ورجع عمار. فقال: (يا عمار هل عرفت القوم؟) قال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون، قال: (هل تدري ما أرادوا؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه، قال: فسارَّ عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة، فقال: أربعة عشر[1]...

وأشرف ﷺ على المدينة، فقال: (هذه طابة، وهذا جبل أُحد يحبنا ونحبه)[2]، ولما دنا منها خرج الناس وفيهم النساء والصبيان والولائد يقلن[3]:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

المخلفون:

لما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل جاءه المخلفون.

---

(١) الفتح الرباني ٢١/ ٢٠١.
(٢) متفق عليه (خ٤٤٢٢، م١٣٩٢).
(٣) كان هذا عند قدومه ﷺ من تبوك حيث دخل من ثنيات الوداع، وليس كما يذكره بعضهم عند قدومه من مكة.

وندع الحديث هنا لكعب بن مالك - أحد المخلفين - يروي قصته، فهي تصوير شامل حوى كثيراً من أمر الغزوة، ونسوقه بطوله، لما فيه من العبر، قال كعب:

«لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلّا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.

وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفت فيهم،

أحزنني أني لا أرى إلّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: (ما فعل كعب؟) فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلّا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سَخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلّمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال: (تعال)، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: (ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟) فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)، فقمت.

وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار

رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه؛ فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمّا أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أُحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أمّا بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمت بها التنّور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: (لا، ولكن لا يقربك)، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يُدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

فلما صلّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته أياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنّئوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنّاني، والله

ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: (أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك). قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: (لا، بل من عند الله). وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلّا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ـ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ـ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط ـ بعد أن هداني للإسلام ـ أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

قال كعب: وكنّا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[3]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[4].

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١٧.
(٢) سورة التوبة: الآية ٩٥.
(٣) سورة التوبة: الآية ١١٨.
(٤) متفق عليه (خ٤٤١٨، م٢٧٦٩).

تأملات في غزوة تبوك

١ ـ تجاوز العوائق:

صدر أمر رسول الله ﷺ بالاستعداد لغزوة تبوك في ظروف صعبة، تجمعت مع بعضها لتجعل من هذه الغزوة: غزوة العسرة بل سمي جيشها: جيش العسرة.

- فالزمن زمن حر شديد.
- والمكان... بعيد.
- والعدو: دولة منظمة ولها جيش قوي.
- والناس في عسر مادي وجدب من البلاد.
- والظلال وارفة... تدعو إلى الاستظلال بها.

إنها عوامل مادية واقتصادية ونفسية... غير مناسبة، ولكن متى كان العمل الهادف في سبيل الله ينتظر ظروفاً مناسبة، إن في الإيمان القوة الكفيلة بالتغلّب على كل الصعاب، وفي الصبر الذي مرن عليه المسلمون ما يذلّل كل العقبات، نفسية كانت، أو زمانية، أو مكانية.

وأما العامل الاقتصادي فقد بذل الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، كل جهد لدفع الناس إلى البذل والعطاء، فها هو يخطب في ذلك، فيقول عثمان: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها[1]، ثم نزل مرقاة أخرى من المنبر ثم حث، فقال عثمان: عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل مرقاة أخرى فحث، فقال عثمان: عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها...[2] إنه التعبير عن الضرورة الملحة أن

---

(١) الأحلاس: جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل، والأقتاب: جمع قتب، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب.

(٢) شرح المواهب ٣/ ٦٥ من رواية الترمذي والبيهقي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن عبد الرحمٰن بن خباب.

يتحدث ﷺ في الموقف الواحد ثلاث مرات وقد تجاوب الصحابة مع هذه الدعوة، فتبرع عثمان وتبرع أبو بكر وتبرع عبد الرحمٰن بن عوف... وقدم كل واحد منهم ما يستطيع، إن الذين يبذلون أنفسهم رخيصة في سبيل الله لن يضنوا بأموالهم.

ومع كل هذا البذل، فإن النفقات لم تف بحاجات جميع الناس فلقد تخلف بعضهم بسبب فقدان النفقة.

إن هذا يلقي الضوء على ما كان الناس فيه من عسر، على أن تخلف بعضهم بسبب قصور النفقة لا يعني أن الذين ذهبوا كانوا في بحبوحة من أمرهم، فقد خرجوا لهذه الغزوة، الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وقد أصابهم في يوم عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها[1]، كما أصابتهم مجاعة، حتى استأذنوا رسول الله ﷺ في نحر نواضحهم فقال: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة، لعل الله أن يجعل فيها البركة، فقال رسول الله: (نعم)، فدعا بنطع فبسط ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف من التمر ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم: (خذوا في أوعيتكم فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوها وأكلوا حتى شبعوا)، وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: (أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة)[2].

إنه العسر في الظهر ـ والمسافة بعيدة ـ والعسر في المأكل والمشرب والحر... ولكن الإيمان أكبر منها جميعاً، إن جيشاً بعض أفراده أمثال أبي ذر ـ الذي حمل متاعه وتابع الطريق ماشياً حينما أبطأ به

---

(١) البداية ٩/٥ نقلاً عن الإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٧).

بعيره - لن يكون في معجمهم ما يسمى بـ «العوائق»، وبمثل تلك الهمم كتب تاريخ الإسلام وما زال يكتب...

٢ - النفاق:

ولعل من العوائق الهامة، أولئك المنافقين، الذين يجدون المرتع الخصب في وقت الأزمات، ولقد كان لهم دورهم في هذه الغزوة - كما هو الشأن في غيرها - ولكنهم في هذه المرة تطفو أعمالهم على السطح ويأتي القرآن ليفضحهم.

إن المنافقين ليسوا عناصر سلبية فحسب، ولكنهم فعَّالون في سلبيتهم، فهم لا يمتنعون عن الخروج والمساهمة، ولكنهم يثبطون الآخرين ويحطون من هممهم، وقد رأينا كيف حرق رسول الله ﷺ بيت سويلم اليهودي الذي كان مقراً لهم.

وعبد الله بن أُبي لا يمتنع عن الخروج مبدئياً، بل يضرب عسكره بجانب عسكر رسول الله ﷺ، فإذا انطلق رسول الله ﷺ رجع ليكون ذلك أبلغ في تثبيط الناس.

فإذا انطلق الجيش قال من خرج به من المنافقين: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال[١]. إنه الإرجاف وتوهين القوى.

ويقابل رسول الله ﷺ الجد بن قيس فيقول له: (هل لك في جلاد بني الأصفر)، فيقول: يا رسول الله، ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: (قد أذنت لك)، وفيه نزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[٢].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٥٢٥ وتفسير ابن كثير عند الآية ٦٥ من سورة التوبة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٥١٦ وتفسير ابن كثير عند الآية ٤٩ من سورة التوبة.

وضلّت ناقة رسول الله ﷺ فخرج أصحابه في طلبها، فقال زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: (... وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها)[1]، إنه التشكيك حتى في النبوّة؟.

ويصل بهم التمادي في الكفر إلى محاولة قتل الرسول ﷺ أثناء العودة من تبوك، كما رأينا، ولعل هذا الأمر يفسر خروج الذين خرجوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ، بينما تخلف زعيمهم والغالبية العظمى منهم، إنه كان أمراً مبيتاً أطلع الله تعالىٰ رسوله ﷺ عليه.

هذا بعض سلوك المنافقين في هذه الغزوة، وقد تجاوز المسلمون هذه العقبة كما تجاوزوا غيرها، ولنذكر سلوك صحابي من الصحابة إزاء أحد هذه المواقف.

كان عمارة بن حزم في مجلس رسول الله ﷺ حينما تحدث عن أمر الناقة، وما قاله زيد بن اللصيت، ثم رجع إلى رحله متعجباً من المقالة، وهو لا يدري أن زيداً هو قائلها، وكان معه في رحله، فلما أقبل يحدث من معه قال له رجل: زيد هو صاحب المقالة. فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إليَّ عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني[2].

وبمثل سلوك عمارة بن حزم تمكن المؤمنون الصادقون من تجاوز كل تلك الضوضاء التي أحدثها النفاق، بل أصبح المؤمن يحاسب نفسه إذا أشبه سلوكه سلوكهم، كما حصل لكعب بن مالك حينما شعر بالذنب الكبير إذ لم يجد في المتخلفين إلّا من كان مطعوناً عليه في دينه.

وقد سجلت سورة التوبة تفصيلاً، سلوك المنافقين، ليعرفهم المؤمنون، وليحذروا هذا الأسلوب لأنه سمة غير المؤمنين.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٣. (٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٣.

٣ ـ الأغنياء في المجتمع الإسلامي:

ليس الأغنياء في المجتمع الإسلامي طبقة ـ كما هي الحال في المجتمعات الرأسمالية ـ وإنما هم أفراد ضمن هذا المجتمع، لا يعطيهم مالهم أية مزايا، إلا تلك التي يدخرونها لأخراهم، ولقد جاء الإسلام ليبيّن أن المال وسيلة، وهو ابتلاء يختبر الإنسان به، ولقد استطاع الأغنياء المسلمون أن يبرهنوا أن أموالهم حينما تزيد إنما ذلك في مصلحة المجتمع.

وفي هذه الغزوة برهن كل الأغنياء المسلمين أن مالهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وما عثمان إلّا مثل لهم، ولقد تحدثنا عن أبي بكر حينما سخر ماله لتحرير الأرقّاء...

إن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف، لأنه تاريخ المال في يد الرجال، لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس فكذلك هو بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، ما نعتقد أنهم يبخلون بأموالهم.

٤ ـ المشاركة الوجدانية... والحركية:

لبّى المسلمون القادرون دعوة الرسول الكريم ﷺ فجهّزوا أنفسهم، وجهز رسول الله ﷺ ضمن الإمكانات المتوفرة لديه بعض من لم يكن قادراً على تجهيز نفسه، وبقيت بقية من المؤمنين، غير قادرة على تجهيز نفسها، وجاءت تطلب من الرسول ﷺ مساعدتها فلم يكن لديه ما يساعدها، ويرجع هؤلاء وقد فاضت أعينهم من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون، وأن الجهاد مع رسول الله سيفوتهم، إنهم يبكون وهم الرجال، إنهم لا يبكون دنيا فاتتهم، ولا متاعاً فقدوه... ولكنه التعبير الصادق عمّا في نفوسهم من صدق الإيمان، فاضت به الأعين في لحظة فقد اللسان قدرته عن التعبير عمّا في الفؤاد من الحزن والأسى، ولقد قبل الله عذرهم فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ

أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[1].

وقام علبة بن زيد من الليل وبكى، وقال: اللّهمّ إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوّى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبيّ ﷺ: (أين المتصدق هذه الليلة؟) فلم يقم إليه أحد ثم قال: أين المتصدق؟ فليقم، فقام إليه فأخبره فقال النبيّ ﷺ: (أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة)[2].

وتخلف بعضهم من غير عذر ولكنهم لم يطيقوا أن يكونوا في الراحة ورسول الله ﷺ في الحر والقيظ... فما كان منهم إلا الالتحاق الفوري... كان ذلك فعل أبي خيثمة وعمير بن وهب الجمحي[3].

وقد تنبّه أبو خيثمة للمقياس الإيماني الذي نزل به القرآن ـ بعد ذلك ـ حينما قال: ما هذا بالنصف... وقد رأى وسائل الراحة... ثم ذهب بمشاعره إلى وضع الرسول ﷺ في تلك الساعة فإذا هو في القيظ... فقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[4].

هذه بعض مشاهد أولئك الذين تخلفوا معذورين، أو مقصرين فأدركوا أنفسهم. وفي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ: «أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم)، قالوا:

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٢.

(٢) زاد المعاد ٣/٥٢٨ وعلق عليه المحقق: حديث صحيح ورد مسنداً موصولاً كما قال الحافظ في الإصابة...

(٣) ابن هشام ٢/ ٥٢٠.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٠.

يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)»[1].

إن هؤلاء الذين حبسهم العذر كانوا طيلة تلك المدة مع المجاهدين، بعواطفهم وأفكارهم وقلوبهم، كان بودّهم لو شاركوهم، ولكن الأمر لم يكن بأيديهم، إن ظروفهم قصرت بهم عن المشاركة ولكنها لا تستطيع أن تسيطر على عواطفهم ومشاعرهم فتمنعها المشاركة.

إن هذه المشاركة الوجدانية هي مصدر الفاعلية في الإنسان، فهي نقطة الانطلاق للمشاركة الحركية، إن الحركة الوجدانية في نفس أبي خيثمة هي التي دفعته أن ينطلق ليقطع الطريق إلى تبوك منفرداً لولا أن الله منَّ عليه برفيق، وهي التي دفعت المتصدق ليتصدق إذ لم يجد سبيلاً آخر للمشاركة، وهي التي دفعت عمر فأقسم عام الرمادة أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس[2]، وإنه إذ لم يستطع أن يوسع على الناس جميعاً فلابدّ من مشاركتهم ما هم فيه.

تلك طبيعة الإيمان، تجعل من المؤمن جزأ من مجتمع، فلابدّ أن يحس كل منهما إحساس الآخر، وحينما ينقطع هذا الإحساس من الجزء فهو عضو أشل لا فائدة فيه، وحينما يخلو المجتمع من هذا الإحساس فهو مجتمع لم يتّسم بسمة الإيمان.

وأمّا الذين لم يشاركوا فهم إما أناس أصابتهم غفلة فانتبهوا لخطئهم فكفروا عن سيّئاتهم، مثل كعب بن مالك، وإما أناس لم يعتبرهم الإسلام في تعداد أبنائه، وهم المنافقون.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى التنبّه إلى هذه المقاييس، ليعرفوا من منهم ومن عدوّهم، إن الكثيرين الكثيرين ـ هذه الأيام ـ مشاعرهم مع أعداء المسلمين ويعدون أنفسهم مسلمين، وإن الكثيرين يؤازرون أعداء المسلمين ضد المسلمين وهم مع ذلك يظنون أنهم ما زالون مسلمين.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٤٢٣).   (٢) الكامل ٢/ ٣٨٩.

إن الإسلام لم يقبل من كعب التخلف، وهو عمل غير مباشر في مؤازرة الأعداء، وكعب من هو في إيمانه وسابقته، فكيف يقبل من غيره إيجابيته ضد الإسلام ومباشرته مساعدة أعدائه؟

إن الإسلام ليس رداء للمناسبات، ولكنه الإيمان الذي يصبغ سلوك الإنسان في جزئياته وكلياته بمادته.

٥ ـ لغة المادة في مجتمع الإيمان:

إنك أنى ذهبت في تبوك ـ وهي صفحة من السيرة ـ طالعتك مشاهد رائعة، قد تختلف في مظهرها، ولكن حقيقتها واحدة، هي الحقيقة التي جاءت الرسالة الخاتمة لترسخها واقعاً في سلوك الناس، فإذا الناس ولغتهم هي لغتهم يتعاملون بها وفق المفاهيم الجديدة التي جاءت بها هذه الرسالة، وإذا الإنسان بعدها ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً، ولكنه في نصرته له ظالماً يأخذ على يديه فيمنعه من ظلمه.

وفي تبوك مشاهد كثيرة تعامل الناس فيها بلغتهم المادية في أجواء الإيمان، نقتصر على ذكر اثنين منها:

ـ قال عبد الله بن مسعود: قمت من جوف الليل ـ وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ـ قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: (أدنيا إليّ أخاكما)، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: (اللّهمّ إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه)، قال: يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[١].

إنها لغة الحسد، ولكنها استعملت في عالم آخر، إنه يغبطه تلك

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

الكرامة التي أكرمه الله بها، يدفنه رسول الله ويطلب له الرضى من الله، إن الكلمة التي قالها ابن مسعود لهي كلمة كل مؤمن آمن باليوم الآخر، لو وقف موقفه ذاك ﷺ، فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس.

ـ قال واثلة بن الأسقع: نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فخرجت إلى أهلي، فأقبلت ـ وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ ـ فطفت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه، فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبه، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال: فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا[1]. فأصابني قلائص[2]، فسقتهن حتى أتيته، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً، قلت: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا[3].

إنها صفقة ألحقت بشروط، يتنازل فيها واثلة عن غنيمته المادية

---

(١) لم يحصل المسلمون في غزوة تبوك على غنائم وإنما تمت الأمور على المصالحة ولكن ذكر ابن سعد ٢/١٦٦ أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارساً إلى اكيدر... وأجار خالد اكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، فعزل للنبيّ ﷺ صفياً خالصاً، ثم قسم الغنيمة فأخرج الخمس... ثم قسم ما بقي بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض .اهـ.

وعلق ابن قيم الجوزية على هذه الرواية بقوله: إن الإمام إذا بعث سرية فغنمت غنيمة أو أسرت أسيراً أو فتحت حصناً كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه... زاد المعاد ٣/ ٥٧٠.

وعلى هذا فقد كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد هذه السرية التي كانت بقيادة خالد وأصابه من الغنيمة القلائص التي ورد ذكرها في الحديث.

(٢) قلائص: جمع قلوص، وهي الشابة الفتية من النوق.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٧٦).

ليكسب الغنيمة الأخروية، أجراً وثواباً يدخره، ويتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة الراحلة ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب. . .

إنها مفاهيم تنبع من مشكاة واحدة، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل البريق نفسه، متمم بعضها لبعضها الآخر، فإذا هي تأخذ على الإنسان نفسه، فما يكاد يرفع بصره عنها حتى يجد نفسه مدفوعاً، إلى إعادته كرة أخرى ليعيش تلك المعاني منبثقة من القيم الخالدة.

٦ ـ حديث كعب:

إن هذا الدين يتعامل مع الناس، الذين هم من طبيعتهم الخطأ والصواب، وليس هو للملائكة الذين خلقوا للطاعة فحسب، ومجتمع كالمجتمع الإسلامي في عصر النبوّة إن أخطأ فيه أفراد، فليس ذلك عيباً فيه، إنما هو التعبير عن الطبيعة الأصيلة لهذا الإنسان الذي جاء الإسلام لإصلاحه وتهذيبه. وما حديث كعب إلّا الوصف الدقيق لمدى الشفافية التي أصبح الفرد المسلم يمتلكها حتى أضحى بطبعه يحس بالخطأ وحتى أضحى الناس يرون ذلك الخطأ أمراً عظيماً في حقه. إن المرآة التي تراكم عليها الغبار لن يضيرها أن تقع فوقها ذرة غبار أو ذرات، أما المرآة التي صقلت ونظفت تنظيفاً جيداً لا بد أن ترى عليها تلك الذرّات.

أخطأ كعب، ولكن هذا الخطأ لم يجعله يتابع سيره في سلسلة من الانزلاقات، كان في صراع مع نفسه في تبرير ذلك الخطأ، ولكن صفاء تلك النفس أبى عليه أن يموّه الأمور أو أن يسميها بغير أسمائها. وذهب يصارح رسول الله ﷺ حقيقة الأمر، فإذا به يعطى شهادة الصدق بقوله: (أما هذا فقد صدق). . . ولقد صدق بعد ذلك في ثباته إبان ذلك الابتلاء. . . فإذا به مثال الثبات في التزامه بهذا الدين، ويأتيه رسول ملك غسان. . . فيقتحم تلك العقبة ويتجاوزها. . . ويأتيه رسول

رسول الله ﷺ ليقول له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فما يتردد في الأمر ولكنه يسأل عما يجب عليه أن يفعل لينفذ ذلك، فقلت: أطلقها؟... فقال له: لا بل اعتزلها...

تلك صورة من صورة التزام الفرد في المجتمع الإسلامي، إن خطأه في أمر لا يعني تحلّله من التزامه، ولكنه تعبير عن ضعفه وعبوديته، وذلك مما يحبه الله فيه... ولذا تاب عليه.

أما الوجه الآخر لصورة الالتزام في هذه الحادثة فهي تلك الصورة المشرقة الوضاءة التي تبين مدى تفاعل المجتمع مع نظامه وانضباطه في تنفيذ أوامره مما يسجل معه لوحة في عالم الواقع ما نكاد نقرؤها في تاريخ أمة...

امتنع «المجتمع» ـ تنفيذاً للأمر ـ عن الكلام إلى أولئك الثلاثة، لم يكن ذلك مجرد تنفيذ أمر ولكنه التفاعل مع الأمر... فقد تغيروا لهم نفسياً «فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا» وهؤلاء الناس فيهم الابن والأخ والعم والقريب والصديق... ويأتي حامل رسالة ملك غسان يسأل فما يجد من يكلمه في هذا الأمر بل يشيرون إليه إشارة!! ويتسور جدار حائط ابن عمه وأحب الناس إليه، فيناشده المرة الأولى أن يرد على سؤالٍ طرحه عليه... فما يرد عليه ثم يناشده الثانية، فما يرد عليه، ثم يناشده الثالثة فما يسمع أكثر من... الله ورسوله أعلم؟!

إن مجتمعاً بلغ به الالتزام هذا المستوى في الدقّة والإحكام، لابدّ أن يكون سلوكه هو المقياس في معرفة الخطأ والصواب، والحق والباطل... وقد رأينا كيف حزّ في نفس كعب أن خرج في الناس ـ بعد خروج رسول الله ﷺ ـ فطاف فيهم فأحزنه أنه لم ير إلّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله... إن المسلمين كلهم في التزام كامل بأوامر هذا الدين.

تلك كانت وقفة يسيرة على حديث كعب اكتفيت فيها بالكلام عن

الالتزام من خلال حديثه، وإن كل جملة في الحديث لتستوقف القارئ، فما أكثر ما يحمله الحديث من معانٍ وأحكام...[1].

٧ ـ وبعد... ما هي حصيلة تبوك:

يرى بعضهم أنها كانت استجابة لتحدّي الروم[2]، ويرى بعضهم الآخر أنها كانت استجابة لاقتراح اليهود بالذهاب إلى الشام[3]...

والواقع أنها لم تكن استجابة لاقتراح اليهود لأن هذه الغزوة كانت بعد فتح مكة، ولو كانت كذلك لما حرق رسول الله ﷺ بيت سويلم اليهودي الذي كان المنافقون يأوون إليه بغية السعي في تثبيط الناس، بل لم يكن سويلم ليثبط الناس عن رأي اقترحه أهل ملّته، كما أن اليهود كانوا يومها أقلّ وأضعف من أن يقترحوا ذلك.

كما لم يكن استجابة لتحدّي الروم، إذ لم يثبت وجود جيش تحدى، بل لم يحصل قتال أصلاً...

هناك من يرون أعمال الرسول ﷺ وكأنها ردود فعل... وليس الأمر كذلك، إن الرسول ﷺ يحمل دعوة عالمية، ومن مهمته تبليغها، ومن حكمة التبليغ أن تسير الدعوة شيئاً فشيئاً ليكون البناء راسخاً متيناً، وهذا لا يمنع أن تكون للأحداث الكبيرة أسباب تؤدي إليها، كما لا يمنع أن تكون مقاصد فرعية تؤخذ بعين الاعتبار خلال السعي للمقاصد الأصلية.

---

(١) أورد ابن حجر العسقلاني في نهاية شرحه لهذا الحديث ـ في فتح الباري - صفحة كاملة عدد فيها ما يستفاد من الحديث.

(٢) وقد رأينا ضعف هذا القول في تعليق سابق أول الغزوة.

(٣) وأورد ابن كثير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ...﴾ الآية ٧٦ من سورة الإسراء، قال: قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك المدينة... وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية، ثم أورد رواية البيهقي بهذا الصدد... ثم قال: وفي هذا الإسناد نظر والأظهر أن هذا ليس بصحيح اهـ.

إن غزوة مؤتة بينت واقعاً مهماً استفاد المسلمون معرفته، وهو أن الروم يقاتلون المسلمين بقوتين، إحداهما قوة جيشهم، والثانية قوة العرب المتنصرين التابعين لهم، وكان لا بدّ لتستطيع الدعوة أن تأخذ طريقها العالمي، من فصل هاتين القوّتين عن بعضهما، وكانت الحكمة تقتضي البدء بالعرب النصارى، كما يفرض ذلك الواقع الجغرافي، وقد كان إعلان الاتجاه والغاية المنشودة من قبل الرسول ﷺ قبل الخروج، فلم تكن الأمور ناتجة عن الارتجال والعشوائية، بل التخطيط المدروس...

وهكذا كانت الغاية هي تبوك... وقد تمّ الصلح مع القسم الكبير من هذه القبائل وأصبحت خاضعة لسلطان الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وقطعت صلاتها بالدولة السابقة التي كانت تابعة لها.

أمّا لماذا ذلك الجيش الكبير؟ فإن الرسول ﷺ يعلم أن تلك الإمارات كانت تحت النفوذ الروماني وسلخها عن الدولة الرومانية ربما جعلهم أمام حرب... فكان لابدّ من الاستعداد وأخذ الحيطة! ثم إن تلك القبائل وأولئك الأمراء لم يكونوا ليستسلموا بتلك السهولة لولا ما رأوه من تلك القوة الضاربة التي يمتلكها جيش الإيمان بقيادة الرسول ﷺ نفسه.

نستطيع القول بعد هذا بأن هذه الغزوة - وهي آخر غزواته ﷺ - كانت تنفيذاً لقوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[(١)]، فقد رسم رسول الله ﷺ بها الطريق للمسلمين من بعده في التعامل مع أهل الكتاب...

ونستطيع القول بأن غزوة تبوك دليل قاطع على أن الحرب في الإسلام ليست حرباً دفاعية - كما يحلو لبعضهم أن يظن - ولو كانت كذلك لما كانت غزوة تبوك، ولما كان للآية السابقة معنى[(٢)].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٢) سبق الحديث عن هذا في بحث: الإذن بالقتال.

ما بعد تبوك

قصة مسجد الضرار

قصة هذا المسجد حلقة من سلسلة تاريخ النفاق والكيد للإسلام، وإذا كان لا بدّ لكل عمل منظم من رأس يقوده، فلا بدّ له من مركز ينطلق منه، وقد أضحت المدينة كلها دار الإسلام، والمنافقون وأعداء الإسلام أفراد عرفوا بسلوكهم وتعاونهم على الباطل، ولا شك أنه كانت لهم صلات خارجية وعن طريقهم كانت ترصد حركات المسلمين، وإنه لمما يؤكد هذا تلك الرسالة التي وصلت إلى كعب بن مالك من ملك غسان يدعوه فيها إلى اللحاق به، ولم يكن مضى على رجوع الرسول ﷺ من تبوك أربعين يوماً، فلولا أن الصلة كانت موجودة لما وصلت الرسالة بهذه السرعة.

هذه الصلة كان لا بد لها من مركز يلتقي فيه أصحاب الفكرة ويصل إليه حامل الرسالة دون أن يسأل أحداً كما حصل للنبطي الذي حمل الرسالة إلى كعب، وذلك حتى لا ينبه الناس... وكانت فكرة المسجد من عمل أبي عامر الفاسق، ذاك الرجل الذي تنصر في الجاهلية ـ وكان من الخزرج ـ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة عاداه ثم خرج فكان مع قريش في غزوة أُحد... فلما فتحت مكة ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره فوعده ومناه... وأقام أبو عامر عنده، وكتب إلى جماعة من المنافقين يعدهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه... وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يبعث بهم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك[1].

---

(١) عن تفسير ابن كثير في تفسير الآية ١٠٧ من سورة التوبة.

وشرع القوم ببناء المسجد وقد أتموه والرسول ﷺ يتأهب إلى غزوة تبوك، فجاؤوا وسألوه أن يأتي إليهم فيصلي فيه، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلّة في الليلة الشاتية... فقال لهم ﷺ: (إنّا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله).

فلما قفل راجعاً من تبوك ولم يبق بينه ﷺ وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر المسجد، فدعا مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي[1]، فقال: إنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ـ رهط مالك بن الدخشم ـ فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه[2].

ونزل في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[3].

إن إطلاق الأسماء على غير مسمياتها لا يغير من الحقيقة شيئاً، وقد كان مسجد الضرار نتاجاً للنفاق فكان تجسيداً له، صورة ومعنى، له الاسم الذي يربطه بالإسلام وله حقيقة الكفر.

وقد كان بناؤه وهدمه في حياة الرسول ﷺ درساً عملياً ينبغي أن

---

(١) قال في شرح المواهب ٣/ ٨٠ زاد البغوي وحشياً قاتل حمزة اهـ. ومن المعروف أن وحشياً لم يكن قد أسلم إذ كان إسلامه بعد ذلك حينما ذهب وفد ثقيف إلى الرسول ﷺ، وإنما جاءه الوفد بعد قدومه من تبوك.

(٢) ابن هشام ٢/ ٥٣٠.

(٣) سورة التوبة: الآيات ١٠٧، ١٠٨.

يعيه المسلمون حتى لا تؤخذ الصور بعيداً عن المعنى وحتى لا تلهيهم المظاهر عن الحقائق، ولئن كان أعداء الإسلام في المرحلة الأخيرة من الزمن ليسوا بحاجة إلى بناء مساجد لتكون غطاء لأعمالهم في بلاد الإسلام، حيث بات الميدان لهم مفتوحاً يبنون أوكارهم علناً تحت أسماء تعطيها الإغراء ومسحة الرقي والمدنية، فإنهم لم يكتفوا بهذا بل امتدّت أيديهم إلى المساجد نفسها التي أسّست على التقوى، فقصروا عملها على جانب واحد هو أداء الصلاة، فباتت أبوابها مغلقة إلّا في دقائق معدودة كل وقت، ولم يعد للمسجد فعاليته ومعناه.

كان أول عمل قام به الرسول ﷺ هو بناء المسجد، فكان مكان أداء الصلاة وبه يلتقي المسلمون، وكان مدرستهم التي يتعلمون بها، وكان مكان مناقشة أمور المسلمين، وكان مكان استقبال الوفود، ومكان عقد الرايات، وإذا حزب المسلمين أمر سمعوا النداء: الصلاة جامعة... فإذا هم يؤمّون المسجد مسرعين يأخذ كل مكانه في إبداء الرأي وفي المساهمة في العمل...

إنه مكان الحركة الدائمة التي لا تعرف السكون، فإذا هو صورة قائمة تحس وترى، عن حيوية هذا الدين... وبدأت الأيدي تارة عن غباء وتارة عن حسن نية وتارة عن عمد تقلص هذه الاختصاصات وتنقلها إلى أماكن أخرى حتى نسي الناس صلتها بالمسجد... وإن نسيان هذه الصلة كلف المسلمين الكثير، فخسروا مادة وخسروا معنى.

إن سلخ المدرسة عن المسجد كان من بعض نتائجه أن تغير الهدف الذي يُتَعَلَّم له، كان الفرد يتعلم ليكون العامل في بناء الأمة، فأصبح العلم وسيلة للكسب المادي الدنيوي، وكان المتعلم يدخل مكان التعلم وفي نفسه تقديس المكان باعتباره بيتاً من بيوت الله... فأصبحت العملية التعلمية عملية مادية محضة فاحتاجت إلى وسائل كثيرة لتربية الطالب واسترعاء انتباهه واستحضار ذهنه... وقد كانت هذه الأمور متوفرة بدهياً حينما كان في المدرسة معنى المسجد...

إنه مثل لمقدار الخسارة حينما ابتعد الناس عن المسجد. . .

إن هدم مسجد الضرار يعني أنه لا مجال للمساومة في هذه الأمور، لم يقل الرسول ﷺ إن هدمه خسارة مادية وإنه سيأتي اليوم الذي يعبد فيه الله، إنه الإصرار على إزالة كل ما من شأنه أن يشوّه صورة الإسلام، تحت عنوان الإسلام، وكثيراً ما أُتي المسلمون من هذا الجانب.

وفي العالم الإسلامي اليوم مؤسسات تحمل اسم الإسلام، هي نسخ من مسجد الضرار غايتها طمأنة المسلمين إلى أن إسلامهم بخير، وأن لا عليهم أن يهتموا. . . فيغتر بها البسطاء من الناس، وما هي في الحقيقة والواقع إلّا الحبوب المنوّمة للمسلمين.

لقد كثرت مساجد الضرار. . . فليت المسلمين يفتحون أعينهم ليبصروا خطرها. . .

وفد ثقيف

رأينا كيف انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف دون أن يفتحها، وبقيت ثقيف على كفرها، ولكنها لم يعد لها حرية الحركة، فقد استطاع مالك بن عوف ـ بعد أن أسلم وأمّره رسول الله ﷺ على قومه ـ أن يضيق عليهم، فكان يغزو أرضهم، ويغير على سرحهم حتى ضاقت بهم الحال، فدفعهم ذلك إلى مشاورة بعضهم بعضاً، ورأوا أن لا طاقة لهم بحرب العرب ـ وقد بايع من حولهم وأسلم ـ فأجمعوا أن يرسلوا وفداً إلى رسول الله ﷺ.

وقدم وفدهم المدينة في رمضان، إثر عودته ﷺ من تبوك، وكان المغيرة بن شعبة أول من رآهم، فذهب يشتد ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم، والتقى بأبي بكر فحدّثه الخبر، فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه، ففعل المغيرة، ودخل أبو بكر فأخبره بقدومهم. ورجع المغيرة إلى الوفد ـ وهم

قومه ـ فجعل يعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلّا بتحية الجاهلية، وضربت عليهم قبة في المسجد، وكان مما اشترطوا على رسول الله ﷺ أن يدع لهم «اللات» صنمهم ثلاث سنين، فما برحوا يسألونه. . . ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم ليتألفوا سفهاءهم، فأبى أن يدعها شيئاً مسمى.

وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، فقال ﷺ: (لا خير في دين لا صلاة فيه)، وسألوه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال ﷺ: (وأما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه).

فلما أسلموا كتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سناً ـ وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم القرآن.

ولما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فلما قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال: أدخل أنت على قومك وأقام أبو سفيان بذي الهدم. . . وقام المغيرة يضربها بالمعول، وقومه ـ بنو معتب ـ دونه خشية أن يعتدى عليه. . . وتمّ هدم اللات التي طالما عبدت من دون الله، وضلّ بها الناس، وأضحت الطائف إحدى بلاد الإسلام.

وكان قد لجأ إليها، بعد فتح مكة، أبو عامر الفاسق، ووحشي قاتل حمزة، فأمّا أبو عامر فلم يمكث طويلاً حتى شعر أن الطائف لن تستعصي على رسول الله ﷺ. وأما وحشي فنترك له الكلام يحدثنا عن نفسه، قال: . . . حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف، فكنت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيَّت علي المذاهب، فقلت: ألحق بالشام، أو اليمن، أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همي، إذ قال لي رجل: ويحك، إنه والله ما يقتل أحداً من

الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته، فلما قال لي ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق، فلما رآني قال: (أوحشي؟) قلت: نعم يا رسول الله، قال: (أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة...) قال: فلما فرغت من حديثي قال: (ويحك، غيِّب عني وجهك، فلا أُرَيَنَك). قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله ﷺ[1].

ويستوقفني في حديث الطائف أمور:

تلك المسارعة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم فيما يسرُّ رسول الله ﷺ فقد ذهب المغيرة يشتد ليبشر بقدوم الوفد، ولكن أبا بكر يقسم عليه أن يترك الأمر له، ويؤثر المغيرة أبا بكر فيما كان حريصاً عليه، أليس هذا من الإيثار الرفيع.

- وفي قصة وحشي: قصة سماحة الإسلام، ورحابة صدره، ممثلة بالرسول الكريم ﷺ. إن جريمة وحشي في قتل حمزة، أمر عظيم، قال ﷺ في حقها:

ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا، بعد أن قال مخاطباً حمزة رضي الله عنه لن أصاب بمثلك أبداً... ومع هذا يقبل رسول الله ﷺ من وحشي إسلامه وفقاً للنظام العام، وإن كانت مشاعره ما تطيق رؤيته، إن تغيب وجهه عن الرسول ﷺ ما ينقصه من حقوقه شيئاً، ولقد كان لهذه السماحة أثرها الكبير في رفع مستوى الولاء في نفوس هؤلاء حتى يصبح الرسول ﷺ أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم... وقد جعلت هذه السماحة من قاتل حمزة... قاتل مسيلمة الكذاب.

ذلكم منهج الله... يبينه رسول الله ﷺ.

- إن وفد ثقيف حاول جاهداً أن يشترط بقاء اللات... ولو

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٢.

شهراً . . . فلم يقبل ﷺ أن يمهلهم شيئاً مسمى، أي ولا يوماً واحداً، لأن بقاء الطاغوت لا يمكن أن يجتمع مع الإيمان، وهي كلية أساسية قامت عليها عقيدة التوحيد، فلا مجال للمساومة فيها. ولكنه ﷺ حينما طلبوا منه أن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم، قال لهم: (فسنعفيكم منه)، فهذه شكلية من الشكليات يمكن أن تتحقق بهم وبغيرهم، فالغاية الكسر، وأياً قام به فقد حصل المطلوب.

ذلك درس فرّق فيه ﷺ بين الكليات والشكليات.

نهاية رأس المنافقين

مرض عبد الله بن أُبي بن سلول، رأس المنافقين، في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة[1] من السنة التاسعة.

قال أسامة بن زيد: «دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوده، فقال له النبيّ ﷺ: قد كنت أنهاك عن حب يهود، فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات»[2].

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنّه قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه؟[3] وقد نهاك ربك أن تصلّي عليه، فقال رسول الله ﷺ: (إنما خيّرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وسأزيده على سبعين)، قال: إنه منافق،

---

(١) البداية ٥/ ٣٤ نقلاً عن الواقدي.

(٢) مسند أحمد، انظر الفتح الرباني ٢١/ ٢١١.

(٣) قال القرطبي: يحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وقد رجح ابن حجر هذا القول. الفتح: في تفسير الحديث.

قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[1].

وجاء في رواية ابن عباس عن عمر: «... فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت: يا رسول الله، أتصلّي على ابن أبي وقد قال يوم كذا، كذا وكذا؟ قال: أعدد عليه قوله، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: (أخّر عني يا عمر...) قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم»[2].

وصلّى رسول الله ﷺ على عبد الله تلبية لطلب ابنه عبد الله الذي قال: يا رسول الله إنك إن لم تأتِ لم نزل نعير بهذا[3]، وعبد الله الابن هو من الصحابة الصادقين، فقد شهد بدراً وما بعدها.

وسلوك رسول الله ﷺ هذا، أمر بدهي، ناتج عن طبيعته التي فطره الله عليها فجعله رحمةً للعالمين، وهو إذ يفعل ذلك، لم ينس الماضي الأليم الذي كان يمارسه ابن أُبي، ولكنه ﷺ كان يسع الناس جميعاً، وهو التعبير عن تكريم ولده الذي جاء في يوم من الأيام يستأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه، كما هو استئلاف لقومه[4].

ثم تأتي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[5]، لتبيّن أنه لن ينفع مع الكفر شيء حتى ولو كان صلاة الرسول ﷺ.

---

(١) متفق عليه (خ٤٦٧٠، م٢٤٠٠، ٢٧٧٤).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٦٦).

(٣) مسند أحمد انظر الفتح الرباني ٢١/ ٢١٠ من رواية جابر.

(٤) قال في فتح الباري: قال الخطابي: إنما فعل النبيّ ﷺ مع عبد الله بن أُبي ما فعل لكمال شفقته... ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم.

(٥) سورة التوبة: الآية ٨٤.

وانتهت حياة رأس النفاق بالبيان الشافي من الله تعالىٰ الذي لا لبس فيه ولا غموض والذي أوضح العاقبة السيئة له ولأمثاله، وبيَّن تصنيفهم في عداد الكافرين. إن قضية التمويه في أمر العقيدة ليست من الإسلام في شيء.

وبموت ابن سلول بدأ أمر النفاق إلى ضعف واضمحلال، وكان ﷺ بعد نزول الآية الكريمة لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، وكان عمر لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره، أي من الصحابة[1].

قبل شهرين من الزمن هدم ﷺ مركز تجمع المنافقين «مسجد الضرار» ويموت بعدها رأسهم، وبهذا كانت بداية النهاية إذ لم يذكر لهم شأن، وكانت آيات سورة التوبة فاضحة لهم.

ونزلت فيهم سورة براءة وسمّاها ابن عباس رضي الله عنهما الفاضحة، قال: لم تزل تنزل ومنهم... ومنهم... حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكرته[2]، فكانت إيضاحاً لسماتهم وبياناً لأعيانهم في بعض الأحيان.

تخيير النبيّ ﷺ أزواجه

وزعت غنائم هوازن فوجد بعض المسلمين شيئاً من السعة، ولكن بيت رسول الله ﷺ لم يصبه شيء من ذلك، على الرغم من نصيبه من الخمس، ولكنه قال يومها: (والخمس مردود عليكم)[3].

إن الحياة المعيشية في بيوت رسول الله ﷺ تجري على وتيرة واحدة على الرغم من إمكانية التوسيع بعض الأحيان، ونساء الرسول ﷺ هنَّ من البشر، يرغبن بما يرغب به الناس، ويشتهين ما يشتهيه الناس.

---

(١) عن تفسير ابن كثير. (٢) حدائق الأنوار ٢/٧٢٦.

(٣) أخرجه في الموطأ، انظر جامع الأصول ح رقم (١٢٢٧).

وحصل أن اجتمعن وجئن يطالبن رسول الله ﷺ بالنفقة، أو بالتوسعة فيها. عن جابر رضي الله عنه قال: «أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ـ والناس ببابه جلوس ـ والنبيّ ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلا، والنبيّ ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبيّ ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: (هنّ حولي يسألنني النفقة). فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبيّ ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عزّ وجلّ الخيار...»[1].

وفي رواية مسلم: «... فقلن: والله لا نسأل رسول الله أبداً شيئاً ليس عنده، قال: ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾»[2].

وغادر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما المجلس، وهما يظنان، أن القضية قد سويت، ولكن الرسول ﷺ ـ فيما يبدو من رواية مسلم ـ وجد أن الأمر ليس خاصاً بعائشة وحفصة، فاعتزل نساءه جميعاً.

وفي رواية ابن عباس عن عمر رضي الله عنه قال عمر: «... وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، وكنّا نتحدث أن غسان تُنْعِل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي ثم أتاني عشاء، فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، قلت: ماذا؟ أجاءت

---

(١) الحديث من رواية الإمام أحمد أورده ابن كثير في تفسير آية التخيير من سورة الأحزاب: الآية ٢٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٤٧٨).

غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق النبيّ ﷺ نساءه. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صلّيت الصبح شددت عليّ ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة، وهي تبكي، فقلت: أطلّقكن رسول الله ﷺ، فقالت: لا أدري، ها هوذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى إذا انتهيت إلى المنبر فجلست، فإذا عنده رهط جلوس، يبكي بعضهم، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد، ثم أتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فولّيت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: أدخل فقد أذن لك، فدخلت فسلّمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير[1]، قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليّ وقال: (لا)، فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنّا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة، وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبت على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ، فإذا هي قد هلكت، فتبسم رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله، قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم منك وأحب إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: (نعم)، فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أُهباً ثلاثة[2]، فقلت: ادع الله

---

(١) نسيج السعف.

(٢) أهباً: جمع إهاب، وهو الجلد قبل الدباغ.

يا رسول الله أن يوسع على أمّتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً ثم قال: (أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا). فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن...».

وفي رواية: «وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإنه عند رجليه قرظاً مضبوراً[1]، وعند رأسه أهباً معلقة فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ فبكيت، فقال: (ما يبكيك؟) فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة)»[2].

تلك صورة من حياته ﷺ في بيته، في السنة التاسعة من الهجرة[3] ينقلها عمر رضي الله عنه، وصفاً وشعوراً، حتى إنّ شدتها قد أبكت عمر رضي الله عنه. وقد جاء عمر يخفّف عن رسول الله ﷺ ما هو فيه، فاستطرد يحدّثه.. ثم استأنس فجلس... ثم إذا به من حيث لا يشعر وقد غلبته الصورة القائمة في بيت رسول الله ﷺ، ينضم إلى أزواج رسول الله فيطلب منه أن يدعو الله أن يوسع على المسلمين... ثم ينبهه ﷺ فيطلب أن يستغفر له.

ومكث رسول الله ﷺ تسعاً وعشرين ليلة بعيداً عن زوجاته، فكان في العلوّ وكنّ في السفل.

قالت عائشة: «لما مضى تسع وعشرون ليلة دخل عليّ رسول الله ﷺ، بدأ بي، فقلت: يا رسول الله إنك أقسمت أن لا تدخل

---

(1) جلداً مجموعاً.

(2) متفق عليه (خ٤٩١٣، م١٤٧٩).

(3) قال في فتح الباري: (إن التخيير كان في سنة تسع) كتاب التفسير، سورة الأحزاب باب ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ...﴾ والقسطلاني في المواهب، انظر شرح المواهب ٣/٩٧.

علينا شهراً وإنك دخلت من تسع وعشرين، أعُدُّهُنَّ، فقال: (إن الشهر تسع وعشرون)، ثم قال: (يا عائشة، إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي فيه، حتى تستأمري أبويك، ثم قرأ علي الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ـ حتى بلغ ـ أَجْرًا عَظِيمًا﴾)، قالت عائشة: قد علم والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: فقلت: أوَ في هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة».

قال معمر: فأخبرني أيوب أن عائشة قالت: لا تخبر نساءك أني اخترتك.

فقال لها النبيّ ﷺ: (إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعنتاً)[1].

وفي رواية البخاري قالت: «ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت»[2].

قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهنّ. وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهنّ[3].

نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4]، فكان قطعاً لأملهن في الحياة الدنيا وزينتها. وكان أمراً من الله أن يخيرهن بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله الثواب الجزيل[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٥م)، ومعنى متعنتاً: أي طالباً زلة الناس.
(٢) البخاري (٥١٩١).
(٣) تفسير ابن كثير، في سورة الأحزاب: الآية ٢٨.
(٤) سورة الأحزاب: الآيتان ٢٨، ٢٩. (٥) عن تفسير ابن كثير.

ولقد آثرن جميعاً حسن الاختيار، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فكان لهن في ذلك خير الدنيا والآخرة.

وقد أنزل الله إكراماً لهن: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾[(١)]، فكانت جزاء حسن صنيعهن وقد قصره الله تعالىٰ عليهنّ وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن...

تلك قصة التخيير، تبين لنا مستوى الحياة من داخل بيوت رسول الله ﷺ، وذلك في العام التاسع للهجرة[(٢)]، حيث بدأ الناس يشعرون برغد العيش بعد خيبر وهوازن، وحيث بدأ وصول أموال الجزية وغيرها إلى المدينة.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «أتيَ النبيّ ﷺ بمال من البحرين[(٣)]، فقال: (انثروه في المسجد) ـ وكان أكثر مال أُتي به رسول الله ﷺ ـ فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٢. وقد جاء أن الله تعالىٰ رفع عنه الحرج وأباح له التزوج قالت عائشة: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء». ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج .اهـ ابن كثير.

(٢) هذا ما اعتمده القسطلاني في المواهب، شرح المواهب ٣/ ٩٧، وكذلك صاحب الفتح في كتاب التفسير، في سورة الأحزاب، وهو القول الأصح ويؤيّده رواية ابن عباس السابقة عن عمر: «... أجاءت غسان» فغسان لم تفكر بغزو رسول الله ﷺ إلا في وقت متأخر.

(٣) أصبحت البحرين تابعة للمدينة قبل فتح مكة، قال ابن إسحاق: وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدي، فأسلم فحسن إسلامه، ثم هلك بعد رسول الله ﷺ قبل ردة أهل البحرين، والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين. سيرة ابن هشام ٢/ ٥٧٦، وهذا المال من الجزية كما أوضح ذلك في الفتح في شرح الحديث.

قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: (خذ)، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقلّه فلم يستطع، فقال: يا رسول الله اؤمر بعضهم يرفعه إلي، قال: (لا)، قال: فارفعه أنت عليّ، قال: (لا)، فنثر منه ثم ذهب يقله، فقال: يا رسول الله اؤمر بعضهم يرفعه عليّ، قال: (لا)، قال: فارفعه أنت عليّ، قال: (لا)، فنثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله ثم انطلق، فما زال رسول الله يتبعه بصره حتى خفي علينا، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم»[1].

وهكذا توزع الأموال، ولا يصل منها شيء، إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ إنهن صبرن على خشونة العيش ردحاً من الزمن، وهن يمنين أنفسهن بأيام قادمة، ستكون أرغد عيشاً وأكثر رفاهية وأهنأ مسكناً، وطال عليهن الحال، فالأموال تصل إلى المسجد لتوزع منه على الناس، وكان ﷺ يجيز الوفود الجوائز الكبيرة... ولكن تلك البيوت الملاصقة للمسجد لا يصلها شيء... ونفذ صبرهن فكان لا بد من المطالبة...[2].

وهجرهن رسول الله ﷺ شهراً، ثم نزل إليهن ليتلو عليهن آيات بينات، فيها الصراحة والوضوح، لا مجال فيها للآمال... ولا للوعود... إنهن بين طريقين، فليخترن.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً برقم (٤٢١).

(٢) من المحتمل أن تلك المطالبة كانت للتوسعة بالنفقة، لا بأصل النفقة، فمن المعروف أنه ﷺ بعد النضير كان يعزل ـ مما أفاء الله عليه ـ نفقة أهله لسنة ثم يجعل ما بقي في مصالح المسلمين. البخاري، الجهاد باب (٨٠)، وقد حددت بعض الأخبار مقدار حصة كل امرأة من نسائه ﷺ، فكان يعطي كل واحدة منهن من خيبر ثمانين وسقاً من تمر كل عام وعشرين وسقاً من شعير. البداية ٤/ ٢٠٠ وسواء أكانت المطالبة بالنفقة أم بالتوسعة فيها فإن المعنى المستفاد واحد.

ووضح لهن ما غاب عنهن، إنهن رفيقات الدرب، الذي اختاره الله لرسوله، وقد جعله أسوة للناس، فينبغي أن يكون بيته أسوة للبيوت، وأن يكون أزواجه على قدر من الفهم الرفيع الذي يتناسب مع المقام الذي اختاره الله لهن.

لقد كن ـ قبل نزول التخيير ـ في حياة قاسية قبلن بها من باب القناعة بالواقع، ولكنهن بعد نزول الآيات يقبلن على هذه الحياة بالإرادة الكاملة والرضى كل الرضى، يدفع إليه الحب لله ولرسوله ﷺ.

إنه لفرق كبير بين ما قبل التخيير وما بعده، إنهن اليوم ـ ولهن كل عواطف النساء ورغبات النساء ـ يتنازلن بإرادتهن إيثاراً لما اختاره الله لرسوله ﷺ؛ إذ كان لا بدّ أن يكون بيته أسوة للبيوت، كما كان هو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وتمضي الأيام ويختار الله رسوله لجواره، وتبقى بيوت رسول الله ﷺ كما هي وتلقى الدنيا بين أيديهن ـ وقد فتح الله على المسلمين ـ فما ينسين الخط الذي اخترنه لأنفسهن.

أُتيت عائشة بمائة ألف ففرّقتها وهي يومئذ صائمة، فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه، فقالت: لو أدركتيني لفعلت[1].

قالت برزة بنت رافع: لما خرج العطاء، أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أدخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من إخواني كان أقوى على قسم هذا مني. قالوا: هذا كلّه لك، قالت: سبحان الله واستترت منه بثوب وقالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً. ثم قالت: أدخلي يدك واقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رحمها وأيتامها، ففرقته، حتى بقيت منه بقية تحت

---

(١) شرح المواهب ٣/ ٢٣٤ نقلاً عن ابن سعد.

الثوب، فقالت لها برزة: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، قالت: فلكم ما تحت الثوب فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً[1].

ونسيت عائشة نفسها، ونسيت زينب برزة التي قامت بالتوزيع لولا أن ذكرتها بنفسها.

وقصة التخيير تلك، ليست قصة قد استنفدت أغراضها، بنسبة الفضل لأصحابه... ولكنها معلم من معالم الإسلام.

إنها بيان للمنهج الذي ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمة، ذلك البيت الذي لا بدّ أن تكون مقدرات الأمة تحت يده، أو في متناوله، فما لم يكن في هذا البيت من العقيدة والإيمان، ومن العفة والأمانة، ما يمكن به مقاومة الإغراء وسيطرة المادة، فلن يستطيع أداء الواجب المنوط به.

إن النظرة الفاحصة في التاريخ لتبين أن هذا الجانب يعدّ معياراً دقيقاً به يعرف القرب من الاستقامة أو البعد عنها، وقد فهم قادة الأمة المؤمنون ـ حينما وجدوا ـ على امتداد تاريخ الإسلام، أهمية هذا الجانب فرعوه حق رعايته.

إن الأمثلة العملية من تاريخ الخلافة الراشدة هي من الوفرة والكثرة بحيث لا تتعب الباحث في التفتيش عنها، فهي أمام ناظريه حيثما اتجه وأنّى سار... ولذا نكتفي بالإشارة إليها...

«لقد أتعب من بعده»، تلك كلمة لخص فيها عمر خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فقد فَطَم نفسه عن الدنيا ليكون بعيداً عن أموال المسلمين وهي أقرب ما تكون إليه، ولقد قال الكلمة نفسها عليّ[2] في حق عمر رضي الله عنه.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٤٨ نقلاً عن ابن سعد وابن الجوزي.

(٢) البداية ٧/ ١٣٦.

وقال علي ﵁: يا دنيا غري غيري...

وقال عبد الملك بن شداد: رأيت عثمان بن عفان، يوم الجمعة، على المنبر، عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة...[1] ذلك الرجل الذي كان في حياة رسول الله ﷺ بيت مال المسلمين الذي يرجع إليه في الأزمات.

ولئن كانت هذه الوقائع هي الحياة العملية التي عاشتها الخلافة الراشدة، فلا بدّ لنا من الوقوف على رأيهم صريحاً، حتى لا يُظن أنها اتجاهات شخصية تقوم على مبدأ الزهد والورع... لا ارتباط لها بالمنهج الأصيل.

ولندع عمر بن الخطاب يعطينا هذا الدرس في إيضاح الصورة التي ينبغي أن يكون عليها بيت القيادة... والتي يعتبر الانحراف عنها هلاكاً للمنحرف ذاته بغضّ النظر عما يجري على الأمة من بلاء.

اجتمع نفر من المهاجرين، منهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير، ﵃، وذلك بعدما رأوا ما أصاب أمير المؤمنين عمر من شدة الحاجة بعد تولّيه الخلافة، فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه... وكلفوا حفصة ﵂ أن تقوم بعرض الأمر عليه وطلبوا منها أن تكتم أسماءهم إلّا أن يقبل...

ولقيت حفصة عمر في ذلك، فعرفت الغضب في وجهه، قال: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك. فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم.

أنشدك بالله، ما أفضل ما اقتنى رسول الله في بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهم للجمع.

قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟

(١) الحلية لأبي نعيم ١/ ٦٠.

قالت: خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها.

قال: فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ؟

قالت: كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه.

قال: يا حفصة، فأبلغيهم عني أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالتزجية[1]. وإني قدرت، فوالله لأضعن الفضول مواضعها، لأتبلغن بالتزجية. وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول، وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه، فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما[2].

ذلك فهم الفاروق.

وتمر الأيام وتؤول الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك، ومعها صور الظلم منتشرة في كل ناحية من ربوع الدولة، وفي مقدمتها: أن بيت المال كان ملكاً للخليفة يتصرف به كما يريد... فكانت انطلاقته في سبيل الخير ورفع الظلم وإحقاق الحق أن حاسب نفسه فرد ما في يده ويد زوجته فاطمة بنت عبد الملك إلى بيت مال المسلمين ثم اتّجه إليها يخيّرها بين أن تقيم معه على أسلوب من الحياة خشن وبين أن تلحق بأهلها فآثرت البقاء معه[3]، وكان كلما رأى منها حنيناً إلى تلك الحياة قال لها: اتّعظي إن شئت أو ذري[4].

---

(١) في مختار الصحاح: تزجى بكذا: اكتفى به.

(٢) الطبري ٤/ ١٦٤، ومنتخب كنز العمال ٤/ ٤٠٨، هكذا عزاه في حياة الصحابة.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لسيد الأهل (ص١٠١) نقلاً عن ابن عبد الحكم (ص٦٠)، وانظر البداية ٩/ ١٩٨.

(٤) المصدر السابق (ص١٠٢) نقلاً عن الخراج لأبي يوسف (ص١٧).

إنه أخذ نفسه بمنهج السلف الصالح، فكان لا بد أن يسلك هذا المسلك فكانت الخطوة الأولى، ضبط زوجه وأولاده، فالرعية تعدهم المقياس فإذا عفّ هؤلاء بعفة وليّهم عفت الرعية، وإذا رتع هؤلاء لم يكن الخليفة ليستطيع منع الناس مما هو منغمس فيه... فكان التخيير صريحاً من عمر لزوجه فاطمة.

كان ذلك في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني، ونقلب صفحات التاريخ لنقرأ في سيرة نور الدين محمود زنكي ما يلي

كان مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا[1].

وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلّا في الذي يخصّه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم ولا أخوض نار جهنم لأجلك[2].

كان ذلك في القرن السادس الهجري، وفي أواخر هذا القرن أيضاً نعرِّج على سيرة صلاح الدين الأيوبي لنجد قول التاريخ.

وكان متقلّلاً في ملبسه ومأكله ومركبه... ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك[3].

وبنى له أتباعه مرة منزلاً أنيقاً في دمشق فلم يكترث به ولم ينظر إليه طويلاً، بل قال: ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد، فهذا

---

(١) البداية ١٢/ ٢٧٨.   (٢) الكامل ٩/ ١٢٥.

(٣) البداية ١٣/ ٥.

المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه[1].

وحين توفي لم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأموال[2].

إن هؤلاء الرجال العظام استطاعوا أن يصححوا مسيرة التاريخ بعد انحراف، وأن يثبتوا إمكانية الإصلاح بعد الفساد، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلّا بعد أن سيطروا على نفوسهم ومن خلالها على بيوتهم وبعدها قالوا فسمع لهم.

أليس سلوكهم هذا تطبيقاً لمبدأ التخيير، وانطلاقاً منه؟ إن قيادة الأمة تكليف ومغرم وليست مغنماً ولا بدّ للذين يتولونها أن يحسبوا اطّراح الدنيا من نفوسهم. وقد جاء في أول رسالة من عمر إلى أبي عبيدة ﷺ حين ولاه القيادة: «... وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغض بصرك عن الدنيا وألهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك وقد رأيت مصارعهم»[3].

ما أحرانا أن نقف بإمعان أمام آيات التخيير لعلنا ندرك بعض ما تعنيه.

حج أبي بكر بالناس
(سنة تسع)

حان موسم الحج لسنة تسع، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك ما زالوا يحجون البيت، وكان ﷺ قد بعث بـ (براءة) مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: (لا

---

(١) صلاح الدين الأيوبي، لعبد الله علوان (ط٣ ص١٧٨).
(٢) البداية ١٣/ ٤.
(٣) البداية ٧/ ١٩.

يبلِّغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي)، فبعث بها مع علي[1]، وقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى.

- أن لا يدخل الجنّة كافر.
- ولا يحج بعد العام مشرك.
- ولا يطوف بالبيت عريان.
- ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدّته.

فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا...

وأقام أبو بكر للناس حجهم، والعرب في تلك السنة على منازلهم من الحج، التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ فأذن بالناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس إنه لا يدخل الجنّة كافر ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدّته، وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ثم لا عهد لمشرك ولا ذمّة إلّا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد، فهو إلى مدّته[2].

وحرصاً على إبلاغ الناس جميعاً، فقد كلف أبو بكر عدداً من الصحابة بأداء مهمة التبليغ مساعدة لعلي رضي الله عنه، قال أبو هريرة: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[3].

---

(١) رواه أحمد عن أنس، انظر الفتح الرباني ٢١/ ٢١٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦.   (٣) متفق عليه (خ٤٦٥٧، م١٣٤٧).

وقد جهد هؤلاء الصحابة مع عليّ رضي الله عنهم، وهم يبلغون الناس ففي حديث أبي هريرة عند أحمد قال: «كنت مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة... قال: فكنت أنادي حتى صحل[1] صوتي»[2].

رجع الناس من موسم الحج يحملون ما سمعوا إلى أقوامهم، ووصلت أنباء ذلك النداء إلى كل الآذان في الجزيرة العربية ممن كان يكن بالولاء للبيت العتيق.

إنه إعلان لنظافة مكة من الشرك وأرجاسه، فما ينبغي للبلد الذي فيه بيت الله الحرام، والذي فيه ولدت الرسالة الخاتمة، والذي جعله الله قبلة المسلمين... أن تستمر فيه مظاهر الشرك بدخول المشركين إليه.

وكما استطاعت المدينة أن تنفي خبثها شيئاً فشيئاً من اليهود والمنافقين، فكذلك كانت الفترة في مكة بين الفتح وبين انتهاء المدة التي حدّدها رسول الله ﷺ بأمر الله تعالىٰ... كانت فترة انتقالية صُفّيت فيها علاقة المشركين بمكة وأهلها.

وكان من جملة ما سمعه الناس مما قرأه علي رضي الله عنه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[3].

وقد كان لأهل مكة مصلحة مادية، ربما تأثرت بمنع المشركين من الحج بل ومن دخول مكة، فلعلّهم خافوا من ذلك، فكان التعقيب في الآية إغلاقاً لباب الخوف.

---

(١) صحل: بحَّ.
(٢) الفتح الرباني ٢١/٢١١ ـ ٢١٢.
(٣) التوبة: الآية ٢٨. جاء في رواية الطبري من طريق أبي الصهباء... قول علي رضي الله عنه: «بعث رسول الله ﷺ أبا بكر يقيم للناس الحج وبعثني بعده بأربعين آية من براءة»، عن فتح الباري باب (وآذان...) فالآية ٢٨ من جملة ما تلي على الناس.

إن الإسلام ليس مذهباً مادياً، يرتكز في أسسه على المادة ثم يدير تعاليمه وفقاً لمعطياتها... تلك مناهج المذاهب المادية...

إن الإسلام يقيم نظامه على أساس من العقيدة، والجانب المادي جزئية لا يمكن أن تعارض الأصل. وبهذا يختلف الإسلام عن كل المذاهب الأخرى، التي أساسها المادة، ولا مجال للأخلاقيات عندما تعارضها.

وبعد هذا: فإن إعلان ذلك البيان ـ بيان براءة ـ يعني أن كلمة الإسلام هي العليا، وأن قانون الله هو الذي يحكم المنطقة كلها ـ يومئذ ـ وأن الشرك قد آذن بالرحيل، وأنه إذ يودع الحرم مع نهاية الموسم فلن يعود إليه ثانية...

ويسأل أبو بكر رسول الله ﷺ عن إرساله علياً رضي الله عنه فيقول: يا رسول الله، نزل فيّ شيء؟ قال: (لا، ولكن جبريل جاءني فقال لي: لن يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك)[1].

ولعل السبب في ذلك ـ كما قال الإمام البغوي ـ أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولّى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهطه، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحة للعلة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه فينا في نقض العهد[2].

الوفود

بدأت الوفود ترد إلى رسول الله ﷺ بدءاً من العام الخامس للهجرة[3]، ولكن الغالبية الكبرى كان ورودها عليه ﷺ في العام التاسع ولهذا سمي هذا العام بـ: عام الوفود، كما قال ابن هشام[4].

---

(١) رواه أحمد، الفتح الرباني ٢١/ ٢١١.

(٢) الفتح الرباني ٢١/ ٢١٢.

(٣) حيث وفد ضمام بن ثعلبة، البداية ٥/ ٦١.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٠.

وكثرة الوفود في هذا العام ترجع إلى عدة أسباب

١ ـ فتح مكة:

فقد كانت مكة هي العاصمة الدينية للعرب قاطبة، وقد وقفت من رسول الله ﷺ موقفاً عدائياً، فكان العرب ينتظرون ما يؤول إليه أمرها، فلما فتحت سقط بفتحها الحصن المنيع الذي كانت تحتمي به الوثنية، واتّجه الناس إلى الدخول فيما دخلت فيه قريش.

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربَّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشاً كان إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا يُنكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله ـ كما قال عزّ وجلّ ـ أفواجاً يضربون إليه من كل وجه[1].

٢ ـ قوة الإسلام:

إن الكثير من الناس لا يذعنون إلا لمنطق القوة سواء في العدَدِ أو العُدَد أو الغنى... وقد كان عدي بن حاتم واحداً من هؤلاء، فلما وفد على رسول الله ﷺ بيَّن له أسباب تأخره في إسلامه فقال ﷺ: (لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلّة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٠.

والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم)[١].

لم تكن هذه نظرة عدي وحده، ولكنها نظرة كثير من الناس، فلما فتحت مكة وفرغ رسول الله ﷺ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه[٢]، فها هي القوة تسلس قيادها لرسول الله ﷺ بعد إخضاع القريتين وبعد أن طرق بجيشه أبواب الدولة الرومانية.

٣ ـ براءة:

ولعل من العوامل التي حثّت الناس على القدوم على رسول الله ﷺ، ما أعلن في حجة أبي بكر، من إعلان مكة عاصمة للتوحيد ومنع حج غير المسلمين إليها، ثم إنهاء العهود. . .

كان ذلك إيذاناً بأفول الشرك من جزيرة العرب، فسارع الناس لاتخاذ اليد عند رسول الله ﷺ بإسراعهم للانضواء تحت لواء التوحيد فها هو وفد بني أسد يقول رئيسهم حضرمي بن عامر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أتيناك نتدرع[٣] الليل البهيم في سنة شهباء[٤]، ولم تبعث إلينا بعثاً، فنزل فيهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[٥].

٤ ـ هدم الأصنام:

كان للأصنام سلطانها على النفوس، ورغم قوة العربي وبأسه فقد كان يخاف تلك الأحجار ويحسب لها حسابها، فلما كان فتح مكة وكسرت الأصنام فيها وكرر ذلك في كل بلد دخله الإسلام زال ذلك

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٨١.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٥٥٩.
(٣) أي: نسري بالليل.
(٤) أي: لا مطر فيها.
(٥) البداية ٥/ ٨٨، والآية رقم ١٧ من سورة الحجرات.

الخوف وأيقن من بقي ممن لم يدخل الإسلام قلبه بعد، أن هذه الأوثان لا تضرّ ولا تنفع... وكان ذلك اليقين بعد المشاهدة، فكان ذلك إزالة لآثار نفسية بقيت التقاليد والأوهام تعمل في تأكيدها أجيالاً متعاقبة.

تلك بعض الأسباب التي دفعت بالقبائل إلى إرسال وفودها إلى رسول الله ﷺ معلنةً إسلامها وخضوعها، ولا يعني هذا أنها كانت مكرهة على ذلك تحت عوامل القوة التي أيّد الله بها رسوله، وإنما زالت الحجب التي طمست معالم الحق، فأبصر الناس الطريق السوي، فلم يسعهم إلا اتّباعه، وما انتشار تعاليم الإسلام في أرض العرب إلا الدليل على ذلك.

بعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله ﷺ رجلاً منهم يقال له: ضمام بن ثعلبة، فدخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: (أنا ابن عبد المطلب)، قال: أمحمد؟ قال: (نعم). قال: يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك، قال: (لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك). قال: أنشدك الله إلٰهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: (اللّهمّ نعم). قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: (اللّهمّ نعم). قال: فأنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تصلّي هذه الصلوات الخمس؟ قال: (اللّهمّ نعم)؛ ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله[1]...

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٧٣.

إن قصة إسلام ضمام بن ثعلبة موفد بني سعد بن بكر لتدلّ على مدى انتشار تعاليم الإسلام حتى جاء لا ليسأل عنها وإنما ليستوثق منها، معدداً إياها الواحدة تلو الأخرى.

نماذج من لقاءات الوفود برسول الله ﷺ:

وبعد هذا الموجز عن الوفود لا بد من ذكر نماذج من تلك اللقاءات، فهي تلقي الضوء على اختلاف طبائع الناس وأساليب تفكيرهم... وتلقي الضوء أيضاً على سعة صدر رسول الله ﷺ لكل تلك الأصناف من الناس.

ـ وفد تميم: قدم عطارد بن حاجب بن زرارة في أشراف بني تميم على رسول الله ﷺ، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك، فَأْذَن لشاعرنا وخطيبنا؛ قال: (قد أذنت لخطيبكم) فقام عطارد بن حاجب فتكلم... فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: (قم فأجب الرجل في خطبته) فقام فأجابه... ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال أبيات مطلعها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

فلما فرغ قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: (قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال)، فقام حسان فألقى قصيدة مطلعها:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

فلما فرغ قال الأقرع بن حابس: وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

قال ابن إسحاق: وفيهم نزل من القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٧، والآية رقم ١ من سورة الحجرات.

ـ وفد بني عبد القيس: قدم وفدهم إلى رسول الله ﷺ وفيهم الأشج المنذر بن عامر، فلما رأوا رسول الله ﷺ وثبوا من رواحلهم فأتوا رسول الله ﷺ فقبلوا يده، ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته ففتحها فأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم أتى رواحلهم فعقلها فأتى رسول الله ﷺ، فقال: (يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله عزّ وجلّ ورسوله: الحلم والأناة)، فقال: يا رسول الله أنا تخلقتهما أو جبلني الله عليهما؟ فقال: (بل الله جبلك عليهما)، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله عزّ وجلّ ورسوله[1].

ـ وفد بني كلاب: وهم ثلاثة عشر رجلاً، منهم لبيد بن ربيعة الشاعر وجبار بن سلمى، وكان بينه وبين كعب بن مالك خلة، فرحب به وأكرمه وأهدى إليه، وجاؤوا معه إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه بسلام الإسلام، وذكروا له أن الضحاك بن سفيان الكلابي سار فيهم بكتاب الله وسنة رسوله التي أمره الله بها، ودعاهم إلى الله فاستجابوا له، وأخذ صدقاتهم من أغنيائهم فصرفها على فقرائهم[2].

إن هذه الوفود كانت ـ على الغالب ـ إما وفود أسلمت أقوامها، فجاءت تؤكد التزامها وولاءها وإما وفود جاءت لتعلن إسلامها وولاءها، فكان الحال مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[3].

بعث الأمراء والعمال على الصدقات

وفي هذا العام بعث الرسول ﷺ أمراءه وعماله على الصدقات، حيث تستشعر تلك البلدان ـ ولأول مرة ـ الارتباط بمركز على أساس من العقيدة.

---

(١) البداية ٥/٤٧ من رواية الإمام أحمد. وهو عند مسلم (١٧، ١٨).

(٢) البداية ٥/٨٩ نقلاً عن الواقدي. (٣) سورة النصر.

فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها.

وبعث زياد بن لبيد، أخي بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت، وعلى صدقاتها.

وبعث عدي بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد.

وبعث مالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بني حنظلة.

وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية.

وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين[1].

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠٠، والكامل ٢/ ٢٠٥.

بعوث في السنة العاشرة

بعث خالد إلى بني الحارث

لئن كانت الوفود قد أتت المدينة من كل حدب وصوب تعبّر عن انقيادها، فإن بني الحارث بن كعب الذين كانت مساكنهم بنجران لم يقبل منهم أحد، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إليهم، في شهر ربيع الآخر أو جمادى سنة عشر، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا قبل منهم، وإن لم يفعلوا قاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، كما أمره رسول الله ﷺ.

ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ يعلمه بإسلامهم وأنه مقيم فيهم حتى يكتب إليه رسول الله ﷺ.

فجاءه كتاب رسول الله ﷺ يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل - فلما قدموا أمّر عليهم قيس بن الحصين، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلّمهم السنة ومعالم الإسلام[1].

بعث معاذ إلى اليمن

كان ملوك حمير قد بعثوا كتاباً إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فقدم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٥٩٢ - ٥٩٤.

رسولهم بعد مقدمه ﷺ من تبوك، فكتب لهم كتاباً وفيه وصية برسله إليهم، ومنهم معاذ بن جبل[1].

روى البخاري عن أبي بردة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف[2]، قال: واليمن مخلافان، ثم قال: (يسرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفرا)، فانطلق كل واحد منهما إلى عمله[3].

وعن معاذ بن جبل قال: «لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال: (يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري) - فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ - ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال: (إن أولى الناس بي المتّقون من كانوا وحيث كانوا)»[4].

قال ابن كثير: والصحيح أنه - أي معاذ - لم يرَ النبيّ ﷺ بعد ذلك[5]، وكان من وصية رسول الله ﷺ لمعاذ ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[6].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٨٨ - ٥٩٠. (٢) المخلاف: الإقليم.

(٣) متفق عليه (خ٣٠٣٨، م١٧٣٣).

(٤) البداية ٥/ ١٠٠ من رواية الإمام أحمد.

(٥) البداية ٥/ ١٠٢. (٦) متفق عليه (خ١٤٩٦، م١٩).

ذلك هو الهدي النبوي الشريف في الدعوة إلى الله، إنها عقيدة وأوامر، لا يطالب بها دفعة واحدة، وإنما فريضة فريضة بحسب الترتيب النبوي الكريم، فلا يطالب بالثانية إلّا بعد الاستجابة للأولى، ولا بالثالثة إلّا بعد الاستجابة للثانية... وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النبوي يترسمون خطاه، ويستوعبونه فهماً ووعياً وتطبيقاً، وحينئذٍ تكون خطاهم في الطريق الصحيح.

بعث علي وخالد رضي الله عنهما إلى اليمن[1]

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعث علياً مكانه فقال: (مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب[2] معك فليعقب، ومن شاء فليقبل)، فكنت فيمن عقب معه، قال: فغنمت أواقي ذوات عدد»[3].

وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن، قال أبو سعيد: فكنت فيمن خرج معه، فلما أخذ من إبل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح إبلنا ـ وكنا قد رأينا في إبلنا خللاً ـ فأبى علينا وقال: إنما لكم فيها سهم كما للمسلمين، قال: فلما فرغ عليّ وانطلق من اليمن راجعاً أمّر علينا إنساناً وأسرع هو وأدرك الحج، فلما قضى حجته قال له النبيّ ﷺ: (إرجع إلى أصحابك حتى تقدم عليهم). قال أبو سعيد: وقد كنّا سألنا الذي استخلفه ما كان عليّ منعنا إيّاه ففعل، فلما عرف في إبل الصدقة أنها قد ركبت، ورأى أثر الركب، قدم الذي أمره ولامه، فقلت: أما إن لله عليّ

---

(١) يرجع الزرقاني أن هذا البعث كان في رمضان سنة عشر إلى مذحج وأنها أول خيل أغارت عليهم لاختلاف الجهة، وإن كان جمع الكل اسم اليمن. وقد سبق لعلي أن بُعث إلى اليمن في العام الثامن يوم أسلمت همدان. شرح المواهب ٣/ ١٠٤.

(٢) يعقب: أي يرجع إلى اليمن.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٣٤٩).

لئن قدمت المدينة لأذكرن لرسول الله ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق... قال: فلما قدمنا المدينة غدوت إلى رسول الله ﷺ أريد أن أفعل ما كنت حلفت عليه... فدخلت فحييت رسول الله وحيّاني وأقبل عليّ وسألني عن نفسي وأهلي وأحفى المسألة، فقلت: يا رسول الله ما لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق، فاتأد[1] رسول الله وجعلت أنا أعدّد ما لقينا منه حتى إذا كنت في وسط كلامي ضرب رسول الله ﷺ على فخذي وكنت منه قريباً، وقال: (يا سعد بن مالك ابن الشهيد، مه بعض قولك لأخيك عليّ، فوالله لقد علمت أنه أحسن في سبيل الله)، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك سعد بن مالك، ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم ولا أدري لا جرم والله لا أذكره بسوء أبداً سراً ولا علانية[2].

كان ذهاب عليّ رضي الله عنه إلى اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة فأقام يقرئهم القرآن ويعلّمهم الشرائع وكتب إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك مع عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، فأمره ﷺ أن يوافيه الموسم فانصرف فأخبر علياً بذلك، فقفل إلى مكة متعجّلاً ليدرك الحج مع رسول الله ﷺ وخلف على أصحابه والخمس أبا رافع، وكان في الخمس من ثياب اليمن أحمال ونعم وشاء مما غنموه ومن صدقات أموالهم فسأل أصحاب عليّ أبا رافع أن يكسوهم ثياباً يحرمون فيها فكساهم ثوبين ثوبين فلما كانوا بالسدرة خرج عليّ ليتلقاهم ليقدم بهم فرأى الثياب على أصحابه فنزعها[3]، ولهذا وجدوا عليه[4].

---

(١) اتأد: تمهل وانتظر.

(٢) البداية ٥/ ١٠٥ وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد على شرط النسائي ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة.

(٣) شرح المواهب ٣/ ١٠٤.

(٤) البداية ٥/ ١٠٦ إن أصحاب علي رضي الله عنه تبعوه إلى مكة، كما صرح بذلك ابن كثير بقوله: وقدم علي من اليمن بمن معه من المسلمين وما معه من=

قال ابن كثير: والمقصود أن علياً لما كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش بسبب منعه إياهم استعمال إبل الصدقة، واسترجاعه منهم الحلل التي أطلقها لهم نائبه، وعليّ معذور فيما فعل، لكن اشتهر الكلام فيه في الحجيج، فلذلك ـ والله أعلم ـ لما رجع رسول الله ﷺ من حجّته وتفرّغ من مناسكه ورجع إلى المدينة فمرّ بغديرخم قام في الناس فبرأ ساحة عليّ ورفع من قدره ونبّه على فضله ليزيل ما وقر في نفوس كثير من الناس[1].

وحديث غديرخم[2] كان يوم الأحد الثامن عشر من ذي الحجة تحت شجرة هناك[3] بعد عودته ﷺ من حجة الوداع في طريقه إلى المدينة، فخطب خطبة عظيمة بيَّن فيها فضل عليّ رضي الله عنه وأمانته وعدله.

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى الناس علياً فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فسمعته يقول: (أيها الناس، لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله من أن يشكى)[4].

وروى الإمام أحمد عن بريدة قال: غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله يتغير، فقال: (يا بريدة، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، قلت: بلى يا رسول الله، قال: (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه).

قال ابن كثير: وكذا رواه النسائي وإسناده جيد قوي رجاله كلهم

= الأموال. البداية ٥/ ١٦٨، ولو لم يتبعوه لما حصل ضجيج حول نزع الأثواب منهم.

(١) البداية ٥/ ١٠٦.

(٢) غدير خم: موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة. البداية ٥/ ٢٠٨.

(٣) البداية ٥/ ٢٠٨.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠٣ قال ابن كثير: ورواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق. البداية ٥/ ٢٠٩.

ثقات[1]، وروى النسائي عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غديرخم أمر بدوحات فقُممّن[2] ثم قال: (كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)، ثم قال: (الله مولاي، وأنا ولي كل مؤمن)، ثم أخذ بيد عليّ فقال: (من كنت مولاه فهذا وليه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه)، قال ابن كثير: تفرّد به النسائي من هذا الوجه، قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: وهذا حديث صحيح[3].

ذكر الكذابين: مسيلمة والأسود

انتشر الإسلام في طول الأرض العربية وعرضها، ودان الناس به، وبدأت تعاليمه تأخذ أبعادها في حياة الناس ممن تأخر إسلامهم، بعد أن أصبحت هذه التعاليم حياة الناس الذين تقدم إسلامهم.

وظن بعض ذوي المطامع ممن يرغبون في تسنّم الرياسة أن أقرب الطرق إلى ذلك هو ادعاء النبوّة، وكان ممن اجترأ على ذلك في حياته ﷺ كذابان هما مسيلمة الحنفي والأسود العنسي.

كان مسيلمة أحد أفراد وفد بني حنيفة الذي وفد على رسول الله ﷺ وكان طامعاً في الرياسة والملك، وقد كان مقدماً في قومه، فلما قدم المدينة جعل يفاوض الرسول ﷺ في ذلك.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشرٍ كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس - وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد - حتى

---

(١) البداية ٥/٢٠٩ وقال في صحيح الجامع الصغير: صحيح.

(٢) قممن: نظفن من القمامة.

(٣) البداية ٥/٢٠٩.

وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عني)، ثم انصرف عنه»[1].

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: (إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت) فأخبرني أبو هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب ـ فأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي أحدهما العنسي والآخر مسيلمة)[2].

وعاد مسيلمة إلى اليمامة ليرتد ويدّعي النبوّة، وتسمى بـ (رحمان اليمامة) وجعل يسجع لقومه سجعات ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا، وأحل لهم الخمر والزنى، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع هذا يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبيّ.

واجتمعت معه بنو حنيفة على ذلك، حيث ادّعى أنه أشرك في الأمر مع رسول الله ﷺ[3].

وأرسل كتاباً إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أمّا بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فلما قرأه رسول الله ﷺ قال للرسولين: (فما تقولان أنتما؟) قالا: نقول كما قال، فقال: (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما).

---

(١)(٢) متفق عليه (خ٤٣٧٣، م٢٢٧٣).

(٣) البداية ٥/٥١.

ثم كتب إلى مسيلمة: (بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[1].

وقتل مسيلمة في حروب الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كان خروج مسيلمة في أرض نجد، وفي الجانب الآخر في أرض اليمن خرج متنبئ آخر هو الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب بن غوث، خرج في سبعمائة مقاتل وكتب إلى عمال النبيّ ﷺ: أيها المتمردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به. ثم ركب فتوجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه ثم قصد إلى صنعاء، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا، فغلبه الأسود وقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتل بلدة صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه، ففر معاذ بن جبل من هنالك واجتاز بأبي موسى الأشعري، فذهبا إلى حضرموت، ورجع عمرو بن حرام وخالد بن سعيد إلى المدينة، واستوثقت اليمن بكاملها للأسود العنسي وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة، وارتد خلق من أهل اليمن، وعامله المسلمون الذين كانوا هناك بالتقية.

وتزوج بامرأة شهر بن باذام بعد مقتله وكانت امرأة مؤمنة ـ وأسند أمر الأبناء إلى ابن عمها فيروز الديلمي.

وبلغ الأمر رسول الله ﷺ فبعث بكتاب يأمر فيه المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته، وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتمّ القيام فبلغه إلى عمال النبيّ ﷺ ومن قدر عليه من الناس.

وبمساعدة فيروز الديلمي وكذلك زوجة شهر بن باذام التي تزوجها الأسود بعد قتل زوجها أمكن قتله وإنهاء فتنته، وانهزم أصحابه وتتبعهم الناس في كل مكان.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠٠.

وقيل: كانت مدة ملكه منذ ظهوره إلى قتله ثلاثة أشهر.

ووصل نبأ مقتله إلى المدينة في آخر ربيع الأول بعد وفاة الرسول ﷺ بعد ما جهز جيش أسامة[1].

قال عروة: أصيب الأسود قبل وفاة النبيّ ﷺ بيوم وليلة فأتاه الوحي فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر إلى أبي بكر رضي الله عنه[2].

---

(١) البداية ٦/٢٠٧ ـ ٢١٠.

(٢) فتح الباري: كتاب المغازي، باب قصة الأسود العنسي.

حجة الوداع

لما دخل شهر ذي القعدة من العام العاشر للهجرة، أعلن رسول الله ﷺ عزمه على الحج، وأمر الناس بالجهاز له، وأمرهم أن يلقوه، فاجتمع بالمدينة بشر كثير ممن كان حولها يريدون مصاحبته ﷺ.

وخرج ﷺ من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة وقدم مكة لخمس خلون من ذي الحجة، وصحبه في حجته جميع نسائه.

وخرج المسلمون من القبائل البعيدة فبعضهم لقيه في الطريق، ولقيه بعضهم الآخر في مكة.

وجاء علي رضي الله عنه من اليمن مع أهل اليمن، فالتقى به ﷺ في مكة.

كانت الغاية تعليم الناس المناسك، واللقاء بهم ليملي عليهم وصيته التي ودَّع الناس بها، وكان يكرّر عليهم (أيها الناس: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا)[1].

وفي يوم عرفة والنبيّ ﷺ واقف بها بعد العصر نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2].

ونزلت سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾، في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع[3].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢٩٧). (٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) فتح الباري، كتاب التفسير، من حديث ابن عمر عند أبي يعلى.

ويبدو أن رسول الله ﷺ هو الذي سماها حجة الوداع، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كنا نتحدث بحجة الوداع والنبيّ ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجة الوداع»[(١)].

وقد كانت هذه الحجة هي المَعْلم الذي يرجع إليه في أحكام الحج، حيث كانت حجته ﷺ التطبيق العملي الواضح لأداء هذه المناسك، كما كانت إجاباته على أسئلة الناس إتماماً لهذا البيان.

ويبدو أن الرسول ﷺ خطب في الناس عدة مرات، منها ما كان قبل التروية بيوم بعد الظهر، والثانية يوم عرفة، والثالثة يوم النحر[(٢)].

وكان ﷺ يستنصت الناس، عن جرير رضي الله عنه: «إن النبيّ ﷺ قال في حجة الوداع لجرير: استنصت الناس»[(٣)].

وكان المبلغ عنه ﷺ ينادي في الناس بما يقوله النبيّ ﷺ، يقول له رسول الله ﷺ: (قل: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول: هلّا تدرون أي شهر هذا؟) فيقول لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: (قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم...)[(٤)].

وقد رويت هذه الخطب روايات متعددة بعضها أتمّ من بعض، كما اقتصر بعض الرواة على رواية فقرة واحدة أو فكرة واحدة، وفي رواية ابن إسحاق جاء قوله ﷺ[(٥)]:

(أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٢).

(٢) حاشية حدائق الأنوار لابن الديبع ٢/ ٧٣٩ نقلاً عن كتاب إمتاع الأسماع (٥٢٩).

(٣) متفق عليه (خ١٢١، م٦٥).

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠٥.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٦٠٣.

كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أنه يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به، مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان[1] لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت.

---

(١) عوان، جمع عانية، وهي الأسيرة.

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّناً، كتاب الله وسنّة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللّهمّ هل بلغت؟

فذكر لي أن الناس قالوا: اللّهمّ نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللّهمّ اشهد).

تلك إحدى روايات الخطبة العظيمة، ولئن اختلفت بعض الروايات عن بعضها الآخر في الألفاظ، فإن المعنى واحد، وما ذلك إلا لتعدد الخطب في تلك الحجة والتأكيد على المعنى الواحد في أكثر من موقف ونستطيع أن نجعل الأمور التي تناولتها الخطبة بما يلي

١ ـ التأكيد على حسن الاستماع والتنويه بأنه ربما كان ذلك هو اللقاء الأخير برسول الله ﷺ.

٢ ـ حرمة الدماء والأموال، وأضافت رواية ابن عمر عند البخاري[1] ذكر الأعراض، ثم بيان مقدار هذه الحرمة بحرمة يوم عرفة، مضافاً إليها حرمة الشهر الحرام، مضافاً إليها حرمة البلد الحرام.

٣ ـ التأكيد على أداء الأمانات.

٤ ـ حرمة الربا والبدء العملي لإلغاء آثاره بإلغاء ربا العباس.

٥ ـ هدر دماء الجاهلية والبدء العملي بإلغاء دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

وهكذا يبدأ ﷺ بذويه سواء في وضع الربا أو هدر الدماء.

---

(١) البخاري في كتاب المغازي: باب حجة الوداع في حديث أبي بكرة (٤٤٠٦) (وأحسبه قال: وأعراضكم)، ثم قال ﷺ: (ألا فلا ترجعوا بعدي ضلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض).

٦ ـ الدعوة إلى الحذر من الشيطان أن يتسلل إلى النفوس من خلال ما يحتقره الإنسان من أعمال.

٧ ـ عودة الأيام إلى زمنها الذي أجراها الله عليه بعد أن تلاعب الجاهليون بالأشهر الحرم ردحاً طويلاً من الزمن.

٨ ـ الوصية بالنساء والتأكيد على ذلك، ولعل هذه الوصية تعتبر أطول فقرة في خطابه ﷺ بيّن من خلالها التزامات كل من الزوجين تجاه الآخر.

٩ ـ الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه وسيلة النجاة.

١٠ ـ أخوة المسلمين.

١١ ـ الاستماع والطاعة للإمام ما دام يحكم بكتاب الله.

وقد جاء ذلك في حديث أم الحصين عند الإمام مسلم قالت: فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً ثم سمعته يقول: (إن أُمِّرَ عليكم عبد مجدع ـ حسبتها قالت: أسود ـ يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا)(١).

١٢ ـ إلغاء مآثر الجاهلية.

ففي رواية الإمام أحمد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه: (... ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة)(٢).

١٣ ـ التحذير من الدجال، ففي رواية ابن عمر عند البخاري: «... ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال: (ما بعث الله من نبي إلّا أنذر أمته، أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم ـ ثلاثاً ـ إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية)»(٣).

---

(١) البداية ١٩٦/٥.

(٢) البداية ٢٠١/٥، وقد ورد في بعض الروايات استثناء السقاية والحجابة.

(٣) رواه البخاري (٤٤٠٢).

١٤ ـ التأكيد على تبليغ ما سمعوا: ففي رواية البخاري عن أبي بكرة (... ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ثم قال: ألا هل بلغت مرتين)[١].

وعند الإمام أحمد: (... وقال: ألا هل بلغت، ألا هل بلغت، ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مُبَلَّغ أسعد من سامع)[٢].

تلك هي الخطوط العريضة التي وردت في خطبته ﷺ: وإنها لدستور كامل لخّص فيها ﷺ منهج الإسلام، فكانت البلاغ[٣] العام للناس، حيث بينت ما يترتب على الفرد من التزامات تجاه خالقه سبحانه وتعالىٰ، وتجاه نفسه، وتجاه غيره من الناس، بل والمخلوقات عموماً.

وانتهت شعائر الحج، وعاد الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وعاد الناس إلى مواطنهم، ولعل القليل القليل هم الذين أدركوا ما تعنيه هذه الحجة من اقتراب أجله ﷺ، وحتى هذا القليل ربما كان يبعد هذا الفهم عن فكره لعدم القدرة على تصوّره، حباً وإجلالاً للرسول ﷺ.

بعث أسامة

استقر ﷺ في المدينة بعد عودته من حجة الوداع فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرم ـ حيث بدأت السنة الحادية عشرة للهجرة ـ وصفر. وفي آخره ندب الناس لغزو الروم.

ودعا أسامة فقال: (سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش... وأسرع المسير تسبق الخبر، فإن ظفرك الله بهم فأقل اللبث فيهم).

وبدأ برسول الله ﷺ وجعه، فعقد اللواء لأسامة بيده، فأخذه فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف، وكان ممن انتدب مع أسامة كبار المهاجرين

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) البداية ٥/٢٠٢.

(٣) وتسمى هذه الحجة: حجة البلاغ.

والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد وسعيد وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم.

فتكلم في ذلك قوم منهم عياش بن أبي ربيعة المخزومي، فرد عليه عمر وأخبر النبيّ ﷺ، فقام رسول الله ﷺ فقال: (إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل. وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده)[1].

ومرض رسول الله ﷺ ثم اشتد به الوجع فقال: (أنفذوا جيش أسامة)، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقام الجيش بالجرف ينتظر ما يؤول إليه أمره ﷺ.

❁ ❁ ❁

وتستوقفنا تلك التربية العالية الرفيعة، حيث ينضوي تحت لواء جيش يقوده فتى، كبار المهاجرين والأنصار، وأصحاب السابقة في الفضل، لا يرون في ذلك غضاضة أو نزولاً بقدرهم.

ذلك أن العمل الذي يقومون به، إنما يبتغون به رضوان الله تعالىٰ، وقد تعلموا من أوامر الله تعالىٰ طاعة أُولي الأمر، والطاعة لا تكون حقيقية فيما تحبه النفوس فقط بل فيما تحبه وتكرهه.

وإذا كانت الغاية رضوان الله تعالىٰ، فالغاية أن يحصل المقصود الذي يُسعى إليه سواء تحقق بوسيلة أو بأخرى، وعمر يسمع نقد الأمير الذي عيَّنه ﷺ فما يصبر حتى يبلغ الأمر للرسول ﷺ فيؤكد أن هذا القائد الفتي خليق بالإمارة، وإذا كان خليقاً لها فما هي الغاية من نقده؟

إن الطاعة لله وللرسول وأولي الأمْر من المسلمين أمر حتمي، فهم القصد أم لم يفهم وعرفت الحكمة أم لم تعرف.

ومما يؤكد هذا المنطلق ما فعله أبو بكر من إنفاذ هذا الجيش بعد

---

(١) متفق عليه (خ٣٧٣٠، م٢٤٢٦).

وفاته ﷺ، وقد كانت رغبة الكثيرين عدم إنفاده لتغير الموقف العسكري بسبب الردة، ولكن الصدّيق أبى أشد الإباء وقال: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين»[(١)].

وكان في إنفاذ الجيش كل البركة والخير، فكان لا يمر بقبيلة تريد الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم. ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم... فلما لقوا الروم وهزموهم ورجعوا سالمين ثبتت تلك القبائل على الإسلام.

إن هذه الواقعة بمقدار ما تحمل من الدلالة على نبوة الرسول ﷺ، وفضل الالتزام بأمره، بمقدار ما تحمل من بيان فضل أبي بكر الذي آثر تنفيذ الأمر مهما كانت الظروف وذلك درس في الطاعة يعطيه أبو بكر لكل أجيال المسلمين يتعلمون من خلاله معاني الانضباط والثبات، وتلك أولية من أوليات بناء الأمم[(٢)].

مرضه ﷺ ووفاته

كان ﷺ يشعر بدنوّ أجله، وكانت بعض أحاديثه تشعر بعض الصحابة رضي الله عنهم بذلك، فقد رأينا قوله لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري)، فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ[(٣)].

---

(١) البداية ٦/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) ذكرت بعض الروايات أن عمر بن الخطاب راجع أبا بكر بشأن تغيير أسامة واستبداله بأمير آخر تلبية لرغبة بعض الأنصار، وأن أبا بكر قال له بعد أن أخذ بلحيته: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب...
وهذا لا يثبت، فعمر هو الذي أوصل الخبر إلى رسول الله ﷺ عن أولئك الذين كرهوا قيادة أسامة، وصعد الرسول ﷺ المنبر بناء على ذلك وقال ما قال مما ذكر قبل قليل، فكيف يقبل أن يكون وسيطاً في أمر كهذا؟

(٣) البداية ٥/ ١٠٠ من حديث الإمام أحمد.

ثم كانت بعد ذلك حجة الوداع، وكانت فيها الدلائل كثيرة، نزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، ثم نزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ ...﴾ كما كان ﷺ يردد قوله: (خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا). وكانت خطبه فيها تشير إلى ذلك، ومنها قوله ﷺ: (أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً).

وقال ﷺ لابنته فاطمة: (إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضني به العام مرتين، وما أرى ذلك إلّا اقتراب أجلي)[1].

كان ذلك شعور النبوة الصادق، فقد ابتدأ رسول الله ﷺ بشكواه في آخر صفر أو أول ربيع، فكان أول ما ابتدئ به أنه خرج إلى بقيع الغرقد، من جوف الليل، فاستغفر لهم[2]، ثم رجع إلى أهله فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك.

عن أبي مويهبة ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: «بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: (يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي)، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: (السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح

---

(١) متفق عليه (خ٣٦٢٣، م٢٤٥٠).

(٢) وعن عقبة بن عامر قال: «صلّى رسول الله ﷺ على قتلى أُحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: (إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها)، قال: فكانت آخر نظرة إلى رسول الله ﷺ»، أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد.

الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى). ثم أقبل علي، فقال: (يا أبا مويهبة، إني قد أُوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنّة، فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنّة). قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنّة، قال: (لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنّة)، ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف. فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه»[1].

وأخذ المرض يشتد ورسول الله ﷺ يتنقل بين بيوت أزواجه، وكان يسأل في مرضه الذي مات فيه، يقول: (أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟)[2]، قالت عائشة: «لما ثقل رسول الله ﷺ واشتدّ به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذِنَّ له، فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه في الأرض»[3]، وكان الرجلان هما: عباس بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

واشتد به المرض حتى منعه من الخروج للصلاة، فقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، قالت عائشة: قلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فقال: (ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف)[4].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن زمعة قال: لما استعز[5] برسول الله وأنا عنده في نفر من المسلمين، دعا بلال للصلاة، فقال: (مروا من يصلي بالناس)، قال: فخرجت فإذا عمر في الناس ـ وكان أبو

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٤٢.
(٢) متفق عليه (خ١٣٨٩، م٢٤٤٣).
(٣) متفق عليه (خ٦٦٥، م٤١٨).
(٤) رواه مسلم (٤١٨).
(٥) يقال: استعز بالمريض، إذ غُلب على نفسه من شدة المرض.

بكر غائباً ـ فقلت: قم يا عمر فصلِّ بالناس، قال: فقام فلما كبّر عمر، سمع رسول الله ﷺ صوته ـ وكان عمر رجلاً مجهراً ـ فقال رسول الله: (فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون). قال: فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد ما صلّى عمر تلك الصلاة، فصلّى بالناس.

وقال عبد الله بن زمعة: قال لي عمر: «ويحك ماذا صنعت يا ابن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلّا أن رسول الله أمرني بذلك، ولولا ذلك ما صلّيت. قال: قلت: والله ما أمرني رسول الله ولكن حين لم أرَ أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة»[١].

وصلّى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه أن لا يتأخر وأمرهما فأجلساه إلى جنبه فجعل أبو بكر يصلي قائماً ورسول الله ﷺ يصلّي قاعداً[٢]. وفي رواية: فجعل أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله وهو قائم والناس يصلون بصلاة أبي بكر، ورسول الله ﷺ قاعد.

قال أنس: آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ مع القوم في ثوب واحد ملتحفاً به خلف أبي بكر[٣].

ولعل هذه الصلاة هي التي أشارت إليها عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري، قالت: «لما دخل بيتي واشتد به وجعه قال: (هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس) فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبيّ ﷺ ثم طفقنا نصبّ عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن. قالت: ثم خرج إلى الناس فصلّى بهم وخطبهم»[٤].

---

(١) البداية ٥/ ٢٣٢، وقال ابن كثير: وهكذا رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري ومسلم (خ٧١٣، م٤١٨).

(٣) البداية ٥/ ٢٣٤ قال ابن كثير: وإسناده جيد على شرط الصحيح.

(٤) البخاري، المغازي، باب مرضه ﷺ رقم (٤٤٤٢).

وخطب يومها ﷺ ما رواه أبو سعيد الخدري قال: «خطب رسول الله ﷺ الناس[1] وقال: (إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله). فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا. فقال رسول الله ﷺ: (إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربّي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سدّ، إلا باب أبي بكر)[2].

ومضت أيام ثلاثة لم يخرج النبيّ ﷺ فيها[3] «وفي صلاة الفجر من يوم الاثنين - وأبو بكر يصلي لهم - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصلَ الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتمّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»[4].

وكان ذلك آخر عهد الناس به ﷺ، وكانت تلك النظرات الأخيرة التي ودَّع فيها ﷺ أصحابه، وقد صفهم بين يدي الله تعالىٰ يؤدّون الصلاة، يجمعهم إمام واحد، تربطهم أخوة الإيمان... لقد سرته هذه النتيجة التي توصل إليها، فما هي إلّا الدليل القاطع على أنه ﷺ أدّى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة، فتبسم وضحك وأسدل الستر على صورتين رائعتين، صورة الرضى منه ﷺ وصورة المسلمين وقد صفّوا للصلاة جماعة واحدة، وكأن لسان حاله ﷺ يقول لهم: (تركتكم على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلّا هالك).

❁ ❁ ❁

---

(١) قال في فتح الباري: وفي حديث أبي سعيد (في مرضه الذي مات فيه).
(٢) البخاري (٤٦٦).
(٣) متفق عليه (خ٦٨١، م٤١٩).
(٤) متفق عليه (خ٦٨٠، م٤١٩).

فرح المسلمون بما رأوا من رسول الله ﷺ وتوقعوا أن يكون قد برئ من مرضه، ودخل أبو بكر رضي الله عنه عليه ﷺ حين فرغ من الصلاة، وقال لعائشة: ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة ـ يعني إحدى زوجتيه ـ وكانت ساكنة بالسنح شرقي المدينة، فركب على فرس وذهب إلى منزله[1].

وتوفي ﷺ حين اشتد الضحى من ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها: «إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته: دخل عليّ عبد الرحمٰن وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليّنته فأمره، وبين يديه ركوة ـ أو علبة يشك الراوي ـ فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: (لا إلٰه إلا الله، إن للموت سكرات)، ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى)، حتى قبض ومالت يده»[2].

قال أنس: «لما ثقل النبيّ ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه، فقال لها: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)، فلما مات، قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[3].

❁ ❁ ❁

وصل نبأ الوفاة إلى الناس فكانوا بين مصدّق ومكذّب، وأظهر المنافقون فرحهم، وقام عمر بن الخطاب ينفي موت رسول الله ﷺ ويقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن

---

(١) البداية ٥/ ٢٤٤.

(٢) البخاري، المغازي باب مرضه ﷺ رقم (٤٤٤٩).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٤٦٢).

رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات[1].

وذهب سالم بن عبيد وراء الصديق إلى السُّنْحِ فأخبره الخبر[2]، فجاء على فرس من مسكنه بالسنح «حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فتيمّم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها»[3].

«وخرج ـ وعمر يكلم الناس ـ فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[4]، وقال ـ ابن عباس ـ: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً إلّا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت[5] حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، وعلمت أن النبيّ ﷺ قد مات»[6].

وعاد إلى الناس صوابهم وعرفوا أن رسول الله ﷺ قد مات.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٥٥، وبعضها في البخاري (٣٦٦٧).

(٢) البداية ٥/ ٢٤٤.

(٣) البخاري، المغازي باب مرضه ﷺ (١٢٤١).

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٥) أي هلكت.

(٦) البخاري، المغازي، باب مرضه ﷺ (٤٤٥٤).

وانحاز الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة يريدون بيعة سعد بن عبادة، وبلغ الأمر أبا بكر والمهاجرين فانطلق إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وبعد مداولة في الأمر تمّت البيعة لأبي بكر في يوم الإثنين ثم في صبيحة يوم الثلاثاء كانت البيعة العامة من المهاجرين والأنصار، وكان ذلك قبل تجهيز الرسول ﷺ.

❁ ❁ ❁

وفي يوم الثلاثاء تمّ غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه، وكان الذين باشروا ذلك هم عليّ والعباس والفضل وقثم ـ ابناه ـ وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ.

ورفع فراشه، حيث حفر له تحته، لقول أبي بكر رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض)، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالاً، دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أدخل النساء حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد[1].

ثم دفن ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء.

قالت فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها لأنس: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟[2].

روى الإمام أحمد عن أنس قال: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، قال: وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٦٦٣.

(٢) البخاري، المغازي باب مرضه ﷺ (٤٤٦٢).

(٣) البداية ٥/٢٧٣ قال ابن كثير: وإسناده على شرط الصحيحين.

وأما تركته ﷺ فقد ورد بتحديدها حديثان في صحيح البخاري ﵁.

فقد روى عن عمرو بن الحارث قال: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة»[1].

وعن عائشة ﵂ قالت: «توفي النبيّ ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين، يعني صاعاً من شعير»[2].

❁ ❁ ❁

وأما عمره الذي توفي عنه فقد حددته عائشة ﵂ بقولها: «إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين»[3].

❁ ❁ ❁

وبعد: لو أراد القارئ الوقوف على هذه النصوص لطال تأمله ولكانت وحدها بما تحمله من معان كافية لتكون موضوعاً مستقلاً، ولكنه مما ينبغي الإشارة إليه أن الرسول ﷺ لم يستخلف أحداً، وإنما كانت هناك إشارات واضحة توجه المؤمنين إلى من ينبغي استخلافه، منها قوله ﷺ حينما قدم عمر للصلاة: (يأبى الله ذلك والمسلمون)، ومنها أنه أمرهم بسد الأبواب اللافظة إلى المسجد إلا باب أبي بكر.

وكان ذلك من الحجج القوية التي أدلى بها عمر ﵁ في سقيفة بني ساعدة حينما قال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[4].

إن الإمامة في الصلاة تعني إمامة الناس أيضاً في شؤونهم المادية وقد

---

(١) البخاري، المغازي باب مرضه ﷺ (٢٧٣٩).

(٢) البخاري، المغازي، باب وفاته ﷺ (٢٩١٦).

(٣) متفق عليه (خ٤٤٦٦، م٢٣٤٩).

(٤) البداية ٥/٢٤٦ ـ ٢٤٧ من رواية الإمام أحمد والنسائي.

ظل هذا التلازم بين إمرة المؤمنين وبين إمامتهم في الصلاة طيلة مدة الخلافة الراشدة، وكان الفصل بينهما فيما بعد أمارةَ البعد عن منهج الله تعالىٰ فصلاة الخليفة إماماً بالمسلمين تعني لقاءه بهم خمس مرات لا تحول بينه وبينهم الحواجز، كما تعني معرفة أحوالهم عن كثب وتعني بكلمة مختصرة أنه يعيش حياة الناس، فيكون على صلة بأفراحهم وأتراحهم، يعرف من أمورهم صغيرها وكبيرها، وعندها يكون أمامَ مسؤولياته التي أوكلت إليه.

❁ ❁ ❁

من آخر ما تكلم به النبيّ ﷺ

عن أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: (أفيضوا عليّ سبع قرب من سبع آبار شتى حتى أخرج فأعهد إلى الناس)، ففعلوا فخرج فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه، ذكر أصحاب أُحُد فاستغفر لهم ودعا لهم، ثم قال: (يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيأتها لا تزيد، وإنهم عيبتي[1] التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم)، ثم قال عليه السلام: (أيها الناس، إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا، وبين ما عند الله فاختار ما عند الله)، ففهمها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأموالنا، فقال رسول الله ﷺ: (على رسلك يا أبا بكر، انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدّوها إلا ما كان من بيت أبي بكر فإني لا أعلم أحداً عندي أفضل في الصحبة منه)[2].

قال أنس: «كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الوفاة (الصلاة وما ملكت أيمانكم) حتى جعل يغرغر بها وما يفصح بها لسانه»[3].

---

(١) أي بطانتي وخاصتي.

(٢) البداية ٥/ ٢٢٩ نقلاً عن البيهقي، وقال ابن كثير: وهو مرسل وله شواهد كثير.

(٣) البداية ٥/ ٢٣٨ من رواية البيهقي والنسائي والإمام أحمد كل بسنده.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبيّ ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1].

وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذِّر ما صنعوا)[2].

وأما آخر أقواله ﷺ فهي ما رواه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «سمعت النبيّ ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه ـ وأخذته بحة ـ يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية»[3].

وقالت: لما مرض النبيّ ﷺ المرض الذي مات فيه جعل يقول: (في الرفيق الأعلى).

وعن عبد الله بن الزبير أن عائشة أخبرته أنها سمعت النبيّ ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت ـ وهو مسند إلي ظهره ـ يقول: (اللّهمّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق)[4].

❁ ❁ ❁

هذه الكلمات هي آخر ما سُمِعَ منه ﷺ.

وهي تضع بين أيدينا ما ينبغي أن نحرص عليه، وما ينبغي أن يبقى صداه في أسماعنا على مرِّ الأيام.

إنها وصية بثلاثة أمور رئيسة:

ـ فهي تحذر من أن تشوب عقيدة التوحيد الخالص ـ التي جاء

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٣).

(٣) متفق عليه (خ٤٤٣٥، م٢٤٤٤).

(٤) متفق عليه (خ٤٤٦٣، ٤٤٤٠، م٢٤٤٤).

بها ﷺ ـ شائبة، وذلك واضح من لعنه ﷺ لليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

ـ وهي توجه إلى العناية بأداء الصلاة، والحرص على ذلك، فالصلاة أم العبادات، وهي الصلة بين العبد وخالقه، فالحض عليها، إنما هو عنوان مضمونه الوصية بطاعة الله تعالى في كل ما أمر.

ـ وهي دعوة إلى حسن المعاملة مع الخلق، حتى يصل هذا الإحسان في التعامل إلى الحيوان.

إنها الوصية التي جمعت الكليات التي تنضوي تحتها كل شرائع الإسلام، إنها تطلب:

ـ إحسان الاعتقاد.

ـ إحسان العبادة.

ـ إحسان التعامل مع الخلق.

وإذا كانت هذه الكلمات هي آخر ما سمع منه ﷺ فذلك دلالة على أنه ﷺ ظل يؤدي دوره في التبليغ والتوجيه والنصح للأمة، حتى آخر نَفَس من حياته ﷺ.

إنه أداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، على أكمل وجه. نشهد بذلك أمام الله تعالى راجين منه ـ سبحانه ـ أن يجازيه عنّا خير ما جزى نبياً عن أمته.

ولا أجد ختماً لهذه الومضات المقتبسة من معين سيرته ﷺ خيراً من تنفيذ أمره تعالى بالصلاة عليه ﷺ. فأقول ممتثلاً أمره ﷺ في كيفية الصلاة عليه:

(اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦).

من المراجع

١ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: للإمام ابن حجر العسقلاني.
٢ ـ **البداية والنهاية**: للإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي، الطبعة الأولى ١٩٦٦م، مكتبة المعارف ومكتبة النصر.
٣ ـ **التفسير الكبير**: للإمام الفخر الرازي.
٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي.
٥ ـ **جامع الأصول**: لابن الأثير الجزري، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.
٦ ـ **جامع البيان في تفسير القرآن**: للإمام محمد بن جرير الطبري.
٧ ـ **جوامع السير**: للإمام ابن حزم، مراجعة أحمد محمد شاكر.
٨ ـ **حدائق الأنوار**: لابن الديبع الشيباني، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري.
٩ ـ **حلية الأولياء**: للحافظ أبي نعيم الأصبهاني.
١٠ ـ **حياة الصحابة**: محمد يوسف الكاندهلوي، طبعة دار المعارف، بيروت، في ثلاث مجلدات.
١١ ـ **الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام**: للسهيلي.
١٢ ـ **زاد المعاد**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.
١٣ ـ **السيرة النبوية**: لابن هشام، تحقيق: السقا والأبياري وشلبي، في مجلدين.
١٤ ـ **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية**: للقسطلاني، دار المعارف، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.
١٥ ـ **شرح صحيح مسلم**: للإمام النووي.
١٦ ـ **الشفا**: للقاضي عياض، تحقيق: الرفاعي وزملائه.
١٧ ـ **صحيح الإمام البخاري**:
١٨ ـ **صحيح الإمام مسلم**:
١٩ ـ **صحيح الجامع الصغير**: للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
٢٠ ـ **صفوة التفاسير**: للشيخ محمد علي الصابوني.
٢١ ـ **الطبقات الكبرى**: لابن سعد، طبع دار صادر ودار بيروت ١٩٥٧م.

٢٢ - **فتح الباري، شرح صحيح البخاري**: للشيخ ابن حجر العسقلاني، قام بترقيم أبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
٢٣ - **الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام أحمد**: للشيخ أحمد عبد الرحمٰن البنا، دار الشهاب، القاهرة.
٢٤ - **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير الجزري، ط٢، ١٣٨٧هـ.
٢٥ - **مختصر تفسير ابن كثير**: للشيخ محمد علي الصابوني.
٢٦ - **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**: عاتق بن غيث البلادي، ط١، ١٩٨٢م، دار مكة.
٢٧ - **المغازي**: للواقدي، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦م.

فهرس الأعلام[1]

---

(١) لم يدخل في هذا الفهرس رجال السند والرواة، إلا إذا كان الراوي له ارتباط بما يروي. وحرف «ح» يرمز إلى أن الاسم في الحاشية.

[ب]

[ت]

[ث]

[ج]

[ح]

[خ]

[د]

[ر]

[ز]

[س]

[ش]

[ص]

[ض]

[ل]

[م]

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]

فهرس الغزوات والسرايا

حسب تسلسلها الزمني

الغزوة أو السرية	العدد	القائد	الصفحة
٢٣ ـ غزوة بدر الآخرة	١٥٠٠	الرسول ﷺ	٢٨٧
٢٤ ـ غزوة دومة الجندل	١٠٠٠	الرسول ﷺ	٢٨٩
٢٥ ـ غزوة الخندق (الأحزاب)	١٠٠٠	الرسول ﷺ	٢٩٠
٢٦ ـ غزوة بني قريظة	-	الرسول ﷺ	٣٢٠
٢٧ ـ غزوة بني لحيان	-	الرسول ﷺ	٣٣٨
٢٨ ـ سرية زيد بن حارثة إلى العيص	١٧٠	زيد رضي الله عنه	٣٣٩
٢٩ ـ غزوة بني المصطلق (المريسيع)	-	الرسول ﷺ	٣٤١
٣٠ ـ سرية سيف البحر	٣٠٠	أبو عبيدة رضي الله عنه	٣٥١
٣١ ـ سرية علي إلى فدك	١٠٠	علي رضي الله عنه	٣٥٤
٣٢ ـ عمرة الحديبية (صلح الحديبية)	١٤٠٠	الرسول ﷺ	٣٥٦
٣٣ ـ غزوة ذي قرد	-	الرسول ﷺ	٣٧١
٣٤ ـ غزوة خيبر	١٤٠٠	الرسول ﷺ	٣٧٤
٣٥ ـ سرية بشير بن سعد الأنصاري	٣٠٠	بشير رضي الله عنه	٣٨٤
٣٦ ـ غزوة ذات الرقاع	٤٠٠	الرسول ﷺ	٣٨٥
٣٧ ـ سرية أبي بكر إلى بني فزارة	-	أبو بكر رضي الله عنه	٣٩٢
٣٨ ـ سرية غالب بن عبد الله الكلبي	-	غالب رضي الله عنه	٣٩٢
٣٩ ـ سرية محمد بن مسلمة قبل نجد	-	محمد رضي الله عنه	٣٩٢
٤٠ ـ غزوة مؤتة	٣٠٠٠	الأمراء الثلاثة رضي الله عنهم	٤٠١
٤١ ـ سرية ذات السلاسل	٣٠٠	عمرو رضي الله عنه	٤٠٩
٤٢ ـ فتح مكة	١٠٠٠٠	الرسول ﷺ	٤١٤
٤٣ ـ بعوث متعددة لهدم الأصنام	-	-	٤٢٦
٤٤ ـ غزوة حنين	١٢٠٠٠	الرسول ﷺ	٤٤٣
٤٥ ـ سرية أبي عامر إلى أوطاس	-	أبو عامر رضي الله عنه	٤٤٦
٤٦ ـ غزوة الطائف	١٠٠٠٠	الرسول ﷺ	٤٤٦
٤٧ ـ غزوة تبوك	٣٠٠٠٠	الرسول ﷺ	٤٦٨
٤٨ ـ بعث خالد إلى بني الحارث	-	خالد رضي الله عنه	٥٢٢
٤٩ ـ بعث خالد إلى اليمن	-	خالد رضي الله عنه	٥٢٤
٥٠ ـ بعث علي إلى اليمن	-	علي رضي الله عنه	٥٢٤
٥١ ـ بعث أسامة لغزو الروم	-	أسامة رضي الله عنه	٥٣٦

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تأملات

المدينة بعد أحد

ما بعد أحد

غزوة الخندق

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

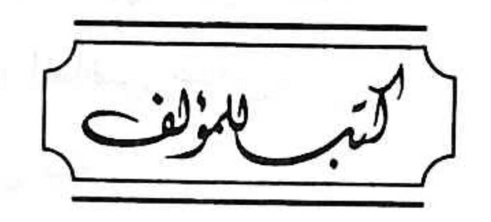
الموضوع	الصفحة

فتح مكة

تأملات

غزوة حنين

الموضوع	الصفحة



• في السنّة المطهرة:

١ ـ الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات).

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).

٤ ـ العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري (ترتيبه حسب الموضوعات).

٥ ـ تحقيق مشارق الأنوار للقاضي عياض (تحت الطبع).

٦ ـ الوافي بما في الصحيحين.

٧ ـ المرجع الجامع بين الموطأ والمسند (تحت الطبع).

٨ ـ زوائد سنن البيهقي على الكتب الستة (تحت الطبع).

• في السيرة النبوية الشريفة:

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية.

٤ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٥ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٦ ـ هكذا فهم الصحابة.

٧ - أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٨ - الغرانيق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).

٩ - المهذب من الشفا للقاضي عياض.

١٠ - سيرة النبيّ ﷺ في بيته.

● في الأخلاق وتهذيب النفس:

١ - مواعظ الصحابة ﷺ.

٢ - تهذيب حلية الأولياء للأصبهاني (٣ مجلدات).

٣ - المهذب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).

٤ - تحقيق رسالة «المعرفة» للمحاسبي.

٥ - سلسلة مواعظ السلف وقد صدر منها (٢٠) عدداً هي:

١ - مواعظ الإمام الحسن البصري.

٢ - مواعظ الإمام سفيان الثوري.

٣ - مواعظ الإمام عمر بن عبدالعزيز.

٤ - مواعظ الإمام مالك بن دينار.

٥ - مواعظ الإمام سلمة بن دينار.

٦ - مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم.

٧ - مواعظ الإمام عبدالله بن المبارك.

٨ - مواعظ الإمام الفضيل بن عياض.

٩ - مواعظ الإمام الشافعي.

١٠ - مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني.

١١ - مواعظ الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

١٢ - مواعظ الإمام ابن الجوزي.

١٣ - مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية.

١٤ - مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية.

١٥ - مواعظ الإمام الغزالي.

١٦ - مواعظ الإمام الحارث المحاسبي.

١٧ - مواعظ الإمام أحمد بن حنبل.

١٨ - مواعظ الإمام زين العابدين.

١٩ - مواعظ الإمام الجنيد.

٢٠ - مواعظ الإمام الأوزاعي.

● **موضوعات أخرى:**

١ ـ محبة الله ورسوله (شرط في الإيمان).

٢ ـ الفرائض فقهاً وحساباً (في جزأين).

٣ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٤ ـ الإمام ابن قيم الجوزية (سلسلة أعلام المسلمين).

٥ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٦ ـ دراسات جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء:

ـ الظاهر الجمالية في الإسلام.

ـ ميادين الجمال في الظاهرة الجمالية في الإسلام.

ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٧ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٨ ـ فصول في إصلاح النفس والمجتمع (للإمام ابن الجوزي).

٩ ـ رضيت بالإسلام ديناً.

١٠ ـ الجمال في منهج الإسلام وتشريعه.

١١ ـ نداء الإيمان في القرآن الكريم.

١٢ ـ الإسلام دين التيسير.

١٣ ـ الصلاة... الصلاة: (آخر ما تكلم به النبيّ ﷺ).

مشروع
تقريب تراث الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

● صدر منه عن المكتب الإسلامي:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.

٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب.

٣ ـ سيرة خير العباد.

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.

٥ ـ القضاء والقدر.

٦ ـ قل انظروا.

٧ ـ فضل العلم والعلماء.

٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٩ ـ الهدي النبوي في العبادات.

١٠ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

١١ ـ الروح.

● وصدر عن دار القلم بدمشق:

١٢ ـ طب القلوب.

١٣ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء).

١٤ ـ المهذب من مدارج السالكين.

١٥ ـ فضل الصلاة على خاتم الأنبياء.

تحت الطبع:

١٦ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين.

رسالة من قارئ كريم

كان أحد الأفراد القلائل الذين تخرجوا في الدفعة الأولى من كلية الشريعة بجامعة دمشق، وكان يطلق عليها يومئذ: الجامعة السورية. وعيّن بعدها مدرساً لدى وزارة التربية والتعليم. . . وبعد أربع سنوات استقر عمله في بلده «دوما» مدرساً لمادة التربية الإسلامية.

وبناء على طلب أهالي بلده، كان يقوم بأداء خطبة الجمعة في المساجد التي لا تشرف عليها وزارة الأوقاف، واستمر ذلك طول مدة وظيفته.

وكانت السيرة النبوية مادة أصيلة في خطب الجمعة، ينفذ من خلالها إلى ما يريد قوله.

وقُدِّرَ له بعد ذلك أن يعمل مدرساً في أحد المعاهد في المملكة العربية السعودية. . حيث طُلب منه أن يلقي محاضرة في ليلة من ليالي رمضان عن ذكرى بدر.

لم تكن المحاضرة سرداً للوقائع، وإنما كانت تحليلاً لها وتعليقاً عليها، واستنتاجاً للحكمة من تصرفاته ﷺ. . وقد لاقت استحساناً من الحضور.

وبعد رجوعه إلى منزله، خطر له أن يقوم بكتابة السيرة على هذا المنوال. . وبدأ العمل الجاد في الدراسة والبحث. وكان كتاب **«من معين السيرة»**.

وحملَ الكتابَ فرحاً متجهاً به إلى مندوب «المكتب الإسلامي» في الرياض طالباً منه إيصاله إلى بيروت. . ولكنه فوجئ بموقف المندوب حيث قال له: إن كتب السيرة كثيرة. وامتنع بشكل لبق عن ذلك. . فخرج بحزن أكبر من الفرح الذي دخل معه.

وحمل الكتاب عائداً به إلى منزله معرجاً على منزل أحد أصدقائه. وما أن عرف الصديق القصة حتى قال: قم بنا. . واتجها إلى المندوب ثانية ليقول له

الصديق: نحن لم نطلب رأيك في الموضوع، وإنما نطلب أن توصل الكتاب إلى بيروت. . .

وكان الفضل «للمكتب الإسلامي» في طبع كتاب، مؤلفه «نكرة» لا يعرف عنه القارئ شيئاً. . .

تلك هي الخلفية التي كانت وراء الكتاب الأول، لكاتب مبتدئ لم يفكر في يوم ما أن يكون كاتباً. . .

* * * *

وبعد طبع الكتاب مرة ثانية. . وصدور الطبعة الأولى للجزء الثاني «**من معين الشمائل**». . وصلته رسالة.

رسالة من قارئ لا يعرف الكاتب ولم يلتق به، وإنما تعرف عليه من خلال الكلمة، وهو لا يعرف عنوانه ولا مقر إقامته، وربما تعب في سبيل ذلك.

حمل هذه الرسالة طالب جامعي إلى أخي عبدالرحمٰن ـ حفظه الله ـ في دوما وقال: إنها من واحد من أصدقائه. . ولما فتح الرسالة. . بعث بها إلي. . .

فإذا هي ثناء على الكتاب. وقد سرَّني ذلك، فقد كانت التعويض المجزي عن الحزن الذي أصابني يوم لم يقبله مندوب المكتب.

واستقرت الرسالة ضمن الكتاب.

وطبع الكتاب بعدها الطبعة الثالثة. . وترددت يومئذ في نشرها ضمن هذه الطبعة لما فيها من الثناء على الكاتب.

والآن ـ والكتاب يعدّ للطبعة الرابعة ـ كانت الرسالة من بعض ما أعدت النظر فيه، فوجدتها ثناء على الكتاب، وعلى الكاتب لا باعتباره الشخصي، وإنما لصلته بالكتاب، فعاد الثناء على الكتاب مرة أخرى.

لهذا رأيت أن لا بأس ـ إن شاء الله ـ بنشرها، وبخاصة أنها جاءت عفواً من كاتبها بعيدة عن التكلف، جادت بها قريحته بعد انتهائه من قراءة الكتابين. . جزاه الله خيراً.

ووضعتها في آخر الكتاب ـ وجرت العادة على وضع مثلها في أول الكتاب ـ ليس تهويناً من شأنها، وإنما لأن كاتبها لم تَجُدْ خواطره بها إلا عند انتهائه من القراءة، فكان هو المكان الملائم لها.

ولعل في نشرها بعض الشكر لكاتبها، وهذا نص الرسالة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فضيلة الشيخ صالح أحمد الشامي: إن في ذينك المعينين قطوفاً دانية من سيرته وشمائله ﷺ، وهما ماء الحياة، والهداية لقلب الإنسانية الظامئ في كل عصر ومصر، وإن الأمة الإسلامية في هذه الأيام لفي أمس الحاجة للتعرف على سيرة نبيها وشمائله على وعي ودراية، لتقوية روابط الصلة معه والتأسي به عقيدة وسلوكاً، كي تبني شخصيتها على قبس من نور النبوة، وكما أوضحتم فإن للسيرة الأثر البالغ في ذلك، وأشهد من غير مجاملة أني لم أقرأ في هذا العصر على كثرة كتب السيرة والشمائل مثل كتابيكم بما احتويا من حسن العرض والتقسيم، وتجديد محمود في تناول الموضوعات، وإن الثمرة العظيمة لهذين الكتابين هي أنها تنقل القارئ إلى جوٍّ روحاني عملي، حتى لكأنه يعيش مع رسول الله ﷺ ويقتبس من هديه وشمائله، ثم هي بعد ذلك تغنيه بالتعليقات النفيسة والحقائق الإيمانية الخطيرة، فلكم بالغ الشكر والتقدير.

وَبَعْـد: فإن الكمال لله وحده، وأسأل الله أن يمن عليكم بمزيد من أوسمة الشرف في خدمة دين الله، وبمزيد من التوفيق والإخلاص والثبات على دين الله الحق إلى أن نلقاه وهو راض عنا، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وأخيراً: فإن الأرواح المتحابة في الله تتناجى وإن شطت بأجسادها النوى، وإمعاناً في ذلك أهدي لكم هذه القصيدة، وهي إن لم تأخذ حظها من الوقت لكثرة المشاغل، فقد أخذت حظها من القلب مع كثرة الحب والتقدير، ولله من قبل ومن بعد والحمد لله رب العالمين.

معينان من هدي النبي

أجاءك سفر الخير أم فاتك الخير ... فإني أرى نظماً أتىٰ دونه السِّحر

صحائفه كالبدر في ظلمة الدجى ... فقم واسأل اليقظان ينبئْكَ ما الخبر

فإنك لو طالعتَ حسن كلامه ... طربتَ وقلت الدرُّ أو دونه الدر

هو النور لو يسري على قلبِ مظلم ... من الناس لاستولى على قلبه البِر

ولما أخذت السِّفر أسعد مهجتي ... فوافى فؤاد الصَّبِّ في ثوبه البشر

تملكني شوق وحب وشفني ... من الوجد تهيام فباح به الشعر

فتى الشام يا من قد سبكت لآلئاً ... وقلدتها جيد المحب لك الشكر

جزاك إله العرش خيراً ورحمة ... وبِرًّا ونوراً ما صدى في الربا طير

فلا زال قولي ما قرأت كتابكم ... سقى أرض من أبدى جواهره القطر

وقد حاز فضل السبق في وَسْم بابه ... فجاء بفصل القول ليس به هذر

وينبيك عن فهم بديع وحكمة ... وعلم فيا ظمآن قد هطل القطر

أبا أحمد[١] والفرع يتبع أصله ... ليهنك علم حقه الشكر والنشر

تولاك رب العرش في كل لحظة ... ولا زلت بَرًّا لا يزايلك الخير

فصبراً جنود الله في كل موطن ... فناصر دين الله يتبعه النصر

ومن يصدق الرحمٰن يَصْدُقْهُ والذي ... يحارب دين الله يزهقه الضر

سقاني بماء الحب من مورد صفا ... فسَقياً له يا رب إن ضمنا الحشر

يرنحني كالغصن هزَّ نسيمه ... فيا لرياض الحب فاح بها العطر

فحيا إلى روض الحبيب محمد ... فقد فاح ريح المسك وانتشر النشر

معينان[٢] مشتقان من هدي أحمد ... وما هما إلا البحر من خلفه بحر

ولكن بعض الناس يجهل هديه ... وهل بهدى طه على نوره نكر

وكيف يطيب العيش والدين آفل ... وكيف يردُّ الغيثَ من قلبه قفر

وإنا بدين الله يا قوم فاسمعوا ... لنا الصدر دون العالمين كذا الفخر

بلى وستور الله ما قلت باطلاً ... فنحن بغير الدين يشتاقنا القبر

فإن تك في همٍّ وضيق ومحنة ... فصلِّ على المختار ينشرح الصدر

فأنت أبا الزهراء شمس هداية ... عليك سلام الله ما طلع البدر

فيا ربِّ ردَّ المسلمين لدينهم ... وصلِّ على المختار ما أشرق الفكر

وصلِّ على المختار ما ضاء كوكب ... وما لاح بعد الليل في قلبنا الفجر

جهاد بن زهير الحموية

دمشق ليلة الأحد في الأول من شعبان ١٤٢١هـ

الموافق ٢٧/١٠/٢٠٠٠م

---

(١) ظن كاتب الرسالة أن هذه كنية المؤلف لعدم معرفته به، وإنما هي: أبو تحسين.

(٢) هما: «من معين السيرة» و«من معين الشمائل» ولم يكن «من معين الخصائص النبوية» قد صدر بعد.